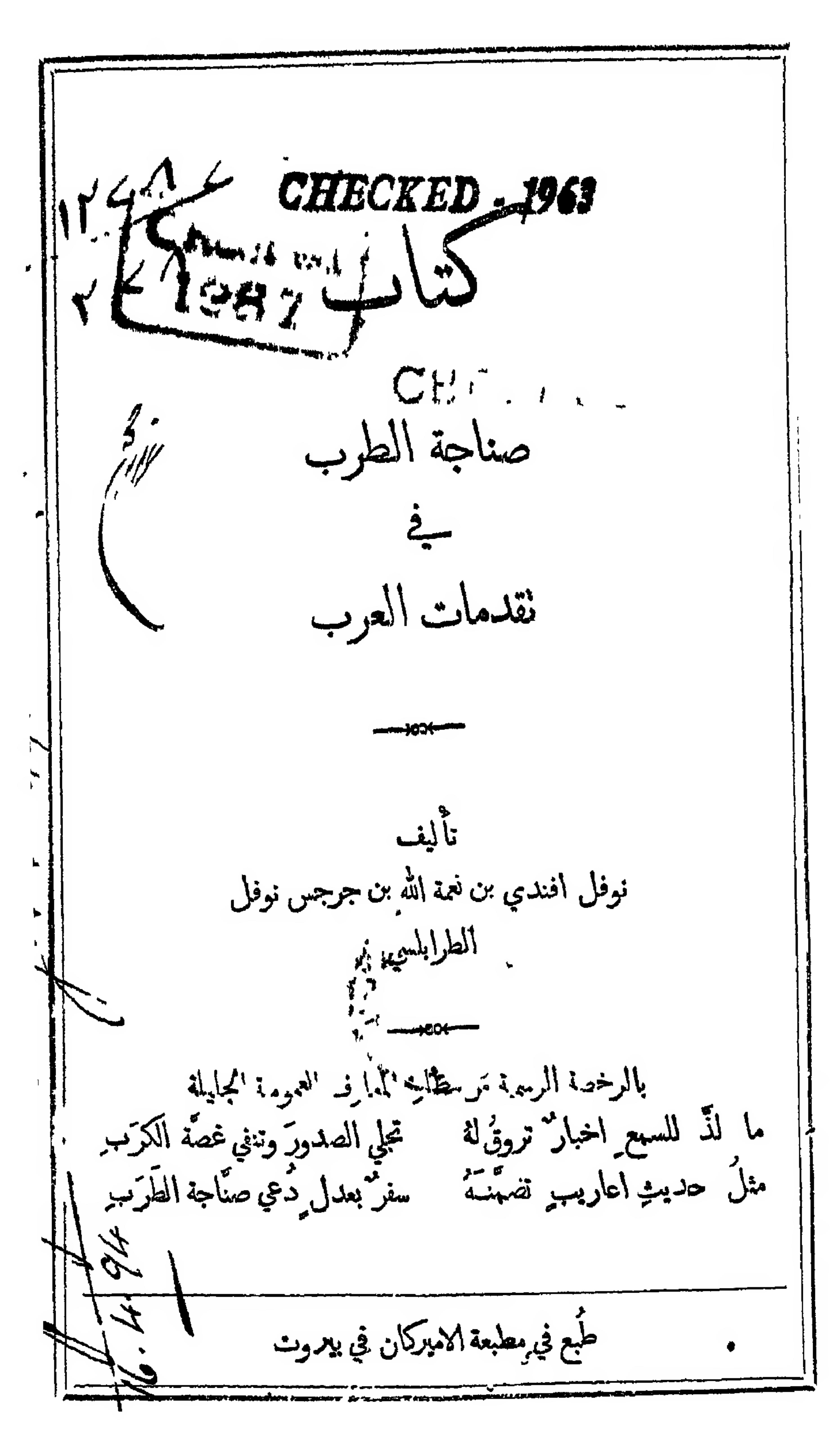


كتاب

صناجة الطرب

في

تقدمات العرب

تأليف

نوفل افندي بن نعمة الله بن جرجس نوفل

الطرابلسي

بالرخصة الرسمية من نظارة المعارف العمومية الجليلة

ما لذَّ للسمعِ اخبارٌ تروقُ لهُ   تجلي الصدورَ وتنفي غصةَ الكرَبِ

مثلُ حديثٍ اعاريبٍ تضمَّنَهُ   سفرٌ بعدلٍ دُعي صنَّاجة الطرَبِ

طُبع في مطبعة الاميركان في بيروت

بخط بعض العلماء

الكر ١٣٠ قفيز

قفيز ٨ مكوك [illegible]

المكوك ٣ صواع

الصاع ٤ امداد

المد $1\frac{1}{3}$ رطل

الرطل ١٢ اوقية

الاوقية ١٠ مثقال

المثقال ٢٤ شعيرة [illegible]

من المتوسط

وقال [illegible]

ونسب الى القاموس المحيط

القفيز ٨ مكاكيك

المكوك $9\frac{1}{2}$ صاع

او $\frac{1}{2}$ رطل الى ٨ اواقي

او $\frac{1}{2}$ قسط [illegible]

او $\frac{1}{3}$ كيلجات

الكيلجة $1\frac{4}{9}$ من

المن ٢ رطل

الرطل ١٢ اوقية

الاوقية $1\frac{2}{3}$ استار

استار $4\frac{1}{2}$ مثاقيل

المثقال $1\frac{3}{7}$ درهم

درهم ٦ دوانيق

الدانق ٢ قيراط

قيراط ٢ حبة [illegible]

[illegible] حبة

حبة $\frac{1}{48}$ من درهم

العربية [illegible]

المد ٣ [illegible] رطل

[illegible]

المقيد [illegible]

[illegible]

[illegible]

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

صنّاجة الطرب في تقدمات العرب

يتضمن عشر مقالات وخاتمة

المقالة الاولى

في مواطن العرب الحاليّة وفيهِ خمسة فصول

الفصل الاول

في الكلام على خطة العرب الاصلية المسماة جزيرة العرب

لا يخفى ان العرب كانوا يسكنون في شبه جزيرةٍ تنسب اليهم باقليم اسيا اشتهرت عندهم بجزيرة العرب لكونهم لا يفرقون بين الجزيرة وشبه الجزيرة وهي جزيرة متصلة بالبرّ وهذه الشبه الجزيرة متوسطة بين افريقية وباقي اسيا وتنقسم الى خمسة اقسام

الاول اليمن. واقسامهُ حُضْرَمَوت ومهرة وعمان وشِحر ونجران وسمّي هذا القسم اليمن لوقوعهِ عن يمين الكعبة اذا استقبلت المشرق كما ان الشام عن شمالها وقد تُضاف شِحر احياناً الى عمان قال الشاعر

دارُ سُعدَى بشِحرِ عمانِ　　قد كساها البلى المَلَوانِ

والثاني الحجاز . وفيهِ مكة ويثرب ويقال لها المدينة او مدينة الرسول وسُمّي حجازًا لانهُ حاجز بين تهامة ونجد وفي جنوبي مكة جبل ثور فيهِ الغار المشهور الذي يقول فيهِ الشيخ محمد البوصيري[1] في قصيدتهِ المعروفة بالبردة

وما حوى الغار من خيرٍ ومن كرمٍ　　وكل طرفٍ من الكُفّار عنهُ عمي
فالصدق في الغار والصدّيق لم يرِما　　وهم يقولون ما بالغار من أَرَمِ

والى شرقي المدينة جبلا طيّ وهما أجا وسلمى ذكروا انهما اسماء شخصين من العرب كان احدهما أجا يعشق سلمى وكانت العوجاء تجمع بينهما فصابوهما على هذه الجبال فسُميت باسمائهم وهذه الجبال هي المشار اليها في قول جابر بن رَألان السِنْبِسي

ونحن غلبنا بالجبالِ وعِزّها　　ونحن ورثنا غَيْثًا وبُدَينا

اراد بالجبال اجا وسلمى وهضابهما وفي قول حسّان بن حنظلة الطائي

غَضِبتَ عليّ أنِ اتّصلتُ بِطَيِّءٍ　　وانا امرؤٌ من طَيِّءَ الأَجْبالِ

اي أَجا وسلمى وعُوارض ومن جبال طيّ الجودي وهو المراد بقول الشاعر ابو صَعْتَرَة البَولاني

فما نطفةٌ من حبِّ مُزنٍ تقاذفت　　بها جَنْبَتا الجوديّ والليل دامسُ
بأَطْيَبَ مِن فيها وما ذُقْتُ طعمَهُ　　ولكنني فيما ترى العينُ فارسُ

والثالث تهامة . وهي بين اليمن جنوبًا والحجاز شمالًا

والرابع نجد . وهي ما يتصل بالشام شمالًا والعراق شرقًا والحجاز غربًا واليمامة جنوبًا وهي اطيب ارضٍ في بلاد العرب وفيها يقول قيس بن الملوح

---

(١) نسبة الى بوصير قرية في نواحي اسكندرية مصر

اقول لِصاحبي والعيسُ تَهْوِي بنا بينَ المُنيفةِ فالضِّمارِ
تمتّع من شميم عرار نجدٍ فما بعد العشيةِ من عَرَارِ (١)

وقال آخر

سقى الله نجدًا والسلامُ على نجدِ ويا حبّذا نجدٌ على القربِ والبعدِ

وفي نجد ارض العالية التي كان يحميها كُليب بن وائل بن ربيعة وافضى بذالك الى قتلهِ وانتشاب حرب البسوس التي يُضرَب بها المثل . وجبل عكاد التي لم تثبت العربية الفصيحة بعد تمادي زمان الاسلام الاّ في اهلهِ

والخامس اليمامة . وهي بين نجد واليمن وتسمّى العروض ايضًا لاعتراضها بين نجد واليمن

ومن جبال هذه الاراضي جبلا سيناء وحوريب حيث انزل الله الشريعة على موسى النبي (خر ص ١٩) وجبل فاران (تك ص ٢١ وتث ص ٣٣) وجبل هرون الذى دُفن فيهِ هرون اخو موسى النبي (عد ص٢٠: ٢٢-٢٨) والى جهة الشرق منهُ وادي موسى وهو موقع مدينة پترا القديمة قصبة العربية الصخرية عند اليونانيين والرومانيين

واشهر مدن بلاد شبه جزيرة العرب بلدة كانت تسمّى في الزمان القديم الباس والباسة والبساسة. واما الآن فتسمّى مكة ويقال بكة ايضًا بالباء الموحدة المفتوحة وقيل ان بكة يُطلق على بطن مكة لازدحام الناس فيهِ لانهُ من بكَّهُ اي زَحَمَهُ ويسمونها ام القرى ولا يدخلها الآن احد ممّن يخالف دين الاسلام فان بها المسجد الحرام الذي في وسطهِ الكعبة وطول هذه المدينة نحو ميلين وعرضها نحو ميل واحد وليس فيها نبع الاّ ماء بئر زمزم فاجرى اليها الخليفة المقتدر بالله العباسي الماء من مسافةٍ بعيدة في قناةٍ ومن اماكنها المشهورة الصفا

(١) العرار بهار اصفر ناعم طيب الريح قال الخليل هو بهار البر واحدتهُ عرارة وهو عين الثور وقيل بل هو النرجس البرّي

والمروة وهما بحف جبل ابي قبيس وكذا وادي منى وجبل عرفات والمزدلفة وبطن محسّر وغير ذالك

وقد امعن الشيخ عمر الفارض في ذكر هذه المواضع وغيرها من الحجاز بقولهِ

سقى بالصفا الربعيُّ ربعًا بهِ الصّفا وجاد باجيادٍ ثرى منهُ ثروتي
على فائتٍ من جمع جمعٍ تأسّفي وودٍّ على وادي محسّر حسرتي

وقولهِ ايضًا

يا راكبَ الوجناء بُلّغتَ المُنَى عُجْ بالحمى ان جُزتَ بالجرعاء
متيممًا تلعات وادي ضارجٍ متيامنًا عن قاعة الوعساء
واذا وصلتَ أُثيلَ سلعٍ فالنقا فالرقمتين فلعلعٍ فشظاء
وكذا عن العَلَمين من شرقيهِ مِلْ عادلاً للحلةِ الفيحاء
فلنازلي سرح المربَّع فالشُبيكة فالثنيَّة من شعاب كَداء
ولحاضري البيت الحرام وعامري تلك الخيام وزائري الخشماء
ولفتية الحرم المريع وجيرة الحيّ المنيع تلفّتي وعنائي

وايضًا

عمرك الله ان مررتَ بوادي ينبع فالدهنا فبدرٍ غادِ
وسلكتَ النقا فأودانَ ودّا نَ الى رابغٍ إلرويّ الثّمادِ
وقطعتَ الحِرارَ عمدًا لخيما تِ قُدَيدٍ مواطنِ الأمجادِ
وتدانيتَ من خُلَيصٍ فعُسفا نَ فمر الظهرانِ مَلقى البوادي
ووردتَ الجموم فالقصر فالدكناء طرًّا مناهل الوُرّادِ
واتيت التنعيم فالزهرا الزا هر نورًا الى ذُرى الاطوادِ
وعبرت الحجون واجتزت فاختر تَ ازديادًا مشاهد الاوتادِ
وبلغت الخيامَ فابلغ سلامي عن حفاظٍ عُرَيب ذاكَ النادي

يا رعى الله يومنا بالمُصلَّى حيثُ نُدعى الى سبيل الرشادِ
وقباب الركابِ بين العُلَيبيـــنِ للمأزمَينِ غوادي
وسقى جمعنـــا بجمعٍ مليًّــــا ولُيَيلاتِ الخيفِ صوبَ عهادِ
مَنْ تمنّى مالاً وحُسنَ مآلٍ فمُنائي مِنًى واقصى مرادي

وقد ورد في اشعار العرب ايضًا اسماء كثيرة لجبالٍ واودية وبقع كانوا ينزلونها لكنهم نسوا في الازمنة الاخيرة اكثرها ومن ذلك اطلاقهم الاسم على مسمّيات شتّى من الامكنة . ثم يقيدونهُ بما يضاف اليهِ كالبرقاء وهي كما لا يخفى الارض الغليظة ذات حجارة فيقولون برْقاء جُندَب وبرقاء شمليل وبرقاء الأَجدَّين ونحو ذلك الى ١٦ موضعًا وبرقة تهمد وبرقة الاحواذ وبرقة الاجداد وغير ذلك الى نحو ٩٠ موضعًا

قال الكميت بن معروف

وقد فاض غربٌ عند برقاء جندبٍ
لعينيك من عرفان ما انت تعرفُ

وقال النعمان بن المنذر

وما اعتذارك منهُ بعد ما جزَعت ايدي المطيِّ بهِ برقاء شمليلا

وقال آخر

ويومًا ببرقاءِ الأَجدَّين لو أَتى أَبيًّا مقامي لانتهى او لجرَّبا

وقال طرفة بن العبد البكري

لخَولَةَ اطلالٌ ببرقة تهمدِ تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

وقال ابن مقبل

طرِبتَ الى الحيّ الذين تحملوا ببرقةِ احواذٍ وانتَ طروبُ

وقال آخر

لمن الديار ببرقة الاجدادِ عفّت سوار رسمها وغوارِ

وكذلك لفظة ثبير فانها اسم لعدّة جبال بقرب مكة غير ثبير الذي ذكرهُ امرؤ القيس الكنديّ بقوله

كأنّ ثبيرًا في عرانين وبلهِ كبير اناسٍ في بجادٍ مُزّملِ

ومن ذالك ثبير الزنج وثبير الاعرج وثبير الخضراء وثبير النصع وثبير غينا وثبير الاحدب ويقال لها الاثبرة

قال صاحب الاصل العلامة الدكتور فان ديك انهم يتصرفون في هذه الاسماء على وجوهٍ شتّى، نحو ذي سلم وذي الغضا وذي قار وذي طاوح وكذلك ذات الشيح وذات الحرمل وذات عرق قال صاحب البردة

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سلمِ مزجتَ دمعًا جرى من مقلةٍ بدمِ

وقال الفارض

أنارُ الغضا ضاءت وسلمى بذي الغضا ام ابتسمت عمّا حكتهُ المدامعُ

وقال بكير بن الأصمّ التغلبي

هم يوم ذي قارٍ وقد حَمِسَ الوغى خاطوا لهامًا جحفلاً بلُهامِ

وقال آخر

اذا نزل الخيام بذي طلوحٍ سُقيتِ الغيثَ ايتها الخيامُ

وقال الفارض ايضًا

وبذات الشيح عني ان مررت بحيٍّ من عريب الجزع حيّ

وقال عنترة العبسي

طال الثواء على رسوم المنزلِ   بين الكليل وبين ذات الحرملِ

ومن ذلك ايضاً بطن قوّ وبطن انف وبطن مرّ وبطن اياد وبطن حرْ الى غير ذلك نحو ٣٠ اسماً قال امرء القيس

سما لك شوقٌ بعد ما كان اقصرا   وحلّت سليمى بطن قوٍّ فعرعرا

ومنهُ ايضاً حجر اليمامة وحجر الراشدة وحجر بني سُليم وحجر دوس وحجر ايضاً وادٍ في بلاد عذرة وغطفان وموضع آخر في بلاد اليمن

ومنهُ ايضاً اسم دارا لمدينة في الجزيرة ووادٍ في بلاد بني عامر ويقال دارة بالتاء ايضاً قال بعضهم ذكر ياقوت في المشترك فوق الاربعين منها وانهاها الفيروزابادي الى ما فوق المئة . وقد ألّف الشيخ ابو الحسين احمد بن فارس كتاباً في المواضع المعروفة بهذا الاسم

اما مدينة جدّة فهي على البحر الاحمر وهي فرضة مكة ومدينة الحديبيّة قيل بعضها في الحل وبعضها في الحرَم وتبوك على نصف المسافة بين المدينة ودمشق وفيها كانت الواقعة العظيمة بين المسلمين والروم

ودومة الجندل قيل كان رجل اسمهُ الأُكَيدِر في بلدةٍ لهُ قرب عين التمر في العراق يقال لها دومة وكان يزور اخوالاً لهُ من بني كلب باطراف الشام فبينما هو في بعض الطريق ظهرت لهُ مدينة متهدمة لم يبقَ الاّ بعض حيطانها وكانت مبنية بمكان يقال لهُ الجندل فاعاد الأُكيدر بناءها وغرس فيها الزيتون وسماها دومة الجندل تفرقةً بينها وبين دومة العراق فتحها خالد ابن الوليد سنة غزوة تبوك التي مرّ ذكرها وكان بنو كلب المذكورون ينزلون يومئذٍ بها ومنهم زهير بن جناب الكلبي وهو القائل في غزوتهم لبني بكر وتغلب على ماء الحنيّ

اين اين الفرار من حذر المو   تِ واذ تتّقون بالاسلابِ

اذا أَسرنا مهلهلًا واخاهُ   وأَبنُ عمرٍو في القيد وأَبنُ شهابِ
وسبينا من تغلبٍ كلَّ بيضاء   رقود الضحى برُودِ الرضابِ

وزهير بن شريك الكلبي وهو القائل لزوجته اسماء

أَلا اصبحت اسماء في الحجر تعذلُ   وتزعم اني بالسفاه موكَّلُ
فقلت لها كفي عنابك نصطبح   والَّا فبيني فالتغرب أَمثلُ

والحِجر بكسر الحاء المهملة هي الى الجنوب من دومة الجندل المذكورة تنزلها حجاج الشام قبل كانت هناك ديار ثمود واما الحَجر بفتح الحاء فهي في اليمامة بقرب مدينة اليمامة وهما منازل بني حنيفة وبعض مضر وبنو حنيفة هولاء من بكر بن وائل الذين منهم مسيلمة الكذاب وهم من العرب المستعربة من قبيلة ربيعة الفَرَس التي منها الامام ابو القاسم الحريري صاحب المقامات المشهورة وكان من قرية يقال لها المشان فقال فيهِ بعضهم لما عجز في ديوان الانشاء

شيخٌ لنا من ربيعة الفَرَسِ   ينتف عثنونهُ من الهَوَسِ
انطقهُ الله بالمشان كما   رماهُ وسطَ الديوان بالخَرَسِ

ومن اليمامة حَذام الجديسية وكانت من مكانٍ هناك يقال لهُ جوٌّ فلُقّبت بزرقاء جوٍّ لزرقةٍ كانت في لونها وهي التي يقول فيها شاعرهم

اذا قالت حَذامِ فصدّقوها   فان القول ما قالت حذامِ

واما تيما فكانت حاضرة طي وبها الحصن المعروف بالابلق الفرد وفيهِ يقول السموأَل بن عاديا

اذا المرء لم يدنس من اللوم عِرضهُ   فكلُّ رداء يرتديهِ جميلُ

الى ان قال

لنا جبلٌ يحتلّهُ مَن نجيرُهُ   منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

هو الابلق الفرد الذي شاع ذكرهُ   يعزُّ على مَن رامَهُ ويطولُ
رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ   الى النجم فرعٌ لا يُنال طويلُ

وبقرب شط البحر الى غربي الحجر مائلاً الى الجنوب خراب مَدْيَن وهي التي يقول فيها كُثيِّر عزَّة

رهبان مَدْيَن والذين عهدتهم   يبكون من حذر العذاب قعودا
او يسمعون كما سمعت كلامها   خرُّوا لعزَّةَ رُكَّعًا وسجودا

وهناك بئر يقال انها هي التي سقى منها موسى النبي ساشمة رعوئيل كاهن مديان (خرص ٢)

والينبع وهي مدينةٌ بقرب البحر كانت منزلاً لبني الحسن بن علي بن ابي طالب ولها فرضة على البحر نحو مرحلة منها وبقربها جبل رضوى الذي منهُ يُحمل حجر المسنّ الى الآفاق واليهِ اشار صفي الدين الحليّ بقولهِ

وحقِّكَ أني قانعٌ بالذي تهوى   وراضٍ ولو حملتني في الهوى رضوى

اما المدينة فهي التي اشار اليها الفارض بقولهِ

تيقَّنتُ ان لا دار من بعدِ طيْبَة   تطيب وان لا عزَّةٌ بعد عزَّةٍ

وخيبر فيها قبائل يهود متعربة يوصفون بالمكر والخبث وكان بها السموأل بن عاديا الذي مرّ ذكرهُ قيل كانت للعمالقة ثم صارت لبني عنزة بن اسد بن ربيعة وهي ردية الهواء تولّد الحمّيات وحمّاها موصوفة بالشدَّة قال الاخفش

فمَن يكُ امسى في بلادٍ مقامهُ   يسائل اطلالاً بها لا تجاوبُ
وقفتُ بها ابكي وأشعَرُ سخنةً   كما اعتاد محمومًا بخيبر صالبُ[1]

---

(١) يريد بالصالب الحمى التي يكون معها صداع

وخيبر هذه كثيرة النخيل يُحمل منها التمر الى الجهات القصوى . قال خارجة بن ضرار المرّيّ

أَخالدُ هلاَّ اذ سَفِهتَ عشيرةً   كففتُ لسان السوء ان يتدعَّرا

فانك واستبضاعك الشعر نحونا   كمستبضعٍ تمرًا الى ارض خيبرا

وعجز البيت الثاني مثل مضروب بين العرب

واما الجار فهي الى الجنوب الشرقي من المدينة على نحو يومٍ وليلة وهي فرضة المدينة واليها يُنسب جماعة منهم عبد الملك بن الحسن الجاري الاحول والى الجنوب الشرقي منها على نحو مرحلة ماء يقال لهُ بدر وبقربهِ قرية بدر التي كان فيها اليوم المشهور بين المسلمين والمشركين من قريش وكانت النصرة للمسلمين فسمّي بدر القتال وبدر الموعد وكان ممّن قتل ذلك اليوم بدر بن الاسود بن زمعة بن المطلب بن نوفل القرشيّ وكان مشركًا فقال ابوهُ يرثيهِ

أَ تبكي ان يضلَّ لها بعيرٌ   ويمنعها من النوم السهودُ

فلا تبكي على بكرٍ ولكن   على بدرٍ تقاصرت الجدودُ

وعلى نحو منتصف الطريق بين الجحفة التي هي الآن خراب وبين مكة عُسفان ويقال لها مدرج عثمان وهي المشار اليها بقول عنترة العبسي

كأنها يوم صدَّت ما تكلمنا   ظبيٌ بعسفان ساجي الطرف مطروفُ

واما الطائف فهي الى شرقي مكة ببطن من جبل غزوان وهو شديد البرد كثير الفواكه لِما في جوارهِ من البساتين التي تسقيها العيون والجداول المنحدرة من الجبال ويقال انها سُميت بذلك لانها طافت على الماء في الطوفان او لانَّ جبريل طاف بها على البيت لانها كانت بالشام فنقلها اللهُ تعالى الى الحجاز بدعوة ابرهيم واهلها من قبيلة ثقيف الذين منهم الحجاج بن يوسف الثقفي وهم من قيس عيلان وقيل من اياد وقيل هم من بقايا ثمود .

وبقرب الحذيين اليمامة وتهامة عكاظ التي كان يقوم بها سوق سوف يأتي الكلام عليهِ

واما صنعاء اليمن فهي من اشهر مدن بلاد العرب وانزهها وهي قصبة بلاد اليمن قيل انها تشبه دمشق لكثرة مياهها واشجارها وهي معتدلة الهواء حسنة الاسواق واسعة التجارة وكانت كرسي ملوك اليمن في الزمان القديم ولهم بها قصر عظيم يقال لهُ غمدان سوف يأتي الكلام عليهِ

والى الجنوب الشرقي من صنعاء موقع مدينة مارب ويقال لها سبا تسمية باسم عبد شمس الملقَّب سبا . قيل انهُ بنى هناك سدًّا عظيمًا فساق اليهِ السيول من امدٍ بعيد وبنى جانبًا كبيرًا من المدينة على السد ففي بعض السنين تراكمت الامطار ودفعت ذلك السد فهلك بذلك خلق كثير وسمّيت هذه الحادثة سيل العَرِم الذي تفرَّق بهِ عدّة قبائل من العرب . وفي تلك النواحي كتابات على الصخور بالخط المسند المعروف بالخط الحميري وكان مجهولاً قبل الآن الى ان اهتدى الى معرفتهِ في سنة ١٨٧٥ م بعضُ السياح من الفرنساوية والانكليز الذين طافوا اكثر انحاء هذه البلاد بواسطة مقابلتهم ما هو منقوش منهُ على الآثار التي اكتشفوها بالخط الحبشي والكوفي والفينيقي والعبراني (راجع سياحة المعارف صفحة ٥٠١) وزعم بعضهم انها من عصر عادٍ وثمود وان نسبتها الى حِميَر وهمٌ مبنيٌّ على ان ثمود طردهُ حمير من اليمن فنزل في الحِجر

والى جهة الشمال الغربي من صنعاء صعدة التي بنى الحريري عليها مقامة الصعدية التي يقول فيها

مَن ضامَهُ او ضارَهُ دهرُهُ   فليقصد القاضيَ في صعده
سماحُهُ أَزْرَى بمَن قبلَهُ   وعدلهُ اتعب من بعده

والى الغرب من صنعاء على نحو مرحلة من شط البحر الاحمر مدينة زبيد ولها فرضة على البحر تسمّى غلافقة والى الجنوب منها على شط البحر ايضًا مدينة المخا

التي يُجلب منها البن وعلى اربع مراحل من المخا بيت الفقيه وهي من الاراضي التي ينبت بها البن ايضًا فتاتيها التجار من جميع الاقطار

واما مدينة عدن فهي على شط بحر الهند ولها مَرساة امينة للسفن كانت لها تجارة واسعة بين الشرق والغرب لكنها الآن لم يبقَ لها اعتبار والاراضي التي حولها جديبة يابسة وهي بيد الانكليز محطًا لمراكبهم الجارية بين الهند والسويس

ويتبع اليمن جزيرة سقطرة التي يُجاب منها الصبر السقطري المشهور. والى هنا تنتهي حطة اليمن

واما مدينة مسقط فهي قصبة بلاد عمان

والاحساء قصبة بلاد البحرين وهي ذات مياهٍ جارية وفيها ينابيع شديدة الحرارة ونخيلها يقارب غوطة دمشق في الكثرة ويوسقون التمر الى نواحي اليمامة ويستبدلونهُ بالحنطة

والى شمال الاحساء على شط خليج العجم القطيف وهناك مغاص للؤلؤ وبينها وبين كاظمة ٤ ايام وبقربها في خليج العجم جزائر البحرين بها مغاوص لؤلؤ ليس لها نظير في العالم

واما كاظمة المذكورة فهي على خليج العجم الى الجنوب من الابلّة وربما تُحسب من العراق وقد ذكرها صاحب البردة بقولهِ

أم هبتِ الريحُ من تلقاء كاظمةٍ
واومضَ البرقُ في الظلماء من اضمِ

واما مدينة اليمامة فهي الى الجنوب من الاحساء بميلةٍ الى الغرب وقد سبق ذكرها

ومن المدن القديمة ببلاد العرب المَهجَم وهي الى الشمال الشرقي من زبير والى الجنوب من زبير حصن تعز كان مقام ملوك اليمن وهو على جبل مطل على التهايم واراضي زبير والى شرقي صنعاء على شط جون داخل البحر مدينة

ظفار وهي قصبة بلاد شِحر وبينها وبين الهند تجارة وفي اراضيها كثير من شجر الهند كالنارجيل والتنبل والى شمالي ظفار رمال الاحقاف وهي بلاد عاد

واما نجران فهي على جبال من شمال اليمن الى شمال صعدة تبعد عن صنعاء نحو ۱۲ مراحل وكانت اراضيها لقبيلة همدان وهمدان هو كهلان بن سبا

الفصل الثاني

في الكلام على بلاد الجزيرة وتسمى ديار بكر وديار ربيعة وديار مُضر

قيل انهُ بعد سيل العرم الذي سبق الكلام عليهِ رحل ثلاث قبائل من عرب اليمن وهم ربيعة وبكر ومُضَرَ وسكنت في شمال ما بين النهرين (يعني نهر دجلة والفرات وتسمَّى تلك الاراضي بالجزيرة) فتسمَّت حينئذٍ تلك النواحي ديار بكر وديار ربيعة وديار مُضَر قال الشيخ صفي الدين الحلي

هوًى يقتادني بديار بكرٍ وآخَرُ نحو ارض الجامعَين
ساسرع نحو راس العين خطوًا واقصدها على راسي وعيني

وفيها يجري نهر الخابور وعلى جانبيهِ اشجار كثيرة اشار اليها قول الخارجية في رثاء ابن طريف

أيا شجر الخابور مالك مورقًا كأنك لم تجزع على ابن طريفِ

ومن بقايا بني مُضَر المذكورين العرب الطائية وطي قبيلة حاتم بن عبد الله المشهور بالكرم واوس بن حبيب المعروف بابي تمام الطائي الشاعر المشهور

ومن مدنها سروج واليها يُنسب ابو زيد السروجي الذي بنى الحريري مقاماتهِ عليهِ . ومدينة الرقة ويقال لها ايضًا البيضاء واليهـــا يُنسب الامام البيضاوي صاحب تفسير القرآن

والرحبة وتُنسب الى مالك بن طوق احد قواد الرشيد العباسي فيقال لها رحبة مالك

وقرقيسيا وهي مدينة هند بنت الريان التي قتلت جذيمة الابرش وتعدّ من ديار مُضر

ومدينة دارا التي يقول فيها بعض الشعراء

ولقد قلتُ لرحلي بين حرّان ودارا
اصبري يا رحلُ حتّى يرزق اللهُ حمارا

ومدينة نصيبين من ديار ربيعة مختصة بالورد الابيض ويُجلب منها الى الآفاق ولا توجد فيها وردة حمراء

وجزيرة ابن عمر وهي مدينة صغيرة على غربي دجلة يُنسب اليها طائفة كبيرة من اهل العلم منهم بنو الاثير وهم المبارك صاحب كتاب جامع الاصول في احاديث الرسول ونصر الله صاحب الانشاء والبلاغة وعلي صاحب التاريخ فيقال لكلٍ منهم الجزري نسبةً الى هذه الجزيرة

وعانة وهي بلدة بالقرب من موقع بابل القديمة موصوفة بجودة الخمر قال الشاعر

أَمِن بابلٍ ام من لواحظك السحرُ ومن عانةٍ ام من مراشفك الخمرُ
وهل ما اراهُ الموت ام حادث النوى
وهل هو شوقٌ بين جنبيَّ ام جمرُ

وتكريت واليها يُنسب جماعة من العلماء وسميت بتكريت بنت بابلك وهي الآن خراب .

الفصل الثالث

في الكلام على بلاد العراق

قال ابو الفداء انما سمّي العراق عراقًا لانهُ سفل عن نجد ودنا من البحر آخذًا عن عراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها والعراق على ضفتي دجلة مثلما بلاد مصر على ضفتي النيل

وحكى ابن خلدون المغربي في كلامهِ على الطبقة الثالثة من العرب وهم العرب التابعة للعرب ان هذه الامة من عرب البادية اهل الخيام الذين لا اغلاق لهم لم يزالوا من اعظم العالم واكثر اجيال الخليقة يكثرون الامم تارة وينتهي اليهم العزّ والغلبة بالكثرة فيظفرون بالملك ويغلبون على الاقاليم والمدن والامصار . ثم يهلكهم الترفه والتنعم ويغلبون عليهم ويقتلون ويرجعون الى باديتهم الى ان قال وجعلوا طلب رزقهم في معاشهم بترصد السبيل وانتهاب متاع الناس وكان في الطبقة الاولى منهم العمالقة. وفي الثانية التبابعة ولهم وقائع وحروب مع بختنصّر ملك بابل وهو الذي اسكن بعضهم في الحيرة وبعد موتهِ انتقلوا منها الى الانبار فانتشروا بعد ذلك بارض العراق والشام

اما الحيرة المذكورة فهي مدينة على حافة البادية وحافة سواد العراق قيل ان تبعًا لما سار من اليمن الى خراسان وانتهى الى موضعها ليلاً فتحير ونزل وامر ببنائها فسميت الحيرة وصارت مقام الملوك اللخميين من آل النعمان بن المنذر وبها تنصّر المنذر بن امرء القيس وبنى بها الكنائس العظيمة واقام قصرًا سماهُ الزوراء واليهِ اشار النابغة الذبياني اذ قال

وتسقى اذا ما شئتَ غيرَ مصرَّدٍ بزوراء في آكنافها المسك كارعُ

وكانت مدينة عظيمة ذات زرعٍ وانهار فلما ظهر الاسلام افتتحها ابو بكر الخليفة الاول بالامان فمن ثمَّ صارت دار الخلافة الاسلامية مدَّةً يسيرة الى ان انتقل منها التخت الى الانبار

والانبار مدينة في العراق ايضًا على شرقي نهر الفرات بينها وبين بغداد ١٠ فراسخ قيل انها تسمت بهذا الاسم لان الملوك الاكاسرة كانوا يخزنون فيها الطعام وقد نسب اليها جماعة كثيرة من اهل العلم في كل فنّ

ومن ثمَّ شرع عمر بن الخطاب خليفة ابي بكر المشار اليهِ وخلفاؤُهُ من بعدهِ في بناء بلاد بهذه البقعة التي اختاروها مركزًا لاقامتهم وكانوا ينقلون كرسي الخلافة الى البعض منها فغصَّت بالسكان وعمرت وتزينت بالعلوم والفنون التي ادخلوها فيها وازهرت

واول مدينة بناها المسلمون على ما ذكرنا كانت البصرة في زمن عمر بن الخطاب المقدَّم ذكرهُ ومعنى البصرة الحجارة الرخوة وينسب اليها جماعة من اهل الادب منهم الشيخ محمد ابو القسم الحريري صاحب المقامات المشهورة . وفي الجنوب الغربي منها وادٍ يقال لهُ وادي النساء لان النساء يخرجنَ اليهِ ويجتنينَ منهُ الكما وفيها مربد البصرة المشهور وسوف ياتي ذكرهُ في محلهِ

ومدينة الكوفة مصَّرها سعد بن ابي وقاص احد الصحابة في زمن خلافة عمر المشار اليهِ ايضًا ونقل اليها اهل الحيرة وقيل هي على ذراعٍ من الفرات ولعلهُ المسمى بالخورنق قال ابو الفداء . الخورنق نهرٌ بارض الكوفة وهو ايضًا قصرٌ بها اه . وقد لهجت شعراء العرب كثيرًا بذكر الخورنق قال ابو العتاهية

لهفي على الزمن القصيرِ بين الخورنق والسديرِ

وقال الاسود بن يعفُر

اهل الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذي الشرفات من سندادِ

وقال المنخل اليشكري

ولقد شربت من المُدا مة بالصغير وبالكبيرِ
واذا انتشيتُ فانني ربُّ الخورنق والسديرِ
واذا صحوتُ فانني ربُّ الشُوَيهةِ والبعيرِ

وبين الكوفة والقادسية موضع الواقعة الشهيرة التي كانت بين العرب والفرس وتُعرف بيوم القادسية واليها اشار ايضًا بقولهِ

ويوم القادسيَّة قد دَعَتْنا الى تبديد شملهم دواعي

وبينها وبين واسط ايضًا جرت واقعة اخرى بينهما وهي من اعظم وقائع العرب وفيها يقول بكير بن الاصمّ الثعلبي

هم يومَ ذي قارٍ وقد حَمِسَ الوغى خلطوا لهامًا جحفلاً بلهامِ
ضربوا بني الاحرار يومَ لَقُوهُمُ بالمشرفيّ على صميم الهامِ

والكوفة مولد احمد بن الحسين الشاعر المعروف بالمتنبيّ المولود في سنة ٣٠٢ للهجرة (سنة ٩١٥ م) وبالقرب منها مسجد عليّ وهو مدفن الامام علي بن ابي طالب واليهِ يحج كثيرون من شيعة الفرس وغيرهم وفي هذه الاراضي نشأت الطائفة الباطنية والقرامطة

ومدينة واسط بناها الحجاج في ايام خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٨ للهجرة (سنة ٦٩٧ م) وسماها بهذا الاسم لكونها متوسطة بين البصرة والكوفة

ومدينة بغداد بناها ابو جعفر المنصور الخليفة العباسي وسوف ياتي الكلام عليها في محلهِ

ومدينة سرَّمن رأى التي خففها الناس وقالوا سامري وعلى ذلك قول ابي الطيب المتبي في كاتبٍ كان من اهلها عند سيف الدولة العدوي

أَسامريُّ ضحكةُ كلِّ راءٍ فطنتَ وكنت أغبى الاغبياء

ومن انهر العراق نهر يُعرف بنهر عيسى نسبةً الى عيسى بن عبد الله العباسي

والحلّة مولد الشيخ صفي الدين بن سرايا الحليّ صاحب الديوان المشهور في الشعر والمحبوكات الارتقية قيل ان هذه المدينة بُنيت من حجارة بابل القديمة وموقع بابل الى الشرق منها وهي على الجنوب الغربي من بغداد

والقادسية وهي على حافة البادية وحافة سواد العراق

وقَطربُّل الى جهة بغداد بالقرب من بليدةٍ يقال لها عُكبَرَى كانت مجمعًا للخلفاء ومألفًا لاهل القصف وفيها يقول محمد بن جعفر الحليّ

يقولون ها قَطْرَبُّلٌ فوق دجلةٍ　　عدمتك الفاظًا بغير معاني
اقلّب طرفي لا ارى القفص دونها　　ولا النخل بادٍ من قرى البَرَدانِ

وهي تُوصف بجودة الخمر حتى صار يُنسب اليها قال المتنبي

بلاد اذا زار الحسان بغيرها　　حصَى تُربها نَقَّبنَهُ للمخانقِ
سقتني بها القَطرَبُّليّ مليحةٌ　　على كاذبٍ من وعدها ضوءُ صادق

وقال ابو النواس الحكمي حكايةً عن الخمر

قَطْرَبُّلٌ مربعي ولي بقرى الكر　　خ مصيفٌ وأُمّيَ العنبُ

والمداين على بعد مرحلةٍ من بغداد لجهة الجنوب وكانت تسمّى قديمًا طيسيفون وكان فيها بقايا ايوان كسرى قيل ان سعتهُ من ركنهِ الى ركنهِ ٩٥ ذراعًا وارتفاعهُ ٨٠ ذراعًا

وبين بغداد وواسط بلدة يقال لها جبل ينسب اليها خلق كثير منهم ابو الخطاب الشاعر الجبلي كان بينهُ وبين الشيخ ابي العلا المعرّي مشاعرة وفيهِ قال المعرّي قصيدتهُ المشهورة

غير مُجدٍ في ملتي واعتقادي　　نَوحُ باكٍ ولا ترنُّم شادِ

الفصل الرابع

في الكلام على اراضي الشام

قال ابو الفداء انما سُمي الشام شاماً لان قوماً من بني كنعان تشاءموا اليهِ اي تياسروا لانهُ عن يسار الكعبة وقيل سُمي شاماً بسام بن نوح واسمهُ بالعبرانية والسريانية شام وقيل سمّي شاماً لبقعٍ فيهِ حمر وبيض وسود تشبيهاً لها بالشامات وهي تجمع على شام كما تجمع الهامة على هام اه . وهذا الاسم لم يُطلق على هذا القسم الأ منذ افتتاحهِ من العرب المسلمين سنة ٦٣٢ م وكان يُطلق عليهِ قبل ذلك اسم سورية وقد اعادت لهُ هذا الاسم الآن الدولة العلية العثمانية منذ جمعت كثيرًا من اقسامهِ الى ولاية واحدة اطلقت عليها اسم ولاية سورية

وقد ذكرنا في الكلام على العراق ما حكاهُ ابن خلدون المغربي عن سبب سكنى العرب في هذا القسم واسنادهُ ذلك الى بختنصَّر ملك بابل وقال ابو الفداء ان قوماً من اليمن من بني الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن ادد ابن زيد بن كهلان بن سبا تفرقوا من اليمن بسيل العَرِم ونزلوا على ماءٍ بالشام يقال لهُ غسّان فنُسبوا اليهِ

وغسّان هذه قرية من قرى حوران التي هي الى الجنوب الشرقي من دمشق وهناك قرية أُخرى يقال لها بُصرَى ذكر ابو الفداء انها من ديار فزارة وبني مرّة

ومن قرى حوران ايضاً اذرع المذكورة في التوراة (يش ص ١٣ : ٢١) وكانت العرب تسمّيها اذرعات قال امرء القيس

تنورتها من اذرعاتٍ واهلها ... بيثرب ادنى دارها نظرٌ عالي

ومنها ايضاً السويداء التي فيها بنى النعمان بن عمرو بن المنذر من ملوك غسّان قصراً وفيهِ يقول النابغة

لهم شيمةٌ لم يعطِها الله غيرهم من الناس والاحلام غير عوازبِ
ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهنّ فلول من قراع الكتائبِ
تخيرنَ في ازمان يوم حليمةٍ الى اليوم قد جربنَ كل التجاربِ

ومنها قولهُ في عمرو المذكور

عليَّ لعمرٍو نعمةٌ بعدَ نعمةٍ لوالدهِ ليست بذاتِ عقاربِ

والى شرقيّ جبل حوران المذكور ارض البثنية المسماة في الكتب المقدسة ارض باسان وسماها ابو الفداء البثنية وقال انها كانت لايوب الصديق ملكاً ومن قراها صلخد ويقال ايضاً صرخد وهي بلدة ذات قلعة مرتفعة يقول ابو الفداء انها قاعدة بني هلال

واكثر الاماكن المشهورة بهذه الاراضي في الزمان القديم هي الآن خراب لكن اسماؤُها باقية وابنيتها متينة من الحجر الاسود الذي يُجلب الى سائر البلاد لارحية الطواحين وسقوفها من اعمدة حجرية مكان الجسور عليها صفائح من الحجارة مكان الالواح قيل ان في بُصرَى بيت يُنسب الى سركيس الراهب الذي يقال لهُ بُحيراء مركَّب من ٥ حجارة لا غير اربعة منها حيطان والخامس سقف ولهُ باب من الحجر ايضاً سهل الفتح والاغلاق كباب الخشب واكثر ابياتها تحتها ابيات أُخرى عميقة في الارض

وكانت ملوك غسّان التي مرَّ ذكرها عمالاً للقياصرة على عرب الشام وقبل ظهور الاسلام كانت دمشق تخت مملكتهم وهم الذين يقول فيهم حسّان بن ثابت الانصاري

اولاد جفنة حولَ قبر ابيهم قبرِ ابن مارية الكريم المُفضلِ
يسقون مَن وردَ البريصَ عليهمِ بَرَدَى يصفّقُ بالرحيق السلسلِ

وبردى المذكور في الشطر الاخير هنا هو نهر يسقي غوطة دمشق التي فيها نفس المدينة وهي غوطة حسنة جدًّا واحدى جنات الارض الاربع المفضلة على غيرها من المنتزهات وثانيها شعب بوان وثالثها نهر الابلة ورابعها سغد سمرقند[1] قال الشيخ برهان الدين القيراطي يصف وادي بردَى

اشتاق في وادي دمشق معهدًا ... كلُّ الجمال الى حماهُ ينسبُ
ما فيهِ الاَّ روضةٌ او جوسقٌ ... او جدولٌ او بلبلٌ او ربربُ
وكانَّ ذاك النهر فيهِ معصمٌ ... بيد النسيم منقشٌ ومكتبُ
فاذا تكسَّر ماؤُهُ ابصرتهُ ... في الحال بين رياضهِ يتشعبُ
وشدَت على العيدان ورْقٌ اطربت ... بغنائها من غاب عنهُ المطربُ
فالورْق تشدُو والنسيم مشبب ... والنهر يسقي والحدائق تطربُ
وحلت بقلبي من اعالي جنةٍ ... فيها لارباب الخلاعة ملعبُ
ولكم طربت على السماع بجنكها ... وغدا بربوتها اللسان يشببُ

ومدينة دمشق هي من المدن القديمة جدًّا يقال انها سمّيت بذلك نسبةً الى بانيها دمشاق بن كنعان او دامشقيوس فتحها المسلمون سنة ١٤ للهجرة (سنة ٦٣٥ م) في خلافة عمر بن الخطاب تحت لواء خالد بن الوليد ونقل اليها كرسي الخلافة من الكوفة في زمن معاوية بن ابي سفيان ولا زال بها الى ان انقرضت دولة بني أُمية وقامت دولة العباسيين ونشأ بها جماعة من العلماء واهل الادب منهم الشيخ محمد بن مالك الاندلسي صاحب الالفية المشهورة في النحو والشيخ محمد الحريري صاحب الحاشية على شرح الفاكهي للقطر والشيخ حسن البوريني شارح ديوان ابن الفارض والشيخ عبد الغني النابلسي وعائشة الباعونية

---

(١) شعب بوان المذكور هو غوطة ببلاد فارس بين محل يقال لهُ ارجان ومحل آخر يسمّى النوبندجان وسغد سمرقند هو ببلاد بخارا واما نهر الابلة فهو شعبة من نهر دجلة تتفرع في اراضي البصرة

صاحبة البديعية المشهورة وكثيرون من العلماء والشعراء قيل ان في مائها سرية لدفع الجذام عن اهلها فلا يصيبهم البتة وكسر عاديتهِ عن الغريب المصاب بهِ فانهُ اذا اقام فيها توقف بهِ في الدرجة التي يكون قد بلغ اليها فلا يزيد عليها وكل ذلك وهمٌ

وفي وادي نهر بردى المذكور قرى كثيرة ومتنزهات كالفيجة وبلودان والزبداني والصالحية التي يقول فيها الشيخ عبد الغني النابلسي

الصالحيَّة جنَّةٌ والصالحون بها اقاموا

وقارة والنبك وهما اعدل مكانين في تلك الديار حتى يُضرب المثل بجودة هوائهما ومائهما وقد لهجت بهما الشعراء قال بعضهم

اذا هاجت الرمضاء ذكراكِ برَّدت
حشائي كأني بين قارة والنبكِ

والنيرب والربوة والمنشار وفي ذلك يقول صلاح الدين الصفدي

انهض الى الربوة مستمتعًا تجد من اللذَّة ما يكفي
فالطير قد غنَّى على عودهِ في الروض بين الجنك والدُّفِّ

وبيت راس التي ماتت بها حبابة جارية يزيد بن عبد الملك الاموي فمات كمدًا عليها وذلك انهُ نزل في بيت راس للتنزُّه فقال زعموا انهُ لا يصفو لاحدٍ عيشةٌ يومًا كاملًا وسأُجرب ذلك ولما اصبح امر ان لا يُرفع اليهِ شيءٌ من مهمات الملك الى الليل وخلا بحبابة تغنيهِ الى ان حضر الطعام فجلس للاكل وهي معهُ وكان قد قُدِّم اليهِ من رمان بيت راس وهو عظيم الحبّ في الغاية فشرقت حبابة بحبةٍ منهُ وماتت قبل انتصاف النهار فجزع عليها جزعًا شديدًا افضى بهِ الى الموت في ذلك الشهر

اما بعلبك فليس لها اعتبار في هذه الايام الاَّ لسبب آثار ابنيتها القديمة

واما في الزمان القديم فكانت مدينةً عظيمة من احصن المدن وامنعها ولم تزل على جانب من العظمة بعد استيلاء المسلمين الى نحو سنة ٧٠٠ هجرية (سنة ١٣٠٠ م) وكان فيها اسواق كثيرة وجوامع وحوانيت ولها سور عظيم تراكم عليهِ السيل مرةً من الجهة الجنوبيّة فدفعهُ وطمحت المياه على المدينة فاخربت منها ما ينيف على ١٥٠٠ بيت واهلكت خلقًا كثيرًا والآن قد بقي منها قلعة عجيبة البناء في اركانها واعمدتها وحجارتها العظيمة الهائلة وفيها كثير من الاعمدة مسقوفةً بالواح حجرية وعليها نقوش كثيرة مختلفة الاشكال يصعد الى سطحها بلولب من جوف بعض الاركان وعليها آثار يقال لها قصر بنت الملك وجميع هذه الابنية محكمة الوصل حتى كانها حجر واحد . وقال بعض الذين يترددون الى هذه القلعة انهُ لا يدخلها مرةً الاَّ ويرى فيها شيئًا جديدًا لم ينتبه لهُ قبلاً لكثرة ما فيها من الصنائع والاعمال غير انها الآن تهدمت ولم يبقَ منها الاَّ ما لم يقدر عليهِ كرور الايام ومع ذلك لم تزل معدودة من عجائب الابنية والناس يزعمون انها من بناء سليمان بن داود وان الرومانيين بنوا على آثارٍ كانت قبل عصرهم وذلك في ايام الملك انطونينوس بيوس في القرن الثاني بعد الميلاد

اما مدينة حلب الشهباء فقيل انها سمّيت بذلك لان ابرهيم الخليل كان لهُ بقرة شهباء يحلبها على التلّ الذي عليهِ قلعة حلب الآن وينادي رجل على الفقراء قائلاً ابرهيم حلب الشهباء فيجتمعون اليهِ ويتصدّق عليهم بلبنها لكن الصحيح ان العلة مجهولة في تسميتها واما في لقبها فهي بناؤُها الذي هو من حجرٍ ابيض او على ارضٍ بيضاء وفيها يقول ابن الوردي

عليكَ بصهوةِ الشهباء تُكفَى … بجوشنِها محاربةَ الزمانِ
فللغرفات في الفردوس طيبٌ … يفوح شذاهُ من باب الجنانِ

والى ناحية الجنوب منها موقع قنسرين التي كانت في اوائل الاسلام مدينةً اعظم من حلب وهي الآن خراب وبقربها حاضر قنسرين الذي يقول فيهِ عكرشة

سقى اللهُ اخوانًا ورائي تركتهم   بحاضر قنسرين من سُبُل القطرِ

وبقربها ايضًا موضع يقال لهُ الفراديس وهو المأسدة التي مرَّ فيها ابو الطيب المتنبي ولما زأرت عليهِ الاسود قال

أجارُكِ يا أُسدَ الفراديس مُكرَمٌ   فتسكن نفسي ام مُهانٌ فمُسلَمُ
ورائيَ وقدامي عداةٌ كثيرةٌ   احاذر من لصٍّ ومنكِ ومنهمُ

وبقرب قنسرين موقع مدينة الخناصرة التي كان يسكنها عمر بن عبد العزيز وقد ذكرها المتنبي فقال

احبُّ حمصًا الى خُناصرةٍ   وكلُّ نفسٍ تحبُّ محياها

اما معرَّة النعمن فهي منسوبةٌ الى النعمان بن بشير الانصاري وكان اجتاز بها فمات لهُ ولد فيهـا فاقام عليهِ فنسبت اليهِ بهذا السبب الضعيف ثم مات النعمان المذكور قتيلاً بيد اهل حمص سنة ٦٥ للهجرة (سنة ٦٨٤ م) والى المعرة المذكورة ينسب ابو العلا احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري الشاعر الاعمى المشهور وفيها يقول

يا ماء دجلةَ ما اراك تلذُّ لي   شوقًا كماء معرَّة النعمانِ

توفي سنة ٤٩٤ للهجرة (سنة ١١٠٠ م)

ومدينة حماه على جانبي نهر العاصي قال ابو الفداء هي انزه البلاد الشامية وتشبه شيزر بكثرة النواعير التي تختص بها دون غيرها من بلاد الشام وكان لها سورٌ عظيم قال فيهِ شهاب الدين البارزي سور حماه بربها محروس وهي عبارة بديعة في الصناعة لاستوائها في القراءة طردًا وعكسًا واليها يُنسب كثير من الادباء كياقوت وابي الفداء المؤرخين والشيخ تقي الدين بن حجة صاحب البديعية المشهورة وشيخ الشيوخ بحماه وغيرهم وفيها يقول ابن حجة المذكور

مرجُ حمـــاةٍ نواعيرهُ زادت على المقياس في روضتهِ[1]
واغتاظ غورُ دمشق لذا قلت لا افكر في غيضتهِ

ومدينة حمص وهي بالقرب من نهر العاصي ايضًا وفيها يقول بدر الدين حسن بن حبيب

جزيرةُ حمصٍ كعبة اللهو اصبحت يطوفُ بها دانٍ ويسعى لها قاصي
لها حلّةٌ من نبتهـــا سندسيةٌ تعلق في ذيل استارها العاصي

فعارضهُ الشيخ تقي الدين ابن حجة وقال

جزيرة حمص لم تكن قط كعبةً يطوف بها دانٍ ويسعى لها قاصي
ولكنهـــا للهو والقصف حانةٌ ألم تنظروها كيف جاورها العاصي

وعلى مسافة ٤ ساعات من حماه لجهة الشرق خرائب مدينة سَلَمْيَة التي اشتهرت في ايام اليونانيين وفي اوائل الاسلام وقد ذكرها المتنبي بقولهِ في وصف واقعةٍ جرت مع سيف الدولة العدوي سنة ٣٤٤ للهجرة (سنة ٩٥٥ م)

فأقبلَها المُروج مُسوَّماتٍ ضوامرَ لاهزالَ ولا شِيارُ
تثيرُ على سَلَمْيةَ مُسْبَطِرًا تناكَرَ تحتهُ لولا الشِعارُ

والى شرقي حمص تدمر وهي من لفظة عبرانية معناها التمر فترجمها اليونانيون والرومانيون بلميرا اي مدينة النخل يقال بناها سليمان بن داود (٢ اصم ص ٦:١٨) ولعلَّ المراد انهُ حسَّنها وزاد في ابنيتها وقد ذكرها المتنبي حين تحصَّن بها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة سنة ٣٤٤ للهجرة (سنة ٩٥٥ م)

وليسَ بغير تدمرَ مُستغاثٌ وتدمرُ كاسمها لهُمُ دمارُ
ارادوا ان يَديروا الرأي فيها فصبَّحهم برأيٍ لا يُدارُ

وكانت العرب تزعم انها من بناء الجن لما ترى من قوتها الباهرة وعلى

(١) اشارة الى الروضة والمقياس وهما في جزيرة وسط النيل من اعظم متنزهات مصر

ذلك قول النابغة الذبياني

الأَ سليمانَ اذ قال الالهُ لهُ قم في البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ
وجَيِّشِ الجنّ اني قد أَذِنتُ لهم يبنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعُمُدِ

وكانت هذه المدينة في اعظم زهوتها في عصر الملكة زينب التي تسميها الافرنج زنوبيا وكانت خلفت على الملكة زوجها المسمَّى عند الافرنج اودوناتوس لكونهِ من بني عذينة وذلك في اواخر القرن الثالث للتاريخ المسيحي اعني قبل الاسلام باكثر من ٣٠٠ سنة فلما انتصر على هذه الملكة القيصر اورليانوس الروماني واخذها اسيرةً الى رومية ابتدأَت تدمر تنحط عن عظمتها القديمة والآن لم يبقَ منها سوى آثار هياكلها وابنيتها القديمة

ومن مدن ريف البحر المتوسط مبتدئًا من جهة الشمال مدينة اللاذقية بناها الملك سلوقوس الغالب وسمَّاها على اسم أُمهِ وكانت قديمًا من المدن المعتبرة ومقامًا للتنوخيين امراء تلك الاعمال وفيها توفي الامير محمد بن اسحق التنوخي الذي رثاهُ المتنبي بقصيدة منها قولهُ

خرجوا بهِ ولكلِّ باكٍ خلفهُ صَعَقاتُ موسى يومَ دُكَّ الطورُ
والشمس في كبد السماء مريضةٌ والارض واجفةٌ تكاد تمورُ
وحفيف اجنحة الملائك حولهُ وعيون اهل اللاذقية سورُ

وقد خربت هذه المدينة بزلزلةٍ حصلت سنة ١٢١١ للهجرة (سنة ١٧٩٤ م)

اما جبلة فلا يوجد بها سوى الجامع الذي بناهُ السلطان ابرهيم ادهم وآثار مكانٍ لملاعب الرومانيين لا زال للآن يسمَّى التياترو وهو على شكل قوس دائرةٍ مقاعدهُ صفوفٌ حولَ الساحة المتوسطة كلُّ صفٍّ منها مرتفع قليلاً عمَّا تحتهُ ونصف قطر الدائرة نحو ١٥٠ قدمًا والمحيط من خارج نحو ٤٥٠ قدمًا وتحت المقاعد مرابض كانوا يضعون فيها الوحوش التي يستحضرونها لتلك الملاعب

وفي قريةٍ يقال لها سفيطة شرقي طرطوس لجهة الجنوب برج على تلّ من

ايام الرومانيين والى الجنوب الشرقي منها دير الحميراء المنسوب الى القديس جاورجيوس بالقرب من عين دورية تجري منها المياه مدةً ثم تنقطع مدةً اخرى وطول مدة جريانها او انقطاعها يختلف بحسب اختلاف الفصول وهو النهر السبتي الذي اشار اليهِ يوسيفوس بن كربون المؤرخ اليهودي

والى الجنوب من هذا الدير قلعة الحصن وهو المعروف قديمًا بحصن الاكراد وكان مقام السلطنة قبل افتتاح طرابلس ويقال له حصن عكار ايضًا وكان قد حاصرهُ الملك الظاهر بيبرس (انظر تاريخ ابي الفداء الحموي مجلد ٥ صفحة ٣٨) فامتنع عليهِ زمانًا وكان في خدمتهِ القاضي محيي الدين بن عبد الله بن عبد الظاهر فقال في ذلك

حصنُ عكّار ما صفا   قطُّ يومًا من الكَدَرْ
كيف يصفو الذي   ثلاثة ارباعهِ عكرْ

وكان في تلك الايام قد اقام بعض اجنادهِ على حصار عكا وامتنعت عليهِ ايضًا ثم افتتح حصن عكار ولم تزل عكا ممتنعة فقال القاضي المشار اليهِ

يا مليك النصر قد   هُنّئتَ فابشر بالاراده
ان عَكّارَ لعمري   هي عَكّا وزياده

وعكار المذكورة هنا هي الآن احدى مقاطعات طرابلس الآتي ذكرها وكانت مقام الامراء بني سيفا ومن قراها قرية عرقا التي كانت قديمًا مدينة مشهورة والآن ليست الاَّ قرية بجملة قرى هذه المقاطعة (راجع كتابنا سياحة المعارف وجه ٢٧)

اما طرابلس فقد قيل ان اصلها من اناس رحلوا من صور وصيدا ورواد في الايام القديمة فبنى كل قوم منهم محلَّةً ثم انضمت تلك الابنية الى واحدة ودعيت باسم طرابلس لان معناهُ باليونانية المدن الثلاث . وقال ابو الفداء طرابلس

مدينة رومية على طرف داخل البحر افتتحها المسلمون (اي استرجعوها من الصليبيين) سنة ٦٨٨ للهجرة (سنة ١٢٨٩ م) وخربوها وعمروا على نحو ميل منها مدينةً سموها باسمها . قال ياقوت في المشترك وقد فرّق بعضهم بينها وبين مدينةٍ اخرى بهذا الاسم في شمال افريقية فجعلوا التي في الشام اطرابلس بزيادة الهمزة في اولها والاخرى طرابلس بغير همزة الاّ ان المتنبي خالف هذا بقولهِ في طرابلس الشامية

اكارمُ حسّدَ الارضَ السماءُ بهم وقصّرت كلُّ مصرٍ عن طرابُلسِ

ويفرقون بينها ايضًا بقولهم لهذه طرابلس الشام ولتلك طرابلس الغرب وهو المشهور اه . وكان في طرابلس القديمة التي الآن في موقعها المينا مكتبة قد اعتنى بجمعها القاضي ابو طالب حسن حتى اشتملت على ٣٠٠ الف مجلد في اللغة العربية والفارسية واليونانية احترقت لما افتتح الافرنج الصليبيون تلك المدينة سنة ٤٩٦ للهجرة (سنة ١١٠٣ م) وقال العلامة الفاضل الدكتور كرنيليوس ڤان ديك الحكيم الاميركاني في كتابهِ المرآة الوضية في الكرة الارضية الذي نقلنا عنهُ اغلب ما اوردناهُ في هذه المقالة . طرابلس قسمان المدينة والمينا اما المدينة فعلى جانبي نهر ابي علي والماء دائرة في شوارعها وابياتها(ور بما صعدت الى الطبقة الثالثة من دورها) واما المينا فهي على راس لسانٍ داخل البحر وهي موقع المدينة القديمة واهالي طرابلس يوصفون بشدّة البأس وعزّة النفس واكثرهم يحبون العلم والعلماء وبهذه المدينة بساتين كثيرة تكثر فيها الاثمار والفواكه وهي مشهورة بطيب السفرجل والبردقان والورد اه . وتُلقب هذه المدينة بالفيحاء عدلاً لشدّة ما ينتشر فيها من روائح الازهار العطرية وخاصةً في ايام الربيع عند ما تستغرق بزهر اشجار الليمون والاترج المستحيطة بكل اطرافها بل وفي حدائق بيوتها ايضًا وقد وصفها ابن مامية الرومي فقال

أَلا خلّني من قول زيدٍ ومن عمرٍو وقم ننهب اللذاتِ في فرص العمرِ

فانَّ الليالي تسرق العمرَ خلسةً من الغافل المغترّ من حيث لم يدرِ
فيا قلب لا تأسف على كلّ فائتٍ وخلِّ عن الخلّ الذي زاد في الهجرِ
ففي كلِّ يومٍ تلتقي الفَ موطنٍ فعِشْ خاليَ الافكارِ والبالِ والنشرِ
وان كان وادي الشام سار بملثمٍ طرابُلس الفيحاء باسمة الثغرِ
حكت جنّةَ الفردوس حسنًا ومنظرًا وسكانها الولدان تسمو على البدرِ
لها قصبات السبق بالقصب الذي حلا رشفُهُ طعمًا على السكر المصري
ولو لم تكن تحكي الجنان لِما حوت فواكه رمانٍ يجلُّ عن البزرِ
بوادي بواديهـــا حنين رحائها حكى انة المشتاق من لوعة الهجرِ
وابراجها عدّ الكواكب سبعةٌ وتحيي حِمى الاسلام من عصبة الكفرِ
وكم طَمَسَت عين العدوّ بقلعةٍ حماها الهُ العرشِ بالعز والنصرِ
باربعةٍ سادت وسادَ مقامُها على سائر الامصار في البحر والبرّ
بابيض ثلجٍ واحمرار كثيبهـــا وخضرة مرجٍ قد جلا زرقة البحرَ
بنوها بنوا في المجد ركنًا مشيدًا له في الملا ذكرٌ وناهيك من ذكرَ
وناهيك من قومٍ واهل مروءةٍ غريبهمُ لم يشكُ من ضيقة الصدرَ
كرام المحيّـــا شيخهم وفتاهمُ وملقاهمُ بالضيف ان جاء بالبشرَ
وفيهم امارى للامارة امهم اذا امروا بالخير وافوك بالبرّ
وفيهـــا تجار تربح الكسبَ والثنا وقد ينفقوا اموالهم لذوي الفقرَ
أيا رب فاحرسهم بعين عنايةٍ بخاتم رسل الله من سادَ بالفخرَ

ومدينة بيروت وهي فرضة دمشق والى جهة الجنوب منها بنحو ساعةٍ مقام الامام الاوزاعي الفقيه وهو ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الاوزاعي امام اهل الشام توفي سنة ١٥٧ للهجرة (سنة ٧٧٣ م) وقد رثاهُ بعضهم بقولهِ

جاد الحيا بالشام كلَّ عشيةٍ قبرًا تضمّن لحدُهُ الاوزاعي
قبرٌ تضمن فيهِ طود شريعةٍ سقيًا لهُ من عالمٍ نفّاعِ

عرضت لهُ الدنيا فاعرض مقلعًا عنهـــا بزهدٍ أيَّما اقلاعِ

واما مدينتا صيدا وصور فقد نقلنا ما وصل الينا من اخبارها في الكتاب المسمى بزبدة الصحائف في سياحة المعارق (صفحة ٣٦) فليراجع

واما عكا فهي الى الجنوب من صور وكانت تسمَّى قديمًا بطولمايس وهي الآن حصن مهمٌّ من الحصون العثمانية

وعلى الجنوب من عكا مدينة حيفا فوقها جبل الكرمل الذي كان يتردد اليهِ ايليا النبي

ومدينة طبرية يوجد بالقرب منها مياه سخنة وعليها حمام يغتسل الناس بهِ وفي ما يلي هذا الحمام بحيرة عظيمة واسعة تجتمع اليهـــا المياه وهي ذات امواجٍ واسماكٍ وكان حولها غياض وبساتين كثيرة وفيها يقول ابو الطيب المتنبي في قصيدتهِ التي يمدح بها علي بن ابرهيم التنوخي

لولاك لم اترك البحيرة والـ غور دفيٌّ وماؤُها شبمُ
والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيهـا وما بها قَطَمُ
والطير فوق الحباب تحسبها فرسانَ بُلقٍ تخونهـا اللُجُمُ
كأنها والرياح تضربهـــا جيشُ وَغًى هازمٌ ومنهزمُ
كأنهـــا في انهارها قمرٌ حفَّ بهِ من جنانها ظُلَمُ
تغنت الطير في جوانبهـــا وجادت الارض حولها الديمُ
فهي كماريةٍ مطوَّقةٍ جُرِّدَ عنهـا غشاؤُها الأَدَمُ

وفي مدينة نابلس قرية يقال لها بورين التي منها اصل الشيخ حسن البوريني ونابلس هي مدينة شكيم المذكورة في الكتاب المقدس (تك ص ١٢ و٣٣ و٣٤ و٣٧) ومنها الشيخ عبد الغني النابلسي المشهور بالتصوّف وصناعة الشعر نشأ بدمشق الشام وتوفي في القرن الثاني عشر للهجرة (الثامن عشر للميلاد)

ونواحي يافا جهة الجنوب الشرقي منها مدينة الرملة التي منها خرج الشيخ

خير الدين الرملي صاحب الفتاوي الخيرية المشهورة عند الفقهاء وكانت دار ولاية الامراء بني طغج الذين يقول فيهم ابو الطيب المتنبي

اری دون ما بين الفرات وبُرقَةٍ خرابًا يُمَشّي الخيلَ فوقَ الجماجمِ
وطعن غضاريف كأنَّ أكُفَّهُم عرفنَ الردينات قبلَ المعاصمِ
حَمَتهُ على الاعداء من كل جانبٍ سيوف بني طغج بن جُفَّ القماقمِ
هم المحسنون الكرَّ في حومة الوغى واحسنُ منهُ كرُّهم في المكارمِ

واما مدينة اورشليم المعروفة بالقدس الشريف فقد استوفينا كلامنا عليها في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف (صفحة ١٤–١٧)

ومدينة حبرون ويقال لها الخليل وهي مدينة قديمة وهناك سكن ابرهيم الخليل واسحق ويعقوب ودفنوا مع بعض نسائهم

ومدينة غزة الى الجنوب الغربي من الخليل ويقال لها غزة هاشم لان عمر ابن عبد مناف القرشي الملقب بهاشم الثريد خطر اليها تاجرًا فمات فيها وفي ذلك يقول مطرود بن كعب الخزاعي

وهاشمٌ في ضريحٍ وسط بلقعةٍ تسفي الرياحُ عليهِ بين غزّاتِ

الفصل الخامس

في الكلام على بلاد مصر

هذه البلاد استولى عليها العرب بحق الفتوح مرتين الاولى قبل التاريخ المسيحي بعدة قرون ذكر بعض المؤرخين انهم جاءُوا اليها من جهة اسيا ودخلوها

من الجهة البحريّة المسماة دلتا واستولوا على جميع جهات مصر السفلى تحت راية الوليد بن دوفع وهو المسمّى عند اليونان باسم سلاطيس ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفًا من هجوم المصريين وجعل مدينة منفيس تخت المملكة وكان المصريون يكرهون هولاء العرب الذين يقال عنهم بانهم من رعاة المواشي وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرّت أحكام البلاد في اياديهم نحو ٢٦٠ سنة وقيل اكثر من ذلك الى ان استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد حروب كثيرة وذلك قبل الميلاد بنحو ١٨٠٠ سنة

اما المرّة الثانية فكانت بعد الاسلام في سنة ٢٠ للهجرة (سنة ٦٤٠ م) تحت راية عمرو بن العاص في زمن خلافة عمر بن الخطاب ومن ثمّ استوطنوها الى يومنا هذا وحيث قد تكلمنا على هذه الخطة بالكفاية في كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف (وجه ٤٣–٧٨) فلا حاجة الى اعادة ذكر شيء من بلادها وآثارها وما قاله الشعراء فيها هنا بل نكتفي بما قاله الشيخ عمر الفارض

وطني مصر وفيها وطري ولعيني مشتهاها مشتهاها
ولنفسي غيرها ان سكنت يا خليليّ سلاها ما سلاها

المقالة الثانية

في اقسام العرب الاصلية وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في اقسام العرب الاصلية

لا يوجد اسقم من تاريخ هذه الامة في الاعصار القديمة وهي تنقسم الى ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة . اما البائدة فهم العرب الاولون الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم كعاد وثمود وجرهم الاولى ولم يبقَ من ذكرهم الاَّ القليل وسوف نذكر شيئًا منهُ . واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان. واما العرب المستعربة فهم ولد اسماعيل بن ابرهيم الخليل الذي على ما قيل اتصل بجرهم الثانية من ولد قحطان ايضًا وتزوج منها وقيل لنسلهِ المستعربة لان اصل اسماعيل ولسانهُ كان عبرانيًّا ومن العرب العاربة والمستعربة تكونت قبائل العرب المعروفة

الكلام على العرب البائدة

قيل ان اولاد سام بن نوح استوطنوا هذه البلاد ونشأ منهم قبائل وبطون

كثيرة باد اكثرها او اندرج مع غيرها حتى لم يبقَ لها رسم منذ ادوار وهولاء هم المسمون بالعرب البائدة وقيل انها سبع قبائل عاد وثمود وصِحار وجاسم ووبار وطسم وجديس وكانت مساكنهم بعمان والبحرين واليمامة وكانت لغتهم غليظة خشنة

واشهر هذه القبائل قبيلة عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح (تك ص ١٠: ٢٢و٢٣) وكانوا ينزلون في الاحقاف في حَضْرَموت

وقبيلة ثمود وهي قبيلة جاشر بن ارام بن سام (تك ص ١٠ : ٢٢) سكنوا اولاً في اليمن ثم طردهم منها حِميَر بن عبد شمس الملقب سبا فنزلوا في الحِجر من الحجاز وصار ذلك مثلاً يُضرَب في تفرُّق القوم يقال لعبت بهم ايدي سبا

وقبيلة طسم من ولد لود بن سام (تك ص ١٠: ٢٢) وجديس من ولد جاشر المذكور آنفًا وسكنت هاتان القبيلتان معًا الى ان وقع السيف بينهما فبادتا جميعًا قال المتنبي

أشمتَ الخلفُ بالشراة عداها وشفى رَبَّ فارسٍ من ايادِ
وملوكًا كأمسٍ في القرب منا وكطَسم واختِهـــا في البعادِ

وقبيلة جرهم الاولى وقد وقع ذكرها وذكر عاد في شعر المتنبي ايضًا حيث يقول

يقرُّ لهُ بالفضل مَن لا يودُّهُ ويقضي لهُ بالسعد من لا يُنجِّمُ
اجار على الايام حتى ظننتهُ تطالبهُ بالردِّ عادٌ وجرهمُ

وقبيلة عماليق بن اليفاز بن عيسو (تك ص ٣٦: ١٢) وهم اشهر قبائل العرب البائدة ولم يزل محفوظًا شيء من اسماء احيائهم وقطع من اشعارهم. قال أُليف بن زياد وقيل أُنيف بن حكيم النبهاني

لهم عجزٌ بالرملِ فالحَزنِ فاللوَى وقد جاوزت حَيَّيْ جَدِيسٍ رِعالُها

وقال المتلمس

أَلم ترَ أَنَّ الجونَ[1] اصبح راسيًا تُطِيفُ بهِ الايام ما يتأَنَّسُ

ومن اشعارهم قول عفيرة بنت عباس الجديسية ويقال لها الشموس تحرّض قومها على عملاق ملك طَسْم وكان فاحشًا ظلومًا

لا احدٌ اذلَّ من جديسِ أَ هكذا يفعل بالعروسِ
يرضى بهذا يا لقومي حُرٌّ هذا وقد أُعطِي وسيقَ المهرُ
لخوضهُ بحر الردى بنفسهِ خيرٌ لهُ من فعلِ ذا بعرسهِ

وقول هذَيلة امرأة قرفس الجديسي في عملاق المذكور

اتينـا اخا طسمٍ ليحكم بيننا فانفذ حكمًا في هُذَيلةَ ظالما
لعمري لقد حُكِّمتَ لا متورعًا ولا كنتَ في مَن يُبرِمُ الحكم عالما

وكان انقراض القبيلتين على يد عملاق المذكور فانهُ لما هتك ستر الشموس الجديسية المذكورة غار اخوها الاسود فاحتال على عملاق حتى تمكن منهُ وهو في نفرٍ من قومهِ فاغتالهم بسيوف اصحابهِ الجديسيين حتى اتى على آخرهم ثم قال

ذوقي ببغيك يا طسمُ مجلّلةً فقد اتيتِ لعمري اعجبَ العجبِ
أنّا اتينا فلم نحفل بقتلهمِ والبغيُ هيَّجَ منا سوْرة الغضبِ
ولن يعودَ علينا بغيهُم ابدًا ولن يكونوا لدى انفٍ ولا ذنبِ
فلو رعيتم لنا قُربَى مؤكّدةً كنّا الاقارب في الارحام والنسبِ

ونجت بقيةُ طَسْم الى حسّان بن تُبَّع فغزا بني جديس وقتل رجالهم واخرب

---

[1] يريد بالجون حصن اليامة ويقال انهُ من صانع طَسْم وجديس قال بهِ التبريزي في شرح الحماسة

بلادهم فهلكت القبيلتانِ جميعًا ولذلك قيل في الامثال انفر من جديس عن طَسْم

الكلام على العرب العاربة والمستعربة

اما العرب العاربة والمستعربة فقد ذكروا ايضًا انهُ سكن في بلاد العرب نواحي اليمن بنو قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشاد بن سام بن نوح (تك ص١٠: ٢٥-٣٠) وسمّي نسلهُ العرب العرباء

ومن نسل قحطان مَن ملك في اليمن ومنهم من ملك في الحجاز والذين ملكوا في اليمن على ما قالهُ بعضهم قحطان بن دامر المذكور وان ملكهُ كان قبل عهد الاسكندر المكدوني بنحو ١٧٠٠ سنة وفيهِ يقول بعض الشعراء

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنهِ ربّ الفصاحة يعربِ

وقيل بل هو يعرب بن قحطان وبهِ سُميت العرب وكان اوّل من حيّاهُ قومهُ بتحية المالك واوّل من ابتدأ بعمارة المدن في اليمن واول من نطق بالعربية ايضًا وقيل بل ان قحطان اباهُ اوّل من نطق بها وتأول ابن خلدون المغربي بان معناهُ من اهل هذا الجيل الذين هم العرب المستعربة والاَّ فقد كان للعرب جيل آخر وهم العرب العاربة ومنهم تعلم قحطان اللغة العربية ضرورةً ولا يمكن ان يتكلم بها من ذات نفسهِ

ثم ملك بعدهُ يشجب بن يعرب وعبد شمس بن يشجب وهو الملقب بسبا. وقيل انهُ لُقّب بهذا اللقب لكثرة فتكهِ وسبيهِ . قال ابن خلدون انهُ هو اول من سنّ السبي وهو الذي بنى مدينة سبا وسدّ مارب وعين شمس باقليم مصر ثم اولادهُ حِمْيَر وكهلان وعمرو واشقر وعاملة ومن هولاء قبائل العرب العرباء

واما الذين ملكوا في الحجاز فاولهم جُرْهم بن قحطان بن عبد ياليل ثم عبد المدان بن نُغَيلَة ثم عبد المسيح بن مضاض الذي تزوج بابنتهِ رعلة اسماعيل

الذي من نسلهِ الهاجريون وقد اتخذوا لقبهم من اسم امهِ هاجر والنبوثيون المتخذون لقبهم من نبيوث والايشوريون من ابنهِ ايشور (تك ص ٣٥ : ١٣—١٥) ثم عمرو بن الحرث بن مضاض بن عمرو ومنهم العرب العاربة وهم قبيلة جرهم الثانية ويلحقون نسبهم الى عدنان لا الى اسماعيل بسبب الاختلاف الواقع في الاجيال بين اسماعيل وعدنان فقد قيل انها ٨ اجيال وقيل ٧ وقيل ٣ ومن عدنان قبائل العرب المستعربة واشهرها قبيلة فهر المُلقّب قريش ومنهُ آل قريش الذين هم سدنة الكعبة ومنهم ظهر صاحب الشريعة الاسلامية كما يتضح ذلك من التفصيلات الآتية

الفصل الثاني

في قبائل العرب وما يتفرّع عنها

تُقسم العربُ في اصطلاح علماء النسب الى طوائف اعمّها الشعب واخصّ منهُ القبيلة ثم العمارة ثم البطن والبطون هم اوساط الانسباء في القرب من الجدّ الاعلى والبعد عنهُ ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة وهم ادنى الاقارب فالشعوب في القبائل مثل بني مُضَر والقبائل مثل بني قيس بن غيلان بن مُضر والعمائر مثل بني سعد بن قيس بن عيلان والبطون مثل بني غطفان بن سعد ابن قيس والافخاذ مثل بني ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان والفصائل مثل بني فزارة بن ذبيان والعشائر مثل بني بدر الفزاري

وعندهم الجماجم جمع جمجمة هم السادات والقبائل التي تجمع البطون فيُنسب اليهم دونهم نحو كلب بن وبرة اذا قلت الكلابي استغنيت عن ان تنسبهُ

الى شيءٍ من بطونهِ اما قولهم بالحرث مثلاً فهو مقطوع من بني الحرث بن كعب وهو من شواذ التخفيف وكذلك يفعلون في كل قبيلةٍ تظهر فيها لام التعريف كبلقين لبني القين وبلهجيم لبني الهجيم وبلعنبر لبني العنبر وهكذا الخ

وينقسمون ايضًا الى حضر ووبر قال ملطبرون يُعرَفُ من مؤرخي العبرانيين بان العرب ينقسمون من قديم الزمان الى قبائل عديدة بعضها رحَّل وبعضها مقيم في المدن فالمقيمون في المدن هم العرب ويُعبَّر عنهم بالحَضَر من الحضارة والتمدن والتمصّر. واما الرحالة النزالة سكان الخيام فهم اعراب جمعهُ اعاريب قال المتنبي

من الجآذر في زيّ الاعاريبِ بيض الطلا والثنايا والجلابيبِ

ويُطلق عليهم البدو واهل الوبر فالبدو نسبةٌ الى البادية وهي الصحراء واما الوَبَر فهو شعر الجمال

وذكر ملطبرون ايضًا مراتب بعض هذه التقسيمات فقال نقلاً عن بعض المؤرخين ان العرب الجنوبية كانوا مثل الهنديين والمصريين منقسمين الى خمسة طوائف طائفة المحاربين وطائفة الزراعين وطائفة الصناع وطائفة العلماء وطائفة التجار

الفصل الثالث

في اشراف العرب

وكان كريم العرب وشريفها في الجاهلية عبد مناف من ولد قصيّ بن كلاب القرشيّ وبنوهُ عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل وهم كذلك في الاسلام

وكان يُدعى القمر والسيد والفهد واسمهُ المغيرة واخوتهُ عبد الدار وعبد العزى وكان اسمهُ اولاً عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأُحيل الى عبد مناف

وكذلك عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحرث بن مالك ابن ربيعة الحارثي رهطهُ من بني الحرث بن زياد واهل بيتهِ بنو قنّان واولادهُ اخوال بني العباس الآتي ذكرهم وهو من اشراف العالم واكابر الدنيا وبهِ يُضرَب المثل للرجل العظيم فيُقال اشرف من ابن عبد المدان قال لقيط بن زرارة

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أني ... ابو قابوس(۱) او عبدُ المدانِ
اسيرُ في بني عبس بن زيدٍ ... رخيَّ البالِ منطلقَ اللسانِ

وكانت العرب تعدُّ البيوتات المشهورة بالكبر والشرف من القبائل بعد بيت هاشم بن عبد مناف المقدَّم ذكرهُ في قريش ثلاثة بيوت ومنهم من يقول اربعة اولها بيت حذيفة بن بدر الفزاري وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عديّ الدارميين وبيت تيم وبيت آل ذي الجدبن بن عبد الله بن هام وبيت شيبان وبيت بني الديّان من بني الحرث بن كعب بيت اليمن . واما كندة فلا يعدُّون من اهل البيوتات وانما كانوا ملوكًا

اما بعد الاسلام فقد انحصر الشرف العربي في السلالة الهاشمية ويعبَّر عنها باهل البيت (اي بيت صاحب الشريعة الاسلامية) فلا يُعرف الشريف رسمًا ويُطلق عليهِ لقب السيد الاَّ اذا كان نسبهُ متصلاً باحدٍ من اهل البيت بدون التفاتٍ الى حالة دنياهُ ولا الى صناعتهِ

وصاحب الشريعة المشار اليهِ هو محمد بن عبد الله بن عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب بن مرَّة بن لوي بن غالب بن فهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مُضَر بن نزار بن معدّ بن عدنان

---

(۱) ابو قابوس كنية النعمان بن المنذر اللخمي ملك العرب

وتوفي عن تسع نسوةٍ جُمعنَ في هذه الابيات الثلاثة

نوفي رسول الله عن تسع نسوةٍ اليهنَّ تُعزى المكرمات وتنسبُ
فعــائشة ميمونة وصفيّة وحفصة يتلوهنَّ هندٌ وزينبُ
جويرةٌ مع رملة ثم سودةٍ ثلاث وست ذكرهنَّ مهذبُ

وخلفهُ بعد وفاتهِ كبار اصحابهِ واولهم كان ابو بكر الصدّيق الخليفة الاول واسمهُ عتيق ويقال عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن تيم القرشي وثانيهم عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزّى بن قرط بن رباح بن رزاح بن عديّ القرشي . والثالث عثمان بن عفّان بن العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ الذي تقدَّم ذكرهُ . والرابع علي بن ابي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ

اما الذين تولوا الخلافة بعد كبار الصحابة المشار اليهم فينقسمون الى ثلاث طوائف الاولى منهم بنو أُميَّة ويقال لهم الأُمويون وأُميَّة هو ابن عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ . والثانية العباسيون وهم بنو العباس عمّ الرسول صاحب الشريعة المشار اليهِ . والثالثة بنو الحسين بن عليّ بن ابي طالب المقدّم ذكرهُ ويقال لهم الفواطم نسبةً الى فاطمة الزهراء زوج علي المشار اليهِ وهي بنت الرسول صاحب الشريعة الاسلامية لكنهم شيعة وفي نسبهم خلاف كبير بين العلماء فمنهم من ينكر عليهم هذا النسب ومنهم من يثبتهُ

الفصل الرابع

في علم الانساب

قال ابن خلدون المغربي ان حفظ الانساب واللغة كان في مضر وقريش وكنانة وثقيف وبني اسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة لانهم كانوا اهل شظف[١] ومواطن غير ذات زرع ولا ضرع وبعدوا من ارياف[٢] الشام والعراق ومعادن الادم[٣] والحبوب فلم يختلطوا بغيرهم فكانت انسابهم صريحة محفوظة لم يدخلها اختلاط ولا عُرِفَ فيها شوب[٤]

ويضربون المثل في نسب تميم فيقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن نسبهِ احسن نسبًا من تميم وتميم هذا هو ادّ بن طابخة بن الياس بن مُضَر وهو خال النضر بن كنانة ابي قريش وذلك ان برّة بنت مرّ اخت تميم هي امُّ النضر وفيها يقول جرير

وما الامُّ التي ولدت قريشًا بمقرفةِ الرجال ولا عقيمِ
فما وادٌ باكرم من قريشٍ ولا خال باكرم من تميمِ

ومن قبائل تميم بنو الحرث الذين منهم الاحنف بن قيس بن عاصم بن صيفي وكلٌّ منهم مثلٌ في ما اختصَّ بهِ

ولشدّة مباهاة الجاهلية في انسابهم كان كثيرًا ما يقع التنافر بسببها فكان

---

(١) الشظف ضيق العيش (٢) الريف الارض الخصبة ذات خضرةٍ ومياه
(٣) الادم هنا الجلود (٤) الشوب الاختلاط

اذا تنافر رجلان في الحسب والنسب[1] تنافرا الى حكامهم فيقولان عند المنافرة أيّنا اعزُّ نفرًا والمنفور هو المغلوب والنافر الغالب ويقال لمن يقضي في ذلك الحكم وكان المنفور يعطي النافر ما يقعُ عليهِ الشرط فيحطُّ قدرُهُ بين العرب

وكان من حكام تميم آكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة والاقرع بن حابس وربيعة بن مخاشن وضمرة بن ابي ضمرة غير ان ضمرة هذا حكم فاخذ رشوة فغدر

ومن حكام قيس عامر بن الظرب الذي مرّ ذكرهُ وعيلان بن ابي سلمى الثقفي يزعمون انهُ كان لهُ ثلاثة ايام يوم يحكم بهِ بين الناس ويوم ينشد شعرهُ فيهِ ويوم ينظر فيهِ الى جمالهِ وجاء الاسلام وعندهُ عشر نسوةٍ فخيَّرهُ الرسول صاحب الشريعة الاسلامية فاختار منهنَّ اربعة فصار ذلك سنّةً

ومن حكام قريش عبد المطَّلب وابو طالب والعاص بن وائل والعلا بن حارثة

ومن حكام اسد ربيعة بن ضرار

ومن حكام كنانة يَعمُر الشرَّاخ وصفوان بن أُميَّة وسلمى بن نوفل

واما الذين اشتهروا في الجاهلية بمعرفة الانساب وضربت بهم في ذلك الامثال فمنهم دغفل بن حنظلة السدوسي من بني ذهل بن ثعلبة وكان اعلم اهلِ زمانهِ بالانساب وورقاء بن الاشعر ويكنى ابا الكلاب ويقال ايضًا ان رجلاً يقال لهُ عبد الله بن حُصين كان انسب العرب واعظمهم كبرًا وهو الذي يُضربُ بهِ المثل فيقال أنسبُ من ابن لسان الحُمَّرة ومنهم زيد بن الكيس وقيل ابن الحرث النمري ومالك بن خبر وهو صاحب المثل المشهور على الخبيرِ بها سقطت يُضرَب للواقف على الحقائق العالم بها

ومن اشتهر بالحيلة على الاصلاح بين المتنافرين رجل يقال لهُ هرم بن قطبة فانهُ احتال في المصالحة بين علقمة بن غلامة بن صعصعة وعامر بن الطُّفيل

---

(١) قيل الحَسَبُ من طرف الاب والنسب من طرف الامّ

ومنع بجيلتهِ العداوة التي كان لا بدَّ من وقوعها بين الفريقين فضُرِب بهِ المثل في الحكمة

ويحكى ايضًا بان عامر بن الظرب العدواني ويقال لهُ ذو الحلم كان لا يعدل بفهمهِ فُهَّام ولا بحكمهِ حكام فلما طَعَنَ في السن انكر من عقلهِ شيئًا فقال لبنيهِ قد كبرت سنّي وعرض لي سهوٌ فاذا رايتموني خرجتُ من كلامي واخذت في غيرهِ فاقرعوا لي المجنَّ بالعصا ولذلك قيل في امثالهم ان العصا قُرِعت لذي الحلم. يحكى انهُ أُتِيَ بخنثى ليحكم فيهِ فلم يدرِ ما الحكم فجعل ينحرلهم ويطعمهم ويدافعهم بالقضاء وكان لهُ جارية يقال لها خُصَيلة فقالت لهُ ما شأنك قد اتلفت مالك فاخبرها انهُ لم يدرِ ما حكم الخنثى فقالت اتبعهُ مبالَهُ يعني ان ينظر الى محل ما يبول فان كان بائلاً كالرجل فيكون حكمهُ ذكرًا وان كان كالمرأة فيكون خنثى ثم لما جاء الاسلام صار ذلك سنَّةً فيهِ فيعامل المحكوم عليهِ على هذه الطريقة بانهُ رجلٌ معاملةَ الرجال في ميراثهِ فاذا مات غسلهُ رجل واما اذا حُكِمَ عليهِ بانهُ امرأة فيعامل في ميراثهِ معاملة امرأة وتغسلهُ كذلك بعد موتهِ امرأة

وكان للعرب في الجاهلية حكيماتٌ من النساء ايضًا ومنهنَّ صحر بنت لقمان وهند بنت الخسّ وجمعة بنت حابس وابنة عامر بن الظرب الذي مرَّ ذكرهُ

وفائدة معرفة الانساب للعرب في الجاهلية انما هي ايجاد العصبية التي بها قوام سطوتهم فهي منهم كالقطب الذي عليهِ مدار ظفرهم في غزوهم وفتكهم في بعضهم ولذلك يقال ان النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر يعني ان النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم تحصل معرفتهُ من الكتاب والتعليم ذهبت فائدة الوهم فيهِ عن النفس وانتفت النقرة(١) التي تحمل عليها العصبية فلا منفعةَ فيهِ حينئذٍ كما وقع في صدر الاسلام لانهُ لما ضاعت العصبية النسبيَّة قام موضعها التشيعات كما يأتي ذكر ذلك في محلهِ ثم وقع الانتماء الى المواطن

(١) النقرة النكتة على ظهر النواة

فقيل جند قنسرين وجند دمشق وجند العواصم وانتقل ذلك الى المغرب ايضاً كبلاد الاندلس وغيرها ولاسيا بعد ان وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم ففسدت الانساب الا في البدو

واما ما بقي من فائدتها في الاسلام فهو لكون الحاجة تدعو الى هذا العلم في كثيرٍ من المسائل الشرعية مثل تعصب الوراثة وولاية النكاح والعاقلة[1] في الديات والعلم بنسب صاحب الشريعة الاسلامية وكذا الخلافة عند من يشترط النسب فيها وكذا من يفرق في الحرية والاسترقاق بين العرب والعجم

وهذا هو السبب الذي لاجلهِ اعتنى كثيرون من علماء النسب في الاسلام كعبد الحميد بن عبد الله بن اسامة الكوفي والشريف قثم بن طلحة النسابة وابن عبد السميع الخطيب وغيرهم. والّفوا تصانيف كثيرة في الطريقة التي يقال لها المشجر وهي الشجرة التي يصنعونها في كتب هذا الفن وهي سلسلة كانها شجرة قائمة على عروشها باغصانها وافنانها وقائمها ومنهدلها وعروقها وسوقها يبدون بها بالبطن الاسفل ثم يرتقون الى البطن الاعلى وبين ذلك خطوط ونقط تدل على جهة القرب والبعد في النسب بين الانسباء

ومن جملة المؤلفين في هذا الفنّ ايضاً ابو المنذر هشام بن ابي النصر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو الكلبي النسابة الكوفي كان اعلم الناس بعلم الانساب ولهُ كتاب الجمهرة في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن وكتاب المنزل وكتاب الموجز وكتاب الفريد صنّفهُ للمأمون العباسي وكتاب الملوكي صنّفهُ لجعفر البرمكي وكلهم في النسب ولهُ ايضاً كتاب حلف عبد المطّلب وخزاعة وكتاب حلف الفضول وكتب حلف تميم وكلب وكتاب المنافرات وكتاب بيونات قريش وكتاب فضائل قيس بن عيلان وكتاب الموردات وكتاب بيوتات ربيعة وكتاب الكنى وكتاب شرف قصي وولدهِ في الجاهلية والاسلام

---

(١) العاقلة دية المقتول تؤخذ من القاتل

وكتاب القاب قريش وكتاب القاب اليمن وكتاب المثالب وكتاب النوافل وكتاب ادعاء معاوية زياد بن ابية وكتاب اخبار زياد المذكور وكتاب صنائع قريش وكتاب المشاجرات وكتاب المعاتبات وكتاب ملوك الطوائف وكتاب افتراق ولد نزار وكتاب تفريق الازد وكتاب طسم وجديس وغير ذلك توفي سنة ٢٠٤ للهجرة

(سنة ٨١٩ م)

المقالة الثالثة

في تقاطيع العرب وسحنها واوصافها وزواجها وما يتبع ذلك وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في تقاطيع العرب واوصافها

وصف ملطبرون العرب فقال هم في الغالب ليسوا بالطوال ولا بالقصار بل هم ربعات ونحاف كانهم يبسوا بالحرّ ولونهم اسمر وهم سود العيون والشعور ولون نسائهم اصفر فاقع واما في الجبال فتكون بعض الاحيان النساء ذوات تقاطيع لطيفة وتناسُب في الاعضاء ولون ابيض كلون نساء الاروام وافرنج ايطاليا

اما الرجال فيتمدحون بخفةِ اللحم لان كثرتهُ داعية الى الكسل والثقل ويقولون اشدُّ الرجال الاجفُّ ويسمون الرجل الخفيف اللحم الضرب والصغير حُزُقَّة والمستوي البُنيَة الرتل والجسيم الطويل المشرعب

وكنت اعتنيت ان اجمع من القاموس كلَّ ما يتعلق بفروع كتابي هذا من الاسماء فكان ما جمعتهُ من الالفاظ المختصة باوصاف الرجال والنساء دون

غيرهم من مليح وقبيح بعد كل ما اهملتهُ نحو مئتين وخمسين لفظةً اكثرها في الطويل الاحمق ومع هذا لم اتم حرف الحاء فعند ذلك وجدتُ نفسي بانني اذا اكملت مشروعي هذا اكون جمعت كتابًا كبيرًا يحتوي على معظم القاموس فعدلت عنهُ واكتفيت بما وجدتهُ مجموعًا في مؤلفات البعض من اهل الفضل

اوصاف الرجال . ومن ذلك انهم يقولون للرجل العظيم قَيْلَم والعظيم الرأْس كَرَوَّس وأَرْأَس والعظيم الاذنين كُفارِيّ والعظيم الأَنف قُنان والعظيم الشفتين شفاهيّ والعظيم الرجل أَرْجَل والعظيم الركبة أَرْكَب والعظيم العينين جَحْظم والعظيم الخلقة جرَنْعَش

والكثير الاكل اكول وجروز وجُراخم والكثير الكلام ثرثار ومهذار والكثير السَفَر سِفَر والكثير الفكر فكير والكثير الاضطجاع والكسلان الملازم للبيت لا يكاد ينهض ويخرج لمكرمةٍ ضُجَعَة والكثير القعود قُعدَة والكثير الصلاة والصيام عَمَّار والكثير الصدق صِدّيق والكثير الشعر أَشعَر

واذا كان الرجل سريع الفهم فهو لَقِن او كان ذا رأْيٍ وتجربةٍ فهو خبيرٌ وداهٍ واذا سافر واستفاد التجارب فهو باقعة واذا نقَبَ في البلاد واستفاد العلم فهو نِقاب فاذا كان حديد الفؤاد فهو شهم فاذا كان صادق الظنّ جيّد الحَدْس فهو لوذعي فاذا كان ذكيًا متوقد الرأْي فهو الَمعِي فاذا كان طيب النفس ضحوكًا فهو فكه فاذا كان ماضيًا في الحوائج فهو أَصلِيت فاذا كان مليح الشمائل فهو كيّس فاذا كان حاذقًا في صناعتهِ فهو عبقرِيّ فاذا حنكتهُ مصائرُ الامور فهو مُنجَّذ فاذا كان كاتمًا للسرّ فهو كتوم

اما اذا كان يظهر من حذقهِ اكثر ممَّا عندَهُ فهو متخذلق وعناهية واذا كان يبدي من سخائهِ ومروءَتهِ ودينهِ غير ما هو عليهِ فهو مُتَلَهوق فاذا كان يتظرف ويتكيّس من غير ظَرف فهو متبلتع فاذا كان يركب الامور ويأْخذ من هذا ويعطي ذاك فهو مُغَذْمِر فاذا كان يخبص الامور بعضها في بعض فهو خبَّاص فاذا كان لا يعرف من اين يدخل في الامر ولا من اين يخرج منهُ فهو

مِزيال فاذا كان خبيثًا فاجرًا فهو عِتْرِيف فاذا كان غليظًا جافيًا فهو عُتُلّ فاذا كان ثقيلاً فهو فظّ فاذا كان لا يقيم الكلام فهو لحّانة فاذا كان معترضًا لما لا يعنيهِ فهو مِتياح ومِعَنّ فاذا كان يتكلم بما لا يُسأَل فهو فُضُولي فاذا كان يقول لكل احدٍ انا معك فهو امِعَة فاذا كان لا يثبت على صحبة احدٍ فهو مُطرِف وتلّماظ فاذا كان لا يحسن العمل ولا يثبت على حديثٍ فهو أعْفَك فاذا كان لا يرى شيئًا الاّ احبّ ان يكون لهُ فهو طرِف فاذا كان لا يستطيع كتم السرّ فهو بذير ونمّام وعُلَنة فاذا كان لا يرجى عندهُ الخير فهو حَرِض فاذا كان يُلقّب الناس ويسخر بهم فهو لَقِس فاذا كان يدخل على الناس وهم ياكلون فهو وارِش فاذا كان يدخل بغير اذن ويجيء طعامهم فهو متطفّل وطفيلي وحَضِر فاذا كان لا يطرب للهو فهو غِرهاة فاذا كان يسأل الناس كثيرًا فهو سؤلة فاذا كان لصًّا لا ينام الليل فهو سنِمّار فاذا كان يعجب بنفسهِ فهو شنّيق فاذا كان يرقص ويثب ويصفق ويلعب ويحدث ويضحك فهو مُخنْبِش فاذا كان يصاحب ويغضب من غير سبب فهو مَسنُوت فاذا كان يجيء مع الضيف فهو ضَيفَن فاذا كان يخالط الامور فهو مِخلَط فاذا كان احمق فهو وقب واذا كان يشمخ بانفهِ زهوًا وكبرًا فهو شامخ

اوصاف النساء . اما النساء فقد قيل فيهنّ اذا كانت المرأة حيّية فهي خَفِرة واذا كانت منخفضة الصوت فهي رجيمة واذا كانت محبة لزوجها متحببة اليهِ فهي عَروب فاذا كانت نفورًا من الريبة فهي نَوار فاذا كانت تجتنب الاقذار فهي قذور فاذا كانت عاملة الكفين فهي صناع فاذا كانت كثيرة الولد فهي نثور ومِنتاق وبرْزاء فاذا كانت قليلة الاولاد فهي نَزور فاذا كانت تلد الذكور فهي مِذكار فاذا كانت تلد الاناث فهي مئناث فاذا كانت تلد مرةً ذكرًا ومرة انثى فهي معقاب فاذا كانت تلد توأمين فهي مِتأم فاذ كانت تلد النجباء فهي منجاب فاذا كانت تلد الحمقى فهي مِحاق وميقاب فاذا كانت كثيرة موت الاولاد فهي مِثكال فاذا تركت الزينة لموت زوجها فهي مُحِدّ واذا تزوّجت بعد زوجها

ولها ابن بالغ كبير فهي بَرُوك فاذا كانت ملازمة بيتها فهي خُبَأَة وخبيّة واذا كانت تطّلع ثم تختبئ فهي خُبَعَة طُلَعَة فاذا كانت لا تثبت على حال فهي خَيتَرُوع فاذا كانت بارعة الجمال مستغنية بكمال جمالها عن التزيُّن فهي غانية لكن ابن عقيل يقول الغانية هي الشابة الحسناء التي تعجب الرجال ويعجبها الرجال وقال آخر انها هي المقيمة في بيت ابويها لم تتزوج بعد وقيل بل هي ذات الزوج لانها غنية بزوجها من الرجال اما الجارية اذا بقيت في بيت ابويها غير متزوجة فهي العانس وفي درّة الغواص لا عانق الاّ ما دامت في بيت ابويها والمُخبأة الجارية المخدرة لم تتزوج بعد

ويعبرون عن الشابة الحسنة الخلق بالرخصة وعن البيضاء اللينة الجسيمة اللحيمة الرقيقة العظم بالخرعبة وعن العظيمة البطن المسترخية اللحم بالمفاضة وعن اللطيفة الخصر الضامرة البطن بالمهفهفة وعن التي في شفتها سُمرة بالحوّاء كاللمياء وعن الناعمة البدن رقيقة الجلد بالغُضّة كالبضّة وعن الحسنة الخلق السمينة الناعمة بالبَهكَنَة وعن كريمة النساء بالعقيلة وعن كريمة المال كذلك وعن الحرائر الخيار من النساء بالعواتك ومنهُ اسم عاتكة اما الخاتون فهي كلمة اعجمية من لغة التاتار تُطلَق على المرأة الشريفة وتُلقَّب بها نساء الملوك عند العرب وتجمع على خواتين ويعبرون ايضًا عن المرأة التي لا تمدّ عينها الى غير بعلها بقاصرة الطرف وعن الناعمة التي لم تجرب الامور بالغريرة وعن طويلة هدب العينين بالريشاء وعن السيئة البصر بالعمشاء ومنهُ الاعمش اسم رجل وعن الخشنة بالجشوب وعن القليلة الخير بالخُنطُوب وعن المرأة السمينة بزينب ورَداح وعن المحزونة بالهمّ الشَّجوب وعن اللطيفة باللَّيِّنة وعن الحسنة الدَّلّ (1) بالعروب وعن التي تُستحسَن وحدها لا بين النساء بالخفوت والتي لا يعيش لها ولد بالمقلات ويقابلها العبيّ وهي التي لا يكاد يموت لها ولد ويعبرون عن البكر في اول حملها

(1) الدلّ الدلال يقال دلت المرأة على زوجها اظهرت جراءة عليهِ كانها تخالفهُ وما بها خلاف

بالخَرُوس وكذلك التي تُعمل لها الخرسة[1] والقليلة الدَّرّ وعن الجارية التي تُفترع[2] قبل الاوان بالهاجن ومنهُ المثل جَلَّت الهاجنُ عن الوَلد يضرَب في التعرض للشيء قبل وقتهِ واما التي لم تفترع بعد فيسمونها البكر والمفترعة التي فارقت زوجها الثيِّب ويقولون عركت المرأة او ضحكت اذا حاضت واما التي لا تحيض ولا لبن لها فهي الضهياء والتي ينزل لبنها من غير حبل فهي المُحمِل اما الأيِّم فهي الارملة وتجمع على ايامى والظعينة هي المرأة في هودجها او في بيتها سُميت بذلك لانها تظعن مع زوجها والظعن الارتحال با لارض العُليا اي المرتفعة قالهُ الزوزني ويكنون عن العيال بالبقر لان النساء محل الحرث والزرع ومنهُ المثل جاء يجرُّ بقرهُ اي عيالهُ

اما الخزر فهو ضيق العين وصَغَرها ويقال ان يكون الانسان كانهُ ينظر بمُؤخَّرها والتصعر هو ميل في الوجه او في احدى الشفتين وساجي العين ساكنها اما العين النجلاء فهي الواسعة . والرتل هو الثغر المستوي النبت والحذلة هي الممتلئة والضخمة واللعس سواد في الشفة تستحسنهُ العرب والمتفال المنتنة الريح والحَنَب اعوجاج الساقين والطُرطُب الثدي الضخم المسترخي قال المتنبي يهجو ضبة بن يزيد

ما انصف القوم ضبّه وأُمهُ الطُرْطُبه

والرّتى اللثغاء والهنباء البلهاء والأعفت الاعسر واللفتاء الحولاء والفلَج تباعد ما بين القدمين وما بين الاسنان

قال الزوزني ان العرب تشبّه النساء بالبيض وذلك من ثلاثة اوجه احدها بالصحة والسلامة عن الطمث ومنهُ قول الفرزدق

خرجنَ اليَّ لم يُطمثَن قبلي وهنَّ اصحُّ من بيض النعامِ

والثاني في الصيانة والستر لان الطائر يصون بيضهُ ويحضنهُ . والثالث في

(١) الخرس طعام للنفساء (٢) الافتراع ازالة البكارة

صفاء اللون ونقائهِ وربما شُبّهت النساء ببيض النعامة لان بيض النعامة ابيض تشوبهُ صفرة يسيرة وهذا اللون هو احسن الوان النساء عند العرب وعليهِ قول ذي الرمة كانها فضة قد مسّها ذهبُ

ومن كلامهم بيضة الخد وجاريتهُ

والظاهر ان بعض صفات الجمال يُعتبَر دليلاً عند العرب على رفعة القَدرِ وعلو المنزلة وشرف الحسب قال الشاعر

بعيدةُ مهوى القرطِ اما لنوفلٍ ابوها واما عبد شمسٍ وهاشمِ

تُريد ببعد مهوى القرط طول العنق وقال حسان بن ثابت

بيضَ الوجوه كريمةٌ احسابُهم شمُّ الانوفِ من الطرازِ الاولِ

وعارضهُ آخر فقال

سود الوجوه لئيمةٌ احسابُهم فطسُ الانوفِ من الطرازِ الآخرِ

قال الزوزني ان وصف العرب بالبياض تلويح الى الاحرار الذين ولدتهم حرائر لم تُعرَف الاماء فيهم فتورثهم الوانهنَّ ولاشراق الوانهم وتلألؤ غررهم في الاندية[1] والمقامات اذ لم يلحقهم عار يُعيّرونهُ فتتغير الوانهم ولنقائهم من العيوب لان البيض يكون نقيًا من الدرن والوسخ او لاشتهارهم لان الفَرَس الاغرّ مشهور فيما بين الخيل والمدح بالبياض في كلام العرب لا يخرج من هذه الوجوه ولذلك كانوا يتيمنون بالوجه الابيض

(١) الاندية جمع نادي وهو مجلس القوم ومتحدثهم نهارًا او المجلس ما داموا مجتمعين فيهِ

الفصل الثاني

في الحسن عند العرب

تعبر العرب عن الحسن بالوسامة قال الزوزني الميسم الحُسن وهو من الوسام والوسامة وهما الحسن والجمال وكذا القَسَامة وفي محيط المحيط الميسم المكواة يوسم بهِ الحيوان ويُعلَم وهو ايضًا اثر الجمال وقسُم الغلام بقسمُ قسامةً كان جميلاً

وقد فرّق بعضهم بين معنى الحسن ومعنى الجمال فقال قوم الحسن يلاحظ لون الوجه والجمال يلاحظ صورة اعضائهِ والملاحة تعمهما جميعًا فكل مليحٍ حسن وجميل معًا وليس كلُّ حسنٍ جميلاً ولا كل جميل حسنًا وقيل الجميل الذي ياخذ ببصرك على البعد والمليح الذي ياخذ بقلبك على القرب وقيل ان الجميلة هي التي تعجبك على البعد فاذا دنت لم تجدها كذلك والمليحة هي التي تعجبك على البعد والقرب وقال آخرون الحسن في الوجه صباحة وفي البشرة وضاءة وفي الانف جمال وفي العينين حلاوة وفي الفم ملاّحة وفي اللسان ظُرف وفي القد رشاقة وفي الشمائل لباقة وقد يتسع فيها فيقوم بعضها مقام بعض

وقال آخرون ان وصف الجمال عند العرب هو اعتدال القد وبروز النهد وذبول العيون السود واحمرار الخدود وابيضاض الصدور وثقل الردف ونحول الخصر وطول الجيد

ويحكى ان رجلاً من العرب استشار صديقًا لهُ في امرأةٍ يتزوجها فقال خُذ ملساء القدمين لفاء(١) الفخذين ضخمةَ الذراعين رخصةَ الكفين ناهدة(٢)

---

(١) اللف الضمّ (٢) النهد الشيء المرتفع

الثديين حمراء الخدين كحلاء[١] العينين زجاء[٢] الحاجبين لمياء[٣] الشفتين بلجاء[٤] الجبين شماء[٥] العرنين شنباء[٦] الثغر محلولكة[٧] الشعر غيداء[٨] العنق مكسّرة[٩] البطن

ولما ارسل الحرث بن عمرو ملك كندة امرأة من كندة لتختبر له جمال ابنة عوف بن محلم الشيباني وكمالها وقوة عقلها رجعت اليه فقال ما وراءكِ يا عصام فذهبت مثلاً فقالت صرّح المخضُ عن الزبد رأيتُ جبهةً كالمرآة المصقولة يزينها شعرٌ حالك كاذناب الخيل ان ارسلته خلته السلاسل وان مشطته قلت عناقيد جلاها الوابل وحاجبين كانما خُطّا بقلمٍ او سوّدا بحمم تقوسا على مثل عين ظبيةٍ عبهرة[١٠] بينهما انفٌ كحدّ السيف حُفّتْ به وجنتان كالارجوان[١١] في بياض كالجمان[١٢] شُقّ فيه فمٌ كالخاتم لذيذ المبسم فيه ثنايا[١٣] غرٌّ ذات أشر[١٤] تقلّب فيه لسان ذو فصاحةٍ وبيان بعقلٍ وافر وجوابٍ حاضر تلتقي فيه شفتان حمراوان تحلبان ريقًا كالشهد اذا دُلِكَ في رقبةٍ بيضاء كالفضة رُكّبت في صدر كصدر تمثال دُمية[١٥] وعضدان مدمجان[١٦] يتصل بهما ذراعان ليس فيهما عظمٌ يُمسُّ ولا عرقٌ يُجسُّ رُكّبت فيهما كفّان دقيقٌ قصبهما لينٌ عصبهما تعقد ان شئتَ منهما الانامل نتأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين

---

(١) الكحل هو ان يعلو منابت اهداب العين سواد خلقةً (٢) الزجج دقة الحاجبين في الطول (٣) اللمى سواد او سمرة في الشفة والالمى البارد الريق ايضاً (٤) البلج نقاوة ما بين الحاجبين (٥) الشمم حسن الانف وارتفاع قصبته والعرنين الانف (٦) الشنب عذوبة ماء الاسنان والثغر الفم والاسنان او مقدم الاسنان (٧) الحلكة شدّة السواد (٨) الاغيد المنثني (٩) الكسر الثني وتكسير البطن طياته (١٠) الظبي حيوان كالغزال والعبهر الممتلي الجسم (١١) الارجوان الاحمر (١٢) الجمان اللؤلؤ (١٣) الثنايا اربع اسنان في مقدم الفم ثنتان من فوق وثنتان من اسفل والغرّة بياض الاسنان (١٤) تأشير الاسنان تحزيزها وتحديد اطرافها (١٥) الدمية راجع اديان العرب (١٦) المندمج المدوّر

يخرقان عليها ثيابها تحت ذلك بطن طوي طيّ القباطيّ المدمجة كسر عكنًا كالقراطيس المُدرّجة تحيط بتلك العكن سرّة كالمدهن المجلوّ خلف ذلك ظهر فيهِ كالجدول[١] ينتهي الى خصر لولا رحمة الله لانبتر[٢] لها كفل يقعدها اذا نهضت وينهضها اذا قعدت كأنهُ دعص[٣] الرمل لبدهُ سقوط الطل[٤] يحملهُ فخذان كانما قُلبا على نضدِ جان تحتهما ساقان حذلتان[٥] كالبرديتين[٦] وشيًا بشعر اسود كأنهُ حَلَقُ الزردِ ويحمل ذلك قدمان كحذو اللسان فتبارك الله مع صغرها كيف يطيقان حمل ما فوقها

وكتب المنذر الاكبر الى كسرى انوشروان وقد اهدى لهُ جاريةً اني قد وجهت الى الملك جارية معتدلة الخلق نقية اللون والثغر بيضاء وطفاء[٧] كحلاء دعجاء[٨] حوراء[٩] عيناء[١٠] قنواء[١١] شماء برجاء[١٢] رجاء[١٣] اسيلة[١٤] الخد شهيّة المقبل جثلة الشعر عظيمة الهامة بعيدة مهوى القرط عيطاء[١٥] عريضة الصدر كاعب[١٦] الثدي ضخمة مشاش[١٧] المنكب[١٨] والعضد حسنة المعصم لطيفة الكعب والقدم قطوف[١٩] المشي مكسال[٢٠] الضحى بضة[٢١] المتجرّد سموع

(١) الجدول النهر الصغير (٢) البتر القطع (٣) الدعص كثيب الرمل
(٤) الطل المطر الضعيف والندى (٥) الحذل الميل نحو الشيء
(٦) البردي نبات (٧) الوطف كثرة شعر الحاجبين والعينين
(٨) الدعج شدة سواد العين (٩) الحوَر اشتداد بياض العين وسوادها واستدارة حلقتها ورقة جفونها (١٠) العيَن عظم سواد العين باتساع
(١١) قنيَ الانف ارتفع اعلاهُ وارتفعت قصبتاهُ وضاق منخراهُ
(١٢) البرَج هو ان يكون بياض العين محدقًا بالسواد كلهِ
(١٣) الرجّ التحريك والتحرك والاهتزاز (١٤) الاسيل الاملس
(١٥) العيط طول العنق (١٦) الكعوبة نهود ثدي الجارية يعني ارتفاعها
(١٧) المشاش جمع مشاشة وهي راس العظم الممكن مضغهُ (١٨) والمنكب مجتمع راس الكتف والعضد (١٩) القطوف الخدوش والقطف الاثر
(٢٠) المكسال من الكسل وهو التواني عن الشيء والفتور فيهِ
(٢١) البض الرخص الجسم الرقيق الجلد

للسيد ليست بخنساء[١] ولا سعفاء[٢] رقيقة الانف عزيزة النفس لم تغذ[٣] في بؤس جبية[٤] رزينة حليمة ركينة كريمة الخال تقتصر على نسب ابيها دون فصيلتها وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها قد احكمتها الامور في الادب فرأيها رأي اهل الشرف وعملها عمل اهل الحاجة صناع الكفين قطيعة اللسان زهوت[٥] الصوت ساكنة تزين الولي وتشين العدوّ ان اردتها اشتهت وان تركتها انتهت تحملق[٦] عيناها وتحمّر وجنتاها وتذبذب[٧] شفتاها وتبادرك الوثبة اذا قمت ولا تجلس الاّ بامرك اذا جلست

نبذة

في بعض المشتهرات في الجمال والمتادبات من النساء

اشتهر كثير من النساء العربيات بالجمال المفرط من النساء والرجال ايضاً وضربت بهم فيهِ الامثال فمن النساء ماويّة بنت عوف بن جشم وقيل بنت ربيعة الثعلبيّ وهي ام المنذر ملك العراق ابن امرء القيس بن النعمان خليفة كسرى على العرب وكان مقامهُ في قصر الخورنق والحيرة وبهِ يُضرَب المثل فيقال اكفى لقومهِ من ابن ماء السماء فان امهُ ماوية المذكورة كانت تُلقَّب بماء السماء لجمالها والمنذر هذا هو ابو النعمان الذي كان يحمي ظهر الكوفة رغبةً في

(١) الخنس تأخر الوجه عن الانف مع ارتفاع الارنبة
(٢) السعفة قروح تكون في راس الصبي ووجههِ والسفع سواد يضربُ الى الحمرة ايضاً (٣) اغذ بالغ في السير وغذّ وثب (٤) الجبية المرأة لا يروعك منظرها
(٥) الزهو الكبر والتيه والفخر (٦) الحملقة فتح العينين والنظر الشديد
(٧) الذبذبة راجع الاصوات في الفصل الثالث من المقالة السابقة

الشقائق التي كانت تنبت فيهِ فنُسبت اليهِ فقيل شقائق النعمان

ومنهنَّ شيرين وهي بنت رجل كبير من روُساء بلدةٍ يقال لها سابروج او ساروج اخذها والي تلك البلدة من ابيها واهداها الى قيصر فاهداها قيصر الى كسرى ابرويز فوقعت في قلبهِ حتى صار حبهُ لها مثلاً نظير حسنها فانهم يقولون في المثل اجمل من شيرين

ومنهنَّ عائشة بنت طلحة وامها ام كلثوم بنت ابي بكر الصديق وكانت لا تستر وجهها فعاتبها مصعب بن الزبير في ذلك وكان جميلاً فقالت ان الله وسمني بميسم جمالٍ احببت ان يراهُ الناس ويعرفوا فضلهُ عليهم

ومنهنَّ لبَّابة بنت عبد الله بن العباس وكانت عند الوليد بن عتبة بن ابي سفيان وكان الوليد جميلاً ايضًا فكانت تقول ما نظرت وجهي في مرآةٍ مع انسان الاَّ رحمتهُ من حسن وجهي الاَّ الوليد فكنت اذا نظرت الى وجهي مع وجههِ رحمت وجهي من حسن وجههِ

وممن اشتهر بالجمال من الرجال غير الوليد المذكور ذو العمامة سعيد بن العاص بن أُمية كان اذا خرج لم تبقَ امرأة الاَّ برزت للنظر اليهِ وبهِ تضرب اهل مكة المثل فيقولون اجمل من ذي العمامة

ومنهم المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد وسوف يأتي ذكرهُ

ومنهم المقنَّع الكندي محمد بن ظفر بن عمير بن فرعان بن قيس بن الاسود ابن عبد الله بن الحرث بن عمرو بن معاوية بن كندة كان اجمل الناس وجهًا واكملهم خلقًا واعدلهم قوامًا وكان يمشي بين الناس مقنعًا اي مغطيًا وجههُ كالمرأة خوفًا من اصابة العين (وهو غير المقنَّع الخراساني المشهور بالشعبذة) قال الاصبهاني ان المقنع الكندي وابا زبيد الطائي ووضاح اليمن واسمهُ عبد الرحمن ابن اسماعيل لُقِّب وضاح اليمن لجمالهِ وبهائهِ كانوا يردون مواسم العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفًا من العين

وحيث ان العرب لم تكن تنكر على النساء شيئًا من الاوصاف التي تستحسن

في الرجال الاّ الشجاعة والكرم كان مما لا بأس بذكرهِ هنا بعض النساء المتأدبات اللواتي اشتهرنَ بالفصاحة والمعارف وضربت بهنَّ الامثال في ذلك

ومنهنَّ الخنساء واسمها تُماضِرُ بنت عمرو بن الشريد السلمية التي اشتهرت بمراثيها في اخيها صخر الذي كان اجمل رجل في العرب قتلهُ ربيعة بن ثور الاسديّ في يوم ذي الاثل فحزنت عليهِ حزنًا شديدًا لم يُسمَع بمثلهِ وضرب المثل في رثاها فقالوا ارثى من الخنساء وزعموا بانهُ لايمكن ان تأتي فحول الرجال باحسن من مراثيها ومن ذلك قولها

وولا كثرة الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثل اخي ولكن اعزّي النفس عنهُ بالتأسي

وقولها في مدحهِ

وان صخرًا لتأتمُّ الهداة بهِ كأنّهُ علمٌ(1) في رأسهِ نارُ

ومنهنَّ ليلى الاخيلية بنت عبد الله بن الرحال كانت من النساء المتقدمات في الشعر بعد الاسلام وكان توبة بن الحمير احد بني الاسدية راغبًا فيها فخطبها الى ابيها فابى ان يزوجهُ اياها وزوجها الى رجل من بني الادلع ثم قتل توبة في خلافة معاوية قتلهُ رهط عوف بن عامر بن عقيل لكونهِ كان يغير على احيائهم فكانت ترثيهِ بمراثٍ جيدة ولها تقاطيع من الشعر في مديح عبد الملك بن مروان والحجاج وغيرهُ حسنة للغاية

ومنهنَّ الفارعة المرّية اخت مسعود بن شداد وغيرها كثير من النساء البدويات نضرب عن ذكرهنَّ اختصارًا

واما الحضريات فمنهنَّ عائشة الباعونية التي مرّ ذكرها في الكلام على دمشق

---

(1) العلم من اسماء الجبل العظيم

ومنهنّ الفارعة وقيل فاطمة وقيل ليلى اخت الوليد بن طريف بن الصلت الشيباني احد الطغاة الابطال كان راس الخوارج في خلافة الرشيد العباسي وقتل سنة ١٧٩ للهجرة (سنة ٧٩٥ م) فكانت ترثيهِ بقصائد تسلك فيها سبيل الخنساء في اخيها صخر

ومنهنّ فاطمة بنت السلطان محمد السلجوقي زوجة المقتفي لامر الله العباسي كانت تقرأُ وتكتب ولها التدبير الصائب توفيت سنة ٥٤٢ للهجرة (سنة ١١٤٧ م)

ومنهنّ فخر النساء شهوة بنت ابي البصر احمد بن الفرج بن عمر الابري الكاتبة الدينورية الاصل البغدادية المولد كانت من العلماء وتكتب الخط الجيّد وسمع عليها خلق كثير توفيت سنة ٥٧٤ للهجرة (سنة ١١٨٨ م)

وام علي تقيّة بنت ابي الفرَج وهي ام تاج الدين ابي الحسن علي بن فاضل ابن حمدون الصوري الاصل نظمت قصيدة تمدح فيها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين وكانت القصيدة خمرية فلما وقف عليها قال الشيخة تعرف هذه الاحوال في زمن صباها فلما بلغها ذلك نظمت قصيدةً اخرى حربيّة وصفت الحرب بها احسن وصف وسيرت اليهِ تقول علمي بهذا كعلمي في ذاك توفيت سنة ٥٧٩ للهجرة (سنة ١١٨٣ م)

وامّ المؤيّد زينب وتُدعى حرّة ايضًا بنت ابي القاسم عبد الرحمن بن الحسن بن احمد بن سهل بن احمد بن عبدوس الجرجاني كانت من العلماء وكتبت لبعضهم اجازة ايضًا توفيت سنة ٦١٥ للهجرة (سنة ١٢١٨ م)

وما احسن ما اجاب بهِ يحيى بن علي المنجم الجاحظَ وقد قال في كتابهِ المسمّى بكتاب البيان والتبيين انما يستحسن اللحن من النساء في الكلام واستشهد بقول مالك بن اسماء وهو

وحديث الذُّهُ هو مما يبعث الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن احيا نًا واحلى الحديث ما كان لحنا

فقال له المنجم ان المرأة فطنة تلحن بالكلام الى غير الظاهر بالمعنى لتستر معناه وتوري عنهُ وتفهمهُ من ارادت بالتعريض وفي الآية لتعرفنهم في لحن القول ولم يرد الخطاء من الكلام والخطاء لا يستحسن من احدٍ

الفصل الثالث

العشق في الاعراب

لا يخفى بان اصل دواعي العشق في البادية هو لكون نساء العرب في الجاهلية لم يكنَّ يتبرقعنَ اصلاً لان لبس البراقع النساء هو امرٌ حادث في نساء الحَضَر اوجبتهُ الشريعة الاسلامية منذ أُنزلت آية الحجاب ومن ثم امرت بعدم تمكن الرجال من رؤية النساء بل روى الاصبهاني انهُ في عهد الخلفاء العباسيين ايضًا ما كانوا يحجبون جواريهم ما لم يلدنَ اه . اما نساء البدو فلا زلنَ حتى الآن يظهرنَ امام الرجال منكشفات الوجوه قال بعضهم ولذلك كانت البادية محل العشق وما يترتب عليهِ من الغزَل وغيرهِ كالنوادر المذكورة في كتب الادب

وقالوا ان العشق هو نهاية درجات المحبّة وقد عرفوهُ بانهُ عجب المحب بمحبوبهِ او افراط الحب ويكون في عفافٍ وفي دعارةٍ او عمَى الحسّ عن ادراك عيوب المعشوق او مرضٌ وسواسيٌّ يجلبهُ الى نفسهِ بتسليط فكرهِ على استحسان بعض الصور وقال ابن فارس ما العشق الاَّ غرام بالنساء وقد عدّت الاطباء العشق من الامراض قال ابقراط ان العشق نصف الامراض وقال الفارابي انهُ ثلثا الامراض لتعلقهِ بالبدن والنفس جميعًا وقالوا لا يعرض لغليظ الطبع

ولا لفاسد المزاج ووضيع الهمّة قال المتنبي

وعذلتُ اهلَ العشقِ حتى ذقتهُ فعجبتُ كيف يموت مَن لا يعشقُ

وذكر في مجمع السلوك ان بداءة المحبة الموافقة(١) ثم الميل(٢) ثم المؤانسة(٣) ثم المودّة(٤) ثم الهوى(٥) ثم الخلّة(٦) ثم المحبة(٧) ثم الشغف(٨) ثم التتيّم(٩) ثم الوله(١٠) ثم العشق(١١) واما في الكليات فقد قيل ان اول مراتب الحبّ الهوى ثم العلاقة(١٢) ثم الكَلَف(١٣) ثم العشق ثم الشغف واللوعة واللاعج مثل الشغف ثم التتيّم ثم التبل(١٤) ثم الوله ثم الهيام(١٥)

ويُضرَب المثل بين العرب ببني عذرة في ذلك فيقال اعشق من بني عذرة كما انهم يعبّرون عن الهوى الخالي من الريبة بالهوى العذريّ نسبةً الى هولاء القوم الذين اشتهروا بهِ وعليهِ قول الفارض

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرةً مني اليكَ فلو انصفت لم تَلُمِ

وبنو عذرة المذكورون هم حيٌّ من احياء العرب يقال انهم اذا احبّوا ماتوا ومنهم بُثَينة بنت عبد الله العذرية صاحبة جميل بن معمّر العذريّ وعفراء بنت

---

(١) الموافقة ضد المخالفة (٢) الميل العدول الى الشيء عن غيره مع التردد
(٣) الانس ضد التوحش وقيل الملاطفة والترقق وارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة
(٤) المودة والتمني والمحابة (٥) الهوى ارادة النفس وميلها الى ما تستلذهُ
(٦) الخلة المؤاخاة والصداقة المختصة لا خلل فيها بخلوص المودة
(٧) المحبة ميل الطبع الى الشيء الملذ وقيل ترادف الارادة
(٨) الشغف هو ان يشقّ الى شغاف القلب وهو حجابهُ حتى يصل الى الفؤاد
(٩) التتيم والتعبد والتذلل ومنهُ تيم اللات اي عبد اللات
(١٠) الوله اضطراب العقل والحيرة من شدة الوجد والخوف منهُ
(١١) العشق عجب المحب بمحبوبهِ (١٢) العلاقة الحب اللازم للقلب
(١٣) الكلف الحب الشديد مع الولوع واللهج (١٤) التبل الذهاب بالعقل والسقم من العشق (١٥) الهيام الوسوسة والجنون في العشق

مالك العذرية صاحبة عروة بن حزام قال شاعرهم

اذا ما نجا العذريُّ من ميتةِ الهوى فذاك وربِّ العاشقينَ دخيلُ

قيل لاعرابي ممن انت قال من قومٍ اذا احبوا ماتوا فقالت جارية سمعتهُ عذريٌّ وربِّ الكعبة

وصحب جميلاً الذي مرَّ ذكرهُ رجل من بني عذرة يدّعي العشق وهو سمين فقال فيهِ

وقد رابني من زَهدَمٍ انَّ زهدمًا يُشدُّ على خبزي ويبكي على عُمْلِ
فلو كنت عذريَّ العلاقة لم تكن سمينًا وانساك الهوى كثرةَ الاكلِ

وتزعم العرب ان المرأة اذا احبت رجلًا واحبها ثم لم يشقَّ عليها رداءهُ ونشقَّ عليهِ برقعها فسدَ حبهما قال عبد بني الحَسْحاس

وكم قد شققنا من رداء مزنَّرٍ ومن برقعٍ عن ناظرٍ غيرِ ناعسِ
اذا شقَّ بردٌ نيط بالبرد برقعٌ على ذاك حتى كلنا غير لابسِ

هكذا رواهُ الزوزني واما الشيخ ناصيف اليازجي فقد اورد هذين البيتين في كتابهِ مجمع البحرين هكذا

وكم قد شققنـا من رداء محبرٍ[1] ومن برقعٍ عن طفلةٍ[2] غيرِ عانسِ[3]
اذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبرد برقعٌ من الحبِّ حتى كلّنا غيرُ لابسِ

وفي محيط المحيط

اذا شقَّ بردٌ شقَّ بالبردِ مثلهُ دواليك[4] حتى ليس للبردِ لابسُ

---

(١) الحبر والحبير الناعم الجديد (٢) الطفل الرخص الناعم من كل شيء
(٣) العانس الجارية التي طال مكثها في بيت ابيها بعد ادراكها
(٤) دواليك كرات متتابعة يقال فعلنا ذلك دواليك اي كرات بعضها في اثر بعض

وللعرب خرزة تسمّى السلوانة تُجمع على سلوان يزعمون ان العاشق اذا حكّها وشرب ما يخرج منها صبَر واليها نسب الامام ابو عبد الله محمد بن ابي محمد ابن ظفر كتابهُ المسمّى سلوان المطاع في عدوان الاتباع

قال روبة

لو اشرب السُّلوانَ ما سَلِيتُ ما بي غِنًى عنكم وان غَنِيتُ

وكان من امثالهم اذا دخلت ارضَ الحُصَيب فهرول اي اسرع في مرورك لئلاَّ تفتنك نساؤهُ بجمالها والحُصَيب موضع في اليمن يوصف بحسن النساء مع ان اهالي اليمن مشهورين بين العرب بقبح الصورة

الفصل الرابع

في احوال الزواج وما يتعلق بهِ وبالاولاد الى غير ذلك من سني المعيشة والممات

اما في امر الزواج فقد قلّ في حرائر العرب من يرغبنَ في الزواج بغيرِ من هو كفوءٌ لهنَّ وفي طبقتهنَّ وقد تعرض الآباء على بناتهم امر الزواج قبل العقد عليهنَّ يُحكَى انهُ كان لرجلٍ في الجاهلية يقال لهُ همام بن مرّة بناتٍ يستحيِنَ ان يجاوبنهُ عند ما يعرض ذلك عليهنَّ فيظنهُ لعدم رغبتهنَّ فيمتنع الى ان سمعهنَّ يتحادثنَ يومًا في خلوتهنَّ امر الزواج فكانت كل واحدةٍ منهنَّ تقول ابياتًا تبدي رأيها فيهِ الى ان وصل الدور بصغراهنَّ فالححنَ عليها ان تقول فقالت زوج من عود خير من قعود فذهبت مثلاً

وكانت الرجال ترغب في المرأة الغريبة اكثر من القرائب ولذلك قالوا في امثالهم النزائع ولا القرائب والنزيعة الغريبة يعني ان الغريبة انجب وصدّق على ذلك الاسلام لما ورد في الحديث اغتربوا ولا تُضْوُوا اي تزوجوا في الاجنبيات ولا تتزوجوا في العمومة وهذا النهي ليس هو من قبيل التحريم بل على سبيل النصيحة لان العرب تعتقد ان ولد الرجل من قرابتهِ يجيء ضاويًا يعني نحيفًا غير انهُ يجيء كريمًا على طبع قومهِ قال الشاعر

فتًى تلدهُ بنت عمٍّ قريبة　　فيضوي وقد يضوي رويد القرائبُ

ولا يخفى بان الشريعة الاسلامية لم تزد شيئًا في امر الزواج على ما جاءت بهِ التوراة الأ في منع الرجل من التزوج برضيعتهِ فان المرأة التي تكون رضعت مع الرجل من حليب امهِ او هو رضع معها من حليب امها تُعتبر نظير الاخت الشقيقة لهُ فلا يجوز ان يتزوج بها فمن ثمّ كانت درجات القرابة المحرَّمة عندهم تحصر في الامهات والبنات والاخوات والعمّات والخالات وبنات الاخ وبنات الاخت والامهات من الرضاعة والاخوات من الرضاعة وامهات النساء والربائب اللاتي في الحجور من النساء اللاتي دخلنَ بهنَّ وحلائل الابناء الذين من الاصلاب والاجماع بين الاختين

ويظهر ان بعض هذه القواعد كان محفوظًا في الجاهلية ايضًا لانهم كانوا لا يجمعون في الزواج بين الاختين ولا يتزوجون المرأة وبنتها وانما بعضها كان مهملًا بالكلية حتى انهُ كان من سننهم نكاح المقت وهو ان الرجل اذا مات قام ولدهُ الاكبر فالقى ثوبهُ على امرأة ابيهِ فورث نكاحها فان لم يكن لهُ بها حاجة زوجها لبعض اخوتهِ بمهرٍ جديد فكانوا يرثون ذلك كما يرثون الاموال وقال آخرون انهم كانوا يعيبون من يفعل ذلك ويسمونهُ الضَيْزَن وفي محيط المحيط الضَيْزَن من يزاحم اباهُ في امرأتهِ قال اوس بن حجر المازني وكلّهم لابيهِ ضَيْزَنٌ خَلَفُ ومنهُ الضيزن الغساني عمّ الزباء ملكة جزيرة العرب وقال ابن خلكان

ضَيزَن اسم صنم كان في الجاهلية وبهِ تسمّى الساطرون صاحب تكريت (من بلاد الجزيرة) وحاصل الامر ان الاسلام أبطل من بينهم هذه العادة الردية

وجرت العادة ان ابا البنت او اخاها اذا كان ابوها ميتًا او مَن كانت تحت حجرهِ من الاقارب يمدُّ يدهُ الى نفس الخاطب او الى ابيهِ ولمن يكون بُعث وسيطًا في الطلب ويجيب سؤلهُ في طلبهِ بعد ان يتفقا على مهرٍ معلوم للزوجة كما ياتي الكلام على ذلك وقيل كانت العرب تتزوج بهذه الكلمة وهي ان يقول المخطوب نكحٌ ويُضمان ثم يتواعدن على يومٍ او وقتٍ معين للزفاف بحضرة شهود عدل وفي الاسلام لابدّ من تحرير صكٍ بذلك يسمونهُ الكتاب فمتى قيل ان فلانًا كتب كتابهُ على فلانة علِمَ انهُ قد تزوج بها

ومتى جاء اليوم المعين اولموا الولائم وزُفت العروس على عريسها بعد ان تصلح النساء المسميات بالمواشط واحدتهنّ ماشطة شأنهـا ويقدّم لها الزوج الجلوَة وتكون اما وصيفة او غيرها ثم تُضرَب لهُ قبة فيدخل عليها بهـا وينثر للحاضرين في العرس اشياء كالكعك والخبيص يسمونها النثار وقيل بل ان نثار العرب في اعراسهم كان التمر

ويسمون الليلة التي تُفترَع فيها المرأة شيباء والليلة التي لا يقدر الزوج فيها على ذلك حرّة ولذلك جاء في امثالهم باتت بليلةٍ حرّة يعني لم يغلبهـا الزوج وباتت بليلةٍ شيباء اذا غلبها يضربان للغالب والمغلوب ويقولون عن الرجل هو بعل المرأة وللمرأة هي بعلة وبعلتهُ كما يقال هو زوجها وهي زوجة وزوجتهُ وكذلك الحليل هو الزوج والحليلة الزوجة لانهما تحلان منزلاً واحدًا وفراشًا واحدًا

ويعتنى عند زواج البكر بوجود البكارة عند الدخول عليهـا واعلان ذلك يوم صباحيتها باظهار منديلٍ او نحوهِ ولا زالت العادة محفوظة على هذه الصورة عند المصريين الى عصرنا هذا واما في بعض بلاد الشام فيكتفي بارسال قميص المبيت ليلة الزواج الى بيت ابيها ولعلهُ لهذا السبب كانت العرب في

الجاهلية لا يزوجون امرأةً لرجلٍ شبَّب بها قبل خطبته كما انهُ اذا كان زواجها في بيت ابيها عند ما لم يكن العريس من سكان نجعها فلَّ ان سمحت له باقترابه منها احترامًا لابيها وعشيرتها فلا يتمُّ له ذلك الاَّ بعد ان يرجع بها الى وطنهِ

ثم لا بد لنساء العرب من متبنة وهي كيس تضع فيه المرأة مرآتها وادواتها ويضربون المثل بنقاوة مرآة الغريبة لان المرأة التي تزوجت بغير قومها لا ترى من تعتمد عليهِ فتحتاج ان تنقي مرآتها من كل ما يكدرها حتى تريها من نفسها ما يخفى عليها فتزيلها ولذلك يقولون لمن ارادوا المبالغة في وصف نقاوته انقى من مرآة الغريبة

واذا لم تحسن المعاشرة بعد ذلك بين الزوجين كان المرأة في الجاهلية حق ان تطلّق زوجها كما جرت عادة الرجال عندهم ان يُطلّقوا نساءهم بان يقول الرجل لامرأتهِ الحقي باهلكِ او اذهبي فلا أَنْدَه سَرْبكِ والنده الزجر والسرب المال الراعي فكانت تُطلق عندهم بهذه اللفظة او ان يقال لها الظباء على البقر واما النساء اذا اردنَ الطلاق وكنَّ في بيوتٍ من شعر فان كان البيت من قبل المشرق حولنهُ الى المغرب وان كان من قبل المغرب حولنهُ الى المشرق وان كان من قبل اليمن حولنهُ الى الشام وان كان من قبل الشام حولنهُ الى اليمن فاذا رأى الرجل ذلك علم ان امرأتهُ طلقتهُ فلم يأتها بعدهُ لكن لما جاء الاسلام جُعلت العصمة للرجال لا للنساء وان الرجل سيد اهل بيته ولا يقع الطلاق الاَّ ان يقول الرجل لامرأتهِ صراحةً انتِ طالق ويجوز بعدها ان تُردَّ اذا كان لم يقع الطلاق الاَّ مرتين في كلِّ مرةٍ طلقةً واحدة واما بعد الثالثة او اذا قال الرجل لامرأتهِ دفعةً واحدة انتِ طالق ثلاثًا فلا يجوز حينئذٍ الردُّ الاَّ ان تدخل المطلقة في عصمة زوجٍ آخر بعد ان تقضي العدَّة ليتحقق خلوها من الحبل ثم تطلق منهُ ايضًا وحينئذٍ يمكن لمن طلقها قبلاً ان يستردَّها غير ان هذا الردَّ لا يكون مقبولاً كل القبول الاَّ اذا كان وقوع ذلك اتفاقيًا عن غير قصدٍ واما اذا كان وقوعهُ مقصودًا فلا

والعدّة التي مرّ ذكرها ثنتان عدّة طلاق وهي ثلاث حيض او ثلاث اطهار وعدّة وفاة وهي اربعة اشهر وعشر يلزم المرأة التربصُ فيهما شرعًا ليصير بعد ذلك التزوج بها حلالاً وكانت العادة عند العرب في الجاهلية ان المرأة متى انتهت عدّتها اي تربصها الاربعة الاشهر بعد موت زوجها كسرتها بمسّ الطيب او بغيره او دلكت جسدها بدابةٍ او بطيرٍ ليكون ذلك خروجًا عن العدّة وقيل بان الطائر الذي كانت تمسح المرأة بهِ قُبلَها على ما تقدم لا يكاد يعيش بعد ذلك والاستبراء للأمة نظير العدّة للحرّة

وكان تعدّد الزوجات واباحة ما في ملك الرجل من الاماء شائعًا في الجاهلية فاقرّ ذلك الاسلام ايضًا للرجل بخلاف النساء فان المرأة لا تكون الاّ في عصمة رجلٍ واحد فقط واما الرجل فانهُ يتزوج بالتي ارادها بحيث لا يكون في عصمتهِ سوى اربع نسوةٍ فقط في آنٍ واحد غير ملك اليمين فان ذلك لا حصر فيهِ ويقال للرجل اذا تزوج أَحْصَنَ كما يقال للمرأة اذا تزوجت أَحْصَنَتْ فهو مُحْصَنٌ وهي مُحْصَنَةٌ ومُحْصِنة وأثفى الرجل اذا تزوج بثلاث نسوةٍ والمِثْفَى الرجل دفن ثلاث نساء والذي تموت لهُ الازواج كثيرًا والمِثْفاة مؤنث المِثْفى وحرث الرجل جمع بين اربع زوجات اما النساء المتزوجات برجلٍ واحد فيقال لهنّ ضرائر وقيل ان العرب تكنّي عن الضرّة بالجارة تطيرًا من الضرر وتجمع على جارات واما المرأة التي تتزوج بعدة رجال في آنٍ واحد فيسمونها بغيّة واذا ولد لها ولد الحقتهُ بمن شاءت فربما ادّعاهُ وربما انكرهُ لانها لا تمنع من يتابها ولذلك يقولون في امثالهم ابنكَ ابنُ بوحِكَ يشربُ من صبوحِكَ يريدون بذلك ابنك من بحت بهِ وباحت بهِ أُمهُ

واما الصداق(١) للمرأة وهو المهر الذي مرّ ذكرهُ فكان لا بدّ منهُ في الجاهلية

(١) العرب يجعلون لكل عطيةٍ اسمًا. فاسم ما تُعطى المرأة في النكاح الصداق. واسم ما يعطى الشاعر الجائزة واسم ما يعطى عن دم المقتول الدية واسم ما يعطى عما يتلف النيهة واسم ما تصحّ بهِ المعاوضات الثمن وما يعطى عن تفاوت الجنايات الارش وما يعطى الدليل

وهو كذلك في الاسلام ايضًا وربما بلغ مبلغًا عظيمًا ولذلك كانت العرب في الجاهلية تقول اذا وُلِدَت لاحدهم بنتٌ هنيئًا لك النافجة اي المعظمة لمالك لانك تاخذ مهرها فتضمهُ الى مالك فينتفخ فلا يمكن للرجل ان يتزوج بدون اصداق الزوجة شيئًا يعطيها بعضهُ قبل دخولهِ عليها وبعضهُ يبقى دينًا عليهِ تستوفيهِ منهُ متى طلقها او من تركتهِ بعد موتهِ وذلك ما عدا حقها من ارثهِ بحسب ما توجبهُ لها الفريضة الشرعيَّة بمقتضى الاحكام القرآنية

اما حقوق الارث فهي اذا كان للميت اولاد من زوجاتهِ كلهنَّ او من واحدةٍ منهنَّ كان حقُّ نسائهِ واحدةً كُنَّ او اربع الثُمن من مخلفاتهِ فاما ان لم يكن لهُ اولاد فيكون الربع تستقلُّ بهِ الواحدة او يقتسمنهُ اذا كنَّ اكثر من ذلك وحيث ان الذكر في الشريعة الاسلامية لهُ مثل حظّ الانثيين كان حقّ ارث الرجل من ارث الزوجة مضاعفًا يعني من التي لها اولاد الربع ومن التي ليست بذات اولاد النصف يستقلُّ بهِ لذاتهِ

وكذلك للذكر من اولاد الميت مثل حظّ الانثيين فان كنَّ نساء فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف ولابويهِ لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان لهُ ولد فان لم يكن لهُ ولد وورثهُ ابواهُ فلأمهِ الثلث فان كان لهُ اخوةٌ فلأمهِ السدس وان كان رجل يُورَثُ كلالةً او امرأة ولهُ اخ او اخت فلكل واحدٍ منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث وان امرؤ هلك ليس لهُ ولد ولهُ اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا اخوةً رجالاً ونساء فللذكر مثل حظّ الانثيين وجميع ذلك لا يكون الاَّ من بعد انفاذ وصية المتوفي ووفاء دَينهِ

الجعالة وما يعطى الخنير الخفارة وما يعطى الراقي البُسلة وما يعطى الدلال وتيرة مما مرّ الحلوان وما يعطى الفقير الصدقة وما يعطى تلميذ الصانع الراشن وما يعطى السلطان الاتاوة وما يعطى الجندي الوظيفة وما يعطيهِ الذمي الجزية

نبذة

في ما يتعلق بالاولاد

وكانت العادة عند العرب ان لا يلحقوا في النسب الاَّ مَن ارادوا ان يبوحوا بهِ على ما سبقت الاشارة اليهِ اذا كان مولودًا لهم من بغيّة والاَّ بقي منسوبًا الى امهِ او الى ابٍ مجهول كما وقع ذلك لزياد بن سميَّة زوج عبيد الذي الحقهُ معاوية بن ابي سفيان في النسب ليستميلهُ اليهِ عند ما مدَحهُ عمرو بن العاص بقولهِ لو كان هذا الغلامُ من قريش لساقَ الناسَ بعصاهُ وكان ابو سفيان قد قال اني لاعرِفُ الذي وضعهُ في رحم امهِ ومع ذلك بقي هذا الرجل مشهورًا باسم امهِ سميّة فيقولون لهُ زياد بن سميّة او زياد ابن ابيهِ او ابن امهِ فلم تكفّ العرب عن الطعن عليهِ وعلى نسبهِ فأَلَّف هو كتابًا في مثالب العرب واعطاهُ اولادهُ وقال لهم استظهروا بهذا على العرب فانهم يكفُّون عنكم فكان هو اول من أَلَّف في هذا الموضوع

اما اولادهم من الاماء فكانوا يستعبدونهم الاَّ اذا انجب الولد فحينئذٍ يعترفُ بهِ ابوهُ (كما وقع لعنترة بن شداد العبسيّ) والاَّ بقي عبدًا واما في الاسلام فلافرق بين الاولاد سواءٌ كانوا مولودين من حرائر او من اماء بل اذا كان الولد مولودًا من أَمةٍ فان امهُ تصير حرّةً شرعًا ولا يوجد فرق بينهُ وبين سائر اخوتهِ المولودين لابيهِ من حرائر لا في النسب ولا في الحقوق

وكان من عادة نساء العرب ايضًا ان لا يرضعنَ اولاد غيرهنَّ لان ذلك عارٌ عندهم فتجوع المرأَة الشريفة النفس ولا تأْجر نفسها للرضاع ولذلك جرى

في المثل عندهم تجوع الحرّة ولا تأكل بثديها

وتكني العرب عن الولد بالبول وعلى هذا عبّر ابن سيرين روٴيا عبد الملك بن مروان وكان رأى في حلمهِ بانهُ قام في محراب المسجد وبال فيهِ خمس مرّاتٍ فكتب لهُ ابن سيرين المذكور ان صدقت روٴياك فسيقوم من اولادك خمسة في المحراب ويتقلدون الخلافة من بعدك وكان كذلك

ويعبّرونَ عن الولد ما دامَ في بطن امهِ بالجنين اما اذا كان في بطن امهِ وقد أُخِذَت من ارض الشرك فهو حَمِيل فاذا مات الولد في بطن امهِ فهو حُشّ فاذا القتهُ ميتًا فهو حَشِيش واذا كان يُبقر عنهُ بطنُ امهِ اذا ماتت فهو خِشْعَة فاذا ولدتهُ اماءٌ اي كان ابوهُ عبدًا وامهُ جارية فهو المَحْبوس اما المولود من الحرّة فهو وليد فان لم تستتم عليهِ سبعةُ ايامٍ فهو صَدِيغ ثم ما دام يرضع فهو رضيع فاذا فُطِمَ عنهُ اللبن فهو فطيم فاذا دبَّ ودرج فهو دارج فاذا نبتت اسنانهُ بعد السقوط فهو مُثغِر فاذا كان يجاوز عشر سنين فهو مُتَرعْرِع وناشٍ فاذا كان يبلغ الحلم فهو يافع وحَزوّر ومُراهِق فاذا اخضرَّ شاربهُ فهو فتًى ثم شاب ثم كهل وهو من جاوز الثلاثين الى الخمسين من عمرهِ ثم شيخ وهو من جاوز الخمسين الى الثمانين ثم يَفَن وكُنْتِي قال الشاعر

وماذا تبتغي الشعراءُ مني   وقد جاوزت حدَّ الاربعينِ

وقال آخر

ان الثمانين وبلغتها   قد احوجت سمعي الى ترجمانِ

ويقولون في سنّ الرجل ابن العشر سنين لعّاب بالقلين(١) وابن العشرين باغي نسنين(٢) وابن الثلاثين اسعى الساعين وابن الاربعين ابطش الباطشين وابن الخمسين ليث عفرين وابن الستين موٴنس الجليسين وابن السبعين احكم الحاكمين

(١) القلين مثنى القلّة وهما عودان يلعب بهما الصبيان ج قلات وقلون

(٢) باغي نسنين اي طالب نساء

وابن الثمانين اسرع الحاسبين وابن التسعين احد الارزلين وابن المئة لاحاء ولا ساء(١)

ويسمّون اول ولد المرأة زكمة والآخر عجزة وقيل بل ان زكمة مرادف عجزة وهو آخر ولد الابوين والهَرَل ولد المرأة من زوجها الاول وهو قاروطٌ له عند العامّةِ والجَرَنْبُذَة الذي لامهِ زوجٌ واليتيمُ من فقد اباهُ ولم يبلغ الحلم فان مات الابوان فهو لطيم وان مانت امهُ فهو عجي اما اليتيم من البهائم من فقدت امهُ وبيضةُ العقرِ آخرُ الاولاد لان الام قد صارت عاقرًا بعدهُ

ويسمون اول الاولاد البكر لان البكر اول كل شيء على ان الاوليات لابدّ لكلِّ نوعٍ منها اسم مخصوص ايضًا يُعرَف بهِ فمتى قيل الفاتحة عرفت بانها اولُ الكتاب والشَرْخُ والرَيْعان والعُنْفُوان والمَيْعَةُ والفلواء اولُ الشباب. واولُ المطرِ ريق واول الامر حدثان واول الريح عُثنون واول الصبح تباشير واول النهار صبح واول الليل غسَق واول مطر الربيع وَسْميّ واولُ النبتِ بارضٌ واول الزرع لُعاع واول الفاكهة باكورة واول الجيش طَليعَة واول الشرب نَهَل واول السكر نَشْوَة واول النوم نُعاس واول الشيب وَخط واول صياح المولود اذا ولد استهلال واول الحمّى رَس واول المرض دَعث واول ما يفتح الخطيب خطبتهُ والشاعر قصيدتهُ براعةُ الاستهلال او حسن المطلع

وكان الرجل في الجاهلية اذا غلبهُ ابنهُ او من هو بسببٍ او نسبٍ منهُ اتى بهِ الى الموسم ثم نادى يا ايها الناسُ الا اني خلفتُ ابني هذا فان جرّ لم اضمن وان جُرّ عليهِ لا اطلب اي قد تبرأْت منهُ فكان لا يوخذ بعد ذلك على جرائرهِ قال الزوزني الخليعُ الذي خلعهُ اهلهُ لخبثهِ وزعم الأَئِمةُ ان الخليعَ في البيت المقامر والمعيل الكثير العيال

---

(١) لاحاء ولا ساء اي لا رجل ولا امرأة

نبذة

في الجنائز

تندب العرب في الجاهليةِ الميتَ بقولهم واحرباه قيل اصلها انهُ لما توفي حربُ بن أُمية ندبهُ اهل مكة فقالوا واحربا ثم استعملت بعد ذلك عندهم لندب الميت والاشعار بالتأسّف والحزن عليهِ . واما تشييعهُ عند عرب البادية فيكون بمشي الاقارب خلف الجنازة حفاةً وتحلّ النساء شعورهنّ ويلطخنَ رؤُوسهنّ بالرماد ويستبين من قول العرب لا تفعل ذلك امُّكَ حالقٌ ان النساء كنّ يحلقنَ رؤُوسهنّ في الجاهلية حزنًا على الميت وفي اللغةِ الحالقةُ التي تحلق شعرها في المصيبةِ والشوم . ثم تُستأْجرُ النائحاتُ ليظهرنَ شعار الحزنِ والحسرةَ ويذكرنَ للميت محاسن من حيث كان وبعد ذلك يحضر شيءٌ من الطعام بعد الرجوع من تشييعهِ ويصنع ايضًا ستَّ مرّاتٍ من الضيافات الحزنية وتاكل النائحات المستأجرات فيها وذلك في اليوم الثالث والتاسع والخامس عشر والاربعين ولتمام ستة اشهر والسادسة على راس السنة من موت الميت وقال الاصبهاني كانت المرأة في العرب اذا ناحت قائمةً على زوجها عُلمَ انها لا تريد ان تتزوج بعدهُ

وقد بقي شيءٌ من هذه العوائد في البلاد الاسلامية الى عصرنا هذا ايضًا لكنهُ يختلف باختلاف الامصار فان في بعضها لا يكون البكاء والندب وحلّ شعور النساء ونواحهنّ الأ فوق راس الميت ما دام في البيت ومتى دُفن بطل ذلك كلهُ وفي بعضها يكون الى ايامٍ معينة وفي بلاد مصر ربما دامت النائحاتُ مستأْجراتٍ اسبوعًا او اكثر الى اربعين يومًا يندبنهُ صابغاتٍ ايادبهنّ بالنيلة

كالحنّاء ولاطخات وجوههنَّ بها ايضًا ويحللنَ شعورهنَّ ويرقصنَ في المحافل والساحات والمراسح رقصًا هائلاً لاطماتٍ وجوههنّ على نقر الدفوف نقراتٍ مزعجةٍ ينشدنَ عليها نواحًا بصوتٍ حزينٍ تحسبهُ خارجًا من قبور الموتى

واما العادة الجارية في تشييع الميت فهي بعد ان يُغسل في بيتهِ ويُحنط ويكفَّن باكفانٍ ربما بلغ عددها الى سبعة اكفانٍ من القماش القطن الابيض يوضع على نعشٍ واذا كان من اهل العلم أذَّن المؤذنون في المساجد يدعون الناس الى الصلاة والاَّ نُقل الى الجامع بدون اذان وعلى اي حالٍ كان لا بدَّ ان يكون امام الجنازة صفٌّ من المشائخ وحفظة القرآن رافعين علاماتٍ اي راياتٍ مكتوب على قماشها الشهادتان او بعض الآيات من القرآن وهم ينشدون البُردة وهي قصيدة امتدح بها الشيخ محمد البوصيري صاحبَ الشريعة الاسلامية او يوجدون الى ان يصلوا بهِ الى الجامع فيصلّون عليهِ الناس المجتمعون هناك مع الماشيين في جنازتهِ على حسب حالهِ ودرجتهِ في الدنيا والدين ثم ينقلونهُ الى الجبانة ويدفنونهُ في اللحد المحفور لهُ بلا صندوق وبعد ان يلقنهُ الشيخ في اذنهِ حسب قواعد الديانة يحثون عليهِ التراب وبعد ذلك يبنون عليهِ قبرًا اما من الرخام واما من البلاط او من الحجر المعتاد على حسب سخاء ورثائهِ وغالبًا ينقشون تاريخ وفاتهِ على رخامةٍ منظومًا في ابياتٍ من الشعر ويضعونها على القبر واكثر الناس الموجودين وقت الدفن يعزّون اقرباءهُ عند القبر وبعضهم في البيت واما اطعام الفقراء والتصدُّق بشيءٍ من الدراهم وعمل الموالد والاذكار الليلية في بيتهِ وتلاوة القرآن على قبرهِ اياما وزيارة قبرهِ من اقاربهِ رجالاً ونساءً ولاسيما في كل يوم جمعةٍ وتزيين قبرهِ بشيءٍ من الزهور والنباتات وخاصةً اغصان الآس النضرة كل ذلك من الامور التي لا بدَّ منها

وفي اللغة الموتُ والغيضُ والاكّة والخزاع بمعنى واحد ومن الغلط ان يقال توفى بصيغة المعلوم والصواب تُوفّي على المجهول والمعنى قُبضَتْ روحهُ ويعبرون عن الموتِ بهادمِ اللذات واما المُجهِز من الموت فهو السريع والمُحتضَر فهو

القريب من الموت واختضر الرجلُ بالخاء المعجمة اذا مات شابًّا غضًّا واجزر الشيخ حان لهُ ان يموت ومات حتفَ انفهِ اي مات موتًا طبيعيًّا والموتُ الابيض الموت فجأةً والموت الاحمر الموت قتلاً وفي حاشية امثال ابي عبيدة الموت الاحمر ان يُقتل بالسيف والموت الاسود ان يُخنق حتى يموت والموت الابيض ان يموت حتف انفهِ . والجارف الموت العام وحبائل الموت اسبابهُ واحتسب فلان ولدًا لهُ مات ولدهُ كبيرًا فان مات صغيرًا قيل افترطهُ وفوّز الرجل قضى نحبهُ وهوّز وتيمّن وجُنِّزَ مات

والجنازةُ والعاكي والخبيص والنيط والعرش الميت والجيفةُ جثةُ الميت المنتنة والجنينُ المقبور والمهلُ صديدُ الميتِ والربعُ والشرجعُ والنعشُ والتابوت والاران والآلة سرير من الخشب يُحملُ فيهِ والحَرَج خشب يشدُّ بعضهُ الى بعضٍ تحمل فيهِ الموتى ايضًا وربما وضع فوق نعشِ النساء والدكّةُ كرسي من الخشب ايضًا يُغسَّلُ عليهِ

والجُرَةُ والحفيرُ والذنوبُ والرجم والرجمة والراموس والرمس والمرمس والريم والزحلوفة والثُّكْنَة والجثوة والجَنَن والزحلوفة والصهر والصير والضريح والتربة والحدّ والوتيرة والودع والأَدَم والجَدَث والجَدَف والجَدْل القبرُ والاصواء القبورُ والجنافيرُ القبورُ العاديّة مفردها جنفورُ واللحد الشقّ المائلُ يكونُ في عرضِ القبرِ اي جانبهِ والنواويسُ قبورُ النصارى اذا خربت قبل الاسلام جاز اخذُ ترابهـــا للسماد والجبّانةُ والبَلَدُ وبيتُ اللهِ والتربةُ المقبرةُ والمُحنَّـــأةُ حفرةُ القبرِ والجالُ والجولُ ناحيةُ القبرِ والحِارةُ حجرٌ عريض يوضع على اللحد والخَيسَقُ قعيرةُ القبرِ والتحسيبُ دفنُ الميتِ في الحجارةِ او مكفنًا ورجمُ القبرِ علمهُ او وضع عليهِ الرجام والهابي ترابُ القبرِ وجُمهِرَ القبرُ وضع عليهِ الترابُ ولم يطينهُ

المقالة الرابعة

في اديان العرب ومعابدها ومناسكها وفيها ستة فصول

الفصل الاول

في اديان العرب

كانت العرب في الجاهلية على انواعٍ مختلفةٍ من العبادات فمنهم من انكر الخالقَ والبعثَ وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني ومنهم من عرف الخالقَ وانكر البعثَ ومنهم من عبدَ الاصنام وكان اكثرهم يعبدون النجومَ كالشمسِ والقمرِ وعطارد والمشتري وغير ذلك ومنهُ اسماؤُهم كعبد العزّى وعبد يغوث وتيم اللات وعبد شمس وعبد المشتري ونحو ذلك

وكانت المجوسية في بني تميم ومنهم زرارةُ بن عديٍ وابنهُ عليٌّ وكان تزوج بنتهُ حسب اباحة ذلك في دين المجوس ثم ندِمَ بعدهُ

وكانت الزندقةُ في قريش اخذوها من الجزيرة

وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة قال المقريزي ان العرب تعلموا كبس الشهور من اليهود الذين نزلوا بيثرب على عهد صموئيل النبي (الذي توفي سنة ١٠٥٧ قبل الميلاد) وقال ابو الفرج الاصبهاني

في ترجمة السموأل بن عاديا اليهودي انهُ كان من اليهود من ولد الكاهن ابن هرون بن عمران وكان موسى النبي وجّه جيشًا الى العماليق وكانوا قد تسطّوا وبلغت غاراتهم الى الشام وامرهم ان ظفروا بهم يقتلوهم اجمعين فظفروا بهم وقتلوهم اجمعين سوى ابن ملكٍ لهم كان جميلاً فرحموهُ واستبقوهُ وقدموا الشام بعدَ وفاة موسى فاخبروا بني اسرائيل ما فعلوهُ فقالوا انتم عصاة لا تدخلون الشام علينا ابدًا فاخرجوهم عنها فقال بعضهم لبعضٍ ما لنا غير البلد الذي ظفرنا بهِ وقتلنا اهلهُ فرجعوا الى يثرب واقاموا بها وذلك قبل ورود الاوس والخزرج اياها عند وقوع سيل العرم باليمن فمن هولاء اليهود قريظةُ والنضيرُ وبنو قينقاع وغيرهم ولم يوجد لهم نسب يذكر لانهم ليسوا من العرب فتدوّن العرب انسابهم وانما هم حلفاؤهم

فاذا اردنا المطابقة بين كلام المقريزي وبين ما قالهُ الاصبهاني بعد حذف ما جرت بهِ عادة الرواة من زخرف القصص يمكننا ان نجد في ذلك اشارةً الى حرب شاول ملك اسرائيل مع اجاج ملك عماليق (١صم ص ١٥ : ١—٣٥)

وقال ابن خلدون ان اول من ادخل الديانة اليهودية بين العرب هو ذو نواس احد ملوك التبابعة وكان اسمهُ يوسف وتهودت معهُ اهل اليمن وقتل اهل نجران من النصارى وقال غيرهُ ان جلوس هذا الملك كان في سنة ٤٩٠م وفي محيط المحيط ما نصهُ واصحاب الاخدود اهل نجران الذين وفد عليهم زرعةُ ابن كعب ملك اليمن الملقب بذي نواس الحميري ودعاهم ان يتحولوا عن النصرانية الى اليهودية فامتنعوا فاحتفر لهم اخدودًا وأضرم فيهِ النار والقى فيها من ظفر بهِ منهم

وفي بعض تواريخ النصارى كان دميان اليهودي حاكمًا على اليمن اضطهد مَن كان هناك من الأريوسيين فسار اليهِ ايلسبانُ ملك الحبشة وقهرهُ سنة ٥٢١م وفي بعض المؤلفات ان هذه الواقعة جرت بين الحبش وعرب اليمن عند البحر في موقع ايلة التي هي الآن خراب فالقى ملكهم ذو نواس الحميري نفسهُ في

الجرانفةَّ من وقوعهِ في اسر الحبشة

وفي تاريخ القرون الوسطى ان ملوك اليمن الحميريين كانوا قد تهودوا في اوائل القرن الرابع للميلاد ولما تعدّوا على النصارى وظلموهم التجأ هولاء المظلومون الى من دبَّ عنهم من ارباب الشوكة وهم ملوك الحبشة فلما اتى النجاشي اليمن سنة ٥٢٩ م جعل الملك عليهِ رجلاً يقال لهُ ارباط وهو ابو أبرهة الاشرم صاحب الفيل الذي قصد مكة ولم ينجح في محاصرتها لشجاعة عبد المطّلب وكان سنة ٥٧٠ م ولما صار الملكُ لاولاد ابرهة طردهم كسرى انوشروان من بلاد اليمن وولّى بدلهم رجلاً من نسل قدماء ملوك تلك الارض وذلك سنة ٥٧٣ م

والرجل الذي أُشير اليهِ هنا انهُ تولَّى من قبلِ كسرى انوشروان هو سيفُ بن ذي يزن الحميري وفي ذلك يقول ابن دُريد

وسيفٌ استعلت بهِ همتهُ حتى رمى أبعدَ شأْو المُرْتمى

فجرّع الأحبُشَ سمًّا ناقعًا واحتلَّ من غمدان محراب الدمى

وكانت النصرانية في ربيعة وغسّان وبعض قضاعة قال ابن خلدون المغربي كان اهل نجران من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان لهم فضلٌ في الدين واستقامةٌ اخذوا هذا الدين عن رجلٍ سقط لهم من مُلكِ التبعية يقال لهُ سيمون من بقية اصحاب الحواريين

وفي الكتاب المقدس ان بولس الرسول كان اول من بشَّر العرب بالانجيل (غل ص ١: ١٥—١٧) وفي بعض التواريخ المسيحية ايضًا ان في القرن الثالث من الميلاد استزار احد حكام العرب المعلم اوريجانوس الشهير فهدى قبيلةً من همّل العرب التائهين وكذلك في خلال القرن الرابع سار موسى الراهب المصري الى العرب ذرية اسماعيل وبشَّرهم فتنصرت زوجة حاكمهم المسماة موفية وفي تاريخ القرون الوسطى ان عرب غسّان تنصروا في ايام القيصر

والنتين وكان تنصرهم على يد عبّاد الصحراء بالشام (يعني النساك)

واما العبادة الوثنية فهي وان تكن قدميتها في العرب من الامور الواضحة ومعرفة اسباب دخولها عندهم من الغوامض الخفية لكن نذكر هنا ما ذكرهُ كثيرون من مؤرخي العرب كالشهرستاني وابن خلدون وغيرها وهو ان اول من جعل الاصنام على الكعبة وعبدها واطاعتهُ العرب وعبدوها معهُ واستمروا على ذلك الى ان جاء الاسلام هو عمرو بن لحي بن حارثة بن امرء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد من ولد كهلان بن سبا كان ملك الحجاز واليهِ تُنسب خزاعة فيقولون انهم من ولد كعب بن عمرو المذكور وان السبب في ذلك هو انهُ لما سار عمرو هذا الى البلقاء من اراضي الشام رأى قومًا يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا هذه اربابٌ اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصرُ بها فننصر ونستقي بها فنُسقَى فاعجبهُ ذلك وطلب منهم صنمًا فدفعوا اليهِ هبلَ فسارَ بهِ الى مكة ووضعهُ على الكعبة واستصحب ايضًا صنمين يقال لها اساف ونائلة وكانا على موضع زمزم ودعا الناس الى تعظيم الاصنام فاجابوهُ وكان ذلك في ايام سابور ملك الفرس نحو سنة ٤٠٠ قبل الاسلام (سنة ٢٠٠ م) ويحكى عن عمرو المذكور ايضًا بانهُ هو الذي بحر البحيرة وسيب السائبة وحمي الحامي وكان ينكر البعث وفي ذلك يقول

حياةٌ ثم موتٌ ثم حشرٌ   كلامُ خرافةٍ يا امَّ عمرِو

وزعم آخرون ان اساف هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ارتكبا القبيح في الكعبة فمسخها الله سبحانهُ حجرين فعبدتهما قريش

وقيل ايضًا ان يغوث ويعوق ونسر كانوا اسماء اولاد آدم وكانوا من العبّاد الاتقياء فلما ماتوا جاء الشيطان وحسّن للناس ان يصوّروا صورهم ويجعلوها في قبلة المسجد ليذكروهم اذا نظروهم ثم حسّن لهم ان يعبدوهم فعبدوهم وذكروا ان ودّ كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد

ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر

وكانت هذه الاصنام ونظائرها من الاوثان المعبودة عند العرب مخصصةً بالقبائل فكان كُثَرَى لجديس وطسم وودٌّ لكلب وهو بدومة الجندل وتيم لبني تيم وسواع لهذيل ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن ونسر لذي الكلاع بارض حِميَرَ ويعوق لهمذان واللات لثقيف بالطائف وكان حجابها بنو مغيث من ثقيف والعزّى لقريش وبني كنانة وكان حجّابها بنو شيبة ومناة وذو الشرى للاوس والخزرج والباجر للازد والجهار لبني هوازن وأَوَال لبكر وتغلب والمحرّق لبني بكر بن وائل وسعد لبني ملكان بن كنانة وسعير لبني عنزة خاصةً وعميانس لخولان كانوا يقسمون له من انعامهم وحروثهم والفلس ورضا لبني طي وذو الكفين لدوس . اما النجّة وجريش والجلد والشارق والعائم والأُقيصر وكسعة والمدان وعوف ومناف ويااليل والجبهة فهي اصنام ايضًا لكن لم نقف الّا على اسمائها فقط واما اسافُ ونائلةُ اللذان سبق ذكرها فكانا على الصفا والمروةِ وهبلُ وهو اعظم اصنامهم كان على ظهر الكعبة

وقال ملطبرون ان اللات وقد مرَّ ذكرها هي معبودةٌ تشبهُ الزهرةِ السماوية كانت تُعبد في تمثال حجرٍ اسود واما بعض كتّاب العرب فيقولون الظاهر ان الحجر الاسود الذي يعتقدون انهُ من جواهر الجنة وكان ابيض ساطعًا ثم اسودَّ لكثرة لمس الحجاج وتقبيلهم لهُ او كما قال آخرون انهُ ياقوتةٌ من يواقيت الجنة وانهُ يبعثهُ الله يومَ القيامة ولهُ عينان ولسانٌ ينطقُ بهِ ويشهد لمن استلمهُ بحقٍّ وصدقٍ كان معظمًا في الجاهلية ايضًا لان قبائل العرب كانت تجتمع في الكعبة ويطوفون بها سبع مراتٍ ويلثمون هذا الحجر

وذكر ملطبرون صنمًا آخر سماهُ ابراطلاه قال انهُ من معبودات العرب وانهُ اله النار

وقال الابشيهي انهُ كان لاهل كلِّ دارٍ صنمٌ في دارهم يعبدونهُ فاذا اراد الرجل سفرًا تمسَّح بهِ حين يركب وكان ذلك آخر ما يصنع اذا توجَّه الى سفرهِ

فاذا قدمَ من سفرهِ بدأَ بهِ قبل ان يدخل الى اهلهِ

ثم ان المصنوع من هذه الاوثان من الحجارة يقال لها الانصاب واحدها نُصُب اما البعيم فهو الصنم والتمثال من الخشب والدُمية من الصمغ وقيل الدمية الصورة المنقوشة فيها حمرة كالدم او هي من الرخام او عامة وقيل هي الصورة من العاج تُضرَبُ مثلاً في الحسن فيقال احسن من الدمية والدميةُ الصنم ايضاً وكذلك البُهار والجِبت واما البُغبور فهو الحجر الذي يُذبح عليهِ القربان للصنم

ويستفاد مما ذكرهُ ابو الفرج الاصبهاني ان العرب كانوا يعبدون الجمل الاسود ايضاً فانهُ يقول لما دخل زيد بن مهلهل الى المسجد كان صاحب الشريعة الاسلامية يخطب فلما رآهُ قال أني خيرٌ لكم من العزّى وما حازت مناّع من كل ضارٍ غير نفّاع ومن الجمل الاسود الذي تعبدونهُ من دون الله

وكانوا يسجدون للفصاحة ايضاً امام المعلقات السبع ويسمونها السموط والسبع الطول جمعها حمادُ الراوية واعتنت علماء الاسلام بشرحها لما فيها من الفصاحة والصناعة الشعرية ويعتبرونها الطبقة الاولى وكانت العرب تفتخر بها ولسمو درجة فصاحتها علّقها ناظموها على باب الكعبة قال صاحبُ تذكرة الحكم في طبقات الامم ان العرب اقامت تسجد لهذه المعلقات نحو مئة وخمسين سنة الى ان ظهر الاسلام وابطل القرآن بسطوة فصاحتهِ اعتبار العرب لهذه المعلقات

ثم كما ابطل الدين الاسلامي سجود العرب للفصاحة ابطل كذلك عبادة الاوثان واقام مبانيهُ في خمسة قواعد اساسية وهي اولاً النطقُ بالشهادتين اللتين احدهما تتضمن الاعتراف بوحدانية الباري تعالى جلّ شأنهُ والثانية الاقرار برسالةِ صاحب الشريعة الاسلامية ويعبّر عنهما بكلمة الإخلاص واما الاربعة الباقية فهي اقامة الصلوة وإتيان الزكوة وصوم شهر رمضان اياماً معدوداتٍ فمن كان مريضاً او على سفرٍ فعدّةٌ من ايامٍ أُخر واما ان صامَ فهو خيرٌ لهُ وحجُّ البيتِ من استطاع اليهِ سبيلاً

اما الصلاة فهي الدعاء والدين والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله

على الرسول وصلاة العبادة يكون فيها ركوع وسجود واقوال وافعال مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم مع النية بشرائط مخصوصة وقالوا هي من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ومن المؤمنين الدعاء ومن الطير والهوام التسبيح

واما الزكاة فيراد بها قدرٌ معين من النصاب الحولي اي قدر المال الذي تجب فيهِ الزكاة كل سنةٍ يخرجهُ الحرّ المسلم المكلَّف لله تعالى الى الفقير المسلم غير الهاشمي ولا مولاهُ (اي ولا عبدهُ) وهو معطوف على الهاشمي مع قطع المنفعة عنهُ من كل وجهٍ قيل سمّيت بذلك لانها تزيد في المال الذي تخرج منهُ وتوفرهُ وتقيهِ من الآفات وفي الحديث هاتوا ربع العشر من اموالكم ولا يُعفى من ذلك الاَّ من كان ما في حوزتهِ اقل من مئتي درهم من الفضة او عشرين مثقالاً من الذهب ولا يُلتفت الى قيمة الارزاق والعقارات والقنيات بل الى غلالها فقط وفي الحديث ايضًا ليس في الجبهة ولا في الكسعة ولا في النخة صدقة. والجبهة هي الخيل والكسعة الحمير والنخة الرقيق وقيل البقر العوامل وليس في الخضراوات صدقة والخضراوات هي الخُضر والفواكه والبقول ولذلك لا يلتزم المسلمون بتزكية شيءٍ هو من هذا القبيل

واما الصوم فهو الامساك عن الطعام والشراب والوطئ من زمان الصبح الى المغرب مع النية (اي مع عقد النية على الصوم) وشهر رمضان هو تاسع الشهور القمرية وفي الحديث كان عليهِ السلام يأمرنا ان نصوم ايام البيض وايام البيض هي اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمري اما صوم الوصال فهو صوم يومين او ثلاثة

واما حجُّ البيت فسوف يأتي الكلام عليهِ في الفصل الثالث من هذه المقالة

فتعلم العرب التوحيد وان كلّ ما يحدثُ هو معينٌ بقدرٍ لا مناصَ منهُ وانهُ بعد الموت يجازى الخيرُ خيرًا والشرُّ شرًّا والمداومة على الصلوات المتتابعة في الاوقات الخمسة والحسنة للمساكين وصوم شهر رمضان والامتناع عن الخمر وتقرر عندهم الختان وزواج اكثر من امرأةٍ واحدة والطلاق وتحولت مقاصدهم

في الغارات بعضهم على بعض الى الجهاد في سبيل الدين وانضم الى ذلك رغبتهم في المكافاة عليهِ بالنعيم في جنةٍ تجري من تحتها الانهار فيها من كل ما تشتهيهِ الانفس وتلذّ الاعين وخلاصة الامر ان القرآن ازال ما كان في قلوبهم من العداوة والبغضاء فجعلوا ياخذون في التآلف والانضمام حتى انهُ في ظرف يسير من الزمان خضعت كل بلاد جزيرة العرب وبواديهـا الى هذا الدين وصار اندر من النادر ان يوجد فيها من لا ينطق بالشهادتين ولئن كان اغلب اهالي البادية لا يعرفون من المعتقدات والسنن والفرائض الاسلامية غيرها

الفصل الثاني

في معابد العرب

الكعبةُ التي مرَّ ذكرها هي الآن في وسطِ المسجدِ الحرام بمكة من بلاد الحجاز وقد تسمت بهذا الاسم لعلوها من اسم الكعب وقد ذكروا بان موضع الكعبة الحقيقية منها كان فيهِ خيمة لآدم وضعها الله لهُ من الجنة فبنى شيثُ بن آدم هناك الكعبة بالطين وان الذي بنى البيت هو آدم نفسهُ وانهُ لما قضى مناسكهُ فيهِ لقيتهُ الملائكة فقالوا يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بالفي عام. وقيل ان بناء البيت كان قبالة البيت المعمور ثم هدمهـا الطوفان وقال ابن خلدون ان ابرهيم لما ترك هاجر في الفلاة وضعهـا وابنهـا اسماعيل في مكانِ البيت فاتخذ اسماعيلُ هناك بيتًا وادار عليهِ سياجًا من الردم وجعلهُ زربًا لغنمهِ ثم لما جاء ابوهُ لزيارتهِ من الشام آخر مرة امرهُ الله ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب وان يؤذّن في الناس بالحجّ فيهِ فبناهُ هو وابنهُ اسماعيل كما نصهُ القرآن وسكن اسماعيل بهِ

مع هاجر ومَن نزَلَ معهم من جُرهَمَ الى ان قبضهما الله ودُفنا بالحجر منهُ اه . وعلى هذا يكون ابرهيم واسماعيل ابنهُ هما اول مَن رفع قواعد الكعبة ثم لما غلبت قريشٌ خزاعةَ على امر البيت كما يتضح ذلك مما يأتي بنى قصي بن كلاب البيت وسقفهُ بخشب الدوم وجريد النخل قال الاعشى

خلفتُ بثوبي راهبَ الدورِ والتي بناها قصيٌّ والمضاضُ بن جُرهُم

ثم اصابهُ سيلٌ وقيل حريقٌ فتهدَّم فاعادوا بناءهُ ثم اصابهُ حريقٌ سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) من النفط الذي رمى بهِ جيوش يزيد بن معاوية على ابن الزبير لما تحصَّن بهِ فاحضر بعد ذلك بنائين من الفرس والروم واعاد بناءهُ على احسن ما كان ثم هدمهُ لما اختلفت عليهِ الصحابة في بنائهِ واقامهُ ثانيًا على اساس ابرهيم وجعل فرش الكعبة وازرَها بالرخام وصاغ لها المفاتيح وصفائح الابواب من الذهب ثم لما حاصر كليبُ بنُ يوسف الثقفي المعروف بالحجاج ابن الزبير المذكور في ايام عبد الملك بن مروان وظفر بهِ امر بهدم البيت وردَّهُ على قواعد قريش كما هو اليوم فهو والحالة هذه من بناء ابن الزبير وبناء الحجاج اما الذين زادوا في ارضهِ ووسعوهُ فهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفَّان ثم ابن الزبير ثم الوليد بن عبد الملك الذي اقام فيهِ عمَد الرخام ثم زاد فيهِ المنصور العباسي وابنهُ المهدي

ووصف ملطبرون الكعبة فقال وفي كتب الجغرافية المعتادة قد مدحوا جمال الكعبة وزينتها وابوابها الكثيرة وقبتها المذهبة فلما رأَها المعلم نيبوهر (احد السياح الالمانيين) قال في وصفهِ لها انها اشدُّ شبهًا بهياكل الهند القديمة وهياكل بلاد سيام من شبهها بالمساجد المتجددة بعد ظهور الاسلام فانها بناءٌ مربعٌ مكشوف تحتاط بهِ اعمدةٌ وبهِ منارات بدلاً عن الاهرام والمسلات الموجودة بغيرها وفي هذا الدائرة مساجد للصلاة وداخلها بناء مربع هو الكعبة الحقيقية

وكان اول من كسا الكعبة على ما قالهُ ابن خلدون هو تبَّع كساها بالملاء

والوصائل وجعل لها مفتاحًا وهو اول من تهود من العرب وتبعتهُ في ذلك قبيلة حِمْيَر وقال ابو الفرج الاصبهاني ان قريشًا كانت تكسو الكعبة في الجاهلية من اموالها باجمعها سنةً وكان بجيرُ بن ابي ربيعة الذي سماهُ صاحب الشريعة الاسلامية عبد الله يكسوها من مالهِ سنةً ولذلك لقبتهُ قريش بالعدل يريدون انهُ وحدهُ عدلهم جميعًا وكان عبد الله المذكور تاجرًا موسرًا ومتجرهُ الى اليمن وابوهُ ابو ربيعة واخوتهُ هشام وهاشم والفاكهُ بنو المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم يُضرَب بعزّهم المثل وقال المقريزي ان كسوة الكعبة كانت المسوح والانطاع واول من كساها الديباج هو عبد الله بن الزبير الذي مرَّ ذكرهُ احد الخلفاء الامويين

وقال الزوزني بان العرب في الجاهلية كانوا اذا نأوا عن الكعبة ينصبون حجرًا يسمونهُ الدوار يطوفون حولهُ تشبيهًا بالطائفين حول الكعبة

وكان لبعض القبائل من العرب معابدُ خصوصية ايضًا فقد ذكر الاصبهاني بان غطفان بنت بناءً سمتهُ لبَس وشبهتهُ بالكعبة فكانوا يحجبونهُ ويعظمونهم ويسمونهُ حرَمًا فغزاهم زهيرُ بن جناب الكلبي وهدمهُ وفي محيط المحيط العُزّى سمرةٌ لغطفان كانوا يعبدونها وكانوا بنوا لها بيتًا واقاموا لها سَدَنةً فبعث اليها صاحب الشريعة الاسلامية خالد بن الوليد فهدم البيت واحرق السمرة وهو يقول

يا عزّ كفرانكِ لا سبحانكِ   اني رأيتُ اللهَ قد اهانكِ

وحكى غيرهُ ان ذا الخلصة بيتٌ لبني خثعم كان يُدعى الكعبة ايضًا وسُمي بذي الخلصة لصنم كان فيهِ يسمَّى الخلصة او لانهُ كان في منبت الخلصة[1] وهناك بيتٌ آخر يسمَّى سعيدة كانت العرب تحجُّ اليهِ في جبل أُحُد وذو الكعبات بيتٌ لربيعة كانوا يطوفون بهِ

اما كعبة نجران فهي قبةٌ لعبد المسيح بن دارس بن عديّ مصنوعةٌ من

(١) شجر كالكرم يتعلق بالشجر فيعلو وهو طيب الريح وحبهُ كخرز العقيق

ثلاث مئة جلدٍ وكانت العرب تسميها كعبة نجران لانهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة فكان اذا نزَل بها مستجيرٌ أُجيرَ او خائفٌ آمن او جائع شَبعَ او طالبُ حاجةٍ قُضِيَت او مسترفدٌ أُعطي ما يريد قال الاعشى يخاطب ناقتهُ

فكعبةُ نجرانٍ حتمٌ عليكِ حتى تناخي بابوابها
نزورُ يزيدًا وعبدَ المسيحِ وقسًّا هُمُ خيرُ اربابها

قال ابو الفرج الاصبهاني انها بيعةٌ بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاةً للكعبة

ثم بعد ظهور الاسلام اندرس جميع ما ذكر وتعوض عنهُ بالكعبة والمساجد التي أُحدثت بعد الاسلام وكان اول اتخاذها المسجد الذي بناهُ صاحب الشريعة الاسلامية في المدينة قال ابن خلدون ان الله تعالى امرهُ بالهجرة اليها واقامة دين الاسلام فيها فبنى مسجدهُ الحرام بها وكان ملحدُهُ الشريف في تربتها وان هذه المساجد الثلاثة هي قرّة عين المسلمين (يريد بذلك الكعبة التي تقدّم ذكرها ومسجد المدينة الذي نحن بصددهِ وبيت المقدس وهو الجامع الاقصى الذي بناهُ عمر بن الخطاب في اورشليم في المحل الذي كان مبنيًا عليهِ هيكل سليمان بن داود ملك اسرائيل) ثم ذكر ايضًا مسجدًا آخر غير الثلاثة المذكورين قال انهُ لآدم ابي البشر في سرنديب من جزائر الهند لكنهُ لم يقطع بصحتهِ

وكانت هذه المساجد وغيرها من الجوامع الاسلامية خاليةً في مبدإ الامر من المنابر ولم تتخذ فيها الاّ في زمن الخلفاء من الصحابة وكان اول من اتخذها عمرو بن العاص عاملُ عمرٍ بن الخطاب على مصر لما بنى جامعهُ المشهور فيها فانكر عليهِ ذالك الخليفة المشار اليهِ وامرهُ بكسرهِ ثم لما تولّى الخلافة ابو عبد الله المهدي امر بتقصيرها

واما الدعاء على المنابر للخلفاء فاول من ابتدأ بهِ ابن عباس دَعا لعليّ بن ابي طالب وكان عاملهُ على البصرة وسرى ذلك الى ان صارت الخطبة من شعائر الملك فتهدد الخوارجُ ملوكها باقامةِ الدعاء في الخطبة لغيرهم

واول من اتخذ المقصورة من المسجد لصلاة السلطان كان معاوية بن ابي سفيان اول خلفاء بني أُمية حين طعنهُ الخارجي ليقتلهُ وقيل بل هو مروان بن الحكم حين طعنهُ اليمانيّ ثم اتخذها الخلفاء بعد ذلك في المشرق والمغرب

نبذةٌ

في سدانة الكعبة

وكانت سدانة الكعبة في زمن الجاهلية مع بني اسماعيل حتى انتهى ذلك الى ثابت احد اولادهِ فلما توفي صارت الى جدّهِ لأُمهِ مضاض بن عمرو الجرهمي حتى غلبت خزاعة على مكة فصارت اليهم ونفوا بني جُرهُم عن مكة وفي ذلك يقول مضاض المذكور

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... انيسٌ ولم يَسمر بمكة سامرُ
ولم يتربَّع واسطـاً فجنوبَه ... الى المنحنى من ذي الاراكةِ حاضرُ
بَلى نحن كنا اهلها فابادنا ... صروفُ الليالي والجدود العواثرُ
ونحنُ ولاةُ البيتِ من بعد ثابتٍ ... نطوفُ بذاك البيتِ والامرُ ظاهرُ
فاخرجنا منهـا المليكُ بقدرةٍ ... كذلك بين الناسِ تجري المقادرُ

الى ان يقول

فبطنُ مِنًى امسى كأن لم يكن بهِ ... مضاضٌ ولا يبن البطاح عامرُ
فهل فرجٌ يأتي بشيء نحبهُ ... وهل جزَعٌ ينجيكَ مما تحاذرُ

ولم تزل السدانة في خزاعة الى ان انتهت الى غبشان الملكاني وصيًّا لحليل بن حبشيّة الخزاعي فاسكرهُ قصي بن كلاب القرشي واشترى منهُ مفاتيح الكعبة بزق خمر فلما صحى ابو غبشان ندم حيث لم ينفعهُ الندم فسار ذلك مثلاً يقال اخسرُ من ابي غبشان قال الشاعر

باعتْ خزاعةُ بيتَ اللهِ اذ سكِرَت ... بزق خمرٍ فبئست صفقةُ البادي
باعت سدانتها بالنزرِ وانصرفت ... عن المقام وظلّ البيتِ والنادي

فمن ثمّ صارت سدانة الكعبة لآل قريش حيث استولى قصيٌّ المذكور على مفاتيحها بعد ان قضى لهُ بذلك يَعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة احد حكام العرب وقد مرّ ذكرهُ وتولّى البيت وصار لهُ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأْيهِ فاتخذ دار الندوة ازاء الكعبة في مشاوراتهم وتصدّى لاطعام الحج وسقايتهِ ففرض على قريش خراجًا يؤدّونهُ اليهِ فتمت لهُ بذلك الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء

الفصل الثالث

في مناسك العرب

الحج(١). وللعرب كثيرٌ من المناسك التي جاءت شريعة الاسلام اخيرًا بها

(١) الحج القصد والكف والقدوم وكثرة الاختلاف والتردد

ومنها الحجّ الى البيت فكانت قبائلهم تجتمع حول الكعبة ويطوفون بها سبع مرات ويعتمرون(١) ويحرمون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار كما هو الحال جارٍ عليهِ بعد الاسلام

والاحرام هو الدخول في اعمال الحج سمي بذلك لان الحاجّ يحرّم على نفسهِ الحلقَ وتقليم الاظفار وقتل الصيد ومباشرة النساء ويقابلهُ الاحلال او انهم يطوفون عراةً بالمآزر فقط ومنهُ قول الشاعر

لما رأيت مناديكم هَلُمَّ بنا(٢) شدَّدتُ مئزرَ احرامي ولبَّيتُ(٣)

وكانوا يطرحون اثوابهم بين ايديهم في الطواف ويسمونها حريمًا قال ابن خلدون الاحرامُ هو لبسُ الاثواب غير المخيطة لما ان البدو من العرب يشتملون اللباس اشتمالًا واما اللباس المخيط فهو مختصٌّ بالعمران الحضريّ وهذا هو السرُّ في تحريمهم لبس المخيط في الحجّ لما ان مشروعية الحجّ مشتملةٌ على نبذ العلائق الدنيوية كلها

واما الجمار فهو جمع جمرة يعني الصغار من الحصى وجمراتُ مِنًى ثلاث بين كل جمرتين مقدار غلوة ترميها الحجاج بالحصى وذلك من مناسك الحج وفي محيط المحيط الجمار بِمِنى هي من جمرَ فلانًا اي نحّاهُ او من اجمر اي اسرع وقيل ان آدم رمى ابليس فاجمرَ بين يديهِ

النسيء(٤) كان الحجّ عندهم يقع في الازمنة الشمسية كلها وهو ابدًا عاشر ذي الحجة الى ان تعلموا كبس الشهور من اليهود الذين بيثرب فابتدأوا بهِ قبل الاسلام بنحو مئتي سنةٍ ليجعلوا حجّهم في وقت ادراك شغلهم من الادم والجلود

---

(١) الاعتمار من العمرة وهو القصد الى مكانٍ عامر او الزيارة وشرعًا افعال مخصوصة تسمّى بالحج الاصغر وافعالها ثلاثة الاحرام وسوف يأتي ذكرهُ والطواف وقد ذكر في ما مرّ والسعي بين الصفا والمروة والحلق (٢) الهلمّة الدعوة وهي مصدر هلمّ اي اقبل (٣) التلبية اجابة الداعي

(٤) النسيء معناهُ التأخير وانساهُ اخّرهُ

والثمار ونحوها وان يثبت ذلك على حالةٍ واحدةٍ في اطيب الازمنة واخصبهـا فكانوا يكبسون في كل ثلاثة اعوامٍ شهرًا واحدًا لاجل مطابقة السنة القمرية على دورةِ الشمس السنوية وقال المقريزي انهم كانوا يكبسون في كل اربع وعشرين سنةً تسعة اشهر حتى تبقى السنة ثابتةً مع الازمنة على حالٍ واحدة لا تتغير

وكان يتولّى ذلك النسأة[1] من بني كنانة المعروفون بالقلامس واحدهم قلمس[2] وأُختلف في مَن كان اول من انسأَ الشهور منهم فقيل القلمسُ هو عدي بن يزيد وقيل هو سمير بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة قال المقريزي انهُ كان يلي ذلك منهم ابو ثمامة المالكي ثم من بني فقيم وبنو فقيم هم النسأة وهو منسي الشهور وكان يقوم على باب الكعبة فيقول ان الهتكم العزى قد انسأت صفر الاول وكان يحلهُ عامًا ويحرّمهُ عامًا وكان انباعهم على ذلك هوازن وغطفان وسليم وتميم وآخر النسأة جنادة بن عوف بن أُميّة بن قلع بن عباد بن حذيفة بن عبد الله بن فقيم وقيل القلمس هو حذيفة المذكور بن عبد ابن فقيم بن عدي بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة ثم توارث ذلك منهُ بنوهُ من بعدهِ حتى كان آخرهم الذي قام عليهِ الاسلام وكان اذا اراد ان ينسي منهـا شيئًا حلّ المحرّم فحلوهُ وحرّم مكانهُ صفر فحرّموهُ لكي يواطئوا عدّة اربعة اشهرٍ حرم عندهم قال عُمير بن قيس جندل الطعان يفتخر

وايُّ الناس لم يُسبق بوترٍ ... وايُّ الناس لم يعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معدٍّ ... شهورَ الحلِّ نجعلهـا حرَاما

وقال آخر

أتزعم اني من فقيم بن مالكٍ ... لعمري لقد غيرت ما كنت اعلمُ
لهم ناسئٌ يمشونَ تحت لوائهِ ... يحلُّ اذا شاء الشهورَ ويحرمُ

ثم لما حجّ صاحبُ الشريعة الاسلامية في السنة العاشرة للهجرة أُنزلت الآية

---

(١) النسأة المعينون لهذا العمل (٢) القلمس البحر الغزير

بتحريم النسيء فبطلَ ما احدثتهُ الجاهلية من ذلك واستمرَّ وقوعُ الصوم والحج برؤية الأهلّة فرجع الحج الى ما كان عليهِ من الوقوع في ازمنة السنة الشمسية كلها

الاجازة وكانت اجازة الحج لخزاعة فاخذتهـا منهم عدوان فكان الرجل منهم يجيز الناس الى الحج بان يتقدمهم على حمارٍ ثم يخطبهم فيقول اللهمَّ اصلح بين نسائنا وعادِ بين رعائنا واجعل المال في سمحائنا ايها الناس اوفوا بعهدكم واكرموا جاركم واقروا ضيفكم ثم يقول اشرق ثبير كيما نغير وكانت هذه اجازتهُ ثم ينفر ويتبعهُ الناس

الابل في ازمنة الحج وكانت العرب اذا حجّت قلّدت الابل النعال والبستها الجلال واشعرتها فلا يتعرّض لها احدٌ الّا بنو خثعم كما يتضح ذلك مما يأتي

القرابين وكانوا يقربون القرابين في الكعبة من الغنم والابل الى ثلاث مئة وستين صنمًا موضوعًا عليها وظن بعضهم ان الاصنام بهذا العدد هي خدَّامُ السنة من الجن كما في معتقدات اليونان وان الصنم الموضوع على الكعبة هو الشمس وكانوا يسمّون هداياهم اليهـا الوزائم وكانوا يذبحون ذبيحةً في رجب يسمونها العَتِيْرَة

وكانوا يذبحون لها الفَرَع وهو اول ولدٍ تنتجهُ الناقة فكان الرجل يقول اذا تمَّت ابلي كذا نحرتُ اول ولدٍ ينتج منها وكانوا اذا ارادوا نحرَهُ زينوهُ والبسوهُ قال الزوزني وقد كان الرجل ينذر ان بلّغَ الله غنمهُ مئةً ذَبحَ منها واحدةً ثم ربَّما ضنَّت نفسهُ بها فاخذ ظبيًا وذبحهُ مكان الشاة الواجبة عليهِ وكان المسلمون ايضًا يفعلون ذلك في صدر الاسلام ثم نُسِخَ وفي الحديث لا فرع ولا عتيرة

وقال بعضهم ان العرب كانوا يتقربون الى معبوداتهم بذبح الآدميين قربانًا كالأنعام ايضًا ومن ذلك ما ذكروهُ عن هاشم جدِّ صاحب الشريعة الاسلامية وكان نذر لئن وُلِدَ لهُ عشرةٌ من الولد لينحرنَّ احدهم قربانًا فلما

كانوا عشرةً ضرب عليهم القِداح (وسوف ياتي الكلام عليها) فخرج القِداح على ابنهِ عبد الله ابي صاحب الشريعة المشار اليهِ فمنعهُ قومهُ من تقريبهِ قربانًا فافتداهُ بمئةٍ من الابل باشارة العرافة وقد جاء في الحديث انَّا ابن الذبيحين يعني عبد الله اباهُ واحد ابني ابرهيم الخليل لان علماء الاسلام لا يقطعون بمن هو الذي امر الله بتقديمهِ لهُ قربانًا منهما ثم افتداهُ بالكبش نظرًا لعدم الصراحة باسمهِ في القرآن اما الذين يرجّحون اسحق في هذا الامر فيطابقون ذلك على الحديث كما لو كان اسماعيل لان العمّ ابٌ ايضًا

وكانوا يسمون اليوم الاول من النحرِ يوم النَّحْر والثاني يوم القرّ والثالث يوم النفر والرابع يوم الصدر

مناسك اخرى وكان باقيًا عند العرب بعض المناسك الشائعة بينهم اما من عهد اسماعيل بن ابرهيم الخليل واما سرت اليهم من الديانة اليهودية التي كانت منتشرة في بلادهم وهي انهم لا يجمعون في الزواج بين الاختين ولا يتزوجون المرأة وبنتها ويغتسلون ويداومون على المضمضة والاستنشاق وفرك الراس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار وقص الشارب وحلق الراس والعانة والختان ويحرمون اكل لحم الخنزير ويقطعون يد السارق اليمنى فلما ظهر الاسلام امر بذلك ايضًا وزاد عليهِ ايضًا ما زجرهم بهِ عن ارتكاب القبائح التي كانوا الفوها في زمن جاهليتهم بتأييد الحدود التي وافقت بها شريعتهُ كثيرًا من احكام التوراة كالطلاق والجلد والرجم ومقابلة الجاني بما فعل كالعين بالعين والسنّ بالسنّ وما شاكل ذلك

القسم واليمين وكانوا يقولون في حلفهم لَحَقُّ لا اتيك وهو يمين لهم ومعناهُ لَحَقُّ اللهِ لا اتيك فاذا اسقطوا اللام قالوا حقًّا لا اتيك

وكانوا يحلفون بزمزم والحطيم ويقولون ايضًا لا وربِّ هذه البنية اما زمزم فهو بئر الماء الذي مرَّ ذكرهُ في الكلام على مكة قال بعض مؤلفي الافرنج ان هذا البئر لا يوجد بمكة غيرهُ وانهُ لا يصلح للشرب لانهُ يسببُ القروح

والبئور واما سبب تعظيمهِ فهو اعتقادهم بانهُ البئر الذي اظهرهُ الله لهاجر المصريَّة ام اسماعيل لما كانت تائهةً مع ابنها في برية بئر سبع وقد فرغ الماء الذي كان في قربتها لتسقي اسماعيل ابنها (تك ص ٢١: ١٤-٢١) وذكر بعض المؤلفين من العرب ان هذه البئر حفرها عبد المطّلب وكانت مطمومةً فاستخرج منها غزالين ذهب ضرب احدها صفائح لباب الكعبة وجعل الآخر فيها وقال ابن خلدون ان هذين الغزالين كانا من قرابين الفرس لانهم كانوا يحجون اليهِ. واما الحطيم فهو الحائط الذي يحيط على حجر الكعبة من الجانب الغربي قال ابن دُريد وكان الجاهلية يحلفون بهِ فيحطم الكاذبَ ولذلك سمّي الحطيم. واما البنية فهي الكعبة

ويحلفون ايضًا بذمة العرب فاذا قال احدهم لا وذمّة العرب كان صادقًا في ما قال واذا كان ذاك لعهدٍ فلا يخون بعدهُ اصلاً قال متمم بن نويرة يعاتب ابا بكر وكان خالد ابن الوليد قتل اخاهُ في الردّة

نعمَ القتيلِ اذا الرياحُ تناوحت تحتَ الازارِ قتلتَ يا ابنَ الازورِ
أَ دعوتهُ باللهِ ثم قتلتـــهُ او هُو دعاك بذمةٍ لم يغدرِ

فقال ابو بكر انا ما دعوتهُ ولا قتلتهُ

ويحلفون ايضًا بشهر رجب لانهم كانوا يحترمونهُ ويمتنعون فيهِ عن الغزو والقتل ويسمّونهُ الاصمّ ومنصل الألّ والألُّ الاسنّةُ فكانوا اذا دخل رجب انصلوا الاسنّة من الرماح حتى يخرج الشهرُ وهذا السبب في تسميتهِ بالاصمّ لانهُ لا يُسمع فيهِ رنة السلاح ولا صهيل الخيل ولا جلبة القتال وقيل انهم كانوا يصومونهُ ايضًا قال الميداني في تفسير المثل المضروب وهو اذا العجوز ارتجبت فارجبها يقال رجبتهُ اذا هبتهُ وعظّمتهُ ومنهُ رجب مُضَر لان الكفار كانوا يهابونهُ ويعظمونهُ ولا يقاتلون فيهِ وكذلك في ذي القعدة وذي الحجة ومحرّم ويسمونهـا الاشهر الحرم لانهم لا يستحلّون فيهـا القتال الاّ مع بني خُثعم وبني طيء لاستحلالهم

الدماء فيها فكان الذين ينسأون الشهور ايام المواسم يقولون حرّمنا عليكم القتال في هذه الشهور الاّ دماء المُحِلّينَ يعني القبيلتين المذكورتين وقيل انهُ كان لقومٍ من غطفان وقيس ثمانية اشهر حرم يسمّونها البَسْل

ويحلفون ايضًا بالذيب أَخرجَ العَذقَ من الجريمةِ والنارَ من الوثيمةِ فالعَذقُ بفتح العين المهملة النخلة والجريمة النواة والوثيمة الصخر والحجر

الفصل الرابع

في المدارك الغيبية

قال ابن خلدون المغربي كما ان عالَم العناصر المشاهدة تدرجُ صاعدًا من من الارض الى الماء ثم الى الهواء ثم الى النار متصلاً بعضهـا ببعض وكل واحدٍ منها مستعدٌ ان يستحيل الى ما يليهِ صاعدًا او هابطًا[1] والصاعد منها الطف مما قبلهُ الى ان ينتهي الى عالم الافلاك وهو الطف من الكل كذا عالم التكوين ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئةٍ بديعة من التدريج[2] فآخر افق المعادن متصلٌ باول افق النبات مثل الحشائش وما لا بزر لهُ وآخر افق النبات مثل النخل والكرم متصلٌ باول افق الحيوان مثل الحلزون والصدف وهو ما لم يوجد لهُ الاّ قوةُ اللمسِ فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات ان آخر افقٍ منها مستعدٌ بالاستعداد الغريب لان يصير اول افق الذي بعدهُ

(١) انظر كلام تاليس وفيثاغورس من فلاسفة اليونانيين في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف (٢) انظر تلك ص ١:٩—٣٥

واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعهُ وانتهى في تدريج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والرويَّة

ثم بعد ان برهن على وجود النفس المدركة والمحرّكة في الانسان قال ولابدَّ فوقها من وجودٍ آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها ايضًا ويكون ذاته ادراكًا صرفًا وتعقلاً محضًا وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك ان يكون للنفس استعدادٌ للانسلاخ من البشرية الى الملكيَّة ليكون بالفعل من جنس الملائكة وقتًا من الاوقات في لمحةٍ من اللمحات

ثم قسم النفوس البشرية على ثلاثة اصنافٍ صنف عاجزٌ بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني وليس له الاَّ المدارك الحسيّة والخياليّة وبها يستفيد العلوم التصورية والتصديقية بحسب نطاق الادراك البشري الجسماني واليهِ تنتهي مدارك العلماء وفيهِ ترسخُ اقدامهم

وصنف يتوجه بحركة الفكر نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية فيتسع نطاق ادراكهِ عن الاوليات التي هي نطاق الادراك البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهذه مدارك العلماء الاولياء اهل العلوم اللدُنية والمعارف الربانية

وصنف مفطور على الانسلاخ من البشرية جملةً جسمانية وروحانية الى الملائكة من الافق الاعلى ليصير لمحةً من اللمحات ملكًا بالفعل ويحصل على شهود الملاء الاعلى في افقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللمحة وهؤلاء الانبياء في حالة الوحي[1] يحوزونها بما رُكِزَ في غرائزهم من الصدق والاستقامة

واما الكهانة فهي من خواص النفس الانسانية وذلك لما تقدَّم في ما مرَّ من ان للنفس الانسانية استعدادٌ للانسلاخ من البشريَّة الى الروحانيَّة التي فوقها وكان ذلك الاستعداد موجودًا في الطبيعة البشريَّة فيعطي التقسيم العقلي ان

(١) الوحي في اللغة الاسراع وقد سمي الاعلان الروحي بهذا الاسم لاسراعهِ باقرب من لمح البصر

هنا صنفاً آخر من البشر ناقصاً عن رتبة الصنف الاول نقصان الضدِّ عن ضدّهِ الكامل الاّ انهُ مفطورٌ على ان تتحرك قوتهُ العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يبعثها النزوع الى ذلك وهي ناقصةٌ عنهُ بالجبلة فيكون لها بالجبلة عندما يعوّقها العجزُ عن ذلك تشبثٌ بامور جزئيةٍ محسوسةٍ ومتخيلة كالاجسام الشفافة وعظام الحيوانات وسجع الكلام وما سنحَ من طيرٍ او حيوانٍ فيستديم ذلك الاحساس والتخيل مستعيناً بهِ في ذلك الاسلاخ الذي يقصدهُ ويكون كالمشيع لهُ وهذه القوّة التي فيهم مبدأ لذلك الادراك هي الكهانة(١)

ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيهُ من وحي الشيطان وارفع احوال هذا الصنف ان يستعين بالكلام الذي فيهِ السجع والموازنة ليشتغل بهِ عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فربما صدَق ووافق الحق وربما كذب واصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان وتخمد الكهانة في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس ويلي الكهان على النمط المذكور الرؤيا والتكهن والرياضة والصناعة ولكلٍّ من ذلك كلامٌ في ما يأتي

الكلام على الكهان

الكاهن عند اليهود والنصارى والامم هو الذي يقدم الذبائح والقرابين وربما كان مأخوذاً في الاصل من معنى القضا بالغيب كما كانت تفعل كهنة الامم واليهود وفي التعريفات الكاهن هو الذي يخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان ويدّعي معرفة الاسرار ومطالعة علم الغيب وفي الكليات الكاهن من يخبر بالاحوال الماضية والعراف من يخبر بالاحوال المستقبلة

والمعروف بهذه الوظيفة من الجاهلية كثيرون منهم الافعى الكاهن الذي

---

(١) تامل في ما يروى عن بلعام العراف وغيرهِ من اصحاب العرافة والانبياء الكذبة في العهد القديم

حكم بين ولد نزار بن معد لما تنافروا اليهِ بعد موت نزار بن عمرو ماء السماء الحميري وكذلك جذيمة الابرش كان قد تكهن وادَّعى النبوة ومثلهُ الزبَّاء وسوف يأتي ذكرها في محلهِ وابن صياد وسواد بن قارب ولم نقف على ترجمتهما واما الذين وقفنا على تراجمهم فهم

اولاً . الاسود العنسيّ من قبيلة مذحج واسمهُ عيهلة بن كعب وكان يُسمَّى ذا الحمار ايضًا لانهُ كان لهُ حمار اسود معُلَّم يقول لهُ اسجد لربك فيسجد لهُ ويقول لهُ ابرك فيبرك ادَّعى النبوة في اليمن وكان يشعبذ ويري الجهال الاعاجيب ويسبي بمنطقهِ من يسمعهُ قتلهُ رجلٌ يقال لهُ فيروز قبل وفاة صاحب الشريعة الاسلامية بيوم وليلة

ثانيًا . عامر بن عبد الله بن سعد بن ابي سرح الذي كان اخًا لعثمان بن عفان من الرضاعة وكان كاتبًا للوحي يحكى عنهُ انهُ كان يكتب آية ابتداء الخليقة فقال تعجبًا فتبارك اللهُ احسنُ الخالقين فقال لهُ صاحب الشريعة الاسلامية اكتبها فانها أُنزلت فارتد لوقتهِ عن الاسلام وقال لئن كان محمدٌ نبيًّا فانا نبيٌّ واوحي اليَّ وفيهِ يقول ابو تمام

واختار من سعدٍ لعين بني ابي سرحٍ لوحي الله غير خيارِ
حتى استضاء بشعلةِ السور التي رفعت لهُ سجفًا من الاستارِ

ولما هدر دمهُ صاحب الشريعة المشار اليهِ اتى بهِ عثمان وسألهُ فيهِ فأمنهُ وبقي الى زمن خلافة عثمان فولاهُ مصرًا

ثالثًا . مسيلمة الكذاب وكنيتهُ ابو ثمامة من قبيلة بكر بن وائل تنبأً باليمامة فقيل لهُ رحمان اليمامة من باب التهكم لان الرحمن من اسماء الله الحسنى مختصٌّ بالله فلا يجوز ان يسمَّى بهِ غيرهُ ثم مخرق بها الى ان سار اليهِ خالد بن الوليد وقتلهُ في ايام خلافة ابي بكر وبهِ يضرَب المثل في الكذب فيقال اكذب من ابي ثمامة

رابعًا . سجاح[1] وهي امرأة تميمية من بني يربوع وابوها الحارث بن سويد ابن عقفان وكنيتها ام صادر ظهرت في ايام مسيلمة المذكور وسارت اليهِ لتناظرهُ وتخبرهُ فآمنت بهِ ووهبت لهُ نفسها وقيل ان ادّعاءها النبوة كان بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية وكان ذلك بالجزيرة في بني تغلب واتبعها قومٌ من بني تميم وظهر امرها حتى هابتها العرب وصالحتها على ان تجوز من بلادهم حيث شاءت وبها يضربون المثل في الكذب ايضًا فيقولون اكذب من سجاح

خامسًا . طلحة الاسدي احد مشاهير الشجعان في الجاهلية والاسلام أسلم ثم ارتد وتنبأ وجمع جمعًا عظيمًا وكان يتكهن فلما فلّ خالد بن الوليد جمعهُ عاد الى الاسلام

سادسًا . المختار بن ابي عبيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير بن عوف بن غيرة الصحابيّ المقتول يوم الجسر من ايام القادسية وكان عاملاً لعبد الله بن الزبير على الكوفة انتقض اولاً عليهِ ودعا لمحمد بن الحنفية ثم اخيرًا ادّعي النبوة

سابعًا . ابو الطيب المتنبي الشاعر المشهور ظهر بارض الشام في آخر القرن الرابع من الهجرة (العاشر من الميلاد) وادّعى النبوة ايضًا فخرج عليهِ لؤلؤ امير حمص وامسكهُ وسجنهُ في القلعة الى ان تاب واقلع

ولنرجع الى ما كنا بصددهِ فنقول ويوجد بطن في كندة يقال لهُ السكاسك لهم مجالاتٌ شرقي اليمن متميزةٌ كانوا معروفين بالسحر والكهانة وكثيرون غيرهم لايمكن استقراء اسمائهم جميعًا واما الاشهر بينهم اثنان الواحد يقال لهُ شقّ والثاني سطيح كانا اولاد خالاتٍ وقريبين من زمن ظهور الاسلام. اما شقّ فاسمهُ ابو صعب شكر بن رهب بن امول بن يزيد بن قيس عبقر بن انمار ويقولون انهُ دُعي شق لكونهِ كان نصف انسانٍ اي شق الانسان فكانت لهُ يدٌ واحدة ورجلٌ واحدة واما سطيح فهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن ابن ذئب بن عدي بن مازن بن غسّان ولوقوع اسم ذئب في نسبهِ كان يُعرف

(1) سجاح مشتق من السجاحة وهي السهولة

بالذئبي وكان جسدًا ملقًى لاجوارحَ لهُ وكان وجههُ في صدرهِ فلم يكن لهُ راسٌ ولاعنقٌ وكان لا يقدر على الجلوس الّا اذا غَضِبَ فانهُ ينتفخ ويجلس وكانت ولادتهما في يومٍ واحدٍ وهو الذي ماتت فيهِ طريفة بنت الخير الحميريّ الكاهنة زوجة عمرو مزيقيا اخي عمران الكاهن بن عامر ماء السماء ولما وُلدا دعت بكل واحدٍ منهما وتفلت في فيهِ وزعمت انهُ سيخلفها في علمها وكهانتها ثم ماتت في ساعتها ويقال بانهُ عاش كلٌّ منهما ست مئة سنة وقيل ان سطيحًا عاش سبع مئة سنة وانهُ مات في ايام كسرى انوشروان

وكما كان العرب يتنافرون الى حكامهم في مفاخرة الانساب على ما تقدم هكذا كانوا يفزعون الى هولاء الكهان في تعرُّف الحوادث ويتنافرون اليهم في الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب الاخباريين كثير من ذلك قال الشاعر

فقلتُ لعرّافِ اليمامةِ داوني فانك ان داويتني لطبيبُ

وقال آخر

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حكمهُ وعرّافِ نجدٍ ان هما شفياني

فقالا شفاك اللهُ واللهِ ما لنا بما حملتْ منكَ الضلوعُ يدانِ

قال ابن خلدون المغربي وقد وُجدَ من هذا النوع بعد الاسلام ايضًا فانهُ كان للبربر بالمغرب كهانٌ من اشهرهم موسى بن صالح من بني يفرن لهُ كلماتٌ حدثانية برطانتهم(١) على طريقة الشعر وفيها حدثان كبير ومعظمهُ في ما يكون لزناتة من الملوك والدولة بالمغرب ووقع في الدول الاسلامية منهُ كثيرٌ في ما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفي ما يرجع الى الدولة واخبارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثار منقولة عن مسلمة بني اسرائيل مثل كعب الاحبار ووهب بن منبّه وامثالها وكانوا يخرجون مدّة الملل

(١) الرطانة التكلم بغير العربية

وبقاء الدنيا من بعض الاحاديث ومن الحروف المقطعة في اوائل سور القرآن ولهم في ذلك اعتبارات بحساب الجُمَّل يطول شرحها

واما في حدثان الدول فكانوا يستندون الى كتاب الجفر ويزعمون فيهِ علم ذلك كلهِ من طريق الآثار والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون اصلهُ ولا مستندهُ . واصلهُ ان هرون بن سعيد العجلي راس الزيدية لهُ كتابٌ يرويهِ عن جعفر الصادق (السادس من الأئمة المستورين العلويين) وفيهِ علم ما سيقع لاهل البيت على العموم ولبعض الاشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائرهِ من رجالاتهم وذلك على طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الاولياء وكان مكتوبًا عند جعفر في جلد ثورٍ صغير فرواهُ عنهُ هرون العجلي وكتبهُ وسماهُ الجفر باسم الجلد الذي كُتبَ فيهِ لان الجفر في اللغة هو جلد المعز الصغير[1] وصار هذا الاسم علمًا على هذا الكتاب عندهم وكان فيهِ تفسير القرآن وما في باطنهِ من غريب المعاني مروية عن جعفر الصادق انتهى كلام ابن خلدون غير ان ابن خلكان يقول ان الروافض يفسرون القرآن ويدَّعون علم باطنهِ بما وقع لهم عن الجفر الذي ذكرهُ سعيد بن هرون العجليّ وكان راس الزيدية بقولهِ

أَلم ترَ ان الرافضين تفرقوا	فكلُّهمُ في جعفرٍ قال منكرا
فطائفةٌ قالوا امامٌ ومنهمُ	طوائفُ سمَّتهُ النبيَّ المطهرا
ومن عجبٍ لم اقضهِ جلد جفرهم	برئتُ الى الرحمن ممن تجفرا

قال ابن قتيبة هو جلد جفر ادَّعوا انهُ كتب لهم فيهِ الامام كل ما يحتاجون اليهِ وكل ما يكون الى يوم القيامة وقولهم الامامُ يريدون بهِ جعفر الصديق والى

---

(١) الجفر بفتح الجيم وسكون الفاء بعدها راء من اولاد المعز ما بلغ اربعة اشهر وجفر جنباه وفصل عن امهِ والانثى جفرة وكانت عادتهم في ذلك الزمان يكتبون في الجلود والعظام والخرق وامثال ذلك

هذا اشار ابو العلاء المعرّي بقولهِ

لقد عجبوا لاهلِ البيتِ لما اتاهم علمهم في مَسكٍ[1] جفرِ
ومرآةُ المنجم وهي صغرى أرتهُ كلَّ عامرةٍ وقفرِ

وفي محيط المحيط علمُ الجفر هو علمٌ يبحثُ فيهِ عن الحروف من حيث هي بناءٌ مستقلٌّ بالدلالةِ ويسمّى علم الحروف وعلم التكسير ايضًا قال السيدُ السندُ من نوع العلم الجفر والجامعة كتابان لعليٍّ كرّم الله وجههُ ذكر فيهما على طريقة علم الحروف الحوادث التي تحدث الى انقراض العالم وكان الائمة من اولادهِ يعرفونها ويحكمون بها وفي كتاب قبول العهد الذي كتبهُ عليُّ بن موسى الرضا الى المأمون العباسي بعد وعد المأمون لهُ بالخلافة انك قد عرفت من حقوقنا ما لم يعرفهُ آباؤُك فقبلت منك عهدك الاّ ان الجفر والجامعة يدلان على انهُ لايتم قيل ولمشائخ المغاربة نصيبٌ من علم الحرف ينسبون فيهِ الى اهل البيت

الكلام على التكهين

وقال ابن خلدون ايضًا انهُ يوجد اشخاصٌ يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعةٍ فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعةٍ ولا يستدلون عليهِ بأثرٍ من النجوم ولا غيرها انما مداركهم فيهِ بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليهـا ومنهم العرافون الذين يسلطون افكارهم على الامر الذي يتوجهون اليهِ وياخذون فيهِ بالظنّ والتخمين ويدّعون بذلك معرفة الغيب وهم ليسوا منهُ على الحقيقة. ومنهم الناظرون في الاجسام الشفافة كالمراءي وطساس الماء والناظرون في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامهـا واهل الطَرقِ بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى كلهم من قبيل الكهان الاّ انهم اضعف رتبةً في الكهانة وكذلك اهل الزجر في الطير والسباع وهذه كلهـا

---

(١) المسك بفتح الميم وسكون السين المهملة الجلد

موجودة في عالم الانسان لا يسع احدٌ جحدها ولا انكارها واضعفُ منهم من يشغل حسهُ بالبخور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ويزعمون انهم يرون الصور متشخصةً في الهواء تحكي لهم احوال ما يتوجهون الى ادراكهِ بالمثال والاشارة ثم المجانين وادراك هولاء كلهم مشوب الحق بالباطل وحتى الآن يوجد في المدن والامصار الاسلامية كثيرٌ من الناس ضعفاء العقول والنساء والصبيان يستكشفون عن عواقب امرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وامثال ذلك من اناسٍ ينتحلون معاشهم في الخط بالرمل ويسمونهُ المنجم والطرق بالحصا والحبوب ويسمونهُ الحاسب والنظر في المرائي والمياه ويسمونهُ ضارب المندل

القيافة . قال بعض المؤلفين ان القيافةَ في العرب الجاهلية كانت على ضربين قيافة البشر وقيافة الاثر . اما قيافة البشر فهي ان يستدلَّ المتكهن من النظر في خيلان الوجه وفي بعض اعضاء الانسان ليتكهن ويسمّون من يتكهن بذلك الحاذي وكانت تختصُّ بقومٍ من العرب يقال لهم بنو مدلج يُعرَض على احدهم مولود في عشرين نفرًا فيلحقهُ باحدهم

واما قيافةُ الاثر فهي الاستدلالُ بالاقدام والحوافر والخفاف وقد اختصَّ بهِ قومٌ من العرب ارضهم ذات رملٍ اذا هرب منهم هاربٌ او دخل عليهم سارقٌ تبعوا آثار قدمهِ حتى يظفرون بهِ والعجب في ذلك انهم يعرفون قدم الشيخ من الشاب والمرأة من الرجل والبكر من الثيّب والغريب من المستوطن. يحكى عن رجلٍ منهم يقال لهُ عمر بن خالد المازني انهُ كان عائفًا قائفًا وكان يسير يومًا في طريق فقال ارى اثرَ رجلينِ شديد كلبهما غزير سلبهما والفرار بقرابٍ اكيس فذهب قولهُ مثلاً يُضرَب في الرضا باليسير والقناعة مع سلامة العرض وقالوا ان القُراب بالضم من قريب يراد بهِ تعجيل الفرار ممن لا طاقة لهُ بهِ والصحيح ان قرابًا بالضم اسم فرس عبد الله بن الصمّة اخي دريد المشهور كان معهُ في حربٍ فاستضعف دُريد نفسهُ وقومهُ فقال لاخيهِ الفرارُ بقرابٍ

آكيس اي أحزم رأياً والصواب من الثباتِ فلم يطعهُ اخوهُ وقاتل فقتل وأُخذ الفرس

الفراسة. وكذا الفراسة هي من هذين النوعين ايضًا وهي ان يتوسم الانسان من النظر الى وجه صاحبهِ ما اضمرهُ في نفسهِ ومن استماع كلامهِ على امرهِ ومن هيئتهِ على صناعتهِ ومن تقاطيع سحنتهِ على اخلاقهِ او ينظر الى جرم الشيء من مكيل او موزون فيعرف مقدارهُ وضروب استدلال العرّاف كثيرةٌ منها ان يرى شخصًا اول مقابلتهِ مثلاً انهُ جالسٌ في محلٍ عالٍ فيستدلُّ بذلك على علوهِ او بيدهِ ماءٌ فيستدلُّ لهُ بالحياة والحاصل انهُ يراقب حركات الانسان وتصرفاتهِ وظروفهُ ويتخذها كرمزٍ يشيرُ الى مستقبل اموره(١)

التفاؤل والتشاؤم(٢). ومن ذلك نتج ايضًا التفاؤل والتشاؤم اما التفاؤل فهو ان يكون الرجل مريضًا فيسمع آخر يقول يا سالم او يكون طالبًا لحاجةٍ فيسمع آخر يقول يا واجد يا غانم والحاصل ان الفأل كلمةٌ طيبةٌ يتيمّن بها او حركة اختلاجٍ في الجسم ايضًا كاختلاج العين مثلاً فانهم يتفاءلون منهُ بلقاء الحبيب قال الشاعر

ظلّت تبشرني عيني اذ اختلجت بان اراك وقد كنّا على حذرِ

او في اليد اليمنى فيكون دالاًّ على الاخذ وعكسهُ اذا كان ذلك في اليسرى اما حركة طنين الاذن فتكون دالّةً على استماع حوادث جديدة وامثال ذلك وهو مباحٌ في الشريعة الاسلامية بخلاف الطيرةِ حيث ورد في الحديث الطِيرة والعيافة والطرق من الجبت

اما الطيرةُ فهي التشاؤم من اي ما يتشاءمُ بهِ من النحوس كرؤية الغراب مثلاً فانهُ يدل عندهم على الغربة ويزعمون انهُ اذا رحل العرب من مكانٍ نزل

---

(١) انظر سفر العدد ص ٢٣:١-٤ وص ٢٤:١٢و١٤ و٢٧و٢٨

(٢) الفأل بالهمزة يكون في الخير والتشاؤم من الشؤم يكون في الشر

فيهِ وزعق في اثرهم ولذلك يضيفونهُ الى البين وهو البعاد فيقولون غراب البين ثم كرهوا اطلاق ذلك الاسم مخافة الزجر وتطيرًا منهُ ايضًا وعلموا انهُ نافذ البصر صافي العين حتى قالوا في امثالهم اصفى من عين الغراب كما قالوا اصفى من عين الديك فسموهُ الاعور كنايةً كما كنّوا طيرةً عن الاعمى فقالوا يا بصير وكما سمّوا الملدوغ والمنهوس السليم وكما قالوا للمهالك المفاوز وهذا كثيرٌ. ومن اجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا منهُ اسم الغربة والاغتراب والغريب وليس في الارض بارحٌ ولا نطيحٌ ولا قعيدٌ ولا اعضب ولا شيء مما يتشاءمون بهِ الاَّ والغراب عندهم انكر منهُ ويرون ان صياحهُ اكثر اخبارًا وان الزجر فيهِ اعم ويزعمون انهُ اذا صاح مرتين فشرٌّ واذا صاح ثلاثة فخيرٌ ويسمونهُ بالفاسق ايضًا واشدُّ انواع الغراب كراهةً الغراب ذو المنقار والرجلين الحمر

وبعضهم اعرض عن الغراب وتطيَّر بالابل لكونها تحمل اثقال من ارتحل وفي ذلك يقول الشاعر

زعموا بان مطيّهم سبب النوى والمؤذنات بفرقةِ الاحبابِ

وقال الميداني في تفسير قولهم اشأم من ورقاء انهم يعنون بهِ الناقة

وكانوا يتشاءمون من العطاس وقيل سبب ذلك انهم كانوا يكرهون دابة يقال لها العاطوس

واعظم ما يتشاءمون بهِ من النحوس ايضًا البوم فانهُ يدل عندهم على الموت والخراب

والأخيلُ وهو طائرٌ يقال لهُ الشقراق ويسمونهُ مقطع الظهور لانهم يتطيرون منهُ للطيرهِ فاذا وقع على بعيرٍ وان كان سالمًا يئسوا منهُ واذا لقيهُ المسافر تطير وايقن بالعقر(١) وان لم يكن موت في الظهر واورد بعضهم في هذا

---

(١) عقَرهُ يعقرهُ عقرًا جرحهُ ونحرهُ وادبرهُ والكلب والفرس والابل قطع قوائمها كالحزّ

المعنى بيتاً عن الفرزدق يخاطب ناقتهُ حيث يقول

اذا قطنُ بلَّغتنيهِ ابن مدركٍ فلقيت من طير العراقيب اخيلا

واستطرد منهُ الى ذكر طير العراقيب بقولهِ فان العرب تسمي كل طائر تتطيَّر منهُ الابل طير العراقيب لانهُ يعرقبها وهو طير الشؤْم عندهم واذا عاين احدهم شيئاً من طير العراقيب قالوا أُتيح لهُ ابنا عيانٍ كانهُ قد عاين القتل والعقر لكن صاحب محيط المحيط يقول الأخيلُ ذو الخالِ والكثير الخيلانِ وطائرٌ مشؤومٌ او هو الصُرَدُ او الشقراق سمّي بهِ لاختلاف لونهِ بالسواد والبياض تتفاءل بهِ العرب قال الفرزدق

اذا قَطَنٌ بلَّغتنيهِ ابن مُدركٍ فلاقيتِ من طير الاخائل أَخيلا

يدعو لناقتهِ قَطَن التي يناديها بان تلاقي هذا الطائر المبارك اذا بلَّغتهُ هذا الرجل الذي هو ابن مدرك (ولا يخفى ما في ذلك من التناقض)

ويتشاءمون ايضاً بالظباء ومن نومة الضحى ويسمونها نومة الخُرق قيل لها ذلك لانها تدل على البلادة ويعتقدون انها تورث الغمّ والخوف ونومة العصر فانها تورث الجنون وقد قال بعضهم في ذلك

أَلا ان نوماتِ الضحى تورث الفتى غموماً ونوماتِ العُصيرِ جنونُ

ويضربون المثل بنومات رجل يقال لهُ عبود وكان عبداً اسود يزعمون انهُ نام سبعة سنين فيقولون نام نومة عبود او انوم من عبود وقال بعض رقاد العرب

رقدت رقاد الهيمِ حتى لوَ انني يكونُ رقادي مغنماً لغنيتُ

ويزعمون ايضاً ان من خرج الى سفرٍ والتفتَ وراءهُ لم يتم سفرهُ ولذلك كانوا اذا التفتَ المسافرُ يتطيرون لهُ

وقال ابن خلدون زَعم بعضُ اهل الخواص من المسلمين ان المدينة اذا

كثر فيها غرس النارنج في الدور تآذنت بالخراب حتى ان كثيرًا من العامة يتحاشى غرسهُ فيها وقيل مثلُ ذلك في الدفلى ايضًا وسببهُ كونهُ من الترف الذي ينشأُ عن زيادة الحضارة لان هذه الاشجار لا تكون الاَّ للزينة وهي تسبب الخراب لان زيادة الترف تكون سببًا للجبن والرخاوة اللذين يعقبهما عادةً الانقلاب وذل العبودية

العيافة . واما العيافةُ فهي زجر الطير وهو ضربٌ من التكهن يقال عاف الطائر يعيفُها عيافةً اي زجرها ومعنى الزجر في اللغة النَدْهُ والزواجرُ النوادهُ وهو ان يرمي الطائر بالحصاة او يصيح الرجل بهِ فان ولاهُ ميامنهُ في الطيران تفاءل بهِ اي تيمن وان ولاهُ مياسرهُ تشاءم بهِ وقيل انهم اذا ارادوا السفر خرجوا من الغلس والطير في اوكارها على الشجر فيطيرونها فان اخذت يمينًا اخذوا يمينًا وان اخذت شمالاً اخذوا شمالاً وفي ذلك يقول امرء القيس

وقد اغتدى والطيرُ في وكناتها[1] بمنجردٍ[2] قيد الاوابد هيكلِ[3]

وكانت بنو فهد هم زجرة الطير وعن الجوهري ان عيافة الطير تعتبر باسمائها او مساقطها واصواتها ومن امثالهم أبكرُ من الغراب لان الغراب يبكر على الطيران دون بقية الطيور وكنّوهُ بابي زاجر لانهُ يُزجر بهِ في العيافة ومن امثالهم مرَّ لهُ غراب شمال اي لقي ما يكرهُ . قال بعض المؤلفين يستبين من اشعار العرب بان نمط زجرهم فيهِ واحدٌ لا يتغير بل قد يزجرون الطير غير الغراب على طريقين احدهما على طريق الغراب في التشاؤم والآخر على طريق التفاؤل لان الشاعر ان شاء جعل العقاب عقبى خيرٍ وان شاء جعلها عقبى شرٍ وان شاء جعل الحمامَ حِمامًا وان شاء قال حمٌّ اللقاء والهدهد هدًى وهدايةً والحبارى حبورًا وحبرةً والبان يبانُ يلوحُ والدومَ نوعٌ من الشجر دوامَ العهد

(١) الوكنات مواقع الطير (٢) والمنجرد الفرس الماضي السير القصير الشعر
(٣) والهيكل العظيم الجرم والاوابد الوحش

كما صارت الصباء عنده صبابةً والجنوب اجتنابًا والصرد تصريدًا الَّا انهُ لم يزجر احدٌ منهم في الغراب شيئًا من الخير هذا قول اهل اللغة وذكر بعض اهل المعاني ان نعيب الغراب يتطير منهُ ونغيقهُ يتفاءل بهِ ويقال نغق الغراب نغيقًا اذا قال غيق غيق فيقال عندها نغقَ ويقال نعبَ الغراب نعيبًا اذا قال غاق فيقال عندها نعبَ بشرٍ قال ومنهم من يقول نغقَ ببينٍ ومنهم من يحتجّ للغراب ويقول العرب تيمن بهِ ومنهم من يدفع ذلك اما طير القارنة فكانت تنشرح لهُ صدورهم ويتيمنون برؤيتهِ وهو طائرٌ قصير الرجلين طويل المنقار اخضر الظهر

الطَرْقُ . واما الطرْقُ فهو الطرق بالحصا نوع من التكهن في الجاهلية ايضًا واصحابهُ يسمّون الطرّاق ومنهُ الطوارق المتكهنات من النساء قال لبيد ابن ربيعة العامري

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصا ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ

وفي بعض المؤلفات الضوارب بالحصا

النُقدُ والعُقدُ . ومن ضروب التكهن ايضًا النُقَدُ جمع نقدةٍ وهي نوعٌ من السحر والعُقَدُ التي تعقدها الساحرات ويتفلنَ عليها فهنَّ النافثاتُ في العقد

دور القمقم . وكان اذا اراد الكاهن استخراج السرقة أخذ قمقمةً وجعلها بين سبابتيهِ ينفث فيها ويرقي ويديرها فاذا انتهى في زعمهِ الى السارق دار القمقم ولذلك يقولون في المثل على هذا دار القمقم يضرب لمن ينتهي الخبر ودار عليهِ

نداء الكهان . وكان اذا تكهن كاهنهم او زجرَ زاجرهم او خطّ خاطّهم فرأى في ذلك ما يكرهُ قال ابنا عيان اظهرا البيان ويروى اسرعا البيان وهما خطان يخطها الزاجر ويقول هذا اللفظ كانهُ بهما ينظر الى ما يريد ان يعلمهُ ويروى ابني عيان اظهرا البيان على النداء اي يا ابني عيان اظهرا البيان

الكلام على الرياضات

قال ابن خلدون ومن هذه المدارك الغيبية ما يصدرُ لبعض اناسٍ عند مفارقةِ اليقظة والتباسهِ بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوق اليهِ ولا يقع ذلك الاَّ في مبادئ النوم وكذلك الميتُ لاول موتهِ يتكلم بالغيبِ وما يصدر ايضًا من المقتولين عند مفارقة رؤوسهم واوساط ابدانهم من التكلم بمثل ذلك

ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتًا صناعيًا باماتة جميع القوى البدنية ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعدهُ وتطّلع النفس على المغيبات ومن هولاء اهل الرياضة السحرية ويوجد اكثرهم في الاقاليم المنحرفة جنوبًا وشمالاً خصوصًا بلاد الهند ويسمّون هناك الحوكية ولهم كتبٌ في هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة[1]

اما المتصوفة فرياضتهم دينية وعريّة عن المقاصد المذمومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية لتحصل لهم اذواق اهل العرفان والتوحيد ويزيدون في رياضتهم الى الجمع والجوع والتغذية بالذكر فيها تتم وجهتهم في هذه

(١) يمكن هنا الظن بانهُ ربما كان من هذا القبيل ما نسمعهُ من اخبار المغنطيسية الشائعة اخبارها في هذه الايام وهو ان البعض من اهل اوربا يسمون سبرتيين ومعناهُ الروحيين يمغطسون بعض الاشخاص فالمتمغطس تخمد حاسياتهُ بحيث لو وضع على جسمهِ شيء كجمرة نار او نحوها لما شعر بهِ الاَّ بعد ان يصحى من نومهِ ثم يسأَلونهُ في حال غيبوبتهِ عن كل ما ارادوهُ وكلفوهُ للبحث عنهُ او المجاوبة عليهِ فيجاوب مهما كانت الاسئلة عويصة او بعيدة عن معارفهِ او في اقصى البلاد بعدًا عن المركز الذي هو فيهِ ومتى نبهوهُ من الغيبوبة انتبه غير مشعرٍ بشيء مما سئل عنهُ او اجاب بهِ غير ان بعض المخبرين يقول انهُ ربما صدق او كذب ويقال انهم بهذه الواسطة يستحضرون ارواح الموتى ايضًا ويسالونها فتجاوبهم عن كل ما ارادوا ويقال بان الافرنج اكتشفوا على هذه الطريق حديثًا من عرافي الهنود وان قدماء المصريين كانوا يستحضرون الارواح بهذه الطريقة ويسالونهم عن العلاجات الطبية الموافقة للمرضى

الرياضة ويسمّون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسةً وكشفًا وما يقع بهم من التصرّف كرامةً ولا يحصل لهم ما يحصل من معرفة الغيب والتصرّف الاّ بالعرض لا عن قصدٍ وكثيرٌ منهم من يفرُّ منهُ اذا عرض لهُ وقد ذهب الى انكارهِ من العلماء ابو اسحق الاسفرايني وابو محمد بن ابي زيد المالكي

ومن هولاء المريدين من المتصوفة قومٌ بهاليل معتوهون أَشبهُ بالمجانين مما هم بالعقلاء قد صحّت لهم مقاماتُ الولاية واحوال الصديقين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب وربما ينكر الفقهاء انهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الاّ بالعبادة لكن بعضهم يظنُّ ان الاعتراض عليهم بهذا السبب غلطٌ ويسمّون مَن لا شيخ لهُ بالمجذوب يريدون بذالك انهُ جُذِب الى طريق الخير والصلاح

اما اعتبار العرب للاحلام وتعبير الروْيا فهو من الامور الشائعة والمتيقنة عندهم منذ الاجيال القديمة[1] وعدَّ آخرون منهم تعبيرها من الطبيعيات قال ابن خلدون ما ملخصهُ اذا كانت الروْيا ضعيفة غير جلية وهي بالمحاكاة والمثال كانت محتاجةً الى التعبير واذا كانت جلية فلا تحتاج الى تعبير وتنقسم الى ثلاثة انواعٍ روْيا من الله وهي الجلية وروْيا من الملاك وهي المحاكاة الداعية الى التعبير واضغاث احلامٍ وهي من الشيطان لان كلها باطلٌ وقد ذكر اهل الرياضات في كتبهم اسماء زعموا انها تُذكر عند النوم فتكون عنها الروْيا في ما يتشوّق اليهِ ويسمّونها الحالومية

وكان لابي بكر الصديق اليد الطولى في تعبيرها ثم أَلَّف كثيرون بعدهُ كتبًا في ذلك ومن جملتهم الشيخ محمد بن سيرين الذي يُحكى عنهُ بانهُ كان ازهد الناس وصنعتهُ بزازٌ وفي اذنهِ صممٌ توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨ م) وتأْليفهُ هو المعوّل عليهِ الآن في هذا الباب

---

(١) انظر قض ص ١٢:٧ و١٤ واصول المعارف وجه ٢٠١

الكلام على الصناعة

التنجيم . قال ابن خلدون وقد يزعم بعض الناس ان هناك مدارك للغيب من دون غيبةٍ عن الحسّ وهم القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى اوضاعها في الفلك وآثارها في العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالتناظر ويتأدّى من ذلك المزاج الى الهواء وهولاء المنجمون ليس من الغيب في شيء انما هي ظنونٌ حدسية وتخمينات باطلة

وكانت العرب في ايام جاهليتهم يعتقدون في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات حتى ان بعضهم لايتحرك الّا بنوء من الانواء كما سوف تأتي تفاصيل ذلك في محلها

فلما تُرجمت كتب الفلاسفة الى العربية وعاق الناس على العلوم والاصطلاحات صار اكثر معتقدهم في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وخصوصاً بين العلويين كزحل والمشتري ومنها القران الكبير فانهُ يدل على عظام الامور مثل تغيير الملك والدولة وانتقال الملك من قومٍ الى قوم واما القران الوسط فانهُ يدل على ظهور المتغلبين والطالبين للملك واما القران الصغير فانهُ يدل على ظهور الخوارج والدعاة وخراب المدن وعمرانها . وقران النحسين يدل على الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج وحركة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط

وكان لبني أُمية منجمٌ من الروم يقال لهُ ثيوفيل تكلم في بقاء مدّة الاسلام . اما الرشيد وابنهُ المأمون من الخلفاء العباسيين فكان لهما يعقوب بن اسحق الكندي وضع كتاباً في القرانات الكاملة في الملة الاسلامية سماهُ الشيعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق ذكر فيهِ على ما يقال حدثان دولة بني العباس وكيفية انقراضها وحيث لم يقف احدٌ على شيء من خبر هذا الكتاب

يظنُّ انهُ غرق في كتبهم التي طرحها هلاكو ملك التتر في نهر دجلة عند استيلائهِ على بغداد كما يتضح ذلك في محلهِ من هذا الكتاب

وقد وقع بالمغرب جزءٌ منسوبٌ الى هذا الكتاب ويسمّونهُ الجفر الصغير والظاهر انهُ وضع لبني عبد المؤمن لذكر الاولين من ملوك الموحدين

والكتب والاجفار امثال ذلك كثيرة منها قصيدة ابن مرّانة بالمغرب وقصيدة اخرى تسمى التبّعية نحو الف بيت وملعبة من الشعر الزجليّ منسوبة لبعض اليهود وهي نحو خمس مئة بيت في القرانات التي دلّت على دولة الموحدين وقصيدة من عروض المتقارب على روي الباء في حدثان دولة بني ابي حفص بتونس من الموحدين منسوبةٌ لرجل يقال لهُ ابن الأبّار خياط من اهل تونس وملحمة اخرى في دولة بني ابي حفص ايضًا وملعبة منسوبة الى الهوثيني على لغة العامة محفوظة بين اهالي المغرب

وملعبة منسوبة الى ابن العربيّ الحاتي في المشرق في كلامٍ طويل شبه الالغاز واشكال حيوانات ورؤوس مقطعة وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روي اللام وملحمةٌ اخرى منسوبة الى ابن سيناء وان عقب وملحمةٌ من حدثان دولة الترك منسوبة لرجل من الصوفية يقال لهُ الباجربقي وكلها الغازٌ بالحروف وكثير من ارباب التحيل في بغداد وغيرها كانوا يصطنعون رموزًا نظير ذلك يعنون بها ارباب الوجاهة والمراتب السامية يقدمونها اليهم ويختطفون منهم بواسطتها المناصب العالية او ما بايديهم من الاموال

ومن المؤلفات المتداولة بين ايادي العامة الى هذا العصر الذي نحن فيهِ تستكشف الناس فيها عواقب امرهم وما يحدث لهم مدّة حياتهم من خير وشرّ مؤلفات ابي معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المشهور بالتنجيم حتى كان يضرب بهِ المثل فيقال انجم من ابي معشر ومؤلفاتهُ شهيرة وهي المدخل والزيج والالوف وكتاب القرانات وكتاب الدول والملل وكتاب الملاحم وكتاب الاقاليم وكتاب السلاح وكتاب المسألات في المواليد وكتاب الطبائع يحكى ان المستعين بالله

العباسي ضربهُ اسواطًا لانهُ أخبر بشيء قبل وقوعهِ فكان يقول اصبت فعوقبت وكان ذلك سبب موتهِ في سنة ٢٧٢ للهجرة (سنة ٨٨٥ م)[١]

خط الرمل · ومن مدارك الغيب بالصناعة ايضًا خط الرمل قال ابن خلدون ومن هولاء قومٌ من العامة استنبطوا لاستخراج الغيب وتعرّف الكائنات صناعةً سمّوها خط الرمل نسبةً الى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصول هذه الصناعة انهم صيّروا من النقْطِ اشكالاً ذات اربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية واستوائها فيها فكانت ستة عشر بيتًا طبيعية بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للفلك والاوتاد الاربعة وجعلوا لكل شكلٍ منها بيتًا وحظوظًا ودلالةً على صنفٍ من موجودات عالم العناصر يختص بهِ واستنبطوا من ذلك فنًّا حازوا بهِ فنَّ النجامة ونوع قضائهِ الاَّ ان احكام النجامة مستندة الى اوضاع طبيعية كما زعم بطليموس وهذه انما مستندها اوضاعٌ تحكميةٌ واهواءٌ اتفاقية ولا دليل يقوم على شيء منها ويزعمون ان اصل ذلك من النبوة القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال او ادريس (كما يتضح ذلك في ما يأتي) وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التآليف

---

(١) زعموا ان ملكًا من الملوك طلب رجلاً من اتباعهِ ليعاقبهُ بسبب جريمةٍ ارتكبها وعلم الرجل ان ابا معشر يدل عليهِ بالطرائق التي بها يستخرج الخبايا فاخذ طستًا وجعل فيهِ دمًا وجعل في الدم هاون ذهب وقعد على الهاون اياماً وتطلب الملك ذلك الرجل وبالغ في التطلب فلما عجز عنهُ احضر ابا معشر وقال لهُ تعرّفني موضعهُ بما جرت بهِ عادتك فعمل المسئلة التي بها يستخرج الخبايا وسكت زمانًا حائرًا فقال لهُ الملك ما سبب سكوتك وحيرتك فقال ارى شيئًا عجيبًا قال وما هو قال ارى الرجل المطلوب على جبلٍ من ذهب والجبل في بحر من الدم ولا اعلم موضعًا في العالم على هذه الصفة فامرهُ الملك ان يعيد النظر واخذ الطالع جديدًا ففعل ثم قال ما ارى الاَّ كما رأيت وذكرت فلما ايس الملك من القدرة عليهِ بهذه الطريق نادى في البلد بالامان للرجل ولمن اخفاهُ فلما اطمأن الرجل ظهر وحضر بين يدي الملك فسالهُ عن الموضع الذي كان فيهِ فاخبرهُ فاعجبهُ حسن احتيالهِ ولطافة ابي معشر في استخراجهِ

واشتهر فيها الاعلام من المتقدمين والمتاخرين

حساب النيم. ومنهم طوائفٌ يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدَس المبني على تأْثيرات النجوم كما زعم بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليهِ العرّافون وانما هي مغالطٌ يجعلونها لاهل العقول المستضعفة ومما ذكرهُ من ذلك المصنفون وولع بهِ الخواص الحساب الذي يقال لهُ حساب النيم وهو مذكورٌ في آخر كتاب السياسة المنسوب لارسطو الفيلسوف يعرَف بهِ الغالب من المغلوب من الملوك وهو ان تحسب الحروف التي في احدها بحساب الجُمَّل وتنظر مجموع المتحصل ثم تحسب اسم الاخر كذلك ثم يطرَح كل واحدٍ منها تسعةً تسعةً ويُنظرُ بين العددين الباقيين بعد ذلك من حساب الاسمين فاذا كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معًا زوجين او فردين فصاحب الاقل منها هو الغالب وان كان احدها زوجًا والاخر فردًا فصاحب الاكثر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معًا زوجان فالمطلوب هو الغالب وان كانا معًا فردين فالطالب هو الغالب وقد اجتمع ذلك في هذين البيتين

اری الزوجَ والافراد يسمو اقلها ... واكثرُها عند التخالف غالبُ
ويغلبُ مطلوبٌ اذا الزوج يستوي ... وعند استواء الفرد يغلبُ طالبُ

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعةٍ قانونًا معروفًا عندهم في طرح تسعةٍ حتى اذا ارادوا طرح الاسم بتسعةٍ نظروا كل حرفٍ في اي كلمةٍ هو من تلك الكلمات واخذوا عددها مكانهُ وهي ايقش بكر جلس دمت هنث وضح زعذ حفظ طضغ ولكن بعض الشيوخ يرى ان الصحيح فيها كلماتٌ اخرى غير هذه المتداولة بين الناس منذ القديم وهي ارب يسفك جزلط مدوص هف تحذن عش ضغ تعنط وهولاء الشيوخ كانوا ينقلونها عن شيخ المغرب في هذه المعارف من السيميا واسرار الحروف والنجامة وهو ابو العباس

ابن البنّا ويقولون عنهُ ان العمل بهذه الكلمات أَصحُّ من العمل بكلمات ايقش ثم ان الكتاب الذي وجد فيهِ حساب النيم غير معزوٍّ الى ارسطو عند المحققين لما فيهِ من الآراء البعيدة عن التحقيق

الزايرجة. ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب في ما يزعمون الزايرجةُ ايضًا وهي المسماة بزايرجة العالِم المعزوّة الى ابي العباس احمد السبتي من اعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المئة السادسة للهجرة (آخر القرن الثاني عشر للميلاد) بمراكش ولعهد ابي يعقوب المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعةً وصورتها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية للافلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من اصناف الكائنات والعلوم وكل دائرة مقسومة باقسام فلكها اما البروج واما العناصر وغيرها وخطوط كل قسمٍ مارّة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة فمنها برشوم الزمّام التي هي اشكال الاعداد عند اهل الدواوين والحساب بالمغرب ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايرجة وبين الدوائر اسماء العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظاهر الدوائر جدولٌ متكثر البيوت المتقاطعة طولاً وعرضًا يشتمل على خمسة وخمسين بيتًا في العرض ومئة واحدى وثلاثين في الطول جوانبُ منهُ معمورة البيوت تارةً بالعدد واخرى بالحروف وجوانب خالية البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد في اوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت العامرة من الخالية وتوجد ابياتٌ من عروض الطويل على رويّ اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايرجة الاّ انها من قبيل الالغاز وفي بعض جوانب الزايرجة بيتٌ من الشِعر منسوبٌ لبعض اكابر اهل الحدثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اشبيلية كان في الدولة اللمتونية ونصُّ البيت

سؤَال عظيم الخلق حزتَ فصن اذن

غرائب شكٍّ ضبطهُ الجدّ مثلا

وهو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في الزايرجة وغيرها ثم ان الحروف المتقطعة التي يأخذونها منها عند انتهاء كل دور من العمل الذي يعاونهُ تؤلف على التوالي فتصير كلماتٍ منظومة في بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل بهِ العمل ورويّهِ وهو بيت مالك بن وهيب المتقدّم وهناك زايرجةٌ اخرى منسوبةٌ الى سهل بن عبد الله والزايرجةُ من الاعمال الغريبة والمعاناة العجيبة وعلى كل حال لا سبيل الى معرفة الغيب بواسطتها لان الغيب لا يدرك بواسطة الصناعة مهما كانت من الاختراعات الدقيقة

المغاربة في كشف الدفائن. وكثيرون من طلبة البربر بالمغرب عاجزون عن المعاش الطبيعي واسبابهِ يتقربون الى اهل الدنيا بالاوراق المخرمة الحواشي اما بخطوط اعجمية او بما تُرجم بزعمهم منها من خطوط اهل الدفائن باعطاء اماراتٍ تدلُّ على كنوزٍ ودفائن مدفونة في الارض يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحفر والطلب ويوهمون عليهم بانهم انما حملهم على ذلك طلب الجاه في مثل هذه من منال الحكام والعقوبات فكثيرٌ من ضعفاء العقول في الامصار يصدقون ذلك معتقدين ان اموال الامم السالفة مختزنة كلها تحت الارض مختومٌ عليها بطلاسم سحرية لا يفضُّ ختامها الاَّ من عثرَ على علمهِ واستحضر ما يحلهُ من البخور والدعاء والقربان فاهل البلاد في افريقية[1] يرون ان الافرنج الذين كانوا قبل الاسلام بها دفنوا اموالهم واودعوها في الصحف بالكتاب الى ان يجدوا السبيل الى استخراجها واهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك في امم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك احاديث خرافية من مشاهدة بعض الطالبين الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم او تميد بهِ الارض حتى يظنها خسفًا واذا اقرّوا بانهم لم يعثروا على شيء ردّوا ذلك الى الجهل بالطلسم وفي القطر المصري كانوا يبحثون عن تغوير المياه او نضوبها بالاعمال السحرية لِما يرون من ان اموال

(١) يراد بافريقية فاس وتونس وطرابلس وغيرها من بلاد المغرب

قدمائهم كلها مدفونة في مجاري النيل انتهى كلام ابن خلدون

الطِلسمُ . والطلسمُ المذكور هنا ويجمع على طلسمات هو عبارة عن تمزيج القوى السماوية الفعالة بالقوى الارضية المنفعلة بواسطة خطوطٍ مخصوصة يستخدمها من يتعاطى هذا الفن ليدفع كل موْذٍ

السحر . واما السحر فهو نوعان حقيقي وغير حقيقي فالحقيقي قيل هو اخراج الباطل في صورة الحق وهو في اصل اللغة الصرف وسمي سحرًا لانهُ يصرف الشيء عن جهتهِ وقيل هو عمل يتقرّب بهِ من يتعاطاهُ الى الشيطان ومعونة منهُ ما لا يستقلُّ بهِ الانسان ويزعمون بانهُ خمسة انواع ترجع الى اصلين وهما السحر الابيض اي الالهي والسحر الاسود اي الشيطاني فالاول يمكّن صاحبهُ ان يستخدم الشيطان بالتقوى والتعزيم والثاني يجعل صاحبهُ خادمًا للشيطان بعبادتهِ وتكريمهِ والكفران بالله وبكتبهِ . وعندهم ان الاول حلال والثاني حرام وبواسطتهِ يُعمل الرصد وهو شخص سحري او غيرهُ يُنصب في المخابئ والدفائن لحراستها

واما غير الحقيقي من السحر فهو السيميا وهي على ما زعموا علمٌ حاصلهُ احداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحسّ وقد يُطلق على ايجاد تلك المثالات بصورها في الحسّ وتكون في جوهر الهواء

الفصل الخامس

في الاسماء الشريفة وغيرها من اهل العالم الروحاني

يُشار الى الذات الالهية بتسعة وتسعين اسمًا يقال لها اسماء الله الحسنى وهي

الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البار المصوّر الغفّار القهّار الوهاب الرزّاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعزّ المذلّ السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المغيث الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الودود المجيد الباعث الشهيد الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحيي المميت الحق القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الاول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعال البرّ التوّاب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والاكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضارّ النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور

ولصاحب الشريعة الاسلامية مئتا اسمٍ واسمٍ وهي

محمد احمد حامد محمود احيد وحيد ماحٍ حاشر عاقب طٰه يسٓ طاهر مطهر طيب سيد رسول نبي رسول الرحمة قيم جامع مُقتفٍ مقتفى رسول الملاحم رسول الراحة كامل اكليل مدثر مزمل عبد الله حبيب الله صفي الله نجي الله

كليم الله خاتم الانبياء خاتم الرسل نبي منجي مذكر ناصر منصور نبي الرحمة نبي التوبة حريص عليم معلوم شهير شاهر شهيد مشهور بشير مبشر نذير منذر نور سراج مصباح هدى مهدي منير داعٍ مدعو نجيب مجاب حفي عفوٌ ولي حق قوي امين مأمون كريم مكرم مكين متين مبين مؤمّل وصول ذو قوّة ذو حرمة ذو مكانةٍ ذو عزٍ ذو فضل مطاع مطيع قدم صدق رحمة بشرى غوث غيث غياث نعمة الله هدية الله عروة وثقى صراط الله صراط مستقيم ذكر الله سيف الله ضرب الله النجم الثاقب مصطفى مجتبي متقى أُمي مختار اجير جبار ابو القاسم ابو الطاهر ابو الطيب ابو ابرهيم مشفع شفيع صالح مصلح مهيمن صادق مصدق صدق سيد المرسلين امام المتقين قائد الغرّ المحجلين خليل الرحمن برّ مبرّ وجيه نصيح ناصح وكيل متوكل كفيل شفيق مقيم السنة مقدّس روح القدس روح الحق روح القسط كافٍ مكتفٍ بالغ مبلغ شافٍ واصل موصل سابق سائق هادٍ مهدٍ مقدّم عزيز فاضل مفضل فاتح مِفتاح مفتاح الرحمة مفتاح الجنة علم الايمان علم اليقين دليل الخيرات مصحح الحسنات مقيل العثرات صفوح عن الزلات صاحب الشفاعة صاحب المقام صاحب القدم مخصوص بالعز مخصوص بالمجد مخصوص بالشرف صاحب الوسيلة صاحب السيف صاحب الفضيلة صاحب الازار صاحب الحجة صاحب السلطان صاحب الرداء صاحب الدرجة الرفيعة صاحب التاج صاحب المغفرة صاحب اللواء صاحب المعراج صاحب القضيب صاحب البُراق صاحب الخاتم صاحب العلامة صاحب البرهان صاحب البيان فصيح اللسان مُطهر الجنان رؤُوف رحيم اذن خير مصحح الاسلام سيد الكونين عين النعيم عين الغرّ سعد الله سعد الخلق خطيب الامم علم الهدى كاشف الكُرَب رافع الرتب عزّ العرب صاحب الفرج

اما الصحابة فهم الذين ادركوهُ والتابعون هم الذين ادركوا الصحابةَ والمهاجرون هم الذين هاجروا معهُ في هجرتهِ من مكة الى المدينة والانصار هم

الذين نصروهُ من اهل المدينة ورحبوا بهِ لما هاجر اليها والحديث ما جاء عنهُ والخبر ما جاء عن غيرهِ والاثر ما روي عن اصحابهِ ويجوز اطلاقهُ على كلامهِ ايضًا وامُّ المؤمنين عائشة زوجتهُ والبتول الزهراء فاطمة ابنتهُ زوجة عليّ بن ابي طالب والحسنُ والحسين سبطاهُ منها وحليمة بنت ذؤيب السعدي مرضعتهُ وبلال موّذنهُ وابو طيبة حاجبهُ ونعيمان بن عمرو مزّاحهُ وعبد الله ذو البجادين دليلهُ والعقاب رايتهُ والعيدان قدحٌ كان يبول فيهِ ودلدل بغلةٌ شهباء اهداها لهُ المقوقس صاحب الاسكندرية مع جارية يقال لها مارية القبطية والقصواء او العضباء او الجدعاء ناقتهُ ويعفور او عفير حمارهُ والطرب او الظرب والحيف فرساهُ والبُراق دابةٌ دون البغل وفوق الحمار ركبها ليلة المعراج وهي الليلة التي عرّج فيها من مكة الى القدس ومنها الى السماء

وليلة القدر ويقال لها الجُهنيّ فهي الليلة التي أُنزل عليهِ فيها القرآن وهي من اوتار العشر الاخيرة من رمضان اي من الليالي التي عددها فردٌ لا زوج كالثالثة والخامسة ولعلها السابعة منها وقيل الثالثة والعشرون واما السبعُ الطول من القرآن فهي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والانعام والاعراف ويونس والانفال والبراءة جميعًا

واولي العزم هم على الاشهر نوح وابرهيم وموسى وعيسى والحواريُّ ناصر الانبياء ومنهُ الحواريون انصار المسيح اي تلاميذهُ وصاحب الحوت يونان النبي والقطب رجلٌ واحدٌ موضع نظر الله سبحانهُ في العالم في كل زمان ويسمّى بالغوث ايضًا والابدال هم قومٌ من الصالحين لا تخلو الدنيا منهم ولا يموت احدهم الاّ قام مكانهُ آخر من الناس وهم سبعون منهم اربعون بالشام وثلاثون بغيرها والخضر وهو صاحب موسى النبي ويكنى بابي العباس وقيل اسمهُ آليا وهو نبيٌّ والمشهور انهُ ماري جرجس عند النصارى والمتخصرون هم المصلون بالليل فاذا تعبوا وضعوا ايديهم على خواصرهم وقيل المعتمدون على اعمالهم يوم القيامة وذو الكفل قيل هو ايلياس النبي وقيل هوشع وقيل زكريا ويحيى الحصور هو المعروف

يوحنا المعمدان عند النصارى ايضًا وشعيب نبيٌّ وهو رعوئيل كاهن مديان حمو موسى النبي وهود نبيٌّ وهو عابر بن شالح أُرسل الى قوم عاد وكانوا انتحلوا دين الصابئة ليردهم الى التوحيد فاطاعهُ منهم جماعة منهم لقمان بن عاد وصالح نبيٌّ بُعث الى ثمود ليدعوهم الى عبادة الله فطلبوا منهُ آية فخرج بهم الى هضبةٍ من الارض فتمخضت عن ناقةٍ ذات فصيل نهاهم صالح عن ان يتعرّضوا لها بعقرٍ او هلكة فلم يمتثلوا كلامهُ بل رماها اخيرًا احدهم بسهمٍ في ضرعها وقتلها غير انهم لم يدركوا فصيلها فصعقوا بصيحةٍ من السماء انقطعت بها قلوبهم وهلكوا اجمعين ولذلك يقولون في المثل اخبث من الذين عقروا الناقة يُضرب للاشرار من القوم وحنظلة بن صفوان كان نبيًّا في اهل الرس وهم قوم من ثمود وقيل انهم من بني فالج بن عابر وهو الاصح وادريس اخنوخ وعزير نبيٌّ وهو عزرا الكاهن

وطالوت شاول ملك اسرائيل وجالوت جليات الجبار الفلسطيني واهل الكهف هم الفتية السبعة وقطمير هو كلبهم واما معروف الكرخي فهو ابو محفوظ ابن فيروز وقيل الفيروزان كان ابواهُ نصرانيين فاسلم هو على يد عليّ بن موسى الرضا واشتهر باجابة الدعوى توفي ببغداد سنة ٢٠٤ للهجرة (سنة ٨١٩ م) والرجال الاربعون هم الاربعون شهيدًا عند النصارى والفضيل هو ابن عياض الزاهد كان في ايام الخليفة هرون الرشيد واصلهُ من خراسان وقيل من سمرقند وابرهيم بن ادهم هو ابو اسحق العجلي الخراساني الذي صحبهُ في زهدهِ سفيان الثوري واويس القرني الذي يُضرب المثل في زهدهِ فيقولون أزهد من القرني اويس وهو ابن عامر ويضرَب المثل نظيرهُ ايضًا بذي النون المصري وهو ابو الفياض ثوبان بن ابرهيم وقيل الفياض بن ابرهيم المصري المتوفي سنة ٢٤٥ للهجرة (سنة ٨٥٩ م) وكذلك يُضرب المثل بنسك رابعة العدوية وهي بنت اسماعيل القيسي البصري مولاة آل عتيك وكنيتها أمُّ الخير ومن شِعرها ما رواهُ شهاب الدين السهروردي في كتاب عوارف المعارف

انّي جعلتك في الفؤاد محدّثي وابحت جسمي من اراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤنسٌ وحبيب قلبي في الفؤاد انيسي

اما الملائكة ويوصفون بالبررة فمنهم الكروبيون او الكروبية وهم سادة الملائكة او المقرّبون منهم بعد السروفين والناووس الاكبر وروح القدس وجبريل فهو الملاك جبرائيل عند النصارى وحيزوم اسم فرسه والسَفَرة او الحفَظَة الملائكة يحصون الاعمال والحفيظ هو الذي يكتب حسنات الناس وسيآتهم واصحاب الاعراف قيل هم انبياء وقيل ملائكة يعرفون اهل الجنة واهل النار والمعقّبات ملائكة الليل والنهار وقُزَحُ ملك موكل بالسحابة ومنهُ قوس قُزَح والرعد اسم ملك يسوق السحابة كما يسوق الحادي الابل بحدائهِ والصاعقة اسم المخراق الذي يكون بيدهِ ولا ياتي على شيءٍ الّا احرقهُ ومنهُ سيف الصاعقة ينطبعُ من جسم معدني كالحديد يسقط مع الصاعقة والرابضة ملائكة أُهبطوا مع آدم وبقية حملة الحجة لا تخلو الارض منهم وعزرائيل ملك الموت موكل بالقبض على ارواح البشر ومنكرٌ ونكير ملكان هما فتانا القبور يسألان الموتى في قبورهم عما كانوا عليهِ من الدين والسيرة في حال حياتهم في الدنيا ولهما سلطانٌ ان يعذبا مستحق العذاب في قبرهِ وبدوح اسم ملك موكل بحفظ الامانات ولذلك يكتبون اسمهُ على ظروف المكاتيب تحت العنوان اما بالحروف المعتادة واما بالرقم على مقتضى حساب الجُمّل وهو (٨٦٤٢) كما انهم يكتبون عليها اسم معروف الكرخي وقطمير اللذين مرّ ذكرهما . اما هاروت وماروت فكانا من الملائكة لكنهما عصيا ربهما فأُهبط بهما الى الارض واستوليا على مدينة بابل وقد البسهما الله الجثة الانسانية ليكونا حكمًا للناس ويمنعاهم عن الاغواء بالاهواء فجرى من امرهما ان اغواهما حبُّ النساء حتى ابعدها عن رضى الحق وبما ان عنصرهما الاصلي روحي ملائكي ولهما حقيقة الاطلاع على الاجرام العلوية والسفلية فاحكما صناعة السحر باتقان وعلماها الى حكماء بابل[1] ولذلك

(١) ذكر الاشبهي عن مجاهد انهُ رأى بعينهِ بئرًا في بابل لم يزل بها هاروت

يقولون في امثالهم اسحر من هاروت وماروت ويضيفون بابل الى السحراء
فيقولون بابل السحراء كما انهم يضيفون السحر الى بابل ايضًا فيقولون سحرٌ بابلي

والجَلَد الرقيع والسماء او كرة الهواء او الماء المتجمد فوق السماوات والرقيع هو السماء الاولى والصافورة السماء الثالثة والحاقورة السماء الرابعة والبرقع السماء الرابعة وقيل الاولى وقيل السابعة والعروبا والعُرقة السماء السابعة وسدرة المنتهى شجرة في السماء السابعة وقيل هي شجرة نبقٍ عن يمين العرش لا يتجاوزها احدٌ من الملائكة وغيرهم والضراح البيت المعمور في السماء الرابعة وقيل هو بيتٌ في السماء حيال الكعبة والمجبل الكتاب الاول وهو اللوح المحفوظ جسمٌ فوق السماء السابعة كتب فيهِ ما سيكون الى يوم القيامة

والساعة ويوم الدين واليومُ الآخر ويوم الحساب ويوم الحشر والآزفة ويوم البعث ويوم المعاد والحاقة والخُروج يوم القيامة ودار السلام ودار الجزاء وحظيرة القدس الجنَّة ورضوان حارسها والتسنيم ماءٌ يجري فوق الغُرَف والقصور قيل هو ارفع شراب اهل الجنة والفحفاح نهرٌ في الجنَّة ايضًا والكوثر نهرٌ فيها احلى من العسل واشدّ بياضًا من اللبن وابرد من الثلج وألين من الزبد حافتاهُ الزبرجد واوانيهِ من فضةٍ لا يظمأُ من شرب منهُ وطوبى او طيبى شجرة في الجنة والعليون جمع عليٍّ اسمٌ لاعلى الجنة وقيل موضعٌ في السماء السابعة تصعد اليهِ ارواح المؤمنين وقيل السماء السابعة والجنَّة وقائمة اليمنى وقيل سدرة المنتهى والاعراف سورٌ بين الجنة والنار

ودار البوار هي دار الهلاك ولظى وسعير وحُطمة وبولس وجهنم وهاوية وسقر هي سبعة ادراكٍ لنار الآخرة والدركُ هو اقصى قعر الشيء والمدركة المنزلة يقابلها الدرجة للصاعد ومالك اسم خازنها والزبانية ملائكةٌ يدفعون اهل النار اليها والصراط جسرٌ ممدود على متن جهنم ارقُّ من الشعرة واحدُّ من السيف والآثام وادٍ في جهنم وسجين وادٍ آخر فيها او كتابٌ جامعٌ لاعمال

وماروت مسجونين الى هذا اليوم

الشياطين والكفرة وقيل هو كتابٌ جامعٌ لاعمال الفجرة من الثقلين اي الانس والجنّ وقيل السجّيل بمعنى السجين ايضاً ومنهُ حجارة طبخت بنار جهنم وكُتِبَ فيها اسماء القوم كانت الطيرُ الابابيلُ اي المتفرقة ترمي بها اصحاب الفيل والصعود جبلٌ في جهنم يُصعد فيهِ سبعين خريفاً ثم يُهوى منهُ ولا يزال كذلك ابداً والغسلين هو ما يسيل من جلود اهل النار ولحومهم ودمائهم وشجرٌ في جهنم والخَبالُ صديد اهل النارِ. والزقُّوم شجرة تخرج في اصل الجحيم طلعُها كانهُ رؤُوس الشياطين ومنها طعام اهل النار وهي الشجرة الملعونة في القرآن

اما الراهون فهو جبلٌ في الهند هبط عليهِ آدم وحَبْذحُورٌ او حَيْذعُورٌ او قُورٌ جبل في اليمن يقولون ان فيهِ كهفٌ يتعلمون فيهِ السحر وبرهوت اسم بئرٍ في حَضرموت تجتمع ارواح الكفار اليها والمؤتفكات المدائن التي قلبهـا الله على قوم لوط وهرشى ثنيةٌ في طريق مكة يرَى منها البحرُ لها طريقان فكلٌّ من سلكهما كان مصيباً وطاخية اسم النملة التي كلّمت سليمان وبنت طبق سلحفاة تزعم العرب انها تبيض تسعة وتسعين بيضة كلها سلاحف وتبيض بيضة تنقفُ عن حيةٍ اما الجساسة فهي دابةٌ تكون في الجزائر تجس الاخبار فتاتي بها الرجال ودابة الارض حيوانٌ ظهورهُ من اشراط الساعة قبل اول علامات هذه الدابة تخرج بمكة من جبل الصفا فينصدعُ لها والناس سائرون الى مِنى او من الطائف او تخرج من ثلاثة اماكن ثلاث مرّاتٍ لها عصا موسى وخاتم سليمان تضرب المؤمن بالعصا وتطبع وجه الكافر بالخاتم فينتقشُ فيهِ هذا كافرٌ

واما الجنُّ فهم مثل البشر طوائف وقبائل وعمائر وبطون وافخاذ وفصائل وعشائر ولهم ملوك وحكام ويدينون بما تدين بهِ الآدميون من انواع الاديان والمذاهب ويتزاوجون ويتناسلون الى غير ذلك من الصفات البشرية ومنهم الابيض والاسود والاحمر والاخضر والاصفر والازرق . يحكى ان ابا السري سهل بن ابي غالب الخزرجي الشاعر الذي كان في ايام الخليفة هرون الرشيد العباسيّ ادّعى انهُ نشأ بسجستان وارضعتهُ الجنُّ وانهُ صار اليهم ووضع كتاباً في

امرهم وحكمتهم واسمائهم واشعارهم وزعم انهُ بايعهم للامين بن الرشيد المشار اليهِ بولاية العهد فقربهُ الرشيد وابنهُ الامين وزبيدة ام الامين وبلغ معهم وافاد منهم ولهُ اشعارٌ حسان وضعهــا على الجنّ والشياطين والسعالى فقال لهُ الرشيد ان كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجبًا وان كنت ما رأيتهُ فقد وضعت ادبًا

وقال الشيخ شرف الدين الجاحظ ان الجنيّ اذا ظَلَمَ وكَفَر وتعدّى وافسد فهو شيطانٌ فان قوي على حمل البنيان والشيء الثقيل وعلى استراق السمع فهو ماردٌ فان زاد على ذلك فهو عفريت فان طهر ونظف وصار خيرًا كلهُ فهو ملك

والجنُّ في اللغة خلاف الانس او كل ما استتر عن الحواس من الملائكة والشياطين قيل سُميت بذلك لانها تُتَّقى ولا تُرَى[1] وقيل بين الملائكة والجنّ عمومٌ وخصوص فكلُّ ملائكةٍ جنٌّ وليس كلُّ جنٍّ ملائكة وعرَّفهُ الشيخ ابو علي الحسن بن سينا بأَنهُ حيوانٌ هوائي يتشكل باشكالٍ مختلفة ثم قال وهذا شرح الاسم اي بيانٌ لمدلول هذا اللفظ سواء كان معدومًا في الخارج ام موجودًا ولم يُعلم وجودهُ فيهِ وقال ابو البقاء وظاهر كلام الفلاسفة ان الجنّ والشياطين هم النفوس البشرية المفارقة عن الابدان بحسب الخير والشر وذكر ابو وهب ان الجنّ منهم من يولد لهم ويأكلون ويشربون ومنهم بمنزلة الريح

والجانُّ هو ابو الجنّ كما ان آدم هو ابو البشر ومن اسماء اولادهِ اباء القبائل دَحرَش او دَهرَش ومن اسماء قبائلهم الشيصبان ومرَدة غزوان والعسل اما الحنُّ فهو حيٌّ من احيائهم قيل منهم الكلاب السود البهم او سَفلة الجنّ وضعفاؤُهم او كلابهم او خلقٌ بين الانس والجنّ واما الشقُّ فهو جنسٌ من اجناس الجنّ صورتهُ صورة نصف آدمي وقد مرَّ ذكرهُ في الفصل الرابع من هذه المقالة والعمار سكان البيوت من الجنّ والأحقب جنيٌّ من الذين استمعوا القرآن والعِكبُّ المارد من الجنّ

---

(١) اي لاختفائها عن الابصار البشرية قال الاصبهاني الجن مأخوذ من جَنَّ يجن اي يخفى والجنة من ذلك ايضًا

ومن المواطن المشهورة عندهم بانها مخصصة بسكن الجنّ البِرَاصُ وجِيمْ ووبار وبقار وهو موضع برمل عالج والبلوقة موضع بناحية البحرين فوق كاظمة والحوشُ وهو موضع وراء رمل يبرين لا يسكنهُ احد من الناس واليهِ ينسبون نوعًا من الابل يقال لهُ الحوشية سوف يأتي الكلام عليهِ وهوب دابر وقول هوت دابر هو موضعٌ يضربون بهِ المثل فيقولون تركتهُ في هَوْبِ دابر اي بحيث لا يدري وعَبْقَر وهو موضع يضربون بهِ المثل ايضًا فيقولون هذا عبقريٌّ القوم لانهم ينسبون اليهِ كل ما يُستحسن ويستغرب وكأَن الجنّ صنعتهُ لغرابتهِ وحسنهِ حتى قالوا ايضًا ظلمٌ عبقريّ والاول يُضرب للرجل القوي والثاني للظلم القوي وقال آخرون ان عَبقر او حَبقر هو البرد ويعنون بالمحضور ايضًا ما تحضرهُ الجنّ فيقولون اللبن محتضرٌ فغطِ اناءك اي كثير الآفةِ والجنّ تحضرهُ وكنفٌ محضورة تحضرها الجنُّ

ومن ابنية الجن صرواح وهو قصرٌ لبلقيس الآتي ذكرها وتدمر مدينة تقدم الكلام عليها في اراضي الشام وعلى هذا فقس كل ما كان من الابنية القديمة الهائلة

وللجن صوتٌ يقولون انهُ يُسمع في المفاوز ليلاً يسمّونهُ العزفُ اما زي زي والزيزم فهما حكاية هذا الصوت ايضًا

ومعظم الخوف من الجن هو لكون ان نساء الجن قد تعرض لصرع رجال الانس على جهة العشق في طلب السفاد كما تعرض كذلك رجال الجن لنساء الانس ايضًا وقد يقع التناسل بين الفريقين بهذا السبب لامكان حصول ذلك بين الارواح المجرّدة والآدميين

وممن تدّعي العرب انهُ متولد على هذه الطريقة جُرهَم فانهُ كان من نتاج الملائكة والآدميين وكذلك بلقيس ملكة سبا المار ذكرها والاسكندر ذو القرنين وبعضهم يرى ان الاسكندر ذا القرنين المذكور هو غير الاسكندر بن فيلبس المكدوني وانهُ هو المسمى في خرافات اليونانيين هرقول اما عمرو بن يربوع

فيقولون انهُ متولد بين السعلاة الآتي ذكرها والانسان ولم تنتزع من تخيلاتهم هذه الاوهام الاَّ بعد ان ظهر الاسلام

واما الجِنُّ فهم الشياطين والخُبثُ ذكورهم والخبائث اناثهم ومن ذكورهم ابو مرَّة وابو قِترة وهما كنية ابليس وقِترة علم للشيطان وزَلَنْبور وثبر واعور ومسوط وداسم خمسة اولادٍ لابليس وهم ذريتهُ لكلٍّ منهم عملٌ خاصٌّ بهِ ولُبَنَى اسم ابنتهِ والقلاط والقلوط من اولاد الشياطين وهياه ودكالى والدلامز من اسماء الشياطين والولهان والمُذْهب شيطان يغري بكثرة صبِّ الماء في الوضوء وخنزب اسم الشيطان الذي يتسلط على المصلّي وازبُّ شيطان العقبة وقيل اسم جني لاقاهُ ابن الزبير فوضع السوط في راسهِ حتى باص اي استتر والزوبعة اسم شيطان او رئيس للجن ومنهُ سُمّيت الاعصار وهي الريح التي تثير الغبار وترتفع الى السماء كانها عمودٌ وتسمّى ام زوبعة لانهُ هو الذي يثور بها

الفصل السادس

في عوائد العرب واوابدها[1] الملغاة في الاسلام

وكان للعرب كثيرٌ من العوائد والاوابد يرونها فضلاً فابطلها الاسلام منها البحيرة والسائبة والحام والخمر والميسر والانصاب والازلام ووأد البنات والرفادة في الحج فلما أُنزلت آية ما جعل الله من بحيرةٍ ولا سائبةٍ ولا وصيلة ولا

(١) الاوابد الوحشيات ومنهُ قولهم اتى فلان في كلامهِ بابدةٍ اي بكلمةٍ وحشية

حام وآية انما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والازلام رجسٌ من عمل الشيطانِ هو فاجتنبوهُ بطل ذلك جميعهُ

البحيرة هي ناقة كانت اذا نتجت خمسة ابطنٍ وكان الاخير ذكرًا بحروا اذنها اي شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنعُ من ماء ولا مرعًى

السائبة هي ان الرجل اذا اعتق عبدًا قال هو سائبةٌ فلا يبقى بينهما عقدٌ ولا ميراث

الوصيلة تكون في الغنم وهي اذا ولدت الشاة انثى فهي لهم وان ولدت ذكرًا جعلوهُ لآلهتهم فان ولدت ذكرًا وانثى قالوا وصلت اخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم

الحامُ هو الذكر من الابل كان اذا نتج من صلب الفحل عشرة ابطنٍ قالوا حمي ظهرهُ فلا يحمل عليهِ ولا يمنع من ماء ولا مرعًى

الخمر هو ما خامر العقل ومنهُ سمّيت الخمر خمرًا وكانت باعة الخمر في الجاهلية ينصبون راياتٍ ليُعرف مكانهم بها ويسمّونها الغاية وكانت العرب تفتخر بشربها ولعب القمار لانهما من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تولعهم في شرب الخمر ما فعلهُ ابو غبشان اذ باع مفاتيح الكعبة بزق خمرٍ ثم ان تفننهم في اوصافها اوجبهم ان يسموها باسماء كثيرة في اشعارهم سواء كان في زمن الجاهلية او بعدهُ ولهم اليد الطولى في مديحها واحسن انواع الشعر ما كان مبنيًّا على تعداد اوصافها والتفنن في كيفية معاطاتها وما كان ناظموهُ من المتصوفة كالامام الفارض وغيرهِ تأولوا فيهِ معاني اخرى روحانية قال الفارض

قالوا شربتَ الاثمَ كلاَّ وانما شربتُ التي في تركها عندي الاثمُ

على ان امثال هولاء يحرمون لا الخمرة فقط بل شرب اللبن اذا مال طعمهُ الى الحموضة ايضًا لانهم يرون فيهِ وهو على تلك الحالة خاصة التخدير فيعدونهُ من المسكرات

وللادباء من المتاخرين مؤلفات وتعاليق لاتحصى كثرةً في الخمرة ومن جملتها كتابٌ يسمّى حلبة الكميت للامام النواجي قيل ان مَن قرأهُ مرةً قلَّ ان يستطيع بعدها ضبط نفسهِ عن شرب الخمر وقد جمع هذا المؤلف في الباب الاول من كتابهِ المذكور الاسماء التي اطلقتها العرب على الخمرة قال انهُ اعتنى بجمعها من كلام الشعراء الجاهليين والاسلاميين وهي هذه

الخمر والراح والراحة والمدام والقرقف والفقار والخندريس والصهباء والقهوة والشراب والطلا والرحيق والشمول والحميّا والكميت والمروقة والمعتقة والمشعشعة والصافية والشمولة والصرف والعتيق والعاتق والبكر والعذراء والعروس وامُّ الدهر واخت المسرّة وابنة العنب والسلسال والسلسبيل والسكر والبنين والفضوح والعجوز والشمطاء والكلبساء والدم والجريال والاسفنط والعقور والمزة والمعرّقة والمعرّق والدرياق والزنجبيل والتامور والمازية والسبا والسبية والحطمة والمصطار والمصطلق والمصفق والمصنفة والخرطوم والقطب والسخامة والعانبة والحانية والجانية والمخيلة والمطيبة والمجيبة والمازي والنشأة والمنشية والهنبة والبابلية والبلسانية والمزنية والزينبية والثملية والحفية والسامرية والساهرية والمرية والمغدي والمغدية والمسلية والسارية والمعينة والاسرّة والقاهرة والخلَّة والنامة والذبابة والنمومة والمصرعة والطاردة والمسمة والمقدمة والمؤخرة والفيهج والصرخد والقنديل والكسيس والزرجون والشموس والمغري والغرب والرساطون والقارض والماقع والناقع والمبهج والنسيد والسويف والصومع والمفاج والحجة والعسجد وفوّاد الدنّ وامُّ عنا وامُّ زنبق وامُّ ليلى وامُّ الخبائث والحرام والاثم والمثلثة (وهي التي غُلِيت على النار حتى صارت على الثلث) والمخترمة (وهي التي عُصرَت بقصد الخلية) والتبع (وهو نبيذ العسل) والجعة (نبيذ الشعير) والمرز (نبيذ الحنطة) والسكركة (نبيذ الذرة وهو شراب الحبشة) ويقال ان للخمرة الف اسم

ويسمون شراب الغداة صبوحًا وشراب العشية غبوقًا وشراب نصف النهار

فيلاً وشراب اول الليل فحمة وشراب السحر جاشرية قال الشاعر

وافضلُ ما يهدى الى الشيء جنسهُ ولِلروح اهدي الراح فهي لها جنسُ

وقال ابو نواس بريد ان تشترك كل حواسهِ بها

أَلا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سرًّا اذا امكن الجهرُ

وقال ايضًا يعيّن مقدار الشرب منها

رأيتُ طبائع الانسا نِ اربعةً هي الاصلُ

فاربعةٌ لاربعةٍ لكلِّ طبيعةٍ رطلُ

وقال الاعشى يصف دواء للمخمور

وكاس شربتُ على لذةٍ واخرى تداويتُ منها بها

وقال احد ارباب المجون يخصّص حياتهُ كلها للمسكرات

للبرش يومٌ ويومٌ للحشيش ولل افيون يومٌ وللصهباء يومانِ

الميسر والازلام . الميسر هو القمار والازلام هي السهام قبل ان تراش وازلام الميسر هي قمار العرب بهذه الازلام ويسمونها ايضًا المغالِق سمّيت بذلك لانهُ تُغلق الخطر من قولهم غلقَ الرهن يُغلقُ غلقًا اذا لم يوجد لهُ تخلّصٌ وفكاكٌ يقال ان اهل الثروة من الجاهلية كانوا يشترون جزورًا(١) فينحرونهُ ويقسمونهُ ثمانية وعشرين قسمًا يتساهمون عليها بعشرةِ قِداح يسمونها الازلام ويسمون كل واحدٍ منها باسمٍ وهي الفذّ والتوأم والرقيب والنافس والحِلس والمُسبَل والمُعلّى والفسيح والمنيح والوغد ويفرضون لسبعةٍ منها اسهمة مقدرة فيجعلون للفذ منها نصيبًا واحدًا وللتوأم نصيبين وللرقيب ثلاثة وهكذا الى المعلّى فان لهُ سبعة انصبة واختلف في ترتيب النافس بينها فقيل هو الرابع وقيل بل الخامس واما الثلاثة

(١) الجزور جمع جزرة وهي الشاة المعدّة للذبح

الباقية فلا نصيب لها وكانوا يكتبون على كلّ قدحٍ اسمهُ وكانوا يجمعون هذه القداح في خريطةٍ يضعونها في يد رجلٍ عدلٍ يسمونهُ المجيل او المقبض[1] فيجعلها في تلك الخريطة ويخرج منها قِدْحًا للرجل فمن خرج لهُ قدْحٌ من ذوات الانصبة أخذ نصيبهُ ومن خرج لهُ منهم قدح لا نصيب لهُ غُرِمَ ثمن الجزور وكانوا يكثرون هذا اللعب في ايام الشتاء لتفرغهم لهُ

وكانوا يجيلون هذه القداح عند هبل الصنم العظيم الذي كان في جوف الكعبة على البئر التي كانوا ينحرون فيها هدايا معبوداتهم

وكان لقمان بن عاد أضربَ الناس بهذه القداح واذلك قالوا في امثالهم ايسر من لقمان وكان لهُ ايسارٌ يضربون معهُ ايضًا وهم ثمانية واساؤُهم بياض وحممة وطفيل وزفافة ومالك وفرعة وثميل وعمار فضربت العرب بهم الامثال ويقولون للأيسار اذا شرفوهم كايسار لقمان قال طرفة بن العبد

وهم ايسارُ لقمانٍ اذا أغلقت الشتوة ابداء الجزر

ومن امثالهم مجيل القداح والجزورُ ترتعُ يضرب لمن يتعجل في امرٍ لم يحُن بعد فان القِدح لا يجال الا بعد ان تنحر الجزور

ومن امثالهم ايضًا حنَّ قِدح يضرَب لمن يتشبَّه بقومٍ ليس منهم لانهُ اذا كان احد القداح من غير جوهرة اخوانهِ خرج لهُ صوتٌ يخالف اصواتها عند ما يجيلهُ المقبض في الخريطة فيعرَف بذلك انهُ ليس من القداح

ويضرَب المثل ايضًا بقدح ابن مقبل وهو قِدحٌ اشتهر بالاصابة وعدم الخِطاء كان صاحبهُ يقدح النار قبل خروجهِ ثقةً بفوزهِ . قال بعضهم ان هذا القدح فاز سبعين مرةً لم يخب منها مرةً واحدة

ومن امثالهم ايضًا كلُ امرءٍ أعرفُ بوسم قِدْحهِ وهو يضرَب للعارف بقدر

---

(١) وفي محيط المحيط الحرضة امين المقامرين الذي يضرب الايسار للقداح ولا يكون الاَّ ساقطًا برمًا والبرَم البخيل واللئيم ومن لا يدخل مع القوم في الميسر لبخلهِ وشحهِ

نفسهِ الواثق بما عندهُ وهو من قولهم ابصر وسم قِدحك لانهُ كانت العادة عندهم ان يسموا اقداحهم بعلاماتٍ يتميز بهـا كل واحدٍ منهم قدحهُ ويستدل بهِ على نصيبهِ

وانواع الميسر عندهم كثيرة ومنها نوع آخر يقال لهُ الفيال وهو ان يجمع التراب فيدفن فيهِ شيء ثم يجعل التراب نصفين ويسأل عن الدفين في ايهما هو فمن اصاب قمَرَ ومن اخطأ قُمِرَ ومنهُ قولهم فايل الرجل اذا لعب بهذا اللعب قال طرفة بن العبد البكري

يشقُّ حبابَ الماء حيزومها بها كما قسم التربَ المفايلُ باليدِ

ومنها المخارجة وهي المناهدة بالاصابع فيخرج الرجل من اصابعهِ ما شاء والآخر مثل ذلك على سبيل المساهمة

ومنها المخزَق عويدٌ في طرفهِ مسمار محدَّد يكون عند بياع البسر بالنوى بطريق المبادلة ولهُ مخازق كثيرة يأتيهِ الصبي بالنوى فيأخذهُ منهُ ويشرط لهُ كذا او كذا ضربةً بالمخزق فما انتظم من البسر فيهِ فهو لهُ قلَّ او كثر. واما ان اخطأ فلا شيء لهُ وذهب نواهُ

الانصاب . هي الاوثان من حجارة وقد سبق الكلام عليها

الازلام . هي من التي سبق ذكرها تسمى ازلام الاستخارة. يحكى انهم كانوا يتخذون منها ثلاثة قداح يكتبون على احدها امرني ربي وعلى الثاني نهاني ربي ويتركون الثالث غفلاً فاذا ارادوا امرًا يجيلون هذه القداح في خريطةٍ ويخرجون منها واحدًا فان كان هو الآمرُ مضوا على الامر الذي ارادوهُ وان كان هو الناهي عدلوا عنهُ فان خرج الغفلُ اعادوها ثانيةً حتى يخرج احد المكتوبين وكانت هذه القداح توضع عند سدنة الاصنام ويقال لها قداح الاستقسام والاستخارة

وأد[1] **البنات** . وهو ان بعض العرب كان اذا وُلدت لهُ بنتٌ يدفنها

---

(١) الوأد في اللغة دفن الولد وهو حيّ

وهي حيّة واختلفوا في اسباب ذلك فمنهم من قال انهم كانوا يفعلونهُ ايام الجدب ومنهم من قال خوفًا من عار السبي اذا عاشت ومنهم من قال انفًا من زواجها ويقولون ان اول من وأَد البنات رجل يقال لهُ قيس بن عاصم التميمي وتبعهُ الناس في ذلك الى ان ابطلهُ الاسلام. وقال الاصبهاني ان قيسًا المذكور ادرك الاسلام واسلم. اما عبارة الميداني في الامثال فهي قال حمزة ذكر الهيثم بن عدي ان الوأْد كان مستعملًا في قبائل العرب قاطبةً وكان يستعملهُ واحدٌ ويتركهُ عشرة فجاء الاسلام وقد قلَّ ذلك فيها الَّا من بني تميم فانهُ تزايد فيهم قبل الاسلام لان الريان اخا النعمان كان استاق نعمهم وسبى ذراريهم لما منعوا اخاهُ المذكور الاتاوة[1] التي كانت عليهم ثم لما وفدت وفود بني تميم على النعمان وكلموهُ في الذراري فحكم النعمان بان يكون الخيار للنساء في ذاك وكان فيهنَّ بنتٌ لقيس بن عاصم المذكور فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ان يدسَّ كل بنت تولد لهُ في التراب فوأَد بضع عشرة بنتًا وبصنيع قيس هذا واحيائهِ هذه السنَّة نزَل القرآن في ذم وأْدِ البنات

ويقال بانهُ يوجد بمكة جبلٌ يقال لهُ ابو دلامة قيل ان قريشًا كانت تئد فيهِ البنات

وتفتخرُ بنو تميم المارّ ذكرهم برجلٍ يقال لهُ محيي الوئيدات واسمهُ صعصعة ابن ناجية التميمي وهو جدُّ الفرزدق الشاعر المشهور ضُرِب بهِ المثل لكونهِ كان على خلاف قومهِ فكان يشتري هذه البنات منهم ويربيها في ابياتهِ فكان هو اول من فداهنَّ

الرفادة[2] في الحج . وهي الخرج الذي كانت تخرجهُ قريش في كل موسم من اموالها الى قصيّ بن كلاب القرشي فيصنع بهِ طعامًا للحجاج لياكلهُ من لم يكن لهُ سعةٌ ولا زادٌ وكان قصيٌّ المذكور فرَض ذلك على قريش كما سبقت

(١) الاتاوة المال الذي يؤْخذ على الاراضي الخراجية والرشوة او تخص الرشوة على الماء

(٢) الرفادة العطاء والاعانة بمالٍ يعطيهِ المرفود الى الرافد

الاشارة اليهِ في آخر الفصل الثاني من المقالة الرابعة وقيل ان اوّل من اقام الرفادة عبد المطّلب

الرتم(١) من اوابد العرب ايضًا وهو شجرٌ معروفٌ كان اذا خرج احدهم الى سفرٍ عمَد الى شجرةٍ منهُ فيعقد غصنًا منها فاذا عاد من سفرهِ ووجدهُ قد انحلَّ يعتقد ان امرأتهُ قد خانتهُ قال بعضهم يخاطبُ رجلاً من العرب اراد سفرًا فاخذ يوصي امرأتهُ ويقول اياكِ ان تفعلي فاني عاقدٌ لكِ رتمةً بشجرةٍ فان احدثتِ حدثًا انحلّت

هل ينفعُكَ اليومَ ان همتْ بهم كثرةُ ما توصي وتعقادُ الرّتم

ومنهُ المثل المضروب عندهم احلّ من تعقاد الرّتم

الرتيمة . وهي من الرتم ايضًا كان اذا مات واحدٌ منهم عقلوا ناقتهُ عند قبرهِ وسدّوا عينيها حتى تموت يزعمون انهُ اذا بُعث من قبرهِ يركبها وتسمّى البلية ايضًا وعكس البلية هي ان يربطوها معكوسة الراس الى ما يلي كلكلها(٢) وبطنها ويقال الى موَّخرها مما يلي ظهرها ثم يتركونها على تلك الحالة حتى تموت

التعمية والتفقية . كان الرجل اذا بلغت ابلهُ الفًا قلع عين الفحل يزعمون ان ذلك يدفع عنها العين فاذا زادت عن الالف فقا عينهُ الاخرى ولذلك يقولون في امثالهم عندهُ من المال عائرة(٣) عين

دواء العرّ . كانوا اذا اصاب الابل داء العرّ وهو يشبه الجرب يكوون السليمة ويزعمون ان ذلك يبرئ المريضة قال النابغة

حملتَ عليَّ ذنبهُ وتركتهُ كذي العرِّ يكوى غيرهُ وهو راتعُ

---

(١) الرتيمة شيء يعقد في الاصبع او غيرهِ للتذكرة يقال ترتم الرجل وارتتم عقد الرتيمة في اصبعهِ والرتم نبات كانهُ من دقتهِ شبه بالرتم زهرهُ كالخيري وبزرهُ كالعدس الواحدة منهُ رتمة (٢) والكلكل الصدر او باطن الزور ومن الفرس ما بين محزمهِ الى ما مس الارض منهُ (٣) يقال عرت عينهُ اي عورتها

وشطر البيت الاخير مثلٌ يضربونهُ في اخذ البريء بجريرة المذنب

تسكين النوق النافرة . يزعمون ان الناقة اذا نفرت وذُكر اسم امها فانها تسكن

سقي البقر. وكانوا اذا امتنعت البقر عن الشرب ضربوا الثور يزعمون ان الجنّ يركبون الثيران فيصدّون البقر عن الشرب قال ابن مدرك

اني وقتلي سليكًا ثمَّ اعقلهُ كالثور يُضرَبُ لما عافتِ البقرُ

وشطرُ البيت الاخير يُضرَب كذلك في عقوبة الانسان بذنب غيرهِ وقال آخرون ان الثوَر هو الطحلب نباتٌ يكون على وجه الماء المزمن فتكره البقرُ الماء بسببهِ فاذا ضُرب ونُحّي عن وجه الماء شرب البقرُ وفي محيط المحيط انهم كانوا لا يضربون البقر لكونها ذات لبنٍ وانما يضربون الثيران لتفزع هي فتشرب

الهامة . يزعمون ان الانسان اذا قُتل ولم يُؤخذ بثارهِ يخرج من راسهِ طائرٌ يسمَّى الهامة فلا يزال يصيح على قبرهِ اسقوني اسقوني الى ان يؤْخذ بثارهِ . وطائفة منهم تزعم ان هذا الطائر هو نفس الانسان تنشطُ من جسمهِ اذا مات او قتل ولا يزال متصورًا في صورة الطائر يصرخ على قبرهِ مستوحشًا لهُ قال الشاعر

سلطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ

وقال الاصبهاني ان العرب تسمّي هذا الطائر الصدى قال طرفة

كريمٌ يروّي نفسهُ في حياتهِ ستعلم ان متنا صدىً اينا الصدي

ويزعمون ان هذا الطائر يكبر ويتوحش ويوجد في الديار المعطّلة والنواويس ومصارع القتلى ويقولون ان الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبرهِ فتخبر الميت ولذلك كانت نساء العرب لا تبكي المقتول حتى يؤْخذ بثارهِ

ولا زالت العرب تعتقدُ بالهامة الى ان جاء الاسلام وورد في الحديث لاعدوى ولاطيرة ولاصفر ولاهام (العدوى سراية المرض من المريض لغيره والطيرة ما يتشاءم بهِ من الفال الردي وقد مرَّ ذكرها والهام ما نحن بصدده)

الصفر . حيَّةٌ تكون في بطن الانسان يزعمون بانهُ اذا جاع عضَّ الصفر هذا على شُرسوفهِ[1]

الجان . يزعمون ان الجنَّ تطلب بثار الجان فربما مات قاتلهُ او اصابهُ خبلٌ والجان حيَّة بيضاء كحلاء العين كثيرةٌ في الدور ولذلك يقولون في امثالهم كالارقم ان يُقتَل يَنقم وان يُترك يَلقم ويزعمون ان الحية تموت في اول ضربة فان ثُنّيت عاشت

حفظ الاسنان. يزعمون ان الغلام اذا ثغَرَ فرمى سنَّهُ في عين الشمس بسبابتهِ وابهامهِ وقال ابدليني باحسن منها فانهُ يأْمن على اسنانهِ من العوج والفلج

التحفظ من الوباء . يزعمون ان الرجل اذا قَدِمَ قريةً فخاف وباءها فوقف على بابها قبل ان يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبهُ وباءها

الاهتداء . وان الرجل اذا ضلَّ فقلب ثيابهُ اهتدى

دواء المقلات . وهو اذا وطئت رجلاً كريمًا قتل غدرًا عاش ولدها

الاستسقاء . كانوا اذا جدبت ارضهم من قلةِ المطر اخذوا اغصانًا من شجر السلَع والعُشر[2] وعلقوها باذناب ثيران الوحش وحدروها من الجبال واشعلوا في ذلك السلع والعشر النار يعتقدون ان ذلك يستنزل المطر قال الشاعر

---

(1) الشرسوف غضروف معلق بكل ضلع او مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن والصفر الجوعة من الصفورة وهي الخلا

(2) السلع شجر مرٌّ او سم او ضرب من الصبر او بقلة خبيثة الطعم والعشر شجر يقتدح بهِ

لا دَرَّ درُّ اناسٍ خابَ سعيهمُ يستمطرون لدى الازمات[1] بالعُشَرِ
أَجاعلٌ انتَ بيقوراً[2] مسلّعةً[3] ذريعةً لك بين اللهِ والمطرِ

صدحة المطر. هي رقيةٌ تمنع المطر ان يصيب مكاناً اصاب كل ما حوله من الارض قبل كان يستعملها اهل السكون وحَضْرموت والسكاسك من عرب اليمن فكان احدهم يصدَحُ عن حلتهِ او مواشيهِ فلا يصيبها شيءٌ من المطر وهو قد عمَّ كل ارضٍ في تلك البلاد

التوابع. يزعمون ان لكل انسانٍ تابع من الجن يكون مع الانسان يتبعهُ حيث ذهب ومنهُ قولهم معهُ تابعة اي جنية وان الجن تهرب من الارنب فمن عُلّق عليهِ كعب الارنب لم تصبهُ عينٌ ولا سحرٌ ولذلك كانوا يتخذونها كضربٍ من التمائم

التمائم. جمع تميمة وهي الحرز ويجمع على احراز والعامة تقول الحروزة والاصل فيها خرزة رقطاء تنظم في السير ثم يعقد في العنق وسمّيت تميمةً لان بها يتم امر الصبي وكان الاعراب يضعونها على اولادهم للوقاية من العين ولدفع الامراض التي تحصل الى الاولاد كالصرع المسمّى عند الاطباء بامّ الصبيان لانهم يظنون حدوثهُ من الجنّ ويسمّونهُ فرعة الحيط قال المتنبي

نظمت مواهبهُ عليهِ تمائمًا فاعتادها فاذا سقطنَ يَفْزعا

واماطة هذه التمائم اي ازالتها عند العرب رديف الكِبَر لانهم كانوا لا يزيلونها الّا متى بلغ الصبي الحلم وحينئذٍ يلبسونهُ العمامة والازار ويقلدونهُ السيف وذلك جميعهُ عندهم من لوازم البلوغ لانهم كانوا لا يبالون باستتار الغلام قبل بلوغهِ فاذا بلغ يلبسونهُ الازار ليستتر بهِ ولما جاء الاسلام نهي عن لبس هذه التمائم وقد ورد في الحديث مَنْ علّق تميمةً فلا اتم الله لهُ وايضًا من علّق تميمةً فقد اشرك

(١) الازمات جمع ازمة اي شديدة توصف بها السنة المجدبة

(٢) البيقور اسم جمع للبقر (٣) المسلع الذليل

التولة. هو خرزٌ يسمونهُ بهذا الاسم ويجمع على تولات تلبسهُ النساء بزعمهنَّ انهُ يحببُ المرأة الى زوجها

التبخر بالحزى. وهو بالقصر والمد نباتٌ يشبه الكرفس الواحدة حزاةٌ وحزاءةٌ كانوا يتدخنون بهِ للارواح يزعمون ان الجنَّ لا تقرب بيتًا هو فيهِ فيؤمنون بذلك من غوائلها

السعلاة. هي حيوانٌ من المتشيطنة يتراءى للناس بالنهار ويغول بالليل واكثر ما توجد بالغياض فاذا انفردت بانسانٍ امسكتهُ ترقصهُ وتلعب بهِ كما يلعب القط بالفار ويقولون ربما صادها الذئب واكلها وهي حينئذٍ ترفع صوتها وتقول ادركوني فقد اخذني الذئب وربما قالت من انقذني منهُ فلهُ الف دينار فيسمعها من يجاورها ولا يلتفت لكلامها لمعرفة الناس بها

القطرب. زعم بعض المؤلفين بانهُ ذكر السعالى المارّ ذكرها وانهُ يظهر في اكناف اليمن وصعيد مصر

الغول. هي ساحرة الجنّ تتلوّن للناس في الخلوات بصورٍ شتَّى لتضلهم في الطريق وتهلكهم فتخاطبهم ويخاطبونها ويروون عنها احاديث ومساجلات واحاجي ادبية يطول شرحها وقالوا انها تشبه الانسان والبهيمة وقالوا هي ذكر وانثى قال كعب ابن زهير

فما تدوم على حالٍ تكون بها ... كما تلوّن في اثوابها الغولُ

ولذلك يقولون في امثالهم كتلوّن الغول يُضرب للمتلوّن في سلوكهِ ويقولون ايضًا تغوّلت المرأة اذا تشبهت بالغول في تلونها وفي بعض المؤلفات الغول سبعٌ من سباع الجن وبعضهم لا يفرق بين الغول والسعلاة التي مرّ ذكرها قال بعض الادباء

لما فحصتُ بني الزمان ولم أجدْ ... خلاًّ وفيًّا للشدائد اصطفي
ايقنت ان المستحيل ثلاثةٌ ... الغول والعنقاء والخلُّ الوفي

العنقاء . يقال لها عنقاء مغرب يزعمون انها طائرٌ عظيمٌ معروف الاسم مجهول الجسم وانها سمّيت بذلك لبياضٍ في عنقها كالطوق قال الجاحظ الامم كلها تضرب المثل بعنقاء في الشيء يُسمع ولا يُرى ومن امثالهم حلقت بهِ في الجوّ عنقاء مغرب قال الشاعر

اذا ما ابن عبد الله خلّى مكانهُ　　وقد حلّقت بالجوّ عنقاء مغربِ

الخيلان . وحشٌ من نظائر العنقاء يزعمون انهُ في البحر نصفهُ انسانٌ والباقي سمك قال بعض الادباء

فلا الببغاء بالنطق يعتدُّ عاقلاً　　ولا الخيلانُ بالجسم يعتدُّ انسانا

الحرقوص . دويبةٌ صغيرةٌ اكبر من البرغوث تاتي الابكار فتفتضّ بكارتهنّ

الهواتف . هي تهتف بصوتٍ مسموع وجسمٍ غير مرئيٍّ تجاوب من يخاطب نفسهُ وخاصةً في ظلام الليل

آكلة الشيطان . حيةٌ كانت في الجاهلية كان يأتي البيتَ الحرامَ في كل حين ويضرب بنفسهِ الارض فلا يمرّ بهِ احدٌ الاّ اهلكهُ وبهِ يُضرَب المثل في كل شيء ذهب فلم يوجد لهُ اثرٌ

المقالة الخامسة

في مساكن العرب وابنيتهم وملابسهم ومآكلهم واداب مخاطباتهم وتحياتهم وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في مساكن العرب

كانت مساكن العرب في الجاهلية تقسم الى نوعين حضرية ووبرية

الكلام على مباني الحضر في الجاهلية

مساكن الحضر اي سكان المدن كانت ابنيةً ذات هياكل وقصور في مدنهم وكانوا يزينونها بالمعادن النفيسة التي كانوا ياخذونها بالمبادلة من الروم والعجم كما ياتي الكلام على ذلك في محلهِ ومنها

مدينة مأْرب . ذكر المؤَرخون وغيرهم في كتب الآداب العربية ان هذه المدينة التي تعرَف بمدينة سبا بناها عبد شمس الملقب بسبا فصارت دار مملكة اليمن وكان من ملوكها الملكة التي جاءت لتسمع حكمة سليمان ملك اسرائيل (امل ص٠ ١٠: ١-١٣) وتُسمى في الكتب العربية بلقيس روى بعضهم بانها

هي التي ضربت في هذه المدينة السدّ المشهور بسدّ مأرب وهو سورٌ غليظ في فرجة وادٍ بين جبلين عرضها خمس اوست دقائق حقنت بهِ ماء العيون والامطار لكي تتوزع في وقت الحاجة على المزارع والبساتين وقيل بل الذي ضربهُ هو عبد شمس المذكور وقيل لقمان بن عاد وكان هذا السدّ معدودًا عند العرب من عجائب الدنيا وقد تكلم مؤلفوهم على ما ترتب من هدم هذا السدّ من المكاره وأرخوا بزمنهِ وعيّنوهُ بتاريخٍ غير مجمعٍ عليهِ عند العلماء

قصر الخورنق . بناهُ رجلٌ من الروم يقال لهُ سنمار في ظهر الكوفة للملك النعمان الاكبر ابن امرء القيس اللخميّ الملقّب بالمحرّق . يحكى انهُ لما فرغ من بنائهِ القاهُ الملك المذكور من اعلاهُ الى الارض فقتلهُ لئلاّ يبني مثلهُ لغيرهِ فذهب ذلك مثلاً عند العرب يقال جوزي جزاء سنمار قال الشاعر

جزى بنوهُ ابا الغيلان عن كبرٍ وحسنِ فعلٍ كما جوزي سنّمارُ

على ان هذا الملك بعد ان مكث في الملك ثلاثين سنة كان جالسًا يومًا في هذا القصر فتأمل في الملك الذي لهُ والاموال والذخائر التي عندهُ وكانت على جانب عظيم فقال لا خيرَ في هذا الذي ملكتهُ اليوم ويملكهُ غيري غدًا ومن ثمَّ زهِدَ في الملك وامر حجابهُ ان يعتزلوا عن بابهِ ولما جنَّ الليل التحف بكساء وخرج سائحًا في الارض فلم يرَهُ احدٌ بعد ذلك

السدير . قصرٌ آخر في العراق للنعمان المذكور

حصن الصنبر . لامرء القيس بن النعمان الاعور وقيل ان ما وقع لسنمار المارّ ذكرهُ كان مع هذا الملك بعد ان بني لهُ هذا الحصن

قصر غمدان . هو بظاهر صنعاء اليمن ولهُ غرفٌ شهيرة يسمّونها المحاريب وهو محكم البناء عجيب الارتفاع لانهُ سبع طبقات وفيهِ ما لا يوصف من الزخارف والصنائع الغريبة بناهُ الملك شرحبيل بن عمرو بن غالب بن المنتاف بن زيد ابن يعفر بن السكسك بن وائل بن حِميَر واقام فيهِ مدة ملكهِ ثم صار بعد ذلك

دار الملك للتبابعة وفي محيط المحيط الغُمدان قصرٌ باليمن بناهُ يشرخ باربعة وجوهٍ احمر واصفر وابيض واخضر وبنى داخلهُ قصرًا بسبعة سقوف بين كل سقفين اربعون ذراعًا اه . وهذا القصر هو الذي اخذهُ سيف بن ذي يزن الحميري من الحبشة كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول من المقالة الرابعة

مارد والابلق . حصنان للسموأل بن عاديا اليهودي الغساني وكان مارد في دومة الجندل وهو مبنيٌّ من حجارةٍ سود والابلق كان في ارض تيماء مبنيٌّ من حجارة سود وبيض وكانت قصدتهما هند ملكة الجزيرة المعروفة بالزبّاء وعجزت عنهما فقالت تمرَّدَ ماردُ وعزَّ الابلق فذهبت مثلاً

صرح الغدير . من ابنية ملوك غسّان في اطراف حوران مما يلي البلقاء بناهُ ثعلبة بن عمرو بن جفنة الغسّاني

القناطر واذرح والقسطل . من ابنية جبلة بن الحرث بن ثعلبة المذكور

الحفير ومصنعهُ وقصر ابير ومعان . من ابنية الحرث بن جبلة المذكور وكان يسكن في البلقاء

قصر الفضا وصفات العجلات وقصر منار . من بناء عمرو بن الحرث المذكور فانهُ انشأ في دمشق وضواحيها عدةً من القصور الشامخة منها هذه الابنية

قصر السويداء وقصر حارب . بناهما النعمان بن عمرو المارّ ذكرهُ

قصر برقع . بُني في البرية لجبلة بن الحرث اخي عمرو الذي تقدم ذكرهُ وكان صاحب تدمر وقصر بركة وذات انمار بناهُ لهُ عاملهُ القين

جبلة الادهمية . بلدةٌ بناها جبلة بن الأيهم آخر ملوك غسّان الذي كان أسلم في ايام الخليفة عمر بن الخطاب ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصّر واقام عندهُ وبهِ يضربون المثل في عزّة الملك فيقولون اعزُّ ملكًا من جبلة بن الأيهم وجبلةُ هذه تُنسبُ الآن الى السلطان ابرهيم ادهم الزاهد المدفون فيها

هذا ما وقفنا عليهِ من الابنية التي انشاها العرب في زمن الجاهلية واما التي انشأُوها في العصر الاسلامي فقد سبق ذكر اكثرها في الفصل الثالث من المقالة

الاولى من هذا الكتاب غير انهُ اخترنا ان نذكرها هنا تكرارًا لفوائدها وما كان القصد في بنائها وما آل اليهِ امرها بحسب ازمنة حدوثها ومنها

البُصرة . اول مدينة شُرع في بنائها في العصر الاسلامي بناها عمر بن الخطاب الذي تولَّى الخلافة بعد ابي بكر الصديق سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) فكان بذلك هو اول من شيَّد الابنية ومصَّر الامصار في ذلك العصر الجديد وكان بناؤها سنة ١٤ للهجرة (سنة ٦٣٥ م) في العراق تحت مجتمع نهري دجلة والفرات على شط نهر العرب وسبب ذلك على ما قيل هو لكي يقطع عن الفُرس المواصلة مع اهالي الهند بواسطة الخليج الفارسي فعمرت هذه المدينة وازهرت وكان بها السوق المشهور بمربد البصرة تجتمع فيهِ شعراء العرب ويتناشدون ما نظموهُ من الاشعار ولذلك كان بها العلماء والادباء والفصحاء في اللغة العربية وعلماؤها مجتهدون في النحو وبينهم وبين علماء الكوفة خلافٌ مذهبيٌّ في ذلك العلم ولم تفضَّل الكوفة عليها الاَّ بكونها صارت دارًا للخلافة قبل بغداد ولم تصر هي دارًا للخلافة اصلاً وانما كانت قاعدةً لحاكم السواد[1] ومن العجب ان الخلفاء كانوا يبعثون اليها دائمًا اجبر العمال كزيد بن أُميّة والحجاج ونحو القرن الثاني عشر للهجرة المقابل للقرن الثامن عشر من الميلاد بلغت سكانها نحو اربع مئة الف نفسٍ لكنها خربت اخيرًا فلا يوجد بها الآن اكثر من ستين الفًا

الكوفة . بناها كذلك الخليفة المشار اليهِ سنة ١٧ للهجرة (سنة ٦٣٨ م) ونقل كرسي الخلافة اليها بعد ان كان في الانبار فلُقِّبت خدَّ العذراء لان ارضها رملةٌ حمراء ومن ثمَّ صارت هذه المدينة مدينة العراق الكبرى ويصفونها بانها قبَّة الاسلام ودار هجرتهم واليها يُنسب الخط الكوفي وفيها كانت خطط العرب في ايام عثمان بن عفَّان والى هاتين المدينتين اي البصرة والكوفة يُنسب جماعةٌ من العلماء والنحاة والشعراء ويقال لها العراقان وصار اهلها ممن يوثق بعربيتهم بعد الاسلام ويستشهد بكلامهم قال بعض الفضلاء حيثما وجد خلافٌ بينهم فمذهب

(١) السواد قرى البلاد

البصريين اصحُّ من جهة اللفظ ومذهب الكوفيين اصحُّ من جهة المعنى

الجامع الاقصى . بناهُ الخليفة المشار اليهِ في مدينة اورشليم المعروفة بالقدس الشريف في المحل الذي كان مبنيًّا فيهِ هيكل سليمان وهو احد الجوامع الثلاثة التي مرَّ ذكرها في الفصل الثاني من المقالة الرابعة من هذا الكتاب

واسط . مدينةٌ بناها الحجاج بن يوسف الثقفيّ في ايام خلافة عبد الملك بن مروان وذلك في سنة ٧٨ للهجرة (سنة ٦٩٧م) قبل سماها بهذا الاسم لكونها متوسطةً بين البصرة والكوفة

الجامع الاموي . وكان لما تولَّى الخلافة معاوية بعد عليّ بن ابي طالب اتخذ الشام دارًا للخلافة ولا زالت كذلك مدة الامويين كلها وكانت هذه المدينة القديمة شهيرة بمعامل السيوف المصنوعة من خليط اوراقٍ رهيفة من الحديد والبولاد فكانت تنثني الى المقبض وتؤثر في الاشياء الصلبة غير انهُ انفقد منها سرُّ هذه الصناعة الآن ويقال ان تيمورلنك ملك المغول لما ملك هذه المدينة في اواخر القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر من الميلاد) اخذ منها الى بلاد العجم اصحاب معرفة هذه الصناعة فاشتغلوا لهُ السيوف وصحّت غير انها جاءت دون سيوف دمشق في الجودة ولم يزل بها الى الآن شغل الابنوس المزيَّن بالعاج والصدفِ ويعبّرون عن هذه الصناعة بالتطعيم ويصنع فيها كثيرٌ من اقمشة الحرير وادوات الخيل ولصاغتها صناعةٌ في صياغة الذهب لا يقدر عليها غيرهم ثم لما تولَّى الخلافة فيها الوليد ابن عبد الملك بن مروان الذي تقدَّم ذكرهُ بنى فيها الجامع الاموي الذي يقال عنهُ بانهُ اعظم ابنية العرب وليس لهُ نظير في جوامع الاسلام طولهُ يبلغ خمس مئة وخمسين قدمًا وعرضهُ مئة وخمسين قدمًا وهو مبنيٌّ على اعمدة عظيمة من الحجر السماقي والرخام المختلف الالوان وفي قبتهِ ست مئة قنديل معلقة بسلاسل من الذهب والفضة واما في شهر رمضان فكان يُشعلُ فيهِ اثنا عشر الف قنديل وفيهِ اربعة محاريب لاصحاب المذاهب الاربعة وفيهِ خمسة وسبعون مؤذنًا يؤذنون في مناراتهِ الثلاث

وقال بعضهم انهُ صرف عليهِ ثلاثة آلاف الف دينار وبنى الجامع الاقصى بالقدس ومسجد المدينة ايضاً وانشأ دور الضيافات وغيرها فكان هو اول من فعل ذلك في البلاد الاسلامية سنة ٨٨ للهجرة (سنة ٧٠٦ م)

الرملة. مدينةٌ بينها وبين القدس مسافة يومٍ واحدٍ بنيت في مدَّة خلافة سليمان بن عبد الملك الذي سبق ذكرهُ

رصافة هشام. مشهورةٌ في اراضي الشام بنيت في ايام خلافة هشام بن عبد الملك المشار اليهِ

الهاشمية. مدينةٌ عند الانبار بناها عبد الله السفَّاح العباسي بعد انقراض دولة بني أُمية المذكورين من المشرق وقيامهِ هو بالامر وكان اقام اولاً في الحيرة ثم لما بنى هذه المدينة نقل كرسي الخلافة اليها

بغداد. ويقال بغداد وبغداذ وبَغدين وبَغدان ومغدان مدينةٌ شهيرةٌ في العراق العربي على الشاطي الشرقي من نهر دجلة وسمّيت مدينة السلام لان دجلة كان يقال لهُ وادي السلام ولذلك يقال لهُ نهر السلام ايضاً بناها ابو جعفر المنصور اخو السفَّاح المشار اليهِ في سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢ م) ولُقبت الزوراء لانهُ جعل ابواب المدينة الداخلة مزوَّرةً عن الابواب الخارجة وقيل الزوراء اسمٌ لدجلة سمّيت بهِ لميلها وانعراجها قال الفارض

ارجُ النسيمِ سرى من الزوراء سحرًا فاحيى ميّتَ الاحياء

ومعنى بغداذ على ما ذكروا عطية الصنم لان كسرى كان اقطعها لخصيٍّ لهُ وكان لهم صنمٌ يعبدونهُ في المشرق يقال لهُ بغ فقال ذلك الخصي بغ داذ اي اعطاني الصنم ولذلك يكرهُ الفقهاء هذا الاسم وكان ابن المبارك يقول لا يقال بغداذ بالذال المعجمة فان بغ صنمٌ وداذ عطية وانما يقال بغداد بالمهملتين وبغدان ايضاً وقال بعضهم ان بغ بالعجمية بستانٌ وداذ اسم رجل يعني بستان داذ

ثم امر المنصور بنقل كرسي الخلافة اليها من الهاشمية وامر ببناء الرصافة[1] الشهيرة لولده المهدي فصارت هذه المدينة من ذلك الوقت مركز شوكة الخلافة المشرقية وللعلوم ايضًا لانها اخذت في التعاظم الى ان جمع فيها ما كان باقيًا من علوم المشرق كما يتضح ذلك مما ياتي في محلهِ

والى الجانب الغربي منها محل يسمّى الكرخ كان يسكن بهِ ابو جعفر المذكور وفيهِ يقول ابن زريق البغدادي

استودع الله في بغداد لي قمرًا   بالكرخ من فلكِ الازرار مطلعهُ

وكانت الرصافة التي مرَّ ذكرها في الجانب الشرقي من بغداد فلما تولّى الخلافة هرون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين المشار اليهم بنى فيها قصرا وكانت يومئذٍ الرصافة ذات بهجةٍ عظيمة وفيها يقول علي بن الجهم

عيون المهى بين الرصافةِ والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيثُ ادري ولا ادري

وما زالت الرصافة كذلك في عصر الخلفاء العباسيين حتى انقرضت دولتهم فانحطت عن عظمتها

وذكر الخطيب البغدادي في تاريخهِ ان الحمامات في بغداد بلغ عددها لعهد المأمون بن الرشيد المشار اليهِ خمسة وستين الف حمامٍ وكانت مشتملة على مدن وامصار متلاصقة ومتقاربة تجاوز الاربعين وقال غيرهُ انها كانت اجمل مدن الدنيا في عصرها اقامت نحو خمس مئة سنة دار مملكة الخلفاء الى ان خربت بفتنة التتار وكانت معدن العلماء والشعراء والفقهاء والمشاهير في كل علمٍ وفنّ واما الآن فان سكانها نحو ستين الف نفس وفي ايام الصيف يسكنون في سراديب تحت الارض في النهار لشدة الحرّ ويرقدون ليلًا على السطوح وبناؤها

(١) الرصافة معناهُ النقانة

من الخزف المعروف بالقرميد وفيها بقايا من دور الخلفاء وقصورهم التي منها قصر زبيدة بنت جعفر المتوكل العباسي زوج هرون الرشيد وكثيرٌ من الجوامع والخانات والحامات وهي مجتمع للقوافل وبها يشتغل السختيان والسكاكين مع الجودة وتصطنع اقمشة القطن والحرير ايضًا

مدن اخرى . ولما تولّى الخلافة هرون الرشيد المشار اليهِ أمر بتجديد مدينتي أَدنة وطرسوس فاصلحتا وأُعيد عمارها وشرع ببناء مدينة القاطون ايضًا لكن لم يستتمها فخربت ولما تولّى الخلافة ابنهُ المعتصم بالله شرع في تجديدها فبناها في سنة ٢٢٠ للهجرة (سنة ٨٣٥ م) وسماها سرَّ من رأَى فرخَّمها الناس سامرًّا وجعلها دارًا للخلافة واستخلف ببغداد الى ان تولّى الخلافة ابنهُ الواثق فانتقل منها الى بغداد وردَّ اليها كرسي الخلافة فخربت سامرا وهي الآن خراب ليس فيها غير القليل من البناء العامر

هذا ما كان من امر المدن وكراسي الخلافة التي كان اسسها العرب بالمشرق واما ما كان من ذلك بالمغرب فيلزم ان تمهد لهُ اولاً طريقًا لايضاح اسباب قيام باقي الخلافات العربية ودولها الثانوية التي استبدَّت باحكامها وانشأَتهُ هناك

الخلافة الاموية بالاندلس

لا يخفى انهُ بعد انقراض دولة الامويين من بلاد المشرق باستيلاء العباسيين على منصب الخلافة ونقررها على السفاح اولي ملوك هذه العائلة في سنة ١٣٢ للهجرة (سنة ٧٤٩ م) اخذ هذا الخليفة ومن تولى بعدهُ من عائلتهِ المتقدّم ذكرها في استئصال الامويين وابادتهم قتلاً وتشريدًا انتقامًا لاهل البيت من الطالبين ومما فعلوهُ بهم منذ قتل عليّ بن ابي طالب الى آخر مدّة خلافتهم فهرب منهم رجل يقال لهُ عبد الرحمن الاول الملقب بالداخل لكونهِ اول من دخل بلاد الاندلس وامتلكها على ما يأتي وهو ابن معاوية الاموي واسس فيها خلافةً ثانيةً سنة ١٢٩ للهجرة (سنة ٧٥٦) لكنهُ لم يلقب نفسهُ باميرالمؤمنين

لكونهِ كان بايَع الخلافة بمقرّ الاسلام ومبتدإِ العرب بل كان يُلقَّبُ بالامير وعليهِ جرى بنوهُ من بعدهِ حتى كان عبد الرحمن الناصر الثامن من هولاء الامراء فتلقَّب بامير المؤمنين وتوارث هذا اللقب بنوهُ من بعدهِ

قال بعض مؤلّفي الافرنج ان العرب يسمّون جميع بلاد سبانيا بلاد الاندلس باسم اقليمٍ من اقاليمها وهو اقليم الاندلس . وسبب ذلك ان هذا الاقليم هو اول ما عرفوهُ وفتحوهُ من بلاد سبانيا ويسمّونها ايضًا جزيرة الاندلس لانهم لا يفرقون بين الجزيرة وشبه الجزيرة مع انهـــا شبه جزيرة ويقال ايضًا بجزيرة لا جزيرة منفصلة عن البرّ وربما شملهـا عندهم ايضًا لفظ المغرب لانهم يقولون للاندلسي مغربيًّا كما يقولون لمن كان من بلاد افريقية مغربيًّا ايضًا

وكان منذ استولى عبد الرحمن الداخل المذكور على تلك البلاد انقطعت العلاقة والمواصلة التي كانت بين العرب المتوطنين بالمغرب وبين اهل المركز الذين هم العرب المستولون على بلاد المشرق حتى ان ملوك بني أُميَّة المشار اليهم خلفاء هذا الامير منعوا اهل دولتهم من السفر لفريضة الحج التي هي احدى شعائر الدين الاسلامي كما فعل ملوك اسرائيل (١مل ص ١٢: ٢٦–٣٣) فلم يحجّ في ايام حكومتهم احدٌ من بلادهم ودام ذلك الى ان انقرضوا من هناك بملوك الطوائف سنة ٤٢٢ للهجرة (سنة ١٠٣٠ م)

مدينة قرطبة . ولما بويع عبد الرحمن المذكور بمدينة قرطبة وصارت هذه المدينة كرسيًّا لمملكتهِ بنى فيهـا قصرًا ومسجدًا أنفق عليهما على ما قيل ثمانين الف دينار ومات قبل اتمامهما

ثم لما استفحل الملك الناصر بعدهُ صارت هذه المدينة مركزًا للعلوم ايضًا نظير مدينة بغداد كما يتضح ذلك مما يأتي في محلّهِ وصرف نظرهُ الى تشييد المباني والقصور وكان جدّهُ الامير محمد وابوهُ عبد الرحمن اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم على اكمل الاتقان والضخامة وكان منها المجلس الزاهر والبهو[1] والكامل

(١) البهو الرواق امام البيت والواسع من الارض والبهاء الحسن وفعلهُ بَهُوَ ايضًا

والقصر المنيف فبنى هو الى جانب الزاهر قصرهُ العظيم وسمّاهُ الروضة وجلب الماء الى قصورهم من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطرٍ فوفدوا عليهِ حتى من بغداد والقسطنطينية ثم اخذ في بناء المنتزهات فاتخذ ميناء الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة وجرّها في اقنية غريبة الصنعة عدّها ابن خلدون المغربي بجملة الابنية العظيمة والآثار الباهرة التي تحتاج في عملها الى بذل الاموال وتكاثف الرجال قال المقري في كتاب نفح الطيب وكمّل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة في المناهر المهندسة وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبيرٍ عجيب وصنعة محكمة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة غربي قرطبة ويصبُّ في بركةٍ عظيمة عليها اسدٌ عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يُشاهد ابهى منهُ في ما صوّر الملوك في غابر الدهر مطلي بذهب ابريز وعيناهُ جوهرتان لهما وبيص[1] شديد يجوز هذا الماء الى عجز هذا الاسد فيمجّهُ[2] في تلك البركة من فيهِ فيبهر الناظر بحسنهِ وروعة منظرهِ وثجاجة[3] صبّهِ فتسقى من مجاجهِ جنّات هذا القصر على سعتها ويستفيض على ساحاتهِ وجنّاتهِ ويمدُّ النهر الاعظم بما فضل منهُ فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي يصبُّ فيها من اعظم آثار الملوك في غالب الدهر لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسموّ ابراجها التي يُرقَى الماء منها ويتصوّب من اعاليها . ثم امر الناصر ايضًا بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة وقاية للناس من حرّ الشمس

وقد ذُكر في بعض المؤلفات الجغرافية ان هذه المدينة بلغ فيها عدد الجوامع ١٦٠٠ وكان بها ايضًا ٩٠٠ حمام و٨٠٤٥٥ حانوتًا و٢٦٣٣٠٠ بيت و١٠٠٠٠٠ من السكان ولم يزل بها بقايا دور الخلفاء التي مرّ ذكرها وقد قال فيها بعض علماء الاندلس

---

(١) الوبيص اللميع والبروق (٢) المج الرمي (٣) الثج السيلان

باربعٍ فاقت الامصار قرطبةٌ منهنّ قنطرة الوادي وجامعها
هذان ثنتان والزهراء ثالثةٌ والعلم اعظم شيء وهو رابعها

الرصافة . وكان قبل ذلك اختط هذا الخليفة مكانًا بالقرب من هذه المدينة سماهُ الرصافة باسم رصافة جدّهِ هشام بالشام والى هذه الرصافة يُنسب قومٌ من اهل الفضل منهم يوسف بن مسعود الرصافيّ ويقال انهُ يوجد عشرة مواضع تُسمَّى بهذا الاسم حادثة بعد الاسلام

حمص. وكان بنو مروان بعد انتقال دولتهم من المشرق لا يزالون يلهجون بالشام حبًّا لها فسمّوا عدّة بلادٍ في الاندلس باسماء بلادٍ في الشام منها انهم اطلقوا على مدينةٍ هناك تسمّى اشبيلية والافرنج يقولون سيفيل اسم حمص ايضًا وهي التي يقول في نهرها بعض شعراء الاندلس

خليليّ بادر بي الى النهر بكرةً وقف بيَ حيث المدّ يثني عنانهُ
ولا تجز الارحا لان وراءها يبابًا[1] وعيني لا تريد عيانهُ

قصر الشراحيب . بُني في مدينةٍ يقال لها شلب وهي من معاملة قرطبة المار ذكرها وكان قصرًا مشهورًا وفيهِ يقول المعتمد بن عباد الاندلسي

وسلم على قصر الشراحيب عن فتًى لهُ ابدًا شوق الى ذلك القصرِ

قصر السرور ومجلس الذهب . بنوهما كذلك في مدينة سرقسطة وهي ذات منتزهات كثيرة وفيهما يقول ابن هود

قصر السرور ومجلسَ الذهبِ بكما بلغتُ نهايةَ الطربِ

قصر طليطلة . وهو قصرٌ مشهور يُعرف بهذا الاسم شادَهُ المأمون بن ذي النون بمدينةٍ يقال لها طليطلة التي يقول فيها بعض الشعراء

---

(١) اليباب هو الخراب

زادت طُليطلةٌ على ما حدّثوا　　بلدٌ عليهِ نضارةٌ ونعيمُ
اللهُ زينهُ فوشّح خصرهُ　　نهرُ المجرّة والغصون نجومُ

وكان المأمون المشار اليهِ جلب الى هذا القصر اهل الصناعة والمهندسين والمصوّرين من الاقطار وانفقهُ الى الغاية وانفق عليهِ اموالاً طائلةً وصنع في وسطهِ بحيرةً وفي وسط البحيرة قبة من زجاج ملوّن منقوش بالذهب وجلب الماء على راس القبة بتدبيرٍ احكمهُ المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطًا بها ويتصل بعضهُ ببعض فكانت قبة الزجاج في غلالةٍ مما سُكب خلف الزجاج لايفترُ من الجري والمأمون قاعدٌ فيها لا يمسُّهُ من الماء شيءٌ ولا يصلهُ وتوقدُ فيها الشموع فيُرى لذلك منظرٌ بديع وفيهِ قال ابو محمد البصري

شمسيةُ الانسابِ بدريةٌ　　يُحارُ في تشبيهها الخاطر
كأنما المأمون بدرُ الدجى　　وهي عليهِ الفلك الدائر

مدنٌ مشهورة . وقد هام العرب بعدة مدن من البلاد التي تملكوها في الاندلس نظرًا لجمال تربتها وحسن منتزهاتها منها مدينة بطليوس التي يقول فيها ابن القلاس

بطليوس لا انساكِ ما اتصل البعدُ　　فلله غورٌ من جنابكِ او نجدُ
ولله دوحاتٌ تحفّكِ بينهـا　　تفجّر واديها كما شُقِّقَ البُردُ

ومن تلك الاماكن المشهورة عين الذهب التي يقول فيها مصطفى افندي البابي

بأبي وبأبي وبأبي　　جرعةٌ من ماء عين الذهبِ

ومنها مرج الفضة وهو الذي رأى المعتمد بن عباد غديرهُ يتجعد بهبوب الريح فقال　نسج الريحُ على الماء زرد　وامر وزيرهُ ابا بكر بن عمّار باجازتهِ فافحم فاجازتهُ الرميكية بقولها　　يا لهُ درعًا منيعًا لو جمد

ومن الجبال المشهورة ايضًا جبل شلير الذي يقول فيهِ بعض المغاربة وقد مرَّ بهِ فوجد ألم البرد

يحلُّ لنا ترك الصلاة بارضهم　　وشربُ الحميَّا وهي شيءٌ محرَّمُ
فرارًا الى نار الجحيم لأنها　　اخفُّ علينا من شلير وارحمُ

مدينة الزهراء . اختطَّها الملك الناصر بعد ان اكمل ابنيتهُ بمدينة غرناطة التي تقدم ذكرها واتخذها منزلةً وكرسيًّا لهُ وانشأ بها من القصور والمباني والبساتين ما علا على مباني اجدادهِ واتخذ فيها مجالاتٍ للوحش فسيحة البناء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللةً بالشباك واتخذ فيها دار الصناعة وآلات للسلاح وللحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن . قال بعض المؤلفين كان الناصر كلفًا بعمارة الارض واقامة معالمها وانبساط مجاهلها واستجلابها من ابعد مقامها وتخليد الآثار الدالة على قوة الملك واستقام السلم والعدل في ايامهِ واتسع نطاق الحضارة وامتدَّ العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الاندلس ينابيع النعم واحدقت بها مجاري الثروة فكانت جبايتها ستة آلاف الف دينار وكان عدد مدنها ثمانين مدينة كبيرة وثلاث مئة مدينة صغيرة وعدد قراها ومزارعها اثني عشر الف قرية ومزرعة على ضفتي النهر الاكبر وقال ابن سعيد حسبما ذكرهُ الشقندي ان العمارة اتصلت في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة بحيث انهُ كان يُمشَى فيها لضوّ السرج الممتدة عشرة اميال واشهر ما بناهُ الناصر مدينة الزهراء اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو بقيت

وكان السبب في بنائهِ هذه المدينة جارية كانت لهُ تسمّى الزهراء وكان يحبها حبًا شديدًا فطلبت منهُ ان يبني مدينةً باسمها تكون خاصةً لها فبنى اولاً قصر الزهراء الشهير الآتي ذكرهُ ثم بنى الزهراء حولهُ على بعد ما بين اربعة او خمسة اميال من قرطبة والى الشمال منها تحت جبل يسمَّى جبل العروس وقطع اشجار الجبل وغرسهُ تينًا ولوزًا ولم يكن منظرٌ احسن من منظر الزهراء ولا سيما في

زمن الازهار وتفتح الاشجار وكان طولها على قول ابن خلكان الفين وسبع مئة ذراع من الشرق للغرب وعرضها الف وخمس مئة ذراع من الشمال الى الجنوب ونصب فيها ثلاث مئة سارية من الرخام النفيس وجعل بها اكثر من خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموّه وقال ابن حيّان نقلاً عن ابن دجون الفقيه عن مسلمة بن عبد الله العريف المهندس العربي الشهير كان مبلغ ما ينفق في الزهراء كل يوم الفًا واربع مئة بغل وقيل اكثر منها اربع مئة زوامل الناصر لدين الله ومن دواب الاكرية الراتبة لخدمة الف بغل وكان يرد الزهراء من الجير والجصّ في كل ثالث من الايام الف ومئة حمل وقدّر بعضهم النفقة فيها كل عام ثلاث مئة الف دينار مدّة خمسة وعشرين عامًا وبقي بناؤها اربعين عامًا. اما رخامها ورخام السواري فبعث عرفاء بنائيهِ الى سائر الآفاق يجلبونهُ لهُ فجلبوا الابيض والمجزّع من الاندلس والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة ونصب بها حوضًا منقوشًا مذهبًا غريب الشكل غالي القيمة جلبهُ اليهِ احمد اليوناني من القسطنطينية وحوضًا صغيرًا اخضر منقوشًا بتماثيل الانسان جلبهُ من الشام وقالوا ان لا قيمة لهُ لفرط غرابتهِ وجمالهِ قال المقري ونصبهُ الناصر في بيت المنام في مجلسهِ الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليهِ اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعةً بالدرّ النفيس الغالي مما عُمل بدار الصناعة بقرطبة صورة اسد الى جانبهِ غزال الى جانبهِ تمساح وفي ما يقابلهُ ثعبان وعقاب وفيل وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاوس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ويخرج الماء من افواهها اه . وصنع في الزهراء بحيرة وضع فيها الحيتان انواعًا انواعًا وكان يخبز لها كل يوم ثمان مئة خبزة وقيل اثنا عشر الف خبزة ويُنقع لها من الحمّص الاسود ستة اقفزة

واما قصر الزهراء فكان متناهيًا في الجلالة والفخامة والرواة يقولون لم يدخل اليهِ احدٌ من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الاّ وكلهم قطع انهُ لم يرَ لهُ شبهًا بل لم يسمع بهِ بل لم يتوهم كون مثلهِ حتى انهُ كان من العجب ما يوصلهُ

القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليهِ والتحدث عنهُ وكانت مجالسهُ مبلطةً بافخر انواع الرخام وسقوفها مغشاةً بالذهب الابريز وابوابها من خشب الارز منقوشًا نقشًا يحير الالباب وعدها غاية في الاحكام والاتقان كانها أُفرغت في قوالب وكان بها بركٌ عظيمة يجري منها الماء الصافي الى ابدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصورها فكيف يجد القلم سبيلاً الى وصفها

واشرف هذه المجالس وابهاها المجلس الذي كان يسمّى قصر الخلافة وصفهُ المقريزي فقال وكان سمكهُ (اي سقفهُ) من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونهُ المتلونة اجناسهُ وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك وجُعلت في وسطهِ اليتيمة التي أتحف الناصر بها لاون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطهِ صهريج عظيم مملوء بالزئبق وكان في كل جانب من هذا المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سوارٍ من الرخام الملوّن والبلور الصافي وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانهِ فيصير من ذلك نورٌ ياخذ الابصار وكان الناصر اذا اراد أن يفزع احدًا من اهل مجلسهِ اومأ الى احد صقالبتهِ فيحرّك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور وياخذ بمجامع القلوب حتى يخيل لكل من في المجلس ان المحفل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك

ولنكتفِ بما ذُكر اذ لا يمكن استيفاء وصف كل ما كان بالاندلس من الاثاث النفيس والمصنوعات الفاخرة والزخارف الزاهرة والنقوش الباهرة والمساجد المحكمة الشامخة والقصور المزوّقة الباذخة والصور والتماثيل والمحوكات والحياض والنواعير والفوارات الى غير ذلك من غرائبها

وكما ظهر كثيرون من اهل الادب اصحاب مؤلفاتٍ شهيرة في بلاد الخلافة الشرقية كذلك ظهر كثيرون من اهالي الاندلس لا يحصون عدًّا من المؤلفين العظام واكابر الادباء والشعراء منهم من مدينة قرطبة ابو الحسن القرطبي ومن

غرناطة يوسف بن الغرناطي صاحب ايجاز الطب وعبد المنعم بن محمد بن عرس الغرناطي صاحب احكام القرآن ومن اشبيلية احمد بن عمر الاشبيلي صاحب الاستيعاب في فقه مالك المتوفي سنة ٤٠١ للهجرة (سنة ١٠١٠ م) وابن عصفور وابن فرح وابن زيدون صاحب الرسالة الزيدونية الشهيرة والشيخ علي الاشبيلي صاحب الديوان المشهور في الغزل ومن بلنسية ابو حفص عمر البلنسي صاحب شرح الاربعين المختارة وابن الجوزي صاحب طبقات الحديث واسماعيل بن ابرهيم البلنسي شارح كتاب اقتباس الانوار وغيرهم مما ينسبون الى الاندلس كالشيخ محمد بن مالك الجياني صاحب الالفية المشهورة في علم النحو والتصريف والشيخ ابي حيّان الاندلسي صاحب اللمحة البدرية في النحو وابن هاني الاندلسي الشهير بمتنبي المغرب تشبيهًا لهُ بابي الطيب احمد المتنبي الشاعر المشهور وفي ابن هاني المذكور يقول بعضهم

ان تكن زاهدًا فكن كأُويسٍ او تكن شاعرًا فكن كابن هاني

انّ من يدّعي بما ليس فيهِ كذَّبتهُ شواهد الامتحانِ

واليهم يُنسب اختراع نظم الموشحات التي منها السبع الشهيرات واصحابها هم ابن خلوف المغربي صاحب الديوان المشهور والسلطان ابو العباس المنصور وابن لسان الدين الخطيب وابرهيم بن سهل الاشبيلي وابو الحسن بن جودي الاندلسي وابو القاسم الاشبيلي وسوف يأتي الكلام على محصولات هذه البلاد وتجارتها

الخلافة الفاطمية بافريقية

هي خلافةٌ شيعيةٌ نشأت لآل ابي طالب بافريقية في القسم المعروف الآن ببلاد المغرب والصحراء حيثما بنى الصوريون قديمًا مدينة قرطاجنة التي بالقرب من موقعها الآن مدينة تونس ويقسمهُ الجغرافيون الآن الى سبعة اقسام وهي .

برقة المساة عند اليونانيين قديمًا بنطابوليس اي المدن الخمس ولما افتتحها العرب في صدر الاسلام سموها بُرقة لكثرة حجارتها المختلطة بالرمل والستة الباقية هي فزّان وطرابلس وتونس والجزائر التي استولت عليها الفرنسوية في النصف الاول من هذا القرن ومراكش وفاس

وسبب ذلك على ما يتخلص من كلام ابن خلدون وغيره من المؤرخين ان بني العباس كانوا من فرقةٍ من الشيعة تُعرَف بالكيسانية تقول بامامة محمد بن الحنفية بعد عليٍّ ابيهِ ثم الى ابنهِ ابي هشام عبد الله فلما شرع السفاح في قتال الامويين ليسلب الملك من اياديهم كان يظهر منهُ انهُ يريد بذلك الانتقام منهم وارجاع الامر لبني عليٍّ على ما سبقت الاشارة اليهِ لكن لما ظفر بقصدهِ وقتل مروان بن محمد بن مروان آخر خلفائهم استولى على كرسي الخلافة وخطب خطبةً في الناس قال في آخرها ان هذا الامر يبقى في يدهِ وينتقل الى اولادهِ واحفادهِ من بعدهِ يتداولونهُ الواحد بعد الآخر الى ان يتسلمهُ منهم المهدي وكانت دعاتهُ في البلاد كابي مسلمٍ امير خراسان وغيرهِ يؤيدون هذا القول ويذيعونهُ بين الناس بالاحاديث الواردة في حق المهدي وهي احاديث ذات تأويلاتٍ متنوعة على ما ذكرهُ الفاضل العلامة خير الله افندي المؤرخ العثماني ومن جملتها لا مهديَ الأَ عيسى

وكانت شيعة بني العباس من اهل خراسان المذكورة يسمون الروانديَّة ويعتقدون بان احقَّ الناس بالامامة بعد صاحب الشريعة الاسلامية هو عمهُ العباس جدُّ العباسيين فانهُ وارثهُ لكونهِ كان حيًّا حين وفاتهِ ويستندون في ذلك على الآية واولوا الارحام بعضهم اولى ببعضٍ وان الناس منعوهُ ما هو حقُّهُ وظلموهُ الى ان ردَّهُ الله الى ولدهِ ويتبرأُون من ابي بكر وعمر وعثمان ويجيزون بيعة عليٍّ لان العباس قال لهُ يا ابن اخي هلمَّ ابايعك فلا يختلف عليك اثنان

اما العباسيون انفسهم فكانوا يدَّعون على ما ذكرهُ ابن خلدون المغربي

بان الخلافة انتقلت من ابي هشام بن محمد الذي مرَّ ذكرهُ بوصيتهِ الى محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس ثم بعدهُ الى ابنهِ ابرهيم الامام بن محمد ثم بعدهُ الى اخيهِ ابي العباس السفاح المشار اليهِ واسمهُ عبد الله بن الحارثية

لكن باقي الفِرَق العلوية كانوا ينكرون عليهم خروج الامر عن سلسلة عليّ لا بوصاية ابي هشام المذكور ولا بغيرها ولا زالوا يقيمون حججهم حتى ان المأمون سابع الخلفاء العباسيين المذكورين كان مال الى رائهم واوصى بالخلافة من بعدهِ لرجلٍ منهم يقال لهُ علي بن موسى الرضا على ما ذكر ذلك في الفصل الرابع من المقالة الرابعة من هذا الكتاب وزوّج ابنتهُ ام الفضل بمحمد بن علي المذكور ولولا وفاة علي هذا في حياة الموصي الذي هو المأمون المشار اليهِ لكان خرج الامر عن بني العباس وعاد الى العلويين ولم تجدِ نفعًا اجتهادات عصابة بني العباس في مقاومة المأمون وخلعهِ من الخلافة وتولية عمهِ ابرهيم بن المهدي لانهُ بدّد جمعهُ اخيرًا وظفر بهِ وعفى عن قتلهِ لكن لما أسعف العباسيين حسن حظهم وقتئذٍ بموت علي المذكور عدل المأمون عن لون الخضرة الذي كان تظاهر بلبسهِ ورجع الى لبس السواد شعار العباسيين وكان قد نزعهُ فردَّ الامر الى بني العباس وسوف يأتي ذكر السبب الذي لاجلهِ اختار العباسيون لبس السواد حتى انهم جعلوا راياتهم ايضًا سودًا وكان ذلك في ايام ابي جعفر المنصور ثاني خليفةٍ منهم (راجع الفصل الاول من المقالة الثامنة)

وكان في الوقت الذي نال فيهِ السفاح العباسي حظ الخلافة كان اغلب الجيش الاسلامي يرى ان هذا المسند العظيم هو حقٌّ عليٍ وبنيهِ وبصرف النظر عن الغلوّ الذي أحدثهُ بعض فرق شيعتهِ فيهِ ولذلك كما ان هذا الخليفة اراد ان يمهد سلطتهُ ويقوي شوكتهُ بتلك الخطبة التي اشرنا اليها وهي ان الامر لا يخرج عن عائلتهِ الّا ليد المهدي تحولت كذلك عزائم اخيهِ ابي جعفر المنصور المشار اليهِ بعد ان تولّى الخلافة بعدهُ الى اذلالِ العلويين وابادة كل من كانت تُلحظ فيهِ الكفاءة لمزاحمتهِ على منصبهِ وذلك لما ان ظهرت في ايامهِ الدعاة بمصر لمحمد

ابن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن ابي طالب ولاخيهِ وكان الداعي عليّ بن محمد المشار اليهِ واتّبع اثر ابي جعفر المذكور في ذلك خلفاؤهُ من بعدهِ الى ان قام بالخلافة محمد المستنصر العباسي فكتب الى عاملهِ بمصران لا يقبل علويٌّ ضيعةً ولا يركب فرسًا ولا يسافر من الفسطاط الى طرفٍ من اطرافها وان يمنعوا من اتخاذ العبيد الاَّ العبد الواحد ومن كان بينهُ وبين احد الطالبين خصومةٌ من سائر الناس قُبِلَ قول خصمهِ فيهِ ولم يُطالب ببيّنةٍ وكتب الى العمَّال بذلك وكان كل من استغاث بالحسن والحسين يزيدون في قصاصهِ وتعذيبهِ

ثم لما تولّى الخلافة المعتضد بالله العباسي كتب الى ابن مدرار عاملهِ بسجلماسة من بلاد المغرب ان يقبض على رجلٍ من ذرية الحسين بن علي بن ابي طالب يقال لهُ عُبَيد الله فأُخِذَ وحُبِس الى ان اخرجهُ رجلٌ يقال لهُ ابو عبد الله الشيعي من محبسهِ بدعوى انهُ هذا هو المهدي المشار اليهِ في ما مرَّ ومن ثمَّ تكنّى هذا الاسير المعتوق بسيف ابي عبد الله المذكور بابي محمد وتلقب بالمهدي وتبعهُ مسلمو المغرب قاطبةً فأسس خلافةً جديدةً للعلويين في بلاد افريقية المارّ ذكرها كان هو اول خلفائها وذلك في سنة ٢٩٧ للهجرة (سنة ٩٠٩ م)

وجعل هذا الخليفة دار اقامتهِ اولاً مدينة يقال لها رقّادة وهي بالقرب من مدينة مستحدثة يقال لها القيروان بُنيت في صدر الاسلام وكانت يومئذٍ قاعدة تلك البلاد وحيث كان يدَّعي الالوهية قال في ذلك بعض تابعيهِ

حلَّ برقادة المسيحُ حلَّ بها آدمٌ ونوحُ
حلَّ بها الله ذو البرايا وما سوى ذاك فهو ريحُ

وقوي امر هذه الدولة بالمغرب وافريقية وجهروا بمذهب الاسماعيلية وبثوا دعاتهم في ارض مصر وامتلكوها في سنة ٣٥٨ للهجرة (سنة ٩٦٨ م) ولما لم تستطع الخلفاء العباسيون ان يقاوموها بقوّة الاسلحة عمدوا الى الاستعانة عليها

بالطعن على نسب عبد الله المذكور فقالوا ان جدَّهُ كان اما يهوديًّا او مجوسيًّا وساعدهم على ذلك بعض العلماء باثباتهِ لكنهم لم يأتوا بطائل فقد حامى عنهُ علماء آخرون ودامت سلطة ذريتهِ التي كان منها الحاكم بامر الله صاحب ديانة الدروز التي انتشرت في ايامهِ ببلاد مصر والشام الى ان انقرضت دولتهم بدولة الاكراد الايوبية التي انشأها في مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب الملقَّب بالناصر قبل انقراض الخلافة العباسية من بغداد بنحو تسعين سنة

المهدية . وكان اول مشروعات المهدي المذكور هو بناء مدينةٍ في القيروان سماها المهدية نسبةً لهُ وذلك بعد ان كافأ ابا عبد الله الشيعيّ واخاهُ بالقتل كما فعل قبلهُ السفاح العباسي ايضًا بابي مسلم الخراساني واختار لهذه المدينة جزيرةً متصلةً بالبر كصورة كفٍّ اتصلت بزندٍ وجعلها دار ملكهِ وادار بها سورًا محكمًا وجعل لها ابوابًا من الحديد وزن كل مصراعٍ مئة قنطار وكان شروعهُ في بنائها سنة ٣٠٣ للهجرة (سنة ٩١٥ م) وانشأ بالقرب منها في الجبل دارًا لانشاء السفن تسعُ مئة سفين وبحث في ارضها اهراء للطعام ومصانع للماء وبنى فيها القصور والدور ودوّن الدواوين وجبى الاموال وبعث العمَّال الى البلاد

المسيلة او المحمدية . مدينةٌ بناها الخليفة المشار اليهِ في ارض بني كملان من هوارة وكان اسمها المسيلة فسماها المحمديّة وحصّنها وجعلها مخزنًا للاقوات

القاهرة . ثم لما استولى حفيدهُ المعزّ لدين الله على بلاد مصر بعد موت كافور الاخشيدي شرع وزيرهُ جوهر القائد الذي كان قائد جيوشهِ في ذلك الفتوح ببناء قاهرة مصر واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعزّ المذكور ما كان في قصرهِ بالمهدية من الاموال والامتعة وسار اليها في سنة ٣٦٢ للهجرة (سنة ٩٧٣ م) بعد الشروع في بنائها باربع سنوات واتخذها منزلاً لهُ ولخلفائهِ الى آخر دولتهم ولما تولَّى الخلافة الفائز بنصر الله عيسى بنى فيها وزيرهُ الصالح بن رزيك المشهد الحسيني ثم لما تولَّى سلطنتها الملك الناصر

صلاح الدين يوسف بن ايوب تحت الراية العباسية بنى فيها قلعة الجبل والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمقها ثلاث مئة قدم ومع ذلك يمكن انتزول فيها الى العمق ولو لِمَن نزل راكبًا على حمارٍ لما فيها من الدرج الدوار

سلطنة مراكش

وكان بعد ان انقرضت دولة الفاطميين على ما ذكرنا في ما مرَّ استقلت عُمَّال البلاد في اقسام هذه المملكة فكانت مصر نصيبًا للسلطان صلاح الدين الايوبي المارّ ذكرهُ وكان من اهل السنَّة فتسلطنَ عليها تحت راية الخلافة العباسية وكذلك بلاد افريقية التي كانت منشأً لتلك الخلافة استقلت بها عمالُها على ما نقدم وهي الآن تحت سيادة الدولة العلية العثمانية وتسمّى بالوجاقات ولم يفقد منها الاَّ الجزائر التي استولى عليها الفرنسويون على ما نقدم

واما بلاد مراكش التي هي احدى الاقسام المذكورة فان الافرنج تعتبرها والحالة هذه امبراطورية يعني ان صاحبها الذي استقل بها ملك ملوكٍ لكن العرب تطلق عليها اسم سلطنة المغرب ونسبة سكان هذا القسم للعرب على ما ذكرهُ ابن خلدون وغيرهُ من المؤرخين كنسبة سكان باقي الاقسام المذكورة في افريقية فان اصلهم من البربر سكان القفار الكائنة وراء صحاري الرمال الممتدة في تلك الاراضي ثم تدينوا بدين الاسلام بعد استيلاء العرب على بلاد الاندلس واختلطوا بهم اختلاطًا كليًا حتى انهم لم يعودوا يمتازون عنهم في شيء اصلاً وكانت الرياسة فيهم لقبيلةٍ يقال لها لمتونة وكانوا يغيرون على بلاد السودان المجاورة لهم منذ استيلاء عبد الرحمن الداخل الاموي على بلاد الاندلس واستولوا على عدة مواضع منهـــا الى ان صار لهم مملكة واسعة وتعاظم امرهم على عهد عبد الرحمن الناصر بالاندلس وعُبيد الله المهدي بافريقية

وكانت خرجت طائفةٌ من قبيلة لمتونة المذكورة في اثناء تلك الغارات

هاجمةً على جماعةٍ من اعدائها فخالفها العدوّ الى بيوتها ولم يكن باقيًا بها الاّ المشائخ والصبيان فامروا النساء ان تلبسنَ ثياب الرجال وتتلثمنَ وتحملنَ السلاح ففعلنَ ذلك وظفرنَ بالعدوّ فمن ثمّ جعلوا اللثامَ سنّةً يلازمونهُ فلا يُعرف الشيخ من الشاب فسُمّوا من ذلك الوقت بالملثمين ولما ان استفحل ملكهم في عصر الخليفتين المشار اليهما قام بالملك عليهم رجل من امرائهم يقال لهُ يوسف بن تاشفين اللمتوني وسمّى نفسهُ امير المسلمين

مراكش . فاختط هذا الامير مدينةً في بلاد افريقية سنة ٤٥٤ للهجرة (سنة ١٠٦٢ م) وهو انهُ ادار سورًا على مسجدٍ وقريةٍ صغيرةٍ ليجعلها مخزنًا لاموالهِ وسلاحهِ وكانت تلك القرية في غابة من الشجر تأوي اليها اللصوص قبل ذلك فكان سكان تلك البلاد عند ما يمرون بها يقولون بعضهم الى بعض مرّ آكش ومعنى ذلك في لغتهم امش مسرعًا فصار هذا اسمًا لذلك الموضع وبهِ تسمت تلك المدينة ثم لما تولّى المملكة بعدهُ ابنهُ علي تمّم اسوارها واكمل تشييدها في سنة ٥٢٦ للهجرة (سنة ١١٣١ م)

واستمرّت هذه المدينة كرسي مملكةٍ للملثمين الى ان زالت دولتهم وقام بعدها حكامٌ غيرهم ثم استقر حالها على الملوك المتسلطين عليها الآن . قال بعض المؤلفين ان هذه البلاد كانت تابعةً للخلفاء العباسيين في القديم ثم أُضيفت الى الدولة الفاطمية ثم استقلت بنفسها ومنذ نحو ثلاث مئة سنة اعني في اثناء القرن العاشر للهجرة والسادس عشر الميلاد تولّى عليها احد شرفاء البلاد ولم يزل الملك بيد نسلهِ الى الآن ومدينة مراكش المذكورة قصبةً لمملكتهم واهلها نحو مئتين وسبعين الف نفس والديانة المحكمة هي الدين الاسلامي ويوجد بينهم كثيرٌ من اليهود

مغادور . وفي سنة ١١٧٤ للهجرة (سنة ١٧٦٠ م) عمروا مدينةً سموها مغادور وهي فرضةٌ عظيمة

مكناسة . ويلي مدينة مراكش مدينة مكناسة ويقال لها مكناسة الزيتون

وهي على نهر فلفل يقيم بها سلاطين مراكش غالب اوقاتهم وفيها يقول بعض الشعراء

انظر الى مكناسة الزيتونِ   بين الاباطح والجبال الجُونِ
وكأنَّ فلفل بينهنَّ مهنَّدٌ   يهتزُّ بين تعطفٍ وسكونِ

ويقال انهُ كان بالقرب من مدينة سبتة المحاذية لجبل طارق متنزهاتٌ كثيرة اشهرها مكان يقال لهُ بيلونش بينهُ وبين سبتة جبلٌ مستوعرٌ وفي ذلك يقول بعضهم

بيلونشُ جنةٌ ولكن   طريقها يقطع النياطا
كجنة الخلدِ لا يراها   الاَّ الذي جاوز السراطا

وقد اشتهر في هذه البلاد بعد ان ازهرت الآداب والمعارف في مدينتي القيروان وتونس في عصر الخلفاء الفاطميين جماعةٌ منهم ابو الحسن عليّ الودّاني نسبةً الى مدينةٍ تسمَّى ودّان وهو شاعرٌ ومن قولهِ

من يشتري مني النهارَ بليلةٍ   لا فرق بين نجومها وصحابي

والشيخ الصفاقسيّ نسبةً الى صفاقس وهو صاحب المصنفات في العروض والشيخ عفيف الدين التلمساني نسبةً الى مدينة تلمسان وهو صاحب الديوان المشهور

وسوف يأتي الكلام على محصولات هذه البلاد وتجارتها

مساكن الوبر اي اهل البادية

واما عرب البادية الرحالة النزالة فكانوا يسكنون الخيام ويتبعون في نزولهم الاراضي المطورة طلبًا لمراعي مواشيهم وكانوا قبل رحيلهم لا بدَّ من ان يرسلوا رائدًا ليتفقد لهم مواقع المطر ومنابت الكلاءِ التي تصلح لنزولهم فيها ولما

كانوا لا يرتابون في ما يخبرهم بهِ رائدهم لما ان النفع مشتركٌ بينهُ وبينهم ضربوا المثل بصدقهِ فقالوا لا يكذب الرائد اهلهُ

وكانوا يقسمون الخيمة التي يسكنونها بستارةٍ تحتجب فيها النساء وهي عادةٌ قديمة جدًّا عند سكان الخيام[1] قال بعض المؤلفين حيث اقتضت غيرة العرب ان تكون مساكن النساء في ظهر الدار كانت المساكن التي في مقدَّم الدار للرجال وجعلوا البيت الذي يضرَب في مقدَّم البيوت منزلاً للغرباء فلا تكون فيهِ المخدرات ويسمّونهُ البهو والذي يُضرَبُ للنساء في المؤخر يسمّونهُ الخدر قال معمر بن مثنى البصري لا يكون خدرًا الاَّ اذا كان خلفهُ امرأةٌ والاَّ فسترٌ

ومن انواع هذه البيوت ما يسمّونهُ بالسرادق وهو خيمةٌ من نسيج القطن والفسطاط[2] وهو بيتٌ كبير من الشعر والخباء بيتٌ من الصوف قال الاصبهاني هو ما يكون على عمودين او ثلاثة والنجاد من الوبر والقشع من جلدٍ والسترة من طين يابس والخيمة من غزلٍ والقبة من اللبن والحظيرة من الشجر والطراف من الاديم

وقال ابن خلدون وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني أُميّة انما يسكنون في بيوتهم التي جرت عادتهم باتخاذها قبل الملك وهي خيامٌ من الوبر والصوف فكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من الاهل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد فلما نزلوا المدن والامصار وانتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخفّ الى ظهر الحافر[3]

---

(١) انظر تك ص ٨: ٩

(٢) الفُسطاط والفُسّط والفسّات والفسّاط وتكسر السرادق من الابنية ج فساطيط والفُسطاط بالضم مجتمع اهل الكورة وعلَم لمصر القديمة و بعضهم يقول كل مدينة فِسطاط بالكسر

(٣) يريد بذلك من الركوب على ظهر الابل الى الركوب على ظهر الخيل

اتخذوا المسكن في اسفارهم الاخبية والفساطيط والفازات[1] من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيُباهى بها في الاسفار. وتُنوّع منها الالوان ما بين كبيرٍ وصغيرٍ على نسبة الدولة في الثروة واليسار حتى ان السياج الذي يُضرب مستديرًا على فساطيط الامير وفازاتهِ ويسمّى بلسان البربر من اهل المغرب افراك اختص بهِ السلطان في ذلك القطر فلا يكون لغيرهِ وصاروا يحتفلون في ذلك بابلغ مذاهب الزينة والاحتفال

وكان الملك في الجاهلية اذا ضرب على رجلٍ قبةً من ادم حمراء عُرِف قدرهُ منهُ ومكانهُ عندهُ

وعندهم البيت اسمٌ لمسقفٍ واحد لهُ دهليزٌ واصلهُ من بيت الشعر او الصوف سمّي بهِ لانهُ يبات فيهِ وقال الاصبهاني هو ما كان على ستة اعمدة الى تسعة وقيل ما كان من مدرٍ فهو بيتٌ ومن كرسفٍ فهو سرداقٌ ومن صوفٍ او وبرٍ فهو خباء ومن عيدان فهو خيمةٌ ومن جلود فهو طرافٌ ومن حجارة فهي اقبيةٌ اما الجُرْموز فهو البيت الصغير والحوض الصغير والجَنْز البيت الصغير من الطين والحجرة الغرفة والحجلة كالقبة وهي موضع يزين بالثياب والاسرَّة والستور للعروس او سترٌ للعروس في جوف البيت والمنزل اسمٌ لما يشتمل على بيوت وصحن مسقفٍ ومطبخ ويسكنهُ الرجل بعيالهِ والدار اسمٌ لما اشتمل على بيوت ومنازل وصحن غير مسقفٍ والبيت يُجمع على ابيات وبيوت وجمع الجمع اباييت وبيوتات وهذا الاخير يختص بالاشراف يقال هو من اهل البيوتات اي الشرف وهم اصحاب الحسب والنسب والجدل والأُطم القصر والأَجم الحصن

وكل بناء عالٍ فهو صرحٌ وكل بناء مربع كعبةٌ وكل بناء مربع مسطح أجم

(١) الفازة مظلة ذات عمودين ومنهُ قولهم ضرب الفازة بالمفازة يعني نصب المظلة المذكورة في المفازة

وكل بناءٍ مرتفع وكل حصن مبني بحجارة وكل بيت مربع مسطح أُطُم وأُطْم والبيوت المتقاربة أُصيصة والبيت المبني من حجر أَقْنَ ج أُقُنٌ والبيت يُبنى طولا أَزَج والصغير من البيوت حِفْش اما الخزانة اي البيت الصغير توضع فيهِ الامتعة فهي مخدع من الخِدع اي الاخفاء والعظيم من الابواب رتاجٌ ورحبة المكان ساحتهُ والدار الخاوية هي التي ليس بها ساكنٌ وبئرٌ نزحٌ ليس فيها ماءٌ

والوطن للناس واما المألف والمراح فهو للابل والاصطبل للدواب والزريبة للغنم والعرين للاسد والوجار للذئب والضبع والخنل للارنب وفي محيط المحيط المخزَّة موضع الارانب ومنهُ اشتق اسم الخزّ للثوب باعتبار نعومتهِ كاوبارها والمكو للارنب والثعلب والجُحْر للضبع والثعلب والكناس للوحش والادحي للنعامة والافحوص للقطا والوكن للطير والقرية للنمل والنافقا لليربوع والخليّة للنحل والجُحرُ للضب والحيّة وقيل الجحر كل مكان تحتفرهُ الهوام والسباع لانفسها جمعهُ جحرة واجحار واجحرة

اما البلدة فهي محلة لاسور لها فان كانت ذات سور فهي المدينة وكل مدينة جامعة فسطاط والعظيم من المدن قصبة وقاعدة وعاصمة واما موضع المخافة من فروج البلدان وما يلي دار الحرب فهو ثغرٌ والصغير من القرى كَفْرٌ والعظيم من الحائط سور وكل بقعة ليس فيها بناءٌ عرصة والواسع من كل شيءٍ رَحبٌ والعظيم من الطُرقِ شارعٌ ومثقبٌ والواضح منها خيدبٌ ومرصادٌ ووسط الطريق ومعظمهُ منهجٌ ومَحجة وجادّة والطريق الواسع مَهيَعٌ والطريق المستقيم نسيب والطريق في الجبل شعبٌ والطريق في الاشجار مخرقٌ والطريق الواسع بين جبلين فجّ والطريق الضيق زقاق والطريق الممتدّ درب والطريق غير نافذ الرّدب والطرق المحفَّرة النُّجُج والطريق يستقيم مرةً ويعوّج اخرى الجحوّج والمجبّة المكدودة بالحوافر الحَرْثُ وكل محلة دنت منازلها حارة وكل محلة لا يسكنها اهل الاسلام عديّة وربما عبَّروا عنها بالخراب ايضًا والمحجر ما حول المدينة وباعة الدار ساحتها والجَبْل ساحة البيت

واطلال الديار هو عماد خيامها وحجارة نؤيها[1] وقيام اثافيهـا[2] وتراكم كرسها[3] ورسوم الديار آثارها من الارض من حفر نؤي[1] او حفرِ وتدٍ أُخرج منها او رمادٌ او بعرٌ او ابوالٌ او اثر لعب صبيان فاذا كانت اطلال الديار قائمة ورسومها دارسة فهي الماثل والأنجاجٌ وهي التي تعفي الآثار وتدفنها

ويسمّون فناء الدار العذرة لكن لما كانوا يطرحون فيها الغائط فكانوا يكنون بها عنهُ ثم كثر حتى سُمّي الغائط بعينهِ عذرةً

اما سعوف الدار فهي الثور وهو اناءٌ يشرب فيهِ والقصعة والقِدر من محقرات متاع البيت وكذا الخاش ماش هي امتعةٌ لاخير فيها كالجنا والجواء والجئاة او الجِواءة وهو وعاء القِدر او شيءٌ توضع عليهِ من جلد او خصفةٍ ونحوها والجعال خرقة تنزل بها القدر عن الاثافي والخرش والبقاق سقط متاع البيت والحُبُّ الجرّة او الضخمة من الجرار او الخشبات الاربع توضع عليها الجرّة ذات العروتين والكرامة غطاء الجرّة والمِحَشّ والمِحَشّة حديدة تحشّ بها النار اي تحرّك والمِحضَجُ والمِحضأُ والمِحضاء عودٌ تحرّك بهِ النار والجِبهَل والجِبهلَة خشبة يحرّك بها الجمر والثِفال الابريق وجلدٌ يبسط فتوضع فوقهُ الرحى فتطحن باليد ليسقط عليهِ الدقيق واثُفال الحجر الاسفل من الرحى والمثفلة رخامة يُثقَّل بها البساط والجلُّ البسط والاكسية. والاريكة سريرٌ في حجلةٍ او كل ما يتكأُ عليهِ من سرير ومنصة وفراش او سرير منجدٍ مزين في قبة او بيت فاذا لم يكن فيهِ سرير فهو حجلة والأيصر حبل قصير يشدّ بهِ اسفل الخباء الى وتدٍ وكساء

---

(١) النوى حفيرة حول الخباء لئلا يدخلها المطر

(٢) الاثافي حجارة يوضعونها ليصبوا عليها القدر وهي آنية الطبخ والواحدة منها اثفية واذا كانوا في ذيل جبل وضعوا اثنيتين والجبل الثالثة فيكون الجبل اثقل الاثافي ولذلك يقولون في امثالهم ثالثة الاثافي يضربونهُ للثقيل والداهية العظيمة

(٣) الكرس بالكسر الابوال والابعار تلبّد على بعضها بعضاً ويطلق ايضاً على ابيات من الناس مجتمعة والاصل ايضاً الكرس

يُحشُّ فيهِ والاراضُ بساط ضخم من صوف او وبر والأهَرَة متاع البيت والبَقْط قماش البيت والقثرة ايضاً ومنهُ القثرد وهو الكثير قماش البيت وما لا يحمل من الامتعة عند الرحيل والنسيُّ ما سقط من منازل المرتحلين من رزال امتعتهم واحفاش البيت قماشهُ ورزل متاعهِ والماعون ما يستعار من اثاثٍ يوجد في البيوت

الفصل الثاني

في ملابس العرب وحليها

يقال ان ملابس العرب حتى الآن لم يتغير نموذجها عما كانت عليهِ في الزمان القديم وفي الاعصر الصاعدة جدًّا لجهة الاوليّة وهي طويلة كملابس الاتراك والعجم وقد يلبسون ايضاً سراويل واسعة ويتنطقون بحزام من الجلد وفيهِ خنجرٌ ونحوهُ ويغطون رؤُوسهم بالكوافي والعامة تقول الكفافي وهي اشبه بمنديل كبير منسوج من الصوف الخشنيّ وغيرهِ ويلفون عليها عصائب من غزل الصوف المبروم ايضاً وتُسمَّى بالعقالات واحدها عقال وكثيرٌ منهم من يلبس الطواقي واحدها طاقية وهي العراقية وفوقها الطرابيش المعروفة ثم يضعون فوقها الكوافي والعقالات المذكورة او يتعممون عليها بالعمائم وتسمّى العَصْب ايضاً عوضاً عن العقالات

والعمائم تيجان العرب وعُمّ فلان على المجهول سُوِّدَ كما قيل في العجم تُوِّجَ وهي انواعٌ منها نوعٌ يقال لهُ الحوتكية نسبةَ الى رجلٍ يقال لهُ حوتكٍ(1) ونوع آخر

(1) وفي اللغة يقال لكل صغير حوتكي

يقال لهُ اعتمام الميلاء وهو تكوير العمامة منعطفةً الى احد الجانبين ونوعٌ ثالثٌ يقال لهُ القفداء وهو ما ليس لهُ عدبةٌ اي لا يُسدَل من العمامة طرفها ونوعٌ رابع يقال لهُ الطابقية وهو الاقتعاط يقال اعتم فلانٌ العمةَ الطابقية اي اقتعط يعني تعمَّم ولم يَدِرْ تحت الحنك قال ابن خلدون ان العرب يرسلون من اطراف عمائمهم عدباتٍ يتلثمُ قومٌ منهم بفضلها وهم عرب المشرق وقومٌ يلفّون منها الليثَ والاخدَع(1) قبل لبسها ثم يتلثمون بما تحت اذقانهم من فضلها وهم عرب المغرب وقال الاصبهاني كانت العادة في صدر الاسلام بان الخلفاء لا تُعزَّى في العمائم فكان مَن يدخل اليهم معزّيًا ينبذ عمامتهُ وراء ظهرهِ وقال آخرون ان في عصرنا هذا يمتاز المسلمون بلون العمائم وصورتها الدارجة وطرق الفقراء الخ فيتميَّز الشريف بالاخضر والرفاعي بالاسود

وكل رجال البادية تلبس الكساء والعباآت المنسوجة من شعور المعز والابل والعباآت جمع عباءةٍ وهي كساءٌ من صوف بلا كمَّين او ثوب مربَّع مطبق مشقوق من الوسط ولهُ نقوبرةٌ في شكل الرقبة وفتحتان من الجهتين يخرج منهما الذراعان وذكر ملطبرون بان امتحانها قبل الشراء لمعرفة جودتها يكون باراقة دلو ماء عليها فان كانت جيّدةً لا يذهب من الماء شيءٌ وقد يقع ان الماء يبقى عليها نحو ثلاثة ارباع الساعة ولا يذهب منهُ قطرةٌ واحدة

ولهم لبسةٌ يقال لها اشتمال الصماء وهي ان يرد الرجل كساءهُ من قبل يمينهِ على يدهِ اليسرى وعاتقهِ الايسر ثم يردّهُ ثانيةً من خلفهِ على يدهِ اليمنى وعاتقهِ الايمن فيغطيهما جميعًا

واغلبهم لا يلبسون النعال فتصلب بطون ارجلهم حتى تقوى على تحمل الرمال المحرقة ولكن في الجبال يسترونها بجلود الغنم

---

(1) الاخدع احد عرقين يقال لهما الاخدعان يكونان في العنق في موضع الحجامة وهما شعبتان من حبل الوريد

ونساء الفقراء منهم يلبسنَ قميصاً وسربالاً[1] لا غير والحديثة السنّ من النساء تلبس الشوذر وهو الملحفة فارسي معرّب او بُردًا يُشَقُّ من غير جيبٍ ولا اكمام

وهنا نذكر ما امكنا جمعهُ من بعض كتب اللغة من اسماء انواع الملابس المعروفة عند العرب

ا الاتب بُردٌ يُشقُّ في وسطهِ فتلبسهُ المرأة في عنقها من غير جيبٍ ولا كمين . والاتحويُّ والاتحمية والمتحّمة بُردٌ تُنسجُ في بلاد العرب . والاخصاب ثياب للعرب معروفة عندهم والاخنَى ثوب مخطط . والأردَن ضربٌ من الخزّ الاحمر. والأستبرِق الديباج الغليظ او ديباجٌ يُعمل بالذهب او ثياب حرير صفاق . والاصدة قميص صغير يُلبس تحت الثوب وابو قلمون ثوبٌ روميٌّ من ابريسم يتلوّن للعيون الوانًا . والاندرود والاندرودية اسم لنوع من السراويل مشمَّر فوق التبّان او هي التبان . والانماط جمع نُمط وهو ما يبسط من صنوف الثياب والاسْديُّ ضرب من الثياب او من الجوخ

ب الباغزِيَّة ثيابٌ من الخزّ او كالحرير. والبتُّ وهو كساءٌ غليظ من وبر او صوف وقيل طيلسان من خزّ والبجاد ثوب مخطّط . والبخنق والبخنك والبخق خرقة تقنع بها الجارية فتشدّ طرفيها تحت حنكها تقي الخمار من الدهن والبُرْجُد كساء غليظ مخطط . والبُرد كساء اسود من الصوف يُلتحفُ بهِ والثوب المخطط ج برود . ومنها البرود السديرية نسبةً الى السدير ارض باليمن والبرود السعدية ضربٌ من برود اليمن منسوب الى سعيد بن العاص. والبرود المسهّمة هي ثيابٌ مخططة من نسج اليمن . والبرنس قلنسوة طويلة كان النسّاك يلبسونها في صدر الاسلام وكلُّ ثوب رأسهُ منهُ درّاعةً كان او جبةً او ممطرًا. والبرقع خريقة تثقب للعينين تلبسها نساء الاعراب فتستر الوجه فقط. والبريم خيطان مختلفان احمر وابيض تشدّهُ الجارية على وسطها وعضدها

---

[1] السربال القميص او الدرع او كل ما يلبس ج سرابيل

وحبلٌ للمرأة فيهِ لونان مزينٌ مجوهر . والبزُّ ثياب الكتان والقطن والبركان او البرنكان الكساء الاسود . والبطاج ما كان احد طرفيهِ مخملًا او وسطهُ مخمل وطرفاهُ منيّران . والبقيرة كالاتب يعني قميص لا كمين لهُ تلبسهُ النساء . والبنادِك بنائق القميص

ت التحِيَّة البرود المخططة بالصفرة وثياب التحِمّة ما يُلبَس المطلَق امرأتهُ اذا متّعها . والتبّان كالهميان شداد للسراويل او نكةٌ لها او ما يجعل فيهِ الدراهم ويُشدّ على الحقو

ث الثِنّات شبام البرقع وسير يُشدُّ بهِ الرحل والثوب يجمع على اثواب ومنها الثوب المعرج وهو المخطط في التواء وثوب وارش او ورشٌ احمر والثياب الموثوجة الرخوة الغزل والنسج وثوب برود ليس لهُ زئبر

ج الجبَّة ثوب مقطوع الكم طويل يُلبس فوق الثياب او الدروع والجديلة شبهُ اتب من ادم تتزر بهِ النساء الحوائض والصبيان والجرز لباسٌ للنساء من الوبر وجلود الشاء . والجرمقيُّ ضربٌ من الاكسية . والجرموق ما يُلبس فوق الخفّ لحفظهِ من الطين والجلباب والجِلبّاب قميص وثوب واسع للمرأة دون الملحفة او هو ما تغطي بهِ ثيابها من فوق كالملحفة او هو الخمار والجاد ضربٌ من الثياب والجُنّة خرقة تلبسها المرأة تغطي من راسها ما اقبل وادبر غير وسطهِ وتغطي الوجه وجنبي الصدر وفيها عينان مجوبتا كالبرقع والجهرميّة ثياب من نحو البسط او هي من الكتان منسوبة الى جهرم بلد بفارس والجوذيُّ اسم للكساء . والجُوذباء مدرعة من صوف للملاحين . والجيد المدرعة الصغيرة والجمازة دراعة من صوف قصيرة الكمين

ح الحُبَر البُرد الموشّى والثوب الجديد الناعم والحِبَر الوشي والحبير الناعم الجديد والبُرد الموشّى والثوب الجديد ج حُبَر والحبرة ضرب من برود اليمن . والحبس نطاق الهودج والمقرمة وثوب يطرَح على ظهر الفراش للنوم عليهِ . والحُجزَة معقد الازار وموضع التكة من السراويل . والحِذاء ما يُلبس في

الارجل من النعال والحِرْج اثوابٌ تُبسط على حبلٍ لتجف ج حراجٌ . والحرض من الثوب حاشيتهُ وطرتهُ وصنفتهُ . والحشيب الثوب الغليظ . والحِقاء الازار ومعقدهُ . والحنو والحقوة الكشح والازار ومعقدهُ ايضًا . والحِيفة الخرقة يُرقَّع بها ذيل القميص من خلف . والحُلَّة ثوبٌ من جنس واحد ساتر لجميع البدن . والحوف جلدٌ يشقُّ كهيئة الازار تلبسهُ الحيض والصبيان او اديمٌ احمر يقدُّ امثال السيور شذرًا تلبسهُ الجارية فوق ثيابها او نقبةٌ من ادم تقدُّ سيورًا عرض السير اربع اصابع تلبسها الصغيرة قبل ادراكها والحقب وشيٌ تعلق المرأة به الحلي وتشدهُ في وسطها

خ الخبيَّة رداء من خزٍ والخُذافِر الخلقان من الثياب والخَدافِلُ الثياب البالية والخذعل ثيابٌ من ادم تلبسها الحوائض والرُعْنُ والخَذْفَرة القطعة من الثوب والخُزْرانق ثوب او ثياب بيض والخُسرُوانيُّ نوع من الثياب منسوب الى خسرو بن انوشروان ملك من ملوك العجم والخصاص الثوب الصغير والخِصار الازار والخَصْف النعل ذات الطرق وكل طراقٍ منها خصفة والخليع قميص بلا كُم والخمس ضرب من برود اليمن زعموا ان اول مَن عملها ملك يقال لهُ خُمُس وقال بعضهم بردة اخماسٍ هي بردة تكون خمسة اشبار ومن ذلك المثل المضروب هما في بردة اخماس يضرَب للرجلين تحابًا وتقاربا او فعلا فعلاً واحدًا او يشبه احدهما الآخر كانهما في ثوب واحد . والخيعل قيل قميص لا كمين لهُ وقيل الفرو او ثوب غير مخيط الفرجين او درع يخاط احد شقيهِ ويترك الآخر تلبسهُ المرأة كالقميص والخَزَري العمامة من نكث الخزّ

د الدخدار الثوب المصون وهو فارسيٌّ معرَّب اصلهُ تحت دار والدرع قميص تلبسهُ المرأة(١) والدفنيّ ثوب مخطط . والدمقس الابريسم او القزُّ او الديباج او الكتان او الحرير الابيض

ر الرداء الملحفة يشتمل بها والثوب . والردن اصل الكم كانت العرب

(١) الدرع هنا مذكر واما درع الحديد فهي مؤنثة

تضع فيهِ الدراهم والدنانير والرازقية ثياب كتان بيض . والرفرف الرقيق من ثياب الديباج وكل ثوب عريض والبسط وخرقة تخاط في اسفل السرادق والربطة ثوب يُلبس على الفخذين

ز الزينبي ضرب من البرود

س السابرية نوع من الثياب الرفيعة يُنسب الى سابور كورة ببلاد فارس . والسحيل ثوب لا يُبرم غزلهُ وثوب ابيض او من القطن. والسحل الثوب الابيض من القطن ايضًا. والسدوس الطيلسان الاخضر والسندس ضرب من نسيج البزّ او من رقيق الديباج

ش الشملة نوع من الاثواب

ط الطمر الكساء البالي من غير الصوف ج اطمار والطيلسان ثوب ليس لهُ بطانة او كان من قطن وقيل العذبة اي طرف العمامة يُسدل على الكتف وقيل الطيلسان كساء مدور اخضر لا اسفل لهُ لحمتهُ او سداهُ صوف يلبسهُ الخواص من العلماء والمشائخ

ع العصب ضرب من برود اليمن . والعِقَب خمارٌ للمرأة . والعقل ضرب من البرود وقيل ثوب احمر يجلل بهِ الهودج. والعمقة كل ثوب احمر او المرقط الاحمر. والعياب جمع عيبة الثياب

غ الغلطاق ثوب يُلبس فوق الثياب بلا كمين

ف الفزند ضرب من الثياب . والفضلة ثوب واحد يلبس للخفة في العمل والفوط ثياب تجلب من السند او مآزر مخططة . والفوف نوع من برود اليمن

ق القبا القنباز والقباطي ثياب بيض رقاق من كتان تُنسج بمصر والقِدَم ثوب احمر والقرط ضرب من البرود وقيل ثوب احمر يجلل بهِ الهودج او ضرب من الوشي وهو ما كان نقشهُ طولاً واما ما كان نقشهُ مستديرًا فهو الرقم والقسطلانية ثوب يُنسب غالبًا الى قسطلة بلد بالاندلس والقطر ثوب مخطط مثل البجاد . والقُفَاز شيء يعمل لليدين يُحشى بقطن ويكون لهُ ازرار تُزرُّ على

الساعدين وهما قفازان تلبسهما المرأة للبرد او ضرب من الحلى لليدين والرجلين والقُنُّ والقُنان كم القميص . والقُنبُعَة خرقة تخاط شبيهة بالبرنس يلبسها الصبيان

ك الكرباس ثوب من القطن الابيض وقيل الثوب الخشن والكساء قد مرَّ ذكرهُ وهو ثوبٌ ويسمّى الجوذي ايضاً . والكيفة الكسفة من الثوب والخرقة ترقع ذيل القمص من قدام وما كان من خلف فحِبَقة

ل اللاذة ثوب حرير احمر صيني واللحاف كل ثوب يُلتحف بهِ

م المازي كساء صغير لهُ خطوط وازرار للساقي من الصوف المخطط والمتحمة ضرب من البرود تُنسَج ببلاد العرب والمثافيد بطائن من الثياب مفردها مِثفد . والمِحشأ والمِحشاء كساء غليظ او ابيض صغير يُشتمل بهِ ج محاشي والمجسد من الاكسية ما كان فيهِ خطوط مختلفة والمُجسَّد الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران وقيل غير ذلك والمجنُّ الوشاح ومنهُ قولهم قلَب فلان مِجَنّهُ اي اسقط الحياء وفعل ما شاء والمجول ثوب تلبسهُ الجارية الصغيرة والمرحَّل هو المنقوش بنقوش تشبهُ رحال الابل والمرط قد يكون من خزّ او من صوف وقد تسمّى المُلاَءة مرطاً وهي الازار والمُطير ضرب من البرود . والمقرمة محبس الفراش . والملاء ثوب يلبس على الفخذين كالريطة . والمقدية ثياب من البز والمقطعة والمقطعات برود عليها وشي او شبه الجباب وغيرها من الخزّ وغيره والقصار من الثياب . والمكعب الموشّى من البرود والاثواب والثوب المطوي الشديد الادراج . والمعوز والمعوزة الثوب الخلِق المبتذل سمّي بذلك لانهُ من لباس المعوزين . والميدع والميدعة والميداعة الثوب الخلِق المبتذل ايضاً . والمهاصري بردٌ يمنيّ

ن النزيدية برودٌ فيها خطوط حمر نسبة الى نزيد ابي قبيلة من العرب . والنفاض ازار للصبيان يقال في المثل ما عليهِ نفاضٌ اي ما عليهِ شيءٌ من الثياب . والنِمرَة شملة فيها خطوط بيض وسود او بردة من صوف . والنوفليّة شيءٌ من صوف تختمر عليهِ نساء العرب . والنير علم الثوب

ﻫ الهِدَم الكساء الظاهر الرقاع والهدم الكساء البالي من الصوف والمرقَّع منهُ ايضًا والهدمل الثوب الخَلِق الثقيل والهميان شداد السراويل او تكتة او ما يجعل فيهِ الدراهم ويشدُّ على الحقو

و الوتر نقبة من ادم تقدُّ سيورًا عرض السير منها اربعة اصابع او شبر او سيور عريضة تلبسها الجارية الصغيرة او ثوب كالسراويل لا ساقيَّ لهُ وشبهُ صدارٍ والوِثرُ الثوب الذي تجلَّل بهِ الثياب فيعلوها . والوصائل برود القصب سُميت بذلك لانها كانت توصل بعضها ببعض والوليخ ثوب من كتان

ولما كان من اخلاق العرب الميل الى التفرد والاستقلال كانوا يرغبون ايضًا في الانفراد ببعض الملابس فكان سعيد بن العاص بمكة ويقال لهُ ذو العمامة اذا وضع على راسهِ عمامة لم يعتمّ احدٌ بمثلها ما دامت على راسهِ وكذلك كان الحجاج بن يوسف اذا اعتمَّ بعمامة لم يجترِ احدٌ من خلق الله ان يدخل عليهِ بمثل عمامتهِ وكان عبد الملك بن مروان اذا لبس الخفَّ الاصفر لم يلبس احدٌ مثلهُ حتى ينزعهُ وفي زمن العباسيين كان اللون الاسود من خصائصهم فلذلك لُقبوا بالسود واما اللون الابيض فكان من خصائص الشيعة ولذلك اسباب سوف ياتي ذكرها اما في زماننا هذا فاللون الاخضر من خصائص الاشراف الذين يتصل نسبهم باهل البيت على ما مرّ والاسود من خصائص الرفاعية وهم من اهل الطريق[1] والابيض للعامة

وسئل بعض العرب عن الثياب فقال الصفر اشكل والحمر اجمل والخضر اقبل والسود اهول والبيض افضل وقال ابو عبيدة ان العرب تلحق لون الخضرة بالسواد فتضع احدهما موضع الاخر قال ذو الرمة

قد اطلع النازح المجهود معسفة[2] في ظل اخضر يدعو هامةَ اليومِ

---

(١) يُراد بالطريق السيرة المختصة بالسالكين الى الله تعالى من قطع المنازل والترقي في المقامات وتعرف اصحابهُ باصحاب الطريقة واهل الطريق

(٢) النازح المتبعد عن ديارهِ غيبة بعيدة والمجهود المكلف لاستفراغ الوسع في

يريد بالاخضر الليل فسماهُ بهذا لظلمة سوادهِ وقال آخر

ما ابصرت عيناي احسن منظرًا ... مما ارى من سائر الاشياء
كالشامة الخضراء فوق الوجنة ال ... حمراء تحت المقلة السوداء

وصف الشامة بالخضراء مع انها سوداء اللون ويلقبون ايضًا الابيض بالاحمر فيسمّون الموالي من عجم الفرس والروم الحمر لغلبة البياض على الوانهم وكانت عائشة ام المؤمنين تُسمّى الحميراء لغلبة البياض على لونها ومن امثالهم الحسن احمر

وينعتون الالوان بنعوت المبالغة في وصفها ومن ذلك النضرة لكل لون نحو اخضر ناضر واصفر ناضر واما الناصع فهو الخالص من كل شيء وقيل يختصُّ بالابيض مثل يقق فانهُ يقال ابيض يقق كما يقال احمر قاني واصفر فاقع واسود حالك وفي محيط المحيط احمر او اصفر فاقع اي شديد مشبع اللون وكل ناصع اللون فاقع من بياض وغيرهِ كذا قيل والمشهور انهُ صفة للاصفر يقال اصفر فاقع كما يقال احمر قرّاص واخضر ناضر وابيض يقق واسود حالك

ويعبّرون ايضًا عن العدوّ الشديد العداوة بالازرق وعن الموت بالاحمر وعن نعومة العيش بالاخضر ويستعملونهُ مدحًا ايضًا بمعنى مخصب رحب الجناب وعكسهُ الاغبر وعن الدينار بالاصفر والبوم الشوم بالاسود وعكسهُ بالابيض ومن كلامهم هو ازرق العين يشهدون بهِ على البغض وكذلك قولهم هو اسود الكبد وهم سود الاكباد وصهب السبال

وقد جرت عادة رجال العرب ان تختم بيمينها لكن يستبين ان نقش الاسماء على الخواتم لم يكن مستعملاً في الجاهلية واول من اتخذهُ في الاسلام صاحب الشريعة الاسلامية وذلك لما اراد ان يكتب كتابًا لملك فارس قيل لهُ ان العجم

تحصيل امر مستلزم للكلفة والمشقة والعسف من الاعتساف وهو الميل عن الطريق والعدول عنهُ او اخذ الطريق على غير دراية وهداية

لا يقبلون كتابًا بغير ختم فاتخذهُ من الفضة كتب عليهِ محمد رسول الله ثم امتد ذلك ان الى صار الخاتم للاصبع من علامات الملك وشاراتهِ في الدول العربية بالمغرب قال ابن خلدون انهم كانوا يستجيدون صوغهُ من الذهب ويرصعونهُ بالفصوص من الياقوت والفيروزج ويلبسهُ السلطان شارةً في عرفهم كما كانت البردة والقضيب في الدولة العباسية بالمشرق والمظلة في الدولة العبيدية بالمغرب ايضًا

وكانت الخلفاء من الصحابة تختم باليمين فجعل ذلك معاوية بن ابي سفيان في اليسار واخذ الاموية في ذلك الى ان نقلهُ السفاح العباسي في اليمين فبقي الى ايام الرشيد فنقلهُ الى اليسار واخذ الناس في ذلك

ويرون ان الخواتم اربعة الياقوت للعطش والفيروزج للمال والعقيق للسنَّة والحديد الصيني للحرز وقيل للخوف ومن كلام المتأخرين من تختم بالعقيق وقرأ لابي عمرو بن العلاء وتفقه للشافعي وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل ظرفهُ وابن زريق هو ابو الحسن علي بن زريق البغدادي واما قصيدتهُ فهي التي يقول في مطلعها

لا تعذليهِ فان العذل يولعهُ قد قلت حقًّا ولكن ليس يسمعهُ

ويقال ان ملوك العرب في الجاهلية كانت تلبس تيجانًا واول من تتوّج بالذهب منهم كان حمير بن سبا وكانت الملوك من بعدهِ تضع في تيجانها خرزًا وكان الملك يزيد خرزةً كل سنة في تاجهِ ليعلم سني ملكهِ ويسمونها خرزات الملك واما الخلفاء في الاسلام من بني أُمية وبني العباس فكانوا في احتفالاتهم التشريفية يجلسون في قبة التاج على سدتهم وعلى اكتافهم بردة صاحب الشريعة الاسلامية وعلى رؤُوسهم العامة وبين اياديهم القضيب فكانت العامة لهم موضع التاج واول من اتخذ سرير الملك وجلس فوقهُ كان معاوية بن ابي سفيان وتبعهُ في ذلك الملوك من بعدهِ

وكانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة بالمناطق والسيوف واللجم والسروج ولم يحدث الركوب بحلية الذهب الا المعتز العباسي ثم آل الامر اخيرًا ان جعلوا نعال خيولهم من الفضة والذهب وكانوا قبل ذلك استعملوا الطراز ايضًا وهو اسماء الملوك وعلاماتهم مكتوبة في نسيج اثوابهم الحامًا وسدى بخيط الذهب وما يخالف لون الثياب من الخيوط الملونة قصدًا للتنويه بلابسها اذا كان هو نفس السلطان او غيره ممن يريد السلطان تشريفهُ بملبوسهِ اخذًا عن ملوك العجم الذين كانوا يجعلون صورهم واشكالهم طرازًا لملابسهم وكان لهذه الطرازات معامل مخصوصة تسمّى دور الطراز والقائم على النظر فيها يسمّى صاحب الطراز

وكانوا يفيضون على مَن ارادوا تشريفهُ بولاية السلطنة سبعة خلع ويلبسونهم الطوق والتاج والسوارين ويعقدون لهم اللواء ويقلدونهم بسيفين ويامرون باقامة الخطبة لهم ايضًا والخلع واحدها خلعة وهو الثوب الذي يخلعهُ الخليفة عن جسمهِ ليلبسهُ مَن اراد تشريفهُ بملبوسهِ كما ذكرنا في ما مرّ وقد توسع في ذلك حتى صار ما يهديهِ العامة لبعضهم من الاثواب يسمّى خلعًا ايضًا قال الشاعر

أمبشري بقدوم من احبتهُ ولك البشارة بالمسرّة والهنا
ما كان اسمحني عليك بخلعةٍ لو كان عندي حلةً غير الضنا

وكانت نساء العرب تتزيّن بالخواتم كالرجال ايضًا وربما تختمنَ في اصابعهنّ العشر وتلبسنَ في سواعدهنّ الاساور وقد جاء في المثل ما قالهُ حاتم الطائي وقد لطمتهُ أمة وهو اسيرٌ في غزة لو ذات سوارٍ لطمتني قال الميداني ان المراد بهِ لو لطمتني حرة جعل السوار علامةً للحرية لان العرب قلما تلبّس الاماء السوار فهو يقول لو كانت اللاطمة حرّة لكان اخفّ عليّ وقيل بل قال لو غير ذات سوار لطمتني يعني انهُ لا يقتصُّ من النساء

ويتزيّنّ كذلك بالحجول وتسمّى ايضًا الاحجال والحجول واحدتها حجلٌ وهو

الخلخال حليةٌ من فضة كسوار كبير تلبسها نساء العرب في ارجلهنَّ

والدملج او الدملوج هو المعضد وهو حلية كالسوار تُلبس في العضد او في المعصم ويتقلدون بالعقود في اعناقهنَّ والاقراط في آذانهنَّ ومنهنَّ مَن لها خزام في الانف ويسمون حلي المرأة من الجواهر والحجارة الكريمة البجاذَق وقيل ان البُرَة واحدة البُرّ هي نوع من الحليّ يُلبس في الرجلين وان الحان هو القلادة وقيل هو السوار والحُبلَة حلية تُجعل في القلائد والمحبس حلقة تُلبَس في الاصبع والخَوْق حلقة القرط والشنف كالدملج يُلبس في المعصم والحقاب شيء تعلّق المرأة بهِ الحليّ وتشدُّهُ في وسطها والحربصيصة القطعة من الحليّ واما قولهم ما عليها خضاض فيريدون بهِ الشيء اليسير من الحليّ يُضرَب في نفي الحليّ عن المرأة قال الشاعر

ولو اشرفت من كفة السترِ عاطلاً لقلتُ غزالٌ ما عليهِ خضاضُ

والحَوْط خيط مفتول من لونين اسود واحمر فيهِ خرزات وهلال من فضة تشدُّهُ المرأة في وسطها لئلاَّ تصيبها العين ويُزَيَّنُ بهِ الصبي ولعلهُ ما يسمَّى بالعوذة قال بعض المؤلفين التعاويذ جمع عوذة وهي شكلٌ من فضة يُعمل مستديراً استدارة القمر او بعض الدائرة فارغ على صورة نعل الدابة تُنقش عليهِ كتابةٌ ويُعلَّق في اعناق الاطفال قال عكاشة بن عبد الصمد

وجاءوا اليهِ بالتعاويذ والرقى وصبّوا عليهِ الماء من شدَّة النكسِ
وقالوا بهِ من اعين الجنّ نظرةٌ ولو صدقوا قالوا من اعين الانسِ

وممَّن اشتهر بعمل هذه التعاويذ في الاسلام ابو محمد المبارك بن المبارك بن السراج التعاويذي البغدادي الزاهد المشهور توفي في سنة ٥٥٢ للهجرة (سنة ١١٥٨ م)

ومما يوضعونهُ للتحلي في اعناق الاطفال ايضًا الطوق وربما نذروهُ لجبهة

بزمتي شبَّ الولد وكبر ويرون ان اول مَن وضع الطوق في عنقهِ من الصغار هو عمرو بن عديّ بن نصر حلاهُ بهِ خالهُ جذيمة الابرش اوّل قواد العرب لما ادخلتهُ عليهِ اختهُ رقاش امُّ عمرو المذكور ثم لما كبر الغلام أُدخِل على خالهِ مرّة اخرى بعد غيبةٍ طويلة اختطفتهُ بهـا الجنُّ فلما رآهُ خالهُ فرح بهِ وقال شبَّ عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً

وما يتحلَّى بهِ الصبيان ايضًا السخاب وهو قلادة من سُكٍّ وقرنفل ومحلب ليس فيها لؤلؤ ولاجوهر قال المتنبي

عفا عنهمُ واطلقهم صغارًا وفي اعناق اكثرهم سخابُ

ومن عادة النساء ان يخضبنَ اظافر اليدين بالحنا بخلاف اليدين والرجلين فان خضابهنَّ يكون بلون اسمر مصفرّ وان يكتحلنَ بالاثمد ويقال ان اول مَن اكتحلت بهِ من العرب زرقاء اليمامة وهي امرأة من جديس يزعمون انهـا كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة ايام واسمها عنز وفيها يقول المتنبي

وأبصرُ من زرقاء جوٍّ لانني متى نظرَت عيناي ساواهما علمي[(١)]

والزرقاء اسمٌ لثلاث من نساء العرب احداهنَّ هذه التي نحن بصددها ويضرَب المثل بجدّة نظرها فيقال أبصرُ من الزرقاء كما يقولون ايضًا أبصرُ من عقاب ملاع والملاع الصحراء وأبصرُ من غراب وأبصرُ من الوطواط بالليل

---

(١) يريد بفضل نظرهِ على نظر الزرقاء المذكورة ولكونهِ متى وقع نظرهُ على الشيء ادرك حقيقتهُ حالاً خلافًا لهذه المرأة التي مع كونها رأت رجال حسان بن تبع الحميري وهم حاملون اشجارًا ليخدعوها بها كيلا تراهم فتنذر قومها لم تدرك الحقيقة كما هي بل ارتابت في الامر وقالت

اقسمُ باللّه لقد دبَّ الشجر او حميرٌ قد اخذت شيئًا يجر

ولذلك لم يصدقها قومها فنفذت فيهم حيلة حسان الى ان فتك بهم فتكًا ذريعًا والقصة معروفة

وأبصرُ من كلب . والثانية الزباء ملكة الجزيرة واسمها هند . والثالثة البسوس بنت منقذ التميمية التي تُنسب اليها الحرب الشهيرة بحرب البسوس ويضرَب بها المثل في الشؤم فيقال أشأم من ناقة البسوس

ومن عادة نساء العرب ايضًا ان يذرّرنَ هذا الاثمد على شفاههنّ واللثات وهي مغارز الاسنان ليشتدّ لمعان اسنانهنّ وبهِ يحصل لهنّ الوشم الذي يختصصنَ بهِ وهو تخطيط البشرة بصور حيوانات وازهار ونجوم وقد جاء تحريمهُ في الاسلام

ومن عادتهنّ اجمار الشعر وترجيلهُ يقال جمرت المرأة شعرها اذا جمعتهُ وعقدتهُ في قفاها والجمير المظلم والترجيل تسريح الشعر والمرجل والمسرح المشط اما الغدائر فهنّ جمع الغديرة وهي الخصلة من الشعر والعقيصة الخصلة المجموعة منهُ والذوائب السوالف وتقضيب الشعر تجعيدهُ والسعفات الشعر في اعلى الراس والغُسَن شعر الناصية والمُسربة شعر الصدر والعانة شعر العورة والعِفرية شعر قفا الانسان واللمّة ما ألمّ بالمنكب والمسائح الشعر ما بين الاذن الى الحاجب والوفرة ما بلغ شحمة اذن الانسان والطرّة ما غشي الجبهة والجُمّة ما غطّى الراس والهدُب شعر اشفار العين والعُنفُقة شعر الشفة السفلى والشارب شعر الشفة العليا والحارُّ شعر المخرين والعقيقة شعر كل مولود من الناس والبهائم وصوف الجذع وفي حديثٍ قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة لانهم كانوا يطيّرون بهذه الكلمة والشعر للانسان وغيرهِ والمِزعرّاء للمعز والوبَر للابل والصوف للغنم والعِفاء للحمير والريش للطير والزغب للفرخ والزِفُّ للنعام والهُلب للخنزير والحرشف للسمك

ومن اوصاف الشعر اذا كان كثيرًا فهو جُفال واذا كان متصلاً اسود فهو وحَف واذا كان كثيرًا فهو كثٌّ او كان كثيرًا في البدن فهو زبب ومنهُ قولهم رجلٌ أزبّ وامرأة زبّاء واذا كان منبسطًا فهو سبط واذا كان عكس ذلك فهو جَعدٌ واذا كان بينَ بين فهو رَجِلٌ واذا كان ناعمًا طويلاً فهو مُغدَودِن

واذا كان الرأس ليس بهِ شعر فهو اصلع واذا كان الحاجب ليس بهِ شعر فهو أمرط او كان الجفن فهو أمعط او كان الخدّ فهو أمرد او كان البدن فهو أملط

وللنساء الحضريات تفنن في اصلاح وجوههنّ وتزيينها ومن ذلك الحفّ والحفاف يقال حفّت المرأة وجهها ازالت ما عليهِ من الشعر تحسيناً والتزجيج يقال زججت المرأة حاجبها دققتهُ وطولتهُ الى ذنابي عينيها والصبغ هو تلوين الوجه بالطلي الابيض والاحمر الى غير ذلك مما لا يشتركنَ معهنّ فيهِ النساء البدويات اصلاً قال المتنبي

حسن الحضارةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وفي البداوةِ حسنٌ غير مجلوبِ

واما التطيب بانواع الاطياب فهو من عادة النساء البدويات في الجاهلية فانهنّ كنّ يتطيّبنَ ولكل واحدةٍ منهنّ قشوة طيب والقشوة هي قفة من خوص تجمع المرأة فيها اداتها وقيل هي اصدافٌ للطيب مخصوصة بالمرأة لا تفارقها فاذا رحلت من مكان الى آخر تكون بين اياديها وجاء في المثل لا عطر بعد عروس يُضرب في ذمّ ادخار الشيء وقت الحاجة قالتهُ امرأة من بني عذرة يقال لها اسما بنت عبد الله مات زوجها وكان ابن عمها واسمهُ عروس فتزوجها آخر وكان ابخر بخيلاً ذميًا واراد ان يظعن بها فقال لها ضمّي اليكِ عطركِ فقالت لا عطرَ بعدَ عروس فذهبت مثلاً

وهكذا التطيب عند الحضريات ورجالهنّ ايضاً وخاصةً بعد الاسلام هو من احسن ما تصبو اليهِ نفوسهم فكانت الرجال والنساء جميعاً يتطيبون بالمسك والطيب المصنوع من المسك والعنبر . حكي عن ابن عباس انهُ كان يضع الغالية على صدغهِ حتى يظن الناس انها لزقة وكانت العامة تطيب لحاها وتطلي اجسادها بالاطياب فكانت تمتلئُ ازقة المدينة من روائح الطيب ولذلك سمّيت طيبة

والغالية المذكورة هنا هي اخلاطٌ من الطيب قبل ان اول مَن سماها بهذا الاسم سليمان بن عبد الملك الاموي وهناك نوعٌ آخر يعرَف بالندّ يصنعونهُ من العود والعنبر واللبان ويسمّونهُ مثلثًا لاتخاذهِ من ثلاثة انواع من الطيب . وفي درّة الغواص الصواب فيهِ مثلوث واما الكافور فاكثر ما يطيّبون بهِ الآن اجساد الموتى والأفاويه هي كل ما يعالجون بهِ الطيب ويوجد نوع من العطر يسمّونهُ الناردين يؤْخذ من شجر يسمّى بهذا الاسم فنُسب اليهِ وفي محيط المحيط النّرْدين والناردين هو السنبل الرومي معرّب نَرْدُس باليونانية

الفصل الثالث

في انواع المآكل وآداب الطعام عند العرب

قال بعض المؤلفين انهُ نظرًا الى محولة بلاد العرب جرت عادتهم بالقناعة في المآكل فان رعاعهم لا ياكلون الاّ مرةً واحدةً من خبزٍ رديءٍ مصطنع من الذرة ويأْتدمون باللبن ونحوهِ وينال اكثرهم اللحوم. قال ابن خلدون لم تكن امة من الامم اسغب[1] عيشًا من مُضَر لما كانوا بالحجاز فكانوا كثيرًا ما ياكلون العقارب والخنافس ويفخرون باكل العِلْهِز وهو وبر الابل يموهونهُ بالحجارة في الدم ويطبخونهُ وهكذا كانت حالة قريش وبالاجمال يقال ان اصول اغذية عامة العرب واقواتهم تتحصّل من ثلاثة انواع وهي الالبان واللحوم وبعض الحبوب

(١) السغب الجوع مع التعب

اما الالبان فهي انواع منها الصريف اي اللبن ساعة يُحلب والزبد وهو ما يُستخرَج من لبن البقر والغنم والجباب وهو ما يستخرج من لبن الابل ولما كانت هي الاصل المعوّل عليهِ في الغذاء العام عند العرب كانوا يعبّرون عن اللبن بانهُ احد اللحمين يقولون اطعمها اللحم اسقِها اللبن وجعلوا لهُ في كل ظرف من ظروف استعمالهِ اسمًا يعرّفونهُ بهِ

ومن تلك الاسماء القيل وهو اللبن يشرَب في القايلة يعني نصف النهار والفيقة بالكسر اللبن يجُمع في ضرع الناقة بين الحلبتين ومنهُ قولهم في المثل مهلاً فواق ناقةٍ اي امهلني قدر ما يجُمع اللبن في ضرع الناقة بين الحلبتين والمظلوم والظليم اللبن الذي يحُقن يعني الذي يجمع في السقاء[1] ويُصبُّ حليبهُ على رائبهِ ثم يشرَب قبل ان يروب والجرعكوك والجرعكيك والجَلْعَطيط والجُلَعطوط اللبن الرائب الثخين والهديد اللبن الخاثر جدًّا والضيح والضياح اللبن الخاثر رُقِّق بالماء يُصبُّ عليهِ وهو اسرع اللبن ريًا والاحلابة وهو ان يحلب الرجل ويبعث الى اهلهِ من المراعي فان النساء لا يحلبنَ بالبادية لانهُ عارٌ عندهنَّ والخبيط لبن رائب ومخيض يُصبُّ عليهِ حليب والدخيس لبن الضأن يحلب عليهِ لبن المعز والنفش القليل من اللبن والمذقة اللبن يخلط بالماء ويُسمَّى بالسمار ايضًا والرثيئة اللبن الحامض يخلط بحلو والصرام آخر اللبن بعد التغريز يعني ان تدع حلبةً بين حلبتين اذا احتاج اليهِ صاحبهُ حلبهُ ضرورةً والشخب هو ما امتدَّ من اللبن اذا خرج من الضرع والارتجان اختلاط الزبدة باللبن والوالج اللبن يُرِدُ في الضرع بان يُرش الماء على الضرع ليرتفع اللبن فتسمن الناقة والغبر بقية اللبن والرمث بقية قليلة من اللبن تبقى في الضرع والثجيجة زبدة اللبن تلصق في اليد وفي السقاء والقارص اللبن يحذي اللسان والحاذر اللبن الحامض جدًّا وسواية الرضف اللبن يُغلى بالرضفة فيبقى منهُ شيءٌ يسير قد انشوى على الرضفة

---

(١) السقاء هو القربة وتعرف بالظرف ايضًا

واما اللحوم فيسمّون المشاوي منها الحنائذ قال الحريري في مقامته الاولى المعروفة بالصنعانية فوجدتهُ محاذيًا لتلميذ على خبزٍ سميذ وجدي حنيذ اي مشوي ويسمّون ما يجزر من الابل من النهب قبل القَسْم النقيعة وشرُّ الاطعمة من اللحوم عندهم القديد ولذلك يقولون في امثالهم لمن يظهر السخاء ولا يرى منهُ الاَّ قليل خيرٍ شريفٌ قوم يطعمُ القديدَ بل كانوا اذا لم يجدوا علفًا لخيولهم دقوا اللحم اليابس واطعموها اياهُ قال النمر بن تولب لصاحب الشريعة الاسلامية

انَّا اتيناك وقد طال السَفَرْ اقود خيلاً رجعًا فيها ضرر
اطعمُها اللحمَ اذا عزَّ الشجر

وكانوا يرون بان اطيب اللحم الكتف ويتباهون بمعرفة اكلها ويضربون بذلك المثل فيقولون للداهي الذي يأتي الامور من مأتاها انهُ ليعلم من اين تؤكل الكتف . لانهم يزعمون بان اكلها أعسر من غيرها ويرون بانهُ يجب ان يكون اكلها من اسفلها لانهُ يسهل انحدار لحمها واما من اعلاها فيكون متعقدًا ملتويًا وبعضهم يقول ان المرقة تجري بين لحم الكتف والعظم فاذا أُخذت من اسفلها انقشرت من عظمها وبقيت المرقة مكانها ثابتة ويقولون للضعيف الراي انهُ لا يحسن اكل الكتف قال الاصمعي

اني على ما ترين من كبري اعلمُ من حيث تؤكل الكتفُ

وفي قبائل قضاعة قبيلة يقال لها بَلِي اهلها لا ياكلون الالية لانها من الجواعر ولانها طبق الاست

ويقولون في امثالهم لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع يستبين من ذلك انهم لا يشركون عبيدهم معهم في اكل اطائب اللحوم كما ان افتخارهم بمعرفة صيغة اكل الكتف يدل على انهم كانوا ياكلونها نهشًا

وانضاج الطعام عند العرب يشتمل على طبخ اللحم وشيهِ وهو على انواع منها

الصفيف وهو المصفوف على الحجارة لينضج والقدير وهو المطبوخ في القِدْر والمراجل التي يوضعونها على الاثافي واما ان كان ما يضعونها عليهِ من الحديد فيسمى منصبًا ولا يسمى اثفية وكانوا اذا اعوزهم قِدْرٌ يطبخون فيها عملوا شيئًا كهيئة القِدْر من الجلود وجعلوا فيها الماء واللبن وما ارادوا من ودك ثم القوا فيها الرضف لتنضج ما في ذلك الوعاء ويراد بالرضف حجارة محماة بالنار والودك الدسم من اللحم والشحم وهو ما يتحلّب من ذلك كما ان الدسم يكون من كل ذي دهنٍ . واما التوابل فهي ما تعالج بهِ الاطعمة فيطيب الغذاء والبزرُ ايضًا التابل جمعهُ ابزار وابازير وقيل الأبزار تُستعمل في الاشياء الرطبة والتوابل في اليابسة

واما الاطعمة من اللحم واللبن والخبز فيسمّونها الثرائد ويقولون ان اوّل من ثرد الثريد وهشمهُ من العرب هو هاشم جدُّ صاحب الشريعة الاسلامية واطعمهُ الى الحجاج ولذلك سمّي هاشمًا

ومن انواع الاطعمة الرغيدة وهي طعامٌ من اللبن الحليب يُغلى ويُذَرّ عليهِ الدقيق

والرهيدة هي حنطةٌ تُدقُّ ويُصبُّ عليها اللبن

والهيدة هي العصيدة الرخوة

والنهيدة هي حب الحنظل المحلّى يُطبخ ويضاف اليهِ شيءٌ من الدقيق

والبكيلة هي أَقط(1) يُلتُّ بسمن وقيل هي الاقط المطحون تبكلهُ بالماء فتثريهُ كانك تريد ان تعجنهُ

والبكالة الدقيق بالربّ(2) او بالسمن او بالتمر او بالسويق وهو الناعم من دقيق الحنطة يبلُّ بلاًّ او سويق بتمر ولبن او دقيق يخلط بسويق ويبلُّ بماء وسمن او زيت او الاقط الجاف يخلط بهِ الرطب او طحين وتمر يخلطان بزيت

(1) الاقط الجبن المتخذ من اللبن الحامض

(2) الرب هو سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها وثفل السمن

والربيكة شيءٌ من حسا واقط والحسا دقيق يطبخ بالماء والسمن
والوضيعة طعامٌ من السويق والعسل
والحريقة والحروقة طعامٌ اغلظ من الحسا
والسهيكة طعامٌ رديءٌ يستعملونهُ في المجاعة
والوديكة طعامٌ من الدقيق والشحم
والوزيمة طعام من لحم الضباب
والحريرة دقيق يطبخ باللبن
والخزيرة ويقال الخُزْرُفة طعام يطبخ باللحم والدقيق
والمضيرة طعام يطبخ باللبن الحامض
والعبيثة طعام يجعل فيهِ الجراد
والثميغة ما رقَّ من الطعام واختلط بالودك
والثوينات دقيق يفرش تحت الفرزدق(١) اذ طُلِمَ
والجيز الخبز الفطير واليابس
والجوذابة ملةٌ تخبز في التنور معلقًا فوقها طائرٌ او لحمٌ فيقطر ودكهُ عليها فتفرج عنك همَّ الادام
والوجيئة تمر او جراد يدقّ ويلتُّ بسمن او زيت
والوهيسة جراد يطبخ ويجفَّف ويدق ويخلط بدسم
والبَريقة لبن يُصبُّ عليهِ اهالة(٢) او سمن قليل
والبريك الرطب يؤكل بالزبد
والبروك الخبيص تعملهُ العرب من التمر والسمن
والبسيسة سويق او دقيق او اقط مطحون يلتّ بالسمن والزيت

---

(١) الفرزدق القطعة من العجين التي تبسط فيخبز منها الرغيف او الرغيف الضخم الذي تجمعهُ النساء للفتوت

(٢) الاهالة الشحم او ما أذيب منهُ او الزيت وكل ما اؤتُدِمَ بهِ

والحجيبة كرش البعير المحشو

والجشيش السويق وحنطة تطحن قليلاً وتجعل في قِدر ويُلقى عليها لحمٌ او تمر

والخبيص نوع من الحلوى تعملهُ العرب من التمر والسمن

والجبجرة ما يتخذ من العجين كالتماثيل فيجعلونهُ في الربّ اذا طبخوهُ

والحليجة طعام يُصطنع من الحليب والسمن يخلطان معًا

والحَيس تمر يخلط بسمن او اقط فيُعجن ويدلك شديدًا حتى يمتزج ثم يُندَر منهُ نواهُ وربما جُعل فيهِ سويق

والدوابة جُلَيدةٌ تعلو الهريسة واللبن ونحوهُ اذا ضربتهُ الريح

والهريسة الحب المدقوق بالمهراس فيطبخ

والزُرَيقاء الثريدة بلبن وزيت

والقابجة طعام جاهليّ يخاض الوبر باللبن فيجدح[1]

والرصيعة البرّ[2] يدق بالفِهر[3] ويبلّ ويطبخ بالسمن

والفيجاء طعام من الحسا والتوابل

والمجع اللبن يُنقع فيهِ التمر

والنجيرة حساء من دقيق يجعل عليهِ سمن

والوليقة طعام يُتخذ من دقيق ولبن وسمن

والسخينة طعام ارق من العصيدة وبها كانت تُعيَّر قريش لانها كانت مولعةً باكلها كما كانت تُعيَّر تميم بشدة الحرص على الاكل قبل انهم كانوا يلفّون الوطب وهو سقاء اللبن في البجاد وهي احسن ثياب العرب . يحكى ان معاوية ابن ابي سفيان اول الخلفاء الامويين وهو كما لا تخفى من بني قريش المذكورة

(١) الجدح اللت والخلط (٢) البرّ جمع برّة من القمح

(٣) الفهر الحجر قدر ما يدق بهِ الجوز او يملأُ الكف ويستعمل عند الاطباء لحجر الرقيق الذي تسحق بهِ الادوية على الصلابة

مازح الأحنف بن قيس وكان تميميًّا فقال لهُ ما الشيء الملفف في البجاد يريد قول الشاعر

اذا ما مات ميتٌ في تميمٍ وسرّك ان يعيش فجئْ بزادِ
بلحمٍ او بخبزٍ او بتمرٍ او الشيء الملفف في البجادِ

فاجابهُ الأحنف هو السخينة يا امير المؤمنين فافحمهُ وكان قصد معاوية ما يُعاب بهِ بنو تميم فاجابهُ الاحنف بما يُعاب بهِ القريشيون

وكانوا يسمّون المرقة المسخّنة بنت نارين والخبز ابن حبّة قال الشاعر

في حبّة القلب مني زرعتُ حُبَّ ابن حبّهْ

ويسمّون الشحم ملحًا لبياضهِ ويقولون املحتِ القِدرَ اذا جعلت النساء فيها شيئًا من شحمٍ وعليهِ فسّر ابن فارس قول مسكين الدارمي في امرأتهِ

لا تلُمها انها من نسوةٍ ملحُها موضوعةٌ فوق الركب

يعني ان همّها السمن والشحم وشطر البيت الثاني مأخوذ من قولهم في المثل ملحهُ على ركبتهِ قال الميداني ان هذا المثل يضرَب للذي يغضب من كل شيء سريعًا ويكون سيّئ الخلق ادنى شيء يبدّدهُ اي ينفرهُ كما ان الملح اذا كان على الركبة ادنى شيء يبددهُ ويفرقهُ ويقال هنا اللبن والملح والرضاع اي لا يلاحظ حرمةً ولا يراعي حقًّا

ومن الكنى الموضوعة للاطعمة ما ذكرهُ الحريري في مقامتهِ النصيبية وهو ان ابا مالك وابا عمرة كنية الجوع وابا جامع الخوان وهو المائدة وابا نعيم الخبز الحواري وابا حبيب الجدي وابا ثقيف الخلّ وابا عون الملح وابا جميل البقل وام القرى السكباج وام جابر الهريسة وام الفرج الجوذابة وابا رزين الخبيص وابا العلا الفالوذج وابا اياس الغسول والمرجان الطشت والابريق وابا السرور البخور وفي بعض المؤلفات ابو الخصيب اللحم وابو الغياث وابو الحيان

المائدة وابو المسافر الجبن وابو نافع الخلّ وابو جابر الخبز وابو عاصم السكباج

ومن المعلوم ان هذه الكنى هي من بدع المولدين لان العرب في الجاهلية لا تعرف اكثر هذه الالوان وانما كان طعامهم من اللحم يطبخ بالماء والملح او غير ذلك مما سبقت الاشارة اليهِ قال ابن خلدون ان في زمن الصحابة لم تكن للعرب مناخل فكانوا يأكلون الحنطة بنخالها ولما ملكوا فارس والروم قدّم لهم المرقق فكانوا يحسبونهُ رقاعًا اي ما يُكتب عليهِ وعثروا في خزائن كسرى على الكافور فاستعملوهُ في عجينهم ملحًا ولم يأخذوا في التأنق في الاطعمة واختراع الالوان الّا منذ زمن معاوية لانهُ كان آكولاً وبهِ يُضرَب المثل في ذلك فيقال آكلُ من معاوية قال الشاعر

وصاحبٌ لي بطنهُ كالهاويه كأنَّ في امعائهِ معاويه

وقال آخر

ومعدةٌ هاضمةٌ للصخرِ كأنما في جوفها ابن صخرِ

وصخر المذكور في آخر الشطر الاخير هو ابو سفيان والد معاوية المشار اليهِ

ومن امثالهم ايضًا آكلُ من حوت ومن السوس ومن ضرس ومن الفيل ومن النار

وكانوا يضربون المثل في الجاهلية بلقمان العادي زعموا انهُ كان يتغذى بجزور ويتعشى بجزور قال بعض المؤلفين ان هذا من اكاذيب العرب لان ذلك سنّةٌ لهذه الطائفة لا ينكرهُ بعضها على بعضٍ وامثال ذلك كثيرة

واكثر اسماء الاطعمة التي استعملتها العرب منذ ظهور الاسلام حتى الآن ماخوذٌ من لغتي الفرس والترك كالسكباج الذي مرّ ذكرهُ فانهُ نوع من اطعمة الفرس معرّب سِكبا ومعناهُ طعام بخلٍّ وقد بالغ العرب في مدحهِ مع انهُ لم يكن مجهزًا الّا من مرق اللحم والخل وربما جُعل فيهِ زعفران وكانوا يسمونهُ سيد المرق

وشيخ الاطعمة وزين الموائد وكان عبد الله بن طاهر يقول لو خيّرت لونًا من الطعام لا ازيد عليهِ لاخترت الدّراجة[١] لاني ان زدت في خلّها صارت سكباجة وان في زدت ماءها صارت اسفيدباجة[٢] وان زدت في تصبيرها بل في تشيبطها صارت مطجّنة

وكذلك الفالوذج هو نوع من الحلوى تسميهِ العامة بالوظة يقال ان اول من استعملهُ من العرب كان عبد الله بن جدعان الذي اشترى النابغة بنت حرملة بن غزّة ام عمرو بن العاص من العرب في سوق عكاظ ووهبها للعاص ابن وائل ابي عمرو المذكور قال الاصبهاني ان عبد الله هذا كان وفد على كسرى فاكل عندهُ الفالوذ فسأل عنهُ فقيل هذا فالوذ قال وما الفالوذ قالوا لباب البرّ[٣] يُلبَك مع عسل النحل قال ابغوني غلامًا يصنعهُ فاتوهُ بغلامٍ فابتاعهُ ثم قدم بهِ مكة فكان يصنع لهُ الفالوذ

واللوزينج معرّب لوزينه وهو نوع من الحلوى ايضًا يُحشى باللوز والسكر وقيل شبه القطائف يؤتدمُ بدهن اللوز

والجُوزاب معرّب كوزاب يتخذ من سكر ورز وجوز ولحم

وغير ذلك من الاطعمة الشائعة الآن كالكباب والكوفة والششبرك والرشته والخنة والقبلة والجاورما والبيرق والقيما وهكذا كل طعامٍ دلّنا اسمهُ الاعجمي انهُ ليس من صنع العرب بخلاف المهلبية فانها من صنع الوزير المهلبيّ والرشيدية طعامٌ من الحلويات كالمهلبية منسوبٌ الى هرون الرشيد والمأمونية لابنهِ المأمون والمتوكلية للمتوكل العباسيّ والقدور الابرهيمية لابرهيم بن العباس الصوليّ واما اصابع زينب فقد ذكروا انها من صنع اهل بغداد

ثم لما ظهر ذوو البراعة من العرب في زمن الخلفاء العباسيين المشار اليهم

---

(١) الدراجة مؤنث الدراج وهو طائر جميل المنظر ملون الريش قيل ان لحمهُ يزيد في الدماغ والفطنة

(٢) لعلهُ من سفيد الفم نطهُ في السفود للاستواء (٣) لباب البرّ النشاء

بحث البعض منهم في فنّ الاطعمة وألّفوا فيهِ كتباً ومنهم ابو الحسن بن يحيى بن ابي منصور المنجم الذي كان نديم الخليفة المتوكل ومن خواصهِ وجلسائهِ وكان قبل ذلك متصلاً بالفتح بن خاقان وكان حاذقاً ايضاً في صناعة الغناء ولهُ عدة مؤلفات منها كتاب الشعراء القدماء والاسلاميين وكتاب في اخبار اسحاق بن ابرهيم الموصلي وكان أخذ الغناء عنهُ وغير ذلك أ لّف كتاباً في الطبخ توفي بسرّمن رأى سنة ٢٧٥ للهجرة (سنة ٨٨٩ م) ومنهم الامير المختار عزّ المُلك صاحب التاريخ المشهور في مصر المعروف بالمسبحي ألّف كتاباً في الطعام والادام توفي في سنة ٤٣٠ للهجرة (سنة ١٠٣٩ م)

وكانت العرب تولم الولائم وتسمّيها باسماء متنوعة بحسب ظروفها ودواعيها من ذلك الخُرس للنفساء ومنهُ المثل تخرّسي يا نفس لا مُخرّسة لكِ قالتهُ امرأة ولدت ولم يكن لها مَن يهتمّ بامرها يضرَب في قيام المرء بحاجة نفسهِ اذا لم يكن لهُ من يقوم بها . والعقيقة للطفل والإعذار للختان والملاك للخطبة والوليمة للعرس والوضيمة للميت والوكيرة للبناء والعقيرة لهلال رجب والتحفة للزائر وشُندُخ للضال اذا وُجِد والنقيعة للقادم من سفر والقرى للضيف والمأدبة هي التي تعمل حيثما لم يكن هناك سبب يوجب عملها والجَفَلَى او الحَفَلَى هي الضيافة العامة والنقرى الضيافة الخاصة للافراد والحِذاق لحافظ القرآن في الاسلام

ويقولون اوّل من سنّ القرى هو ابرهيم الخليل واول من افطر جيرانهُ على طعامهِ في الاسلام هو عبد الله بن عباس الذي كان اوّل من وضع موائدهُ على الطريق ايضاً

ويسمّون الاكلة الواحدة البَزْمَة وهي وزن ثلاثين درهماً والقليل من الطعام البَسِيْس وما بقي على المائدة الخُشار وما بقي عليها مما لا خير فيهِ الخُشار وما فضل من الطعام او الادام في الاناء اوخاص بالقصعة الثُرْتُم قال الشاعر

لا تحسبنّ طعام قيسٍ بالقنا وخِرابهم بالبيض حشوَ الثُرْتُمِ

واما السُلفَة واللُهنَة فهما طعام المعلل قبل الغذاء والعجالة طعام المستعجل قبل اوان الغذاء والسحور طعام الفجر والفطور طعام الصبح والغداء طعام الظهر والعشاء طعام المساء والزاد طعام السفر والجائزة ما يُعطى للضيف بعد اكرامهِ ثلاثة ايام فيجوز بهِ مسافة يوم وليلة ومنهُ الحديث الضيافة ثلاثة وجائزتهُ يومٌ وليلة

وكانت اواني الاطعمة عند العرب في الجاهلية تسمّى الدسيعة والجفنة والقصعة والصحفة والمبكلة والفيخة . فالفيخة تكفي رجلاً واحدًا والدسيعة وهي اعظم هذه الآنية كانت تكفي عشرة وما بينهما لما بينهما وفي محيط المحيط الجفنة القصعة قالوا اعظم القصاع الجفنة ثم القصعة تشبع العشرة ثم الصحفة تشبع الخمسة ثم المبكلة تشبع الرجلين والثلاثة ثم الصُحيفة تشبع الرجل

اما اواني الشرب فمنها التبن وهو اعظم الاقداح يكاد يروي العشرين ثم الصحن مقارب لهُ ثم العسُّ يروي الثلاثة والاربعة ثم القدح يروي الرجلين ثم القعب يروي الرجل ثم الغمر

وكانوا ياكلون على الخوان وهي المائدة قبل ان يوضع عليها الطعام ثم أُستعمل لها مطلقًا وخدام المائدة يسمّونهم النُدُل ويسمّون الطباخ الطاهي من الطهو وهو الانضاج ومن ياكل كل يوم صنفًا من الطعام الرزام ومَن يسيء الادب في الاكل الناعط والذي قد شبع حتى بُشِم السنق ومن يضع شماله على شيء يكون على الخوان كي لا يتناولهُ غيرهُ جردبان وهو فارسيٌّ معرّب اصلهُ كرده بان اي حافظ الرغيف ومنهُ جردَب في الطعام وجردَم قال الفرّاء

اذا ما كنت في قومٍ شهاوى فلا تجعل شمالك جردبانا

والجيء الدعاء الى الطعام والشراب قال الشاعر

وما كان على الجيء ولا الهيء امتداحيكا

قال ابو عمرو الهيء الطعام والجيء الشراب ويسمّون الاكل بمقدم السنان

القضم والمتطفل على الطعام الوارش والمتطفل على الشراب الواغل والحُضُر الذي يتحين طعام الناس حتى يحضرهُ والحُضُر الواغل اي الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم والجرّاف الاكول جدًّا والمُلَّع الذي يجوع سريعًا واما قول المولدين طفيليّ ومتطفلٌ فهو نسبٌ الى طفيل بن زلال الدارمي رجل من الكوفة كان يأتي الولائم من غير ان يُدعى اليها فقيل لهُ طفيل الاعراس وضُرِب بهِ المثل في ذلك قال بعض الطفيليين

نحن قومٌ اذا دُعينا اجبنا ومتى نُسينا يدعُنا التطفيلُ
ونقل علّنا دُعينا فغبنـا واتانا فلم يجدنا الرسولُ

وقد عدَّ المولدون عيوبًا كثيرة في قبح المواكلة وضعوا لكل منها اسمًا ومنها المتشاوف وهو الذي يستحكم رجوعهُ قبل فراغ الطعام ولا تراهُ الّا متطالعًا لناحية الباب يظن ان كل ما دخل هو الطعام

والعدّاد هو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعدُّ على اصابعهِ ويشير اليها وينسى نفسهُ

والجرّاف هو الذي يجعل اللُقم في جانب الزبدية ويجرف منهُ الى الجانب الآخر

والرشّاف وهو الذي يجعل اللقمة في فيهِ ويرتشفها فيسمع لها حين البلع صوت لا يخفى على جلسائهِ وهو يلتذُّ بذلك

والنفّاض وهو الذي يجعل اللقمة في فيهِ وينفض اصابعهُ في الزبدية

والقرّاض وهو الذي يقرض اللقمة باطراف اسنانهِ حتى يهذبها ويضعها بعد ذلك في الطعام

والبهّات وهو الذي يبهت في وجوه الآكلين حتى يبهتهم وياخذ اللحم من بين اياديهم

واللثّات وهو الذي يلثُّ اللقمة باطراف اصابعهِ قبل وضعها في الطعام

والعوّام وهو الذي يجعل ذراعيهِ يمنةً ويسرى لاخذ الزبادي

والقسّام وهو الذي ياكل نصف اللقمة ويعيد باقيها الى الطعام من فيهِ

والمخلّل وهو الذي يخلّل اسنانهُ باظفارهِ

والمزبد وهو الذي يحمل معهُ الطعام

والمرنخ وهو الذي يرنخ اللقمة في الامراق فلا يبلع الاولى حتى تلين الثانية

والمفتّش وهو الذي يفتّش على اللحم باصابعهِ

والمرشّش وهو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرةٍ فيرشّ على مواكليهِ

والمنشّف وهو الذي ينشّف يديهِ من الدهن باللقم ثم ياكلها

والملبّب وهو الذي يملأُ الطعام لبابًا

والصبّاغ وهو الذي ينقل الطعام من زبدية الى زبدية أُخرى ليبرّدهُ

والنفّاخ وهو الذي ينفخ في الطعام

والحامي وهو الذي يجعل اللحم بين يديهِ فيحميهِ عن مواكليهِ

والمجنّح وهو الذي يزاحم مواكليهِ بجناحيهِ حتى يفسح لهُ مَن في المجلس فلا يشق عليهِ الاكل

والشطرنجي وهو الذي يرفع زبدية ويضع اخرى مكانها

والمهندس وهو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا وهذه هنا حتى يضع قدامهُ ما يحب

والمتمني وهو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام ان كان بقي عندك في القدور شيءٌ فاطعم الناس فان فيهم مَن لم ياكل

ومع ان غسل الايادي قبل الطعام هو سنّة في الاسلام قد يستبين بان العرب ليس في الجاهلية فقط بل في صدر الاسلام ايضًا لم يعتبروا كما يجب غسل الايادي بعد الطعام فكانوا يمسحون عنها الزفر اما بالاثواب او بشيءٍ آخر كالتراب ونحوهِ والاصل في التطهير عندهم هو الماءُ فقط واما الصابون الذي من شأنهِ قلع اثر المادة الدهنية وغيرها فلا يعوّل عليهِ في النظافة الاّ قليلاً

وكانت الاطعمة الحارّة كاللحوم والدجاج تلجئهم بان يقبضوا عليها لاجل الفسخ وقت الاكل بمناديل ونحوها لوقاية اياديهم من حرارتها . حكى الاصمعي ان سليمان بن عبد الملك احد الخلفاء الامويين كان شرهًا نهمًا وكان من شرهِهِ اذا أُتي بالسفود وعليهِ الدجاج السمين المشوي لا يصبر الى ان يؤتى بمنديل او يبرد فكان يأخذ بكمهِ فياكل واحدةً حتى يأتي عليها وان الخليفة هرون الرشيد ظن ما كان يراهُ من آثار الدهن على جباب سليمان المذكور طيبًا انتهى . لكن لم تطل المدة بعد الاسلام حتى صار الغسل عند الحضر قبل الطعام وبعدهُ من الضروريات التي لا بدَّ منها وقد اعابوا بعض الاضياف الذين يلذُّ لهم الحديث وقت غسل اياديهم فيبقى الغلام واقفًا والابريق في يدهِ والناس ينتظرونهُ

ونهى الاسلام عن الاكل في السوق لانهُ دناءة وعن الاكل والشرب في حالة الوقوف وعن النفخ في الطعام والشراب وان لا يوكل الطعام حارًّا واثابوا من ياكل من سقط المائدة ونهوا عن ان يتبع الرجل بصرهُ لقمة اخيهِ وعن الاكثار من الاكل فان كثرة الطعام تميت القلوب واوجبوا الاكل والشرب باليد اليمنى وضمَّ الشفتين عند الاكل وان لا يلتفت يمينًا ولا شمالًا ولا يلتقم بسكين ولا يجلس الانسان فوق من هو اشرف منهُ ولا يبصق في الاماكن النظيفة وان يباكر الغداء ويقولون في امثالهم خير الغداء بواكرهُ وخير العشاء سوافرهُ وفي بعض المؤلفات بواصرهُ اي ما يبصر من الطعام قبل هجوم الظلام

وكان الحَرث بن كِلدَة طبيب العرب في الجاهلية يقول اذا تغدَّى احدكم فلينم على غدائهِ واذا تعشى فليخطُ اربعين خطوة

ومن نهي الاسلام ايضًا ان لا يُعاب الطعام فان اشتهاهُ الرجل اكلهُ والّا تركهُ ولكنهم اباحوا المهازلة عليهِ واعابوا على الضيف كثرة الاكل المفرط (الّا ان يكون بدويًّا فانها عادتهُ) واتخاذ خريطةٍ ليقلب بها الزبادي والامراق والحلوى واتخاذ الولد الصغير الذي يبكي وقت الانصراف من الطعام ليعطى لهُ منهُ شيءٌ على اسمهِ

وقد ذمّت امرأة من العرب زوجها فقالت ان اكل لفّ وان شرب اشتفّ يعني ان اكل ضمّ الشيء بالشيء وان شرب تناهى في الشرب حتى يستأصل الشفافة وهي ما بقي من الشراب في الاناء فذهب قولها مثلاً

وجرت العادة عند العرب اهل الخيام باكرام الضيوف فانهُ متى دخل عليهم انسان لابد انهم يعزمون عليهِ ويشدّدون في العزومة ومن اكل طعام انسان فقد دخل تحت حمايتهِ وحصل في امانٍ منهُ فهيهات ان يرجع للغدر بهِ ويقال ان المسافر متى اكل مع شيخ من مشائخ العرب فان هذا الشيخ يحميهِ عند الحاجة على قدر الامكان وفي بعض المواضع لهم مضائف ينزل بها المسافرون ويأكلون يشربون بدون مقابل وقال آخرون ان اهل البدو حين ينزل عندهم الضيف يذبحون لهُ ذبيحة ومنهم مَن يغسل لهُ رجليهِ ويتقاسم معهُ خبزًا وملحًا ومن هذا الوقت يكون حرمًا مدّة اقامتهِ عندهم فهم مع كونهم يضرّون المسافر في المفازة ويسلبون جميع ما عليهِ من الثياب ولا يرق قلبهم لشكواهُ ولا لبكائهِ ولكن متى وصل الانسان الى اعتابهم وجب عليهم اكرامهُ واحترامهُ واطعامهُ ما تيسّر عندهم

وقد اشتهر بنو غسّان في زمن الجاهلية باكرام الضيوف وضُرب بهم المثل في ذلك فيقال أوقر للضيف من بني غسّان وكانت العادة في الجاهلية ايضًا اذا نزل بهم ضيف ضموا اليهم رحلهُ وبقي سلاحهُ معهُ خوفًا من الغارة في المبيت ولذلك قال مرّة بن محكان يخاطب امرأتهُ

يا ربّة الدار قومي غير صاغرةٍ ضمّي اليكِ رحال القوم والقربا

يريد بالقرب سلاحهم لانهم عندهُ في امان من الغارات فلا يحتاجون الى السلاح

واما في بلاد الاسلام متى استضافهم احدٌ فمن الآداب عندهم ان المضيف يخدم اضيافهُ وان يظهر لهم الغنى وبسط الوجه ويقولون اتمام الضيافة الطلاقة

عند اول وهلة واطالة الحديث عند المؤاكلة قال عاصم بن وائل

وانّا لنقري الضيف قبل نزولهِ ونشبعهُ بالبشر من وجه ضاحكِ

وانهُ يجب على المضيف ان يتفقد دابة الضيف ويكرمها قبل اكرامهِ وان يحدّث اضيافهُ بما تميل نفوسهم اليهِ ولا ينام قبلهم ولا يشكو الزمان بحضورهم ويبشّ عند قدومهم ولا يحدثهم بما يروعهم بهِ وان يامر غلمانهُ بحفظ نعالهم وتفقد غلمانهم بما يكفيهم وان يمنع حاجبهُ عن الوقوف ببابهِ عند حضور الطعام وان يسهر مع اضيافهِ ويؤانسهم بلذيذ المحادثة ويريهم مكان الخلاء ويشيعهم وقت الانصراف الى باب الدار

ويراد بالحاجب المذكور هنا بواب الدار فان من العادة عند المسلمين ان لا يدخل دُورهم احدٌ قريبًا كان او غريبًا بدون استئذان فان لم يكن الزائر معروفًا عند هذا الحاجب عرّفهُ باسمهِ ليدخل على صاحب الدار ويستأذنهُ بدخولهِ عليهِ فان لم ينشرح لذلك صدرهُ رجع الحاجب واعتذر لذلك الزائر بما يرضيهِ والّا قال لهُ ادخل على الرحب والسعة او اهلاً وسهلاً تفضّل وفي كتب اللغة اهلاً وسهلاً بالنصب على المفعولية اي صادفت اهلاً لا غرباء ووطئت سهلاً لا خشنًا وهو ترحّبٌ

واما ما يجب على الضيوف في نظير ذلك هو موافقة المضيف في امورٍ منها الاكل مما يقدّمهُ لهم من الطعام وان لا يعتذروا بشبعٍ بل ياكلون كيف امكن ولا يسألوا صاحب المنزل عن شيء من دارهِ سوى القبلة لاجل الصلاة وموضع قضاء الحاجة وان لا يمتنعوا من غسل اياديهم ولا يمنعوا صاحب المنزل عن حركة بحركها لعمل شيء او احضار شيء وان لا يتطلعوا الى ناحية الحريم وقد اعابوا جدًّا الضيف المهذار وكثير الفضول في امور يطول شرحها منها ما تقصدهُ الاشرار باظهار ما عندهم من الخلاعة واللطف والمعارف بصوت مرتفع يصل الى داخل الدار تحت حجاب وحدة الحال وانما قالوا لا بأس ان يدخل الرجل

بيت صديقهِ ويأكل وهو غائب لان ذلك من باب فعل الخير كما انهم يكثرون في مدنهم بناء المقاعد والسبل لابناء السبيل لاجل هذه الغاية ايضاً

الفصل الرابع

في آداب التحية وانواع المخاطبات

النداء . ادواتهُ في اللغة العربية الالف للقريب دون البعيد تقول أزيد والياء للقريب والبعيد تقول يا زيد واي وأَيا وهيا لنداء البعيد دون القريب ومن عادتهم وصف المنادى ايضاً فكان الرجل في الجاهلية اذا اراد ان ينادي من جهل اسمهُ او يريد ملاطفتهُ فيقول لهُ يا وجه العرب او يا اخا العرب او يا اخا طيء اذا كان طائيًا او عبس اذا كان عبسيًا مثلاً . كأن نسبتهُ الى تلك القبيلة تحقق لهُ عندهم المباهاة وتوجب لهُ الفخر او ينادي من كان عارفًا بهِ بكنيتهِ او يريد ان يعظمهُ ويرفع قدرهُ بقولهِ لهُ يا ابا الفوارس او يا حامية القبيلة الفلانية او ينادي من كان اعظم قدرًا منهُ بقولهِ لهُ يا مولاي وسيدي فيجاوبهُ المنادي بقولهِ لبيك وسعديك ومعنى لبيك انا مقيم على طاعتك واخلاصي لك لبابٌ خالص واما سعديك فمعناهُ اسعادٌ بعد اسعادٍ ولذلك كان لا بد للاعراب ان تلحق الاسماء بالالقاب والكنى

الالقاب . هي على ثلاثة انواع لقب تشريف ولقب تعريف ولقب تخفيف

وهذا الثالث قد نُهي عنهُ في الاسلام وقد يجعل اللقب علمًا من غير نبزٍ[1] فلا يعبّر عن شيء وفي اصطلاح اهل العربية علمٌ يشعر بمدحٍ اوذمٍّ باعتبار معناهُ الاصلي ولذلك كما انهُ يوجد من اسمائها ما هو مليحٌ كالحارث وهمام وما هو قبيح كحرب ومرّة كذلك الالقاب . يُحكى ان ابا صفرة وهو ابو المهلب المشهور كان اسمهُ ظالم بن سرّاق وقيل سارق الازديّ جاء الى الامام عمر بن الخطاب وطلب منهُ ان يوليهُ عملًا فقال لهُ ما اسمك فقال ظالم فقال ابن مَن قال ابن السرّاق فقال لهُ انت تظلم وابوك يسرق ولم يولِّهِ شيئًا تطيُّرًا باسمهِ واسم ابيهِ

وكانت ملوك العرب في اليمن يُلقَّبون بالاذواء كذي سدَر وذي رياش وذي منار وذي الاذعار وذي القرنين وذي جيشان وذي رُعين وذي الاعواد وذي الشناتر وذي جدَن وذي يزن وذي نفر وذي ظليم وذي كلاع وذي قايش وذي اصبح وذي نواس وذي بزن وذي مروان وذي قيعان وذي عبل وكان هذا اول ملك غزا الروم من ملوك اليمن واول مَن ادخل الديباج والحرير اليها ايضًا وذي الملك الذي كان اول مَن رتب الرواتب واقام الحرس والروابط وكان لقب الاذواء هذا مختصًّا بالذين يملكون اليمن وحدها فقط

واما الذين كانوا يملكون في اليمن وهم حِمْيَر وحَضْرموت ايضًا فكانوا يلقبونهم تُبَّعًا كما كانوا يلقبون ملوك الحيرة بالنعامنة او النعمان وملوك الخزر بالبلك وملوك الصين بالبَغْبور او الفَغْفور وملوك فرغانة بالاخشيد وذكر ابن خلكان ان تفسيرهُ ملك الملوك وكذلك كل من ملك فارس كسرى معرَّب خسرو قيل ان معناهُ واسع الملك ومَن ملك الترك خاقانًا ومن ملك الروم قيصرًا قال ابن خلدون ان معناهُ بالعربية شُقَّ عنهُ وسببهُ ان امهُ ماتت في المخاض فشُقَّ بطنها وأُخرِج فسمّي قيصرًا واول من تسمّى بهِ اغسطس ملك رومية وقال آخرون قيصر ملك الرومانيين معرَّبهُ جيسَر وهو الشق لان اول

(1) النبز اللقب قيل هو شائع في الالقاب المستهجنة القبيحة

مَن لُقِّب بهِ من القياصرة كان جوفهُ مشقوقًا ويسمّون مَن ملك الشام هرقلاً ومَن ملك الحبشة نجاشيًّا ومَن ملك مصر مع الاسكندرية عزيزًا والقبط فرعونًا ومعناهُ التمساح

وكانوا يسمّون قواد البعوث بالامير وهو فعيل من الامارة (فسمّت الجاهلية صاحب الشريعة الاسلامية امير مكة وامير الحجاز) ثم تلقَّب خليفة ابو بكر بالخليفة وتلقب الخليفة بعدهُ وهو عمر بامير المؤمنين وتوارث هذا اللقب الخلفاء من بعدهِ وصار ذاك علمًا لهم

وكانت الشيعة تخصُّ الامام عليًا ومن يسوقون لهُ الخلافة بعدهُ بالامام الى ان استحدث الخلفاء العباسيون الاعلام حجابًا لاسمائهم عن امتهانها في الدن السوقة وصونًا لها من الابتذال فتلقبوا بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر الدولة فاقتفى اثرهم في ذاك العبيديون بافريقية ومصر ومع ان بني أُمية كانوا تجافوا عن مثل ذلك بالمشرق حيث كان لازال لم يتحوَّل عنهم شعار البداوة الى شعار الحضارة ذهبوا اخيرًا في بلاد الاندلس مذهب العباسيين بالمشرق وتسمّى عبد الرحمن الاخر بامير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله (راجع الفصل الاول من هذه المقالة)

وكان الخلفاء يخصون الملوك الذين تحت رياستهم بالقاب تشريفية يُستشعر منها انقيادهم لها وطاعتهم مثل شرف الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ونظام الملك وذخيرة الملك ومن الملوك ايضًا الناصر والمنصور وصلاح الدين واسد الدين ونور الدين الخ . ويخاطبونهم في المراسيم التي يبعثون بها اليهم بالجناب الرفيع الخاقاني او الجناب العالي الشاهنشاني واما السلاطين فكانوا يكتبون في الامضاء على معروضاتهم للخلفاء خادمك المطواع فلان او عبدك فلان والخطاب بعد ذلك سيدنا ومولانا امير المؤمنين وامام المسلمين وخليفة رب العالمين قدوة المشارق والمغارب المنيف على الذروة العلياء ابن لوي بن غالب

وكان من اشراف العرب قومٌ يقال لهم المطيّبون وهم بنو عبد مناف شريف العرب الذي تقدّم ذكرهُ في الفصل الثالث من المقالة الثانية وبنو اسد ابن عبد العزّى وزهرة بن كلاب ونعيم بن مرّة والحارث بن فهر تلقبوا بذلك لانهم غمسوا ايديهم في خلوقٍ (١) وتحالفوا على الحرب من اجل سدانة الكعبة ثم تداعوا للصلح على ان يسلموا لبني عبد مناف السقاية والرفادة ويختص بنو عبد الدار بالحجابة واللواء

وقومٌ آخرون يقال لهم الرباب وهم بنو عبد مناة بن ادّ بن طابخة ومنهم تيم وعدي وعوف وثور تلقبوا بذلك لانهم غمسوا ايديهم في الرب (٢) في حلفٍ على بني ضبّة

واما شيبة الحمد فهو عبد المطلب لُقّب بذلك لشيبةٍ في رأسهِ حين وُلِد قال حذافة بن عامر

بنو شيبة الحمد الذي كان وجههُ يضيء ظلامَ الليل كالقمر البدرِ

ولُقِّب امرئ القيس بذي القروح لان ملك الروم كان كساهُ حلّةً مسمومة فقرّحتهُ ومعنى امرئ القيس رجل الشدة وهو لقب لهُ ايضًا قيل لُقِّب بهِ حين قتل اباهُ علباء بن الحرث الكاهليّ تحالف انهُ لا يشرب خمرًا ولا يقرب امرأة ولا يغسل راسهُ حتى يدرك ثارهُ اما اسمهُ الحقيقي فهو جَنْدَح

وذو الأنف النعمان بن عبد الله قائد خيل خثعم يوم الطائف (٣)

وكان جعفر بن عوف من بني قُريع من ولد تميم يُلقّب انف الناقة وهو ابو بطن من سعد بن زيد مناة لان اباهُ نحر جزورًا فقسم بين نسائهِ فبعثت جعفرًا امهُ فاتاهُ وقد قسم الجزور ولم يبقَ الاّ رأسها وعنقها فقال لهُ شأنك بهِ فادخل يدهُ في انفها وجعل يجرُّها فلُقّب بهِ وكان ولدهُ يغضبون من هذا اللقب

---

(١) الخلوق الطيب (٢) راجع البكالة في الفصل الثالث من هذه المقالة

(٣) ثالث غزوة من غزوات صاحب الشريعة الاسلامية

الى ان مدحهم الحطيئة بقولهِ

قومٌ هُمُ الأنف والاذناب غيرهمُ ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

وجران العود لقب عامر بن الحرث النمريّ لُقّب بهِ لقولهِ يخاطب امرأتيهِ

خذا حذرًا يا جارتيَّ فانني رأيتُ جِران العود قدكاد يَصلحُ

وذلك انهُ اتخذ لزوجيهِ اللتين كانتا تعصيانهِ سوطًا من الجران ووضعهُ في الشمس فانذرها بجفافهِ وقرب ضربها بهِ

ولُقّب خزيمة بن سعد الخزاعي بالمُصطلق لحسن صوتهِ وشدتهِ

وهكذا بعد الاسلام ايضًا فان ابا بكر اول الخلفاء لُقِب بالصديق لشدة صدقهِ

ولُقب عمر الخليفة الثاني بالفاروق لفرقهِ بين الحق والباطل

ولُقّب عثمان بن عفّان الخليفة الثالث بذي النورين لانهُ تزوّج ببنتي صاحب الشريعة الاسلامية

ولُقّب علي بن ابي طالب الخليفة الرابع حيدرة لقبتهُ امهُ بذلك ومنهُ الحديث انا مدينة العلم وحيدرة بابها

ولُقب مروان بن الحكم خامس الخلفاء الامويين بخيط باطل وذلك انهُ كان طويلاً مضطربًا فلُقب بهِ لدقتهِ لان الخيط باطل هو الهباء الذي يكون في ضوء الشمس وقيل هو الخيط الذي يخرج من فم العنكبوت وفيهِ يقول الشاعر

لحى الله قومًا ملكوا خيط باطلٍ على الناس يعطي من يشاء ويمنعُ

ولُقب ابنهُ عبد الملك بن مروان سادس الخلفاء المذكورين برشح الحجر وابي ريان لبخلهِ وبخرهِ

ولُقب مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء منهم بالحمار وذلك لان

ملك بني أُمية في زمن خلافتهِ كان قارب المئة سنة والعرب يعبّرون عن كل قرن من السنين بالحمار كما يعبّرون بالحقب عن الدهر ويجمعونهُ على احقاب وقيل الحقب ثمانون سنة وقيل سبعون اما الحقبة من الدهر فهي مدَّة لا وقت لها

ولُقب سعيد بن العاص بعكة العسل لحلاوتهِ

ولُقب الفضل بن سهل بذي الرياستين لانهُ دبَّر امر السيف والقلم يعني رياسة الجيوش ورياسة الدواوين

ولُقب سعيد بن عبادة بالكامل لانهُ كان يكتب ويحسن الرمي والعوم قال الاصبهاني كان الرجل في الجاهلية اذا كان شاعرًا كاتبًا سابحًا راميًا سمّوهُ الكامل وقد شاع على الالسنة قولهم من خطَّ وعام وضرب بالسهام فقد استكمل كل الفضل

ولُقب عبد الله بن طلحة بطلحة الخير وطلحة الفياض وطلحة الطلحات لسخائهِ

وعكرمة بن ربعي دُعي ايضًا بالفياض لكرمهِ وجودهِ

ولُقب عبد الله بن عباس بالحبر لعلمهِ

ومن الالقاب الدارجة ايضًا الاعمش والاعمى والاعرج والاحول والافطس والاقرع ونحو ذلك وقل من وجد في الجاهلية والاسلام وليس لهُ لقب ومن العامَّة ايضًا مَن يُلقب بشرف الدين وعزّ الدين وتاج الدين وسيف الدين وامثال ذلك مع انهُ لم يكن من اهل الديانة وربما كان محتويًا على ما يضادّ ذلك

الكنى. وكذلك الكنى هي نظير الالقاب عند العرب ايضًا وربما امتازت نوعًا عنها اذ لا يجوز لاحد من الناس ان يكتني بحضرة من هو اعظم منهُ وخاصةً بحضرة الخلفاء فلا يقول انا ابو فلان فان وقع ذلك عدَّ من سوء الادب وربما طرد من مجلس الخلفاء وانما الكبراء يخاطبون مَن هم دونهم بكنيتهم اذا ارادوا فان وقع ذلك منهم لاحد عدَّ تلطيفًا زائدًا واكرامًا لا مزيد عليهِ

وكيفية هذه الكنى هي ان يكنى الرجل باسم ولدهِ والمرأة كذلك فيقال

الرجل ابو فلان وللمرأة ام فلان واذا كنّوا من لم يكن لهُ ولد فيكون على جهة التفاؤُل وبناء الامر على ان يعيش فيولد لهُ وقد يكون بما يلائم المكنّى من غير الاولاد كقولهم ابو لهب لحمرةٍ في خديهِ وكنّي الامام عليٌّ ابا تراب لانهُ نام في غزوة ذي العشيرة متمرغًا في التراب وكنّي ابو هريرة بهذه الكنية لانهُ كان وهو صغير يلعب بهرة صغيرة فغلب لقبهُ هذا على اسمهِ حتى لم تعد تعرف صحتهُ ويكنى الكبير الراس بابي الراس والكبير العمامة بابي العمامة ومنهم من يكنّى باسم ابنتهِ ولا حرَج في ذاك لان الامام عثمان بن عفّان يكنّى بابي ليلى وتميم الداري بابي امامة وابي رقية والمقداد بن معد يكنى بابي كريمة ومسروق بن الأجدع بابي عائشة

ولا يحصرون الكنى في الناس فقط بل قد مرَّ عليك في الفصل الثالث من هذه المقالة كنى الاطعمة وسوف يأتي ايضًا ما وقفنا عليهِ من كنى الحيوانات وغيرها في شاءٍ

ويقال انهُ لم تكن الكنى لاحد من الامم غير العرب ويعدّونها من مفاخرهم قال الشاعر

اكنيهِ حين اناديهِ لاكرمهُ ولا القّبهُ والسودد اللقبُ

التحية . ويتحصل من كتب الآداب العربية ان العرب في الجاهلية كانوا اذا دخلوا على الملوك قبّلوا الارض بين ايديهم وان الرجل يبوس يد من هو فوقهُ تعظيمًا لهُ واذا اعجب بمن هو دونهُ او اصغر منهُ سنًّا قبّلهُ بين عينيهِ وكانوا يقولون للملوك في التحية ابيتَ اللعن ومعناهُ ابيتَ ان تفعل ما تستوجب بهِ اللعن وهو عندهم ما لا يُخاطب بهِ الاّ الملوك حتى اذا تولّى احدهم الامارة قيل فلان نال التحية اي نال الملك الذي يستدعي لهُ هذه التحية واما في التحيات المعتادة بين بعضهم فيقولون صبحتك الافالح وكل طيرٍ صالح او صبحتك الانعمة وطيب الاطعمة او يقولون انعم صباحًا او عِم صباحًا اي طاب عيشك في صباحِكَ من النعمة وهي طيب العيش وخص الصباح بهذا الدعاء

لان الغارات والكرائه تقع عندهم صباحًا ومن عادتهم في اشعارهم ان يحيّوا اطلال الديار بهذه التحية ايضًا فيقولون انعم صباحًا ايها الطللُ ويتمنون لها الغيث كما يتمنونهُ لمراقد الاموات ايضًا لان الغيث اعظم رحمةٍ يتوقعونها لتوقف معيشتهم وحياة مواشيهم عليهِ ويسلمون عليها كما يسلّم الرجل منهم على صاحبهِ في اي وقت زارهُ او لقيهُ ويكون افتتاح مخاطبتهم بهذه العبارة وهي السلام عليكم قال الشاعر

أَلا يا نخلةً من ذات عرقٍ[1] عليك ورحمةُ الله السلامُ

اما المخاطَب فيجاوب من حياهُ بهذه التحية بذات هذه الالفاظ عينها فيقول وعليكم السلام لان مخاطبة المفرد بصيغة الجمع للتعظيم هي من عادات العرب واصطلاحاتهم ومن امثالهم امحل من تسليمٍ على طللٍ وهو من قول الشاعر

قالوا السلامُ عليكِ يا اطلالُ قلتُ السلامُ على المحيل محالُ

ومن نكاتهم انهُ قيل لاعرابيٍّ السلامُ عليكَ فقال وعليكَ الخيجات قيل لهُ ما هذا جواب فقال هما شجران مرَّان وجعلتَ عليَّ واحدًا منهما فجعلتُ عليك الآخر

وقد ورث المسلمون عن سلفائهم التحية بهذا السلام عينهِ ويعتبرونهُ سنّةً وبهِ يحيون الخلفاء والملوك ايضًا فيقولون للخليفة السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاتهُ وهو دعاء لهم بالسلامة من الآفات في الدين والعقل والنفس والعرض والجسم والمال والجاه والولد والاهل اي كان الله معكم حافظًا لكم وفي سورة طهَ والسلام على من اتَّبع الهدى اي من اتبع هدى الله سلم من عذابهِ وسخطهِ ولذلك اعتبروهُ شعيرةً اسلامية تقوم مقام اية تحيةٍ كانت يقتضيها الوقت من النهار والليل ولا يحيون بهِ من كان على غير الاسلام بل ولا يسمحون

---

(١) اسم محل من اراضي العرب

لهُ ان يلفظ بهِ ايضًا

ومن هذا السلام ما جاء في امثال المولدين وهو قولهم الف دُق دُق ولا سلام عليكم ودق دق هي حكاية صوت قرع الباب فكأنهم يقولون الف طارق يدق الباب وينتظر حتى يفتحوا لهُ ولا طارقٌ واحد يجد الباب مفتوحًا فيدخل عليهم بغتةً قال الشاعر

اغلقوا بابكم مخافة واشٍ الف دُقٍّ دُقٌّ ولاسلام عليكم

ويقولون ايضًا حدثتهُ بالقصة من الدقدق الى السلام عليك اي من الاول الى الاخر يعني منذ طرّق الباب الى ان ودّع بهذا السلام وهو مبنيٌّ على المثل المذكور

ومن التحيات العامة غير هذا السلام قولهم عند اللقاء صباحًا اسعد الله صباحكم او الله يصبحكم بالخير وعند الضحى يبدلون لفظة الصباح بلفظ النهار فيقولون مثلاً نهاركم سعيد ونحو الظهر اوقاتكم سعيدة ومنذ العصر الى الغروب الله يمسيكم بالخير وبعد الغروب ومدة الليل ليلتكم سعيدة

الاستقبال. ويحافظ المسلمون على ان ينهض المزور الى الزائر على قدميهِ وقد يستقبلهُ بعض خطواتٍ ايضًا ويجلسهُ الى جانبهِ وربما اجلسهُ فوقهُ وجلس هو بين يديهِ رغبةً في اكرامهِ اذا كان من اهل الاسلام وبالاجمال جرت عادتهم بملاطفة الزائر غريبًا كان او وطنيًا يعرفونهُ من ذي قبل او لا يعرفونهُ مسلمًا كان او غير مسلم عدوًا او محبًا فيشكون لهُ وحشتهم مدة فراقهِ واشتياقهم الى رؤيتهِ وفرحهم بقدومهِ وانتعاشهم بسامرتهِ وانشراحهم لزيارتهِ وانهم مرهونون لكل ما يلزمهُ من الاغراض والحاجات ولا بد لهم ايضًا من ان يصفوهُ بمحاسن ولو اخترعوها لهُ اذا لم تكن موجودة فيهِ كحسن الطباع ودماثة الاخلاق والظرف واللطف والادب والذكاء ولا يميزون في مثل ذلك بين المسلم وغيره الّا بوصف التدين والتقوى والفضيلة في العلم واذا كانت بغضتهم لقبيلة الزائر

او اقاربهِ معروفةً ينوا له بانهم لا يحتسبونهُ منهم لامتيازهِ بمحاسن الاخلاق والاوصاف المذكورة دون سائرهم

الجلوس (١) . وللاعراب جلسةٌ خاصة بهم يجلسونها في اي محل وجدوا فيهِ حيث اعتادوها في مساكنهم التي هي خيام لا يوجد فيها حيطان يستند اليها في مجتمعهم فكان الرجل منهم يقيم ركبتيهِ في جلوسهِ ويضع عليها سيفًا او يدير بها ثوبًا او يعقد عليها يديهِ فيستريح اليها ويقوم له ذلك مقام الاستناد وقال بعضهم هو ان يجلس الرجل على ركبتيهِ متكئًا ويلصق بطنهُ بفخذيهِ ويتأبط كفيهِ وهي جلسة الاعراب ويسمونها القرفصاء وفي محيط المحيط وللاعراب جلسةٌ تسمى الحبوة من الاحتباء وهو ان يجمع الرجل بين ظهرهِ وساقيهِ اذا جلس ليصير كالمسند ثم اذا عبّروا عن القيام والقعود قالوا حلَّ حبوتهُ اي قام وعقد حبوتهُ اي قعد

واما الحضر فلهم في الجلوس آداب يراعونها بكل تدقيق وخاصةً في المجالس الحافلة ودواوين الكبراء وذوي المراتب والمسائد العالية ومنها جلسة يقال لها التربيع وهي ان يجلس الرجل ملتفًا باثوابه وركبتاهُ منثنيات الى الارض بحيث يكون قدم كل رجل من رجليهِ تحت ركبتهِ الاخرى ويستند بظهرهِ فيكون بذلك مقبلاً بوجههِ على الجالسين عن جانبيهِ بلا فرق وجلسةٌ اخرى يقال لها على ركبةٍ ونصف وهي ان تكون احدى ركبتيهِ قائمةً والاخرى منثنية خلفها لكن يلاحظ فيها ان لا تكون الركبة القائمة من الجهة التي يكون جالسًا فيها رجل فوقهُ في المنزلة وجلسةٌ ثالثة وهي ان يركع الرجل على ركبتيهِ وقدماهُ منثنيتان الى الوراء وهذه الجلسة هي اعظم وقارًا واكثر تأدبًا من كل انواع الجلوس وعلى اية صورة كان الجلوس لا يكون متأدبًا كالواجب الاَّ باخفاء الاقدام وعدم ظهور الخف مهما امكن بحيث لا يظهر شيءٌ من آثار القدمين ومن العادة ايضًا ان لا يجلس الصغير بحضرة الكبراء الاَّ بعد ان يأمروهُ بالجلوس ثلاث مرات اما لفظًا او بالاشارة . واما دخول الانسان الى المجلس بدون خلع نعليهِ او اذا

(١) الجلوس خاصٌ بالانسان كما ان البروك للابل والجثوم للطير

مدَّ رجلهُ بعد ان يجلس او وضع رجلاً فوق اخرى فكان كل ذلك يعدُّ من سوء الادب وعدم الوقار بما لا مزيد عليهِ

ما يقدم للزائر . وبعد ان يستقرَّ جلوس الزائر عند البدو لا بدَّ من اكرامهِ بتقديم ما تيسَّر من الطعام ولذلك كلامٌ سوف يذكر في المقالة التالية واما الحضر فلا يكون تقديم الطعام الى الزوار الاَّ في الولائم او الدعوات الخصوصية الاَّ اذا كان الزائر نزيلاً او مقبلاً من سفر لكن في الزيارات المتبادلة الاعتيادية فيكون اكرام الزائرين بتقديم شيء لهم من انواع الفواكه المطبوخة بالسكر والمشروبات من السكر والقهوة والتدخين فقط وبذلك يشترك جميع الحاضرين بدون فرق ولا تمييز الاَّ في التقديم والتأخير بحسب الرتب ودرجات العمر

تشييع الزوار . ثم في وقت انصراف الزائر ينهضون كذلك حال نهوضهِ وقوفًا على الاقدام ويصرفون برهةً وهم وقوف يشكون لهُ بها مما سوف يكابدونهُ من الوحشة لفراقهِ وما سوف يلمُّ بهم من الاشواق اليهِ وربما شيعوهُ اذا كان من اصحاب الحيثية الى باب الدار وهم يترجونهُ العودة وان لا يبخل عليهم بالزيارات المتواصلة ولا يجعل زيارتهُ لهم كبيضة الديك لانهُ يقال ان الديك يبيض مدَّة زمانهِ بيضةً واحدةً قال ابو العتاهية

يا اطيب الناس ريقًا غير مُختبرٍ لولا شهادة اطراف المساويكِ[1]
قد زرتنا مرةً في الدهر واحدةً ثنِّي ولا تجعليها بيضة الديكِ

مع انهُ قد جاء في الحديث زُرْ غبًّا[2] تزدد حُبًّا والهوى من النوى يعني ان البعد يورث المحبة ومنهُ تتولد فان الانسان اذا كان يُرى كل يوم أُستحقر

---

(١) المساويك جمع المسواك وهو ما تخلل بهِ الاسنان للتنظيف

(٢) غب عن القوم يغبُّ غبًّا اتاهم يومًا وترك يومًا وغبَّ الرجل جاء زائرًا بعد ايام او كل اسبوع

ومنهُ قال الحارث بن حلزة اليشكري

آذنتنا ببينهــــا[1] اسماء ربَّ ثاوٍ يملُّ منهُ الثواء[2]

وداع الراحلين. وكانت العرب تقول في وداع الراحلين شاعكم السلام او شاعكم الله بالسلام اي اتبعكم اياهُ وجعلهُ صاحبًا لكم وتابعًا وهو يقابل قولهم السلام عليكم في تحية الالتقاء على ما سبقت الاشارة اليهِ او يقولون سرْ على الطائر الميمون ونواك الله اي صحبك في سفرك اذا كان المودّع قاصدًا السفر. واما الحضريون الآن فيقولون لهُ مع السلامة آنستم شرفتم وحليتم البركات وبلغكم الله السلامة ونرجوك ان تسلّم على الاصحاب وان تطمّنا بوصولك بالسلامة

آداب الجمعية . وكان من آداب العرب في اجتماعاتهم تشميت من عطس في الحضرة وفي درّة الغواص التشميت والتسميت للعاطس اشارة بالشين الى جمع الشمل لان العرب تقول تشمت الابل اذا اجتمعت في المرعى وبالسين الى ان يُرزق السمت الحَسَن ولذلك يقول الحاضرون لمن عطس في المجلس رحمك الله اما هو فيجاوبهم نحن وانتم وعامة المسلمين

ويقولون لمن شرب الماء هنيئًا بعد ان يقول هو عقيب شربهِ الحمد لله فيجاوب كل واحد من الذين قالوا لهُ ذلك من الحضَّار هناكم الله ويدهُ اليمنى فوق راسهِ غير انهُ من شروط الادب ان الصغير لا يقول ذلك لمن هو اعظم منهُ قدرًا او اكبر سنًا

وكانت العرب تقول للصبي اذا تجشَّأ حلقةً يريدون بذلك طال عمرك وحُلِق رأسك حلقةً بعد حلقةٍ والجشاء من الامور التي يجب الاحتراس منها في مجالس الحضر الآن وخاصةً بحضرة الكبراء فاذا أُجبرَت الطبيعة على ذلك امال براسهِ وستر فمهُ بيدهِ او بمنديل ونحوهِ وبعد ان ينتهي يقول استغفر الله

---

(١) البينونة الفراق والانقطاع فيراد ببينها مفارقتها والبعد عنها
(٢) الثاوي المقيم والثواء المقام

ويقولون لمن حلق راسهُ او اغتسل اونهض من النوم نعيمًا فيجاوب هو من يقول لهُ ذلك بقولهِ الله ينعم عليك

وكانت العرب تقول للعاثر لَعًا وفي مجمع الامثال للميداني لعا لك عاليا ويقال لعل لك يقال ذلك للعاثر دعا لهُ قال المحجل بن حزن الحارث

لنا فخمة زوراء احمت بلادنا متى يرها الشاوي يحجج بهِ وهَلْ

وارماحنا ينهزنهم نهز فحمةٍ يقلنَ لمن ادركنَ تعسًا ولا لعلْ

وفي درّة الغواص للحريري التعس الدعاء على العاثر بان لا ينتعش ولَعا دعاء لهُ قال الاعشى

بذاتِ لوثٍ عفرناة اذا عثرت فالتعسُ ادنى لها من ان اقول لَعا

واما في ايامنا هذه فيقولون لمن يعثر الله بحذف حرف النداء غالبًا او يا خضر مثلاً او غيرهُ من الانبياء والاولياء استغاثةً لوقاية العاثر وحفظهِ من الضرر

ويقولون لمن لبس الجديد ابليتَ جديدًا وتمليتَ حبيبًا اي عشت ملاوتك من دهرك وتمتعت بهِ

ولمن ارادوا اخبارهُ بما يسرّهُ بشراك او بُشرى لك

ولمن ينجح في امرٍ من الامور نعم الله بك عينًا ونعمك اي اقرّ بك عين من تحبهُ واقرّ عينك بمن تحبهُ . قال الاصمعي اقرّ الله عينك معناهُ أبرد الله دمعك اي سرّك غاية السرور لان دمع السرور بارد ودمع الحزن حارٌّ. وقال الشيباني معناهُ أنام الله عينك وازال سهرها لان استبداد الحزن داعٍ الى السهر. وقال آخرون اعطاك الله مناك ومبتغاك حتى تقرّ عينك عن الطماح الى غيرهِ

ويقولون لمن يستحسنون قولهُ لا فضّ فوك اي لا نثرت اسنانك ولا

فُرِّقت ماخوذ من فضّ الختم او لاسدّ فوك ولا كان من يشنوك[١]
ولمن يستحسنون فعلهُ لا شُلَّت يداك او لا شُلَّت يمينك والمعنى لا يبست
وحيّاك الله وحيّا الله وجهك وحياك وبيّاك قيل ان معنى حيّاك ملّكك
وبيّاك اعتمدك بالمحبة وبيّض الله وجهك ومن كلام المولدين بورك فيك من
طلا كما بورك في لا ولا وهو كلام ابي القاسم الحريري في مقامتهِ الحلبيّة يريد
بذلك بارك الله فيك كما بارك في شجرةٍ مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية[٢]
يقال ان اصل هذا الدعاء قالهُ اعرابي دخل على ابي حنيفة وسألهُ بواو ام بواوين
يريد التشهد فاجابهُ ابو حنيفة بواوين فدعا لهُ الاعرابي بهذا الدعاء قال بعضهم
ان قول العرب للسائل بورك فيك فهم يقصدون بهِ الردّ عليهِ لا الدعاء لهُ
وقد كثر هذا في كلامهم حتى جعلوهُ اسمًا للرد والدفع
ويقولون لمن ارادوا الدعاء لهُ بطرت[٣] عيشك كما يقولون رشدت[٤]
امرك ولله درّك اي خيرك وعطاؤك وما يؤخذ عنك ولله ثوباك اي لله درك
وللغائب عِيل ما هو عائلهُ اي غلب ما هو غالبهُ ويقولون ايضًا اسعدك الملك
ولا عدمنك ورحم الله مَهَلك اي اسلافك وفي الاسلام رحمك الله ورحم الله آباءك
فيجيب نحن وانتم وعامة المسلمين ويقولون ايضًا اكثر الله جرذان بيتك يريدون
بذلك اكثار الطعام فتكثر بهِ الجرذان وحوجًا لك اي سلامةً ورنّق الله
قذاتك[٥] يعني صفاها ورضي الله عنك والعامة تقول الآن الله يرضى عليك وهو
غلط فانهم بذلك يدعون عليهِ عوضًا عن ان يدعوا لهُ ويقولون بلغ الله بك
اكلأ العمر يعني بلغك الله اطول العمر وهو كقولهم نساهُ الله اي اخّر مدتهُ
والنسء التأخير وقول المتأخرين فسح الله في اجالك واطال الله بقاءك

---

(١) الشنأة البغضة مع عداوة وسوء خلق
(٢) زيتونة مذكورة في القرآن
(٣) بطر الرجل نشط ودهش من قلة احتمال النعمة
(٤) الرشد الاهتداء (٥) القذى ما يقع في العين ويوجعها

ويقولون لمن ارادوا ان يظهروا لهُ المحبة مع التعظيم فَدِيتكَ او جُعلتُ فداءك يريد المخاطِب ان يظهر للمخاطَب بذلك اعتبارهُ لهُ بهذا المقدار حتى يودُّ ان يكون لهُ فداءٌ في ما يمكن حدوثهُ عليهِ من المصائب او الموت وقد يكتفون بقولهم بروحي او بأَبي وامي انت والمعنى تفدَى بروحي وبابي وأُمي ويقولون ايضًا لي الشرُّ اقم سوادك وهو يقال عند التشجع اذا ظهر الخوف ومعناهُ اقم شخصك وليكن الشرُّ مقدرًا لي لا لك . واما قولهم ابيت اللعن فقد سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على التحية وانما يقولون لمن ارادوا اغراءهُ على شيءٍ من الاعمال افعل كذا وخلاك ذمٌّ فتكون للمغرى بمنزلة ابيت اللعن والمعنى افعل كذا وكذا وقد جاوزك الذمُّ فلا تستحقهُ قال الشاعر

فشأْنكِ وانعمي فخلاكِ ذمٌّ ولا ارجع الى اهلي ومالي

ويقولون في الاستعطاف قَعْدَكَ الله او قعيدك والله اي ناشدتكَ الله وقيل ان المراد كانهُ قاعدٌ معك ويحفظك وعَمرك الله اي سأَلت الله اطالة عمرك وناشدتك الله الاَّ فعلت معناهُ ما طلبت منك شيئًا من الاشياء الاَّ فعلك وقولهم على رسلك يراد بهِ على رفقكَ والرِسْلُ الرفق وحنانيك بلفظ التثنية يراد بهِ تحنَّن عليَّ مرةً بعد اخرى اما قولهم اتبع الفرس لجامها والناقة زمامها والدلو رشاها فيريدون بهِ الامر باستكمال المعروف

وكان من عادة العرب ان يقولوا في الاستغاثة يا لفلان وينادي الرجل منهم انا فلان بن فلان فينتمي الى ابيهِ وجدّهِ لشرفهِ وعزهِ فلما جاء الاسلام نهى عن ذلك وقد ورد في الحديث مَن تعزاء بعزاء الجاهلية فاعِضّوهُ بهن ابيهِ ولا تكنوا يعني قبحوا عليهِ فعلهُ

ويقولون للباني باهلهِ وفي درة الغواص الباني على اهلهِ اذ الاصل فيهِ ان الرجل كان اذا اراد ان يدخل على عرسهِ بنى عليها قبةً (راجع الفصل الرابع من المقالة الثالثة) نِعِمَ عوفُك والعوف هو البال والشان وقيل ما يقبح ذكرهُ

من اعضاء الرجل وفي التهنئة للمعرس بالرفاء والبنين وهنأ بعضهم معرسًا فقال بالرفاء والثبات والبنين والبنات اي بالالتئام وعدم الطلاق واتساع الولادة فتشمل على البنين والبنات . واما المتاخرون فيقولون مبارك ما عملت ربنا تعالى يهنئك وان شاء الله قرين التوفيق وتنظر الخير ويجعله الله عرسًا مقرونًا بالهناء والسرور وما اشبه ذلك

ويقولون فيما اذا ولد لاحدهم مولود مبارك ما جاءك يربى بدلالك وجعله الله من طويلي الاعمار وان شاء الله تفرح منهُ وتزوج اولادهُ وفي درّة الغواص ان العرب كانوا يقولون اذا ولد لاحدهم بنت هنيًا لك النافجة اي المعظمة لمالك (راجع الفصل المارّ ذكرهُ)

ويقولون في الزيارات المتبادلة في الاعياد والمواسم كل عام وانتم بخير احياكم الله لكل عام واذا كان المزور عزيبًا قالوا لهُ في السنة القادمة نشوفك عريسًا ان شاء الله او اذا كان متزوجًا ولم يرزق بمولود بعد قالوا لهُ في السنة القادمة يكون عندك غلام وفي عيد الاضحى خاصةً يقولون السنة القادمة في عرفات واذا كانوا متغربين عن بيوتهم قالوا لهُ السنة القادمة في الاوطان مع جبر الخاطر ان شاء الله

وكانت العرب تقول للمريض عند ما يعودونهُ مَصَحَ الله ما بكَ اي اذهبهُ وفرقهُ واما المتأخرون فيقولون لهُ زال البأس شفاك الله وعافاك واذا كان متقدمًا الى الصحة قالوا لهُ اجرًا وعافية يريدون بذلك ان الله يكتب لهُ ما اصابهُ من ذلك المرض في ميزانهِ ويعوضهُ عنهُ عافيةً

ويقولون في تعزية المحزونين عظم الله اجركم وجعلهُ قاطع الاسواء عنكم وربنا لا يبقي يكدر لكم خاطرًا ويجعل العوض بسلامتكم وامثال ذلك وكانوا يقولون اذا كان الميت طفلاً اللهمَّ اجعلهُ لنا فرطًا اي اجرًا يتقدمنا اما المحزون فيجاوب كل من عزّاهُ بما يوافق خطابهُ . يُحكى عن ابي الوليد احمد بن عبد الله ابن غالب بن زيدون المخزومي الاندلسيّ المولود بقرطبة سنة ٣٩٤ للهجرة (سنة

١٠٠٣ م) انهُ وقف على قبر ميتٍ لهُ والناس يعزّونهُ على اختلاف طبقاتهم فما اجاب احدًا بما جاوب بهِ غيرهُ ولذلك يضرَب بهِ المثل في وسع العبارة فيقال اوسع عبارة من ابن زيدون

ويقولون عند ذكر احد المتوفين من اهل الاسلام في مجالسهم رَحِمهُ الله او تغمدهُ الله بالرحمة اذا كان ذكر المتوفي لفظًا . اما في الكتابة فيكتبون طاب ثراهُ يعني التراب الذي ضمهُ وقدس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ وامثال ذلك ويعبرون عن الميت بالمتوفي اذا كان مسلمًا ايضًا والاَّ فالميت او الهالك

ويقولون حَبَّذا زيدٌ وهو من افعال المدح اي هو حبيب وهذا رجل حسبك من رجل وهو مدحٌ للنكرة ومعناهُ كافٍ لك عن غيرهِ واما قولهم للمخاطَب حسيبك الله فيريدون بهِ انتقم الله منك وكفى بالله حسيبًا اي محاسبًا وكافيًا

ويقولون لمن ارادوا اجابة سؤالهِ حبًّا وكرامةً ومعناهُ احبُّك حبًّا واكرمك كرامةً

واذا اطلع احدهم رجلاً على معائبهِ لثقتهِ بهِ قال القيت اليهِ عُجَري وبُجَري واما قولهم بَجَّ بطنهُ لهُ فمعناهُ بالغ في نصحهِ وقول القائل ابوهُ اليهِ بنعمتهِ اي اقرَّ بها وما في صدري حوجاء ولا لوجاء اي مرية ولا شك وكلمتهُ فما ردَّ حوجاء ولا لوجاء اي كلمةً قبيحة ولا حسنة واما قولهم حنَّان الله فمعناهُ معاذ الله. واجلَّك الله معناهُ عظم الله قدرك والمكروه حاشاك وحاشا اداة استثناء وترد هنا للتنزيه ومنهُ حاشا الله عن النقص اي تنزهًا لهُ عن ذلك وحاشا الله معناهُ معاذ الله

ويقولون في التمني ليت شعري والمعنى ليتني شعرت بكذا او كذا وليتني علمت بحقيقتهِ

وكانت العرب في الجاهلية تقول عند الرضى والاعجاب او الفخر والمدح بخٍ بالافراد او بخٍ بخٍ بالتكرير للمبالغة وهو اسم فعل معناهُ عظم الامر وفخم وبَدَّ بَدَّ بمعناهُ ايضًا . اما قولهم وَيْ قيل انها كلمة تعجب وقيل زجر تقول وَيْ لزيدٍ

وإذا سرّوا بخبرٍ سمعوهُ قالوا واهًا ما ابردها على الفؤاد ويروى واهًا لها من نغيةٍ اي صوتٍ ومن امثالهم انهُ لواهًا من الرجال اي محمود الاخلاق كريم يعنون انهُ اهلٌ لان تقال لهُ هذه الكلمة اما اللئيم فانهُ غير واهًا قال ابو النجم

واهًا لريّا ثم واهًا واها ياليت عيناها لنا وفاها

اما أخ فهي كلمة تكرّه وتاوّه وتوجّع ايضًا يقولونها اذا اصاب احدهم شيء اوجعهُ وهي مثل كلمة حِسْ وأَخ واوّه من التأوُّه ومنهم مَن حذف الهاء فقال اوّ ومنهُ قولهم يتأوّه من الذنوب

ويقولون في الباطل هو الضلال بن بهلل او شهلل او فهلل وكلها من اسماء الباطل لا يُعرَف ومعناهُ باطل بن باطل اما قولهم هيّان بن بيّان فهو كناية عمّن لا يُعرَف ابوهُ وكذا هيُّ بن بيّ وجاء بقرني حمار يعني جاء بالكذب والباطل لان الحمار لا قرن لهُ وجاء بالضلّال بن البهلل يصفون بذلك مَن ينكرون عليهِ احاديثهُ

وينتهرون الكذاب بقولهم صهْ صافع ومعناهُ اسكت ياكذاب وينتهرون مَن اتاهم من الغير بما يكرهونهُ من شتمٍ وجهُ المحرّشِ اقبحُ وهو مثل قول العامة ما شتمك الّا الذي بلّغك ولمن يتضجرون من كلامهِ او فعالهِ خسا وهي لفظة ينتهرون بها الكلاب ايضًا وإذا انكروا امرًا وارادوا ذمّ فاعلهِ حقيقةً قالوا اخزاهُ الله وقبّحهُ الله او قالوا افٍّ ونفٍ اما افٍّ فهي من الافف وهو الضجر والاف ايضًا وسخ الاذن والتف وسخ الظفر وهو ضد بخٍ بخٍ التي مرّ ذكرها ويقولون ايضًا أُفًّا لهُ اي قذرًا للتنكير او يقولون اخٍ ونفٍ فالتف قد مر ايضاحهُ واما الإخ فمعناهُ التذر ايضًا . وقولهم حجرًا لهُ معناهُ دفعًا لهُ يقال في الاستعاذة من الامر المكروه

ويقولون في التحقير لمن ارادوا ان يصغروا اليهِ نفسهُ يا حِبِقّة بالحاء والخاء معًا مكسورتين ومعنى الحِبِقّة التصغير ولمن يكرهون طلعتهُ حَدَادِ حَدِّيهِ والمعنى

ايها الرادّة رُدّيهِ ويقولون للرجل القليل الخير انهُ لنكد الخطيرة يريدون بالخطيرة امواله

ومن عادة العرب الدعاء في موضع المدح عند شدّة الاعجاب من المتكلم اوسماعهم منهُ ما لا يتوقعونهُ في الحضرة قال الزوزني ان العرب تفعل ذلك حرمًا لعين الكمال عن المدعو عليهِ قال الشاعر

رمى الله في عيني بثينة بالقذى　　وفي الغرّ من انيابها(١) بالقوادح (٢)

ومن ذلك قولهم قاتلهُ الله ما افصحهُ والمعنى لا كان لهُ غير الله قاتلاً اي انهُ لا قرن(٣) لهُ يقدر على قتالهِ غير الله ونظيرهُ ايضًا لا عدَّ من نفرهِ وثكلتهُ امهُ وهبلتهُ امهُ وهو مثل ثكلتهُ وثكلتهُ الجَثَلُ اي الام والزوجة والجثل الشعر الكثير فيكون المعنى ثكلتهُ ذوات الجثل وقيل الجثل قيّمات(٤) البيوت وقيل غير ذلك ويقولون ايضًا هوت امهُ اي سقطت قال الشاعر

هوت امهُ ما يبعث الصبح غاديًا(٥)　　وماذا يؤدّي الليل حين يؤُوبُ(٦)

واما قولهم ويلك فمعناهُ الويل لك وتقال ايضًا في مثل هذا المقام واما بوحاك فقد قال بعضهم انها كلمة ترحّمٍ كويحك وويحك كلمة ترحم وقيل بمعنى ويل وقال الميداني أنيَ فلانٌ ويسا اي لقي ما يريد قال الخليل لم يُسمَع على هذا البناء الاَّ ويح وويس وويه وويل وقالوا ويك وويب وكلها متقاربٌ في المعنى الاَّ ويح وويس فانهما كلمتا رأفةٍ واستعجاب

واما في الدعاء حقيقةً فيقولون لمن يتفاءلون من كلامهِ بفيك الحجر ولمن ارادوا اهلاكهُ استأصل الله عرقاتهِ والعرقة هي الطرّة تنسج فتدار حول

(١) الناب السن ج انياب　　(٢) القدح الطعن والاعابة
(٣) القرن الكفوء والنظير بالشجاعة والمقاوم　　(٤) القيم على الامر متوليهِ
(٥) الغدو الذهاب غدوةً ثم كثر حتى استعمل في الذهاب والانطلاق اي وقت كان
(٦) الاوب الاتيان من كل مكان وناحية

الفسطاط فتكون كالاصل لهُ ويقولون بهِ لا بظبيٍ اعفر وهو من قول الفرزدق لما نعي اليهِ زياد بن ابيهِ

اقول لهُ لما اتاني نعيهُ بهِ لا بظبيٍ بالصريمة اعفرا

وبهِ لابكلبٍ نابحٍ بالسباسب[1] يقولونهُ للشماتة ويقولون لمن يريدون نهيهُ عن امرٍ يكرهونهُ لاتفعل ذلك امك حالقٌ اي انكلها الله حتى تحلق شعرها حزنًا عليهِ . وبسلاً لهُ اي ويلاً لهُ وبسلاً واسلاً[2] دعاء عليهِ وبسلاً بسلاً معناهُ امين امين ايضًا اما قولهم بَغُضَ جدُّك فهو كتعس جدُّك وبغض يعدوك عينًا ونبّ فلانٌ اي هلكَ وتبت يداهُ خلتا وخسرتا وتبًا لهُ بالنصب على المصدر اي الزمهُ الله هلاكًا وخسرانًا وثلّ الله عرشهُ اي اماتهُ واذهب ملكهُ او عزّهُ وعثر جدُّهُ وتعِس جدُّهُ اي هلك وذبل ذبلةً وذبلاً ذابلاً وذبلاً ذبيلاً اي ماله اذبلهُ الله وارى الله بهِ اي ارى الناس بهِ العذاب والهلاك ويقولون للمرأة لاحظي رُفغكِ دعاء عليها يراد بهِ لا رزقك الله زوجًا ويقولون للغلام لا اشب الله قرنك اي لا جعلهُ يشب ولا طال عمرك وقولهم اشعب الله عيش فلان يريدون بهِ شدّدهُ اي جعلهُ صعبًا واضحى الله ظلهُ اي اهلكهُ واكزّهُ الله تعالى دعاء بالسوء لان الكزاز داء من شدّة البرد ولا كان ولا تكوّن ولحاهُ الله اي لعنهُ ولا هداهُ الله اي لا اسكن عناهُ واهةً لهُ ولليدين وللفم اي اسقطهُ الله عليها ورماهُ الله بافعى حارية يعني التي تنقص جسمها من الكبر فلا تبقي لديغها بل تقتل من ساعتها ورماهُ الله بالصدام والاولق والجذام فالصدام داء ياخذ في رؤوس الدواب والاولق الجنون ورماهُ الله بليلةٍ لااخت لها اي بليلةٍ يموت فيها ورماهُ الله بدَينهِ يعنون بهِ الموت لانهُ دينٌ على كل احدٍ ورماهُ الله من كل اكمة بحجرٍ وعلى الشرف الاقصى فابعدهُ اي باعدهُ الله واسحقهُ وعقرًا او حلقًا وهو دعاء

---

(١) السباسب المفاوز والارض البعيدة المستوية

(٢) الأسل الرماح ورأس النعل وغير ذلك

يقال في الدعاء بالهلكة ويقال للمرأة عقرَى حلقى اي انها تعقر قومهـــا وتحلقهم بشؤمها . وعليهِ العقار والديار وسوء الدار وعليهِ العفاء والذئب العواء والعفاء هو الاندراس والبلى والهلاك ووريًا يقطع العظام بريًا اي وراهُ الله وريًا وهو ان ياكل القيح جوفهُ وجدع[1] الله مسامعهُ واجنَّ الله جبالهُ اي اسكنها الجنَّ فهي موحشةٌ ورماهُ الله بداء الذئب يعني الجوع وقيل بالموت لان الذئب لا يصيبهُ من العلل الاَّ علة الموت ورماهُ الله بالطلاطلة والحمى الماطلة والطلاطلة الداء العضال لا دواء لهُ واصمَّ الله صداهُ[2] وولج الرجَم واسخن الله عينيهِ ولا صحبهُ ولا وسعَ عليهِ ويقولون في الدعاء على المسافر لاقيت اخبلا (راجع الفصل الرابع من المقالة الرابعة) وصفرت يداهُ من كل خيرٍ اي خلت ومنهُ المثل صفرُ اليدين وتربَتْ يداهُ اي افتقرت ولا ترك الله لهُ واضحةً اي لا ابقى لهُ شيئًا وقيل يراد بهِ المال الظاهر ويقولون في الدعاء على القوم اباد الله خضراءهم قال الاصمعي معناهُ اباد الله نعمتهم وخصبهم ومنهم مَن يقول اباد الله غضراءهم اي خيرهم وقال آخرون بهجتهم وحسنهم قال الشاعر

احثوا التراب على محاسنهِ وعلى غضارة وجههِ النضرِ

ويقولون ابدى الله شوارهُ والشوار الفَرْج اي ازال عنهُ الستر ويجنبهِ فلتكن الوجبة يعني داء الجنب فكانهُ دعاء عليهِ بالموت وبؤسًا لهُ وتوسًا لهُ وحوسًا لهُ وهي كلها بمعنى واحدٍ بلا فرق وبهرًا لهُ اي ينزل عليهِ ما يبهرهُ وهو مثل جدعًا لهُ وثبتَ لبدهُ ويراد باللبد هنا لبد فرسهِ فانهُ اذا ثبت لبدهُ لم يرَ في رحلهِ خيرًا لانهم يجلبون الخير لانفسهم من الغارة ويقولون ايضًا لا حلبتَ ولا أُحلبتَ وقال رجل لرجل يدعو عليهِ ان كنت كاذبًا فحلبت قاعدًا وشربت

(١) الجدع القطع وجدعًا لهُ يعني الزمهُ الله الجدع اي قطع عنهُ الخير وجعلهُ ناقصًا معيبًا (٢) اصمَّ الله صداهُ اي اهلكهُ لان الرجل اذا مات لم يسمع الصدى منهُ شيئًا فيجيبهُ والصدى هو الذي يجيبك مثل صوتك في الجبال وغيرها ويقولون صُمَّ صداهُ على المجهول يعني مات

بارداً اي حلبت شاةً لا ناقةً وشربت بارداً على غير ثقلٍ

وكانوا اذا شتم الرجل منهم عدواً لهُ نسب امهُ الى الفحش بقولهِ لهُ يا ابن الفاحشة ويا ابن الخنا اي يا ابن المنتنة ويا ابن شأمة الوزر فالشائم الذي يجرّ الشومَ والوزر الاثم والثِقَل ويا ابن ذات الرايات والراية العَلم والعلامة المنصوبة للرؤية ويا ابن تُرنى يعني يا ابن الزانية ويا ابن المراغة والمراغة الارض التي يتمرّغ عليها الدواب ويا ابن الفاعلة ويا ابن اثاء طاء اي يا ابن الأمة ولا امّ لك يعني ليس لك امٌّ حرّة وهذا هو الشتمُ الصحيح قاله الميداني عن ابي سعيد الضرير لان بني الاماء عند العرب ليسوا بمحمودين ولا لاحقين غيرهم من ابناء الحرائر (راجع ما يتعلق بالاولاد في الفصل الرابع من المقالة الثالثة) فاما اذا قالوا لا ابا لك فانهُ لم يُترك لهُ شيء من الشتيمة وقال الزوزني لا ابا لك كلمة جافية لا يراد بها الجفاء وانما يراد بها التنبيه والاعلام وكذلك ينسبون لمن يريدون شتمهُ ما يشين عرضهُ فيقولون لهُ يا ابن القرنانِ[1] وامثال ذلك واذا سبّوا امرأةً قالوا لها يا خبَاث كما يقولون للرجل يا خُبَث ويا لَكاع للمرأة ايضاً بالبناء على الكسر كقطام اي لئيمة قال الحطيئة يهجو امرأتهُ

اطوّفُ ما اطوّفُ ثم آوي   الى بيتٍ قعيدتهُ[2] لَكاعِ

ولا تكاد تستعمل الاَّ في النداء ويشتمُ نساء العرب بعضهنّ بلفظ جيثلوطة وقد ظنّ بعضهم ان معناهُ الكذابة او السلاحة ويا خزاقِ معدول عن الخزق بمعنى الذرق اما قولهم يا بُنظُر فهو شتمٌ للامة قبيح المعنى واذا سبّوا ولداً قالوا لهُ يا ولد الزناء وتربية الخناء ويا ابن اللكعاء ويا ابن اللقيطة وغير ذلك من النسب القبيحة والالفاظ المستهجنة البربرية

وتقول العرب في التهديد الشديد المحقّق لاكوينّك كيّةَ المتلوّم والمتلوّم

---

(١) قرن الرجل من يشاركهُ في قرينتهِ اي زوجتهِ والقرنان الديوث الذي لا غيرة له لمشاركه في زوجته   (٢) القعيدة المرأة لقعودها في البيت

الذي يتتبع الداء حتى يعلم مكانهُ ولاريَّنك لمَحًا باصرًا اي امرًا مفزعًا ولالحقنَّ حواقنك بذواقنك والحواقن ما سفُل من البطن ولاطعننَّ في حوصك اي لاكيدنّك واجتهد في هلاكك ولاقيمنَّك على النَّزِ والنزُّ الخيط يقدِرُ به البنّاء بِنَّه على البناء ولاقيمنَّ اخدعيك اي لاذهبنَّ كبرَك ولاقيمنَّ قذَلك والقذل الميل والجور ويروى حدلك اي عوجك ويروى صعرك اي ميلك ويقولون ايضًا لئن التقى روعي ورُوعكَ لتندمنَّ على مفارقتي لانك تجدني أعدل منك واقدر على دفع شرّك

ويحكى ان الحجاج بن يوسف الثقفي قال لانس بن مالك لاقلعنّك قلع الصمغة (يعني كما تقلع الصمغة من شجرتها حتى لاتبقى عليهـا علقة) ولاجزرنّك جزر الضُرْب (الجزر النحر والذبح والضُرْب ثرب البطن وهو شحم رقيق يغشي الكرش) ولاعصبنّك عصب السلمة (السلمة شجرة اذا ارادوا قطعهـا عصبوا اغصانها عصبًا اي شدًّا شديدًا حتى يصلوا الى جذعها فيقطعوهُ)فقال انس مَن يعني الامير قال اياك اعني اصمَّ الله صداك فكتب انس بذلك الى عبد الملك ابن مروان فكتب عبد الملك الى الحجاج يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب(المستفرمة هي التي اشتدّت شهوتها للاكل والعجم النوى) لقد هممت ان اركلك ركلةً تهوي منها الى نار جهنم (الركل الضرب برجلٍ واحدة) واضغمك ضغمةً كبعض ضغمات الليوث الثعالب (الضغم العضّ) واخبطك خبطةً تودّ انك زاحمت مخرجك من بطن امك قاتلك الله أُخيفشَ العينين (الخفش ضعف البصر خلقةً او هو فساد في الجفون بلا وجع او ان يبصر في الليل دون النهار ومنهُ الخفاش طائر يعمى في النهار ويبصرُ في الليل) اصكَّ الاذنين (الأَصكُّ المضطرب ولعلهُ هنا ضعيف السمع) اسود الجاعرتين (الجاعرة الاست او حلقة الدبر والجاعرتان مثنّى الجاعرة) احمش الساقين (يعني دقيقهما وفي محيط المحيط الحمشاء العظيمة الركب

ويقولون في التهكم[1] لا ابقى الله عليك ان ابقيت عليَّ وهو يقال للمتوعد

(١) التهكم الاستهزاء والازدراء

ومعناهُ لا بقيت ان ابقيتني يعني لا تألُ جهدًا في الأساءة اليَّ ان قدرت . ولا تبقِ الأَّ على نفسك ومعناهُ افعل ما تقدر عليهِ فلست ممن يبالي بوعيدك[1] ويقولون ايضًا لا تبرقل علينا وهو مأخوذ من البرق بلا مطر ومعناهُ الكلام بلا فعل يقولونهُ للمتصلف[2] قال الكميت

ابرق وارعد يا يزيـ ـدُ فما وعيدُك لي بضائر

وبرِّق لمن لا يعرفك وتحسبهُ جادًّا وهو مازح يقال لمن يتهدد وليس وراءهُ ما يحققهُ . وجلاء الجوزاء وذلك ان الجوزاء تطلع غدوةً فتأتي بريح شديدة ثم تسكن واما في الازدراء فيقولون دعهُ يترمع في طمتهِ اي يتسكع[3] في ضلالهِ او يتلطخ في سلحهِ[4] وما ادري ايُّ مَن وجَّن الجلد هو يعني اي الناس هو وما ادري اي أودكٍ هو ومعناهُ كالذي

قبلهُ

---

(١) الوعد يكون في الخير والوعيد في الشر يقال اوعده اي وعدهُ شرًّا

(٢) الصلف الاعجاب والتكبر وصلف الرجل يصلف صلفًا تمدح بما ليس عندهُ اعجابًا وتكبرًا

(٣) الكسع هو ان يمشي الانسان مشيًا متعسفًا لا يدري اين ياخذ

(٤) السلح الغائط قيل هو خاص بالطير والبهائم اما استعمالهُ للانسان فهو من باب التساهل

الجزء الثاني

المقالة السادسة

في اخلاق العرب وشجعانهم وفصحائهم وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في اخلاق العرب وطباعهم

حبُّ الحرية والاستقلال صفةٌ طبيعيةٌ لكل سكان الخيام وهو مغروسٌ في قلوب الامة العربية فلا شيء يعادل عندهم الحرية حتى ان كل شخصٍ منهم يظنُّ بنفسهِ انهُ ملك مستقل ولذلك كانوا يصفون كل خالص نقي بالحرية قال الزوزني الحرُّ من كل شيء خالصهُ وجيدهُ ومنهُ قولهم طينٌ حرٌّ يعني لم يخالطهُ رمل ومنهُ احرار البقول وهي التي تؤكل منهـا وحرّ الملوك خلص من الرق وارضٌ حرّةٌ لا خراج عليها وثوبٌ حرٌّ لا عيب فيهِ اه . ولكن مع هذا كلهِ كان في اخلاقهم من المساوئ والعيوب بقدر ما كان عندهم من الفضائل التي تجذب بمحاسنها القلوب

اما مساوئهم فهي كما ان البدو منهم اعتادوا على قطع الطريق والنهب والسلب وغزو بعضهم بعضاً كذلك الحضَر منهم قد الفوا الغشّ والخداع في معاملاتهم وتجاراتهم قال بعض المؤلفين ان قطع الطريق الذي هو صناعة

لبعض قبائل العرب الذين يقال لهم البدو هو مستعوض عند الحضر بالغش والخداع في التجارة ومع ذلك كان فيهم قديمًا شهرة عظيمة في الكرم والامانة وحفظ الجوار والحذاقة ولهم بعض المعارف وخاصةً نظم الشعر كما يتضح ذلك مما ياتي

وقد بلغ من درجة مساواة محاسنهم لمساوئهم ان من عرّاهُ شيخٌ من مشائخ العرب اذا دخل خيمة ذلك الشيخ من غير ان يعرف بانهُ هو الذي عرّاهُ فيرق الشيخ لحالهِ ويكسوهُ غير كسوتهِ التي اختلسها منهُ ويغضي ان كان عارفًا بهِ انهُ هو المعرّي لهُ

وقال ابن خلدون ان البدو لم تستحكم فيهم الصبغة الدينية لما ان كثرة فسادهم هو من طبيعة معاشهم وان توبتهم ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب واكثر ما يعنون باصلاح السابلة ولا يعقلون في توبتهم الى مناحي الديانة

ومن مساوئهم انهم لا يسعفون الغرقى الذين تنكسر بهم السفائن على شطوط بلادهم بل ربما من يأتي على المسافرين يأخذهم ويسلب ما بقي لهم ثم يبيعهم في صورة ارقاء وكذلك يخفون آبار الصحاري عن اعين المسافرين حتى يهلكوا من العطش ثم يسلبون امتعتهم

وقد تخلد ذكر البعض من قدمائهم بما اتقنوهُ من فن اللصوصية حتى ضُرِبت بهم الامثال فيهِ كالسُلَيك بن السُلَكة وسوف ياتي ذكرهُ وشظاظ رجل آخر من بني ضبة وهو من ولد الجعد بن قيس بن قنان بن هاشة وكان شريفًا وبرجان وتاجة وابو حردبة وكلهم من حذّاق اللصوص في الجاهلية فيقال في المثل أسرق من شظاظ ومن تاجة وهكذا الى آخرهِ ويسمونهم ذؤبان العرب يعني ذئاب العرب

ومنهم من اشتهر بالظلم ايضًا كرجلٍ يقال لهُ الخيفقان كان مفرطًا فيهِ حتى ضربوا بهِ المثل فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بذلك أظلم من الخيفقان وقد ضرِب المثل بهذه الالفاظ عينها في العصر الاسلامي بالحجاج بن يوسف وقد

مرَّ ذكرهُ فيقولون أظلم من الحجاج وأسفك من الحجاج فانهُ كان سفَّاكاً للدماء

ومنهم مَن اشتهر بالفتك كالحرث بن ظالم فانهُ كان فتاكاً جسوراً والبرّاض وهو ابن قيس الكناني والجحاف وهو ابن حكيم السلمي وعمرو بن كلثوم فيوصف بهم من كان من هذا القبيل في الجاهلية والاسلام

ومنهم مَن اشتهر بالغدر وكان اعظمهم في الجاهلية بنو سعد بن تميم وكانوا يسمون الغدر فيما بينهم عند ما يريدون استعمالهُ بكنيةٍ وضعوها لهُ وهي كيسان قال النمر بن تولب

اذا كنت في سعدٍ وامك منهمُ غريباً فلا يغررْكَ خالك من سعدِ
اذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم الى الغدر ادنى من شبابهم المردِ

ولذلك سمَّوهم كناة الغدر وضربوا بهم المثل فقالوا اغدر من كناة الغدر كما يقولون أغدر من قيس بن عاصم ومن عتيبة بن الحرث ولكل منهما حديث يطول شرحهُ قال ابو عبيدة ان قيساً بن عاصم كان أغدر العرب (وهو الذي كان يئد البنات في الجاهلية راجع الفصل السادس من المقالة الرابعة)

ومنهم من لم يكتفِ بفضيحة الغدر فقط بل اضاف الى ذلك رذيلة من اشنع الرذائل واقبحها وهي ما رواهُ مسيو دنيغ الفرنسوي في كتابهِ المسمَّى ديوان قلائد المفاخر في غريب عوائد الاوائل والاواخر بان اهل البدو متى وصل الانسان الى اعتابهم وجب عليهم اكرامهُ واحترامهُ واطعامهُ ما تيسر عندهم وتسليم صاحب البيت فرشهُ لهذا الضيف اذا أحوج الامر الى ذلك حتى انهُ لو استضافهم احد اعدائهم لعاملوهُ هذه المعاملة عينها ودام عندهم في امان الى ان يخرج فمتى خرج قتلوهُ وهنا يقصر الذهن في التمييز بين رذيلتين لا يمكنهُ ان يحكم على ايتهما هي اعظم من الاخرى هل الغدر الشنيع او تسليم صاحب البيت فرشهُ الى ذلك الضيف المنكود الحظ المزمع ان يغدر بهِ (راجع الفصل الثالث من المقالة الخامسة)

ومنهم مَن اشتهر بالدهاء والتحيّل كلقمان بن عاد طبيب العرب وقصير ابن سعد اللخمي صاحب جذيمة الابرش وهو الذي جدع انف نفسهِ احتيالاً على الزباء ملكة الجزيرة ليتمكن جذيمة المذكور من قتلها ولذلك قالوا في امثالهم لامرٍ ما جدَع قصير انفهُ وقال عامر الشعبي الدهاة اربعة معاوية ابن ابي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن ابية وهولاء الاربعة في الاسلام

وكانت الزباء المذكورة تسمَّى الفارعة وقيل هند (راجع زرقاء في الفصل الثاني من المقالة الخامسة) وسمّيت الزباء لطول شعرها. يحكى انها كانت اذا مشت سحبتهُ وراءها واذا نشرتهُ جلّلها ولم يُرَ في نساء زمانها اجمل منها ويضرَب بها المثل في العزَّة فيقولون لمن ارادوا المبالغة في عزّهِ اعزُّ من الزباء

واما جذيمة الابرش المذكور فتصفهُ العرب بالكبر وتجعلهُ غايةً فيهِ. ويحكون عنهُ انهُ كان لا ينادم احدًا لتكبرهِ ويقول انما ينادمني الفرقدان ولذلك يقولون في امثالهم كندماني جذيمة وقيل بل لما فقد ابن اختهِ عمرو بن عديّ وجدهُ رجلان يقال لهما مالك وعقيل من بلقين فلما قدما بهِ عليهِ حكَّمهما في المكافأة فاختارا منادمتهُ ما عاش وعاشا فاصطحبا في منادمتهِ اربعين سنة حتى فرّق الموت بينهم

وكذلك يصفون بالكبر بني مخزوم وبني أُمية من قريش وبني جعفر بن كلاب وبني زرارة بن عدي من باقي العرب

ومنهم من اشتهر بالحمق ويضربون المثل فيهِ برجل يقال لهُ جحا من فزارة ويكنى ابا الغصن دفن مالهُ تحت ظل سحابةٍ ليعرف موضعهُ ثم اقشعت السحابة فلم يهتدِ اليهِ فقالوا احمق من جحا ومن هبنّقة وهو رجل نظم ودَعًا في سلك وجعلهُ في عنقهِ علامة لنفسهِ لئلا يضيع فقيل انهُ ذو الودعات واسمهُ يزيد بن ثروان احد بني قيس بن ثعلبة ويقولون ايضًا احمق من ابي غبشان وهو الذي باع مفاتيح الكعبة بزقّ خمر (راجع سدانة الكعبة في آخر الفصل الثاني من المقالة الرابعة) ومن حُدُنَّة يقال انهُ احمق مَن كان في العرب على وجه الارض

ومن عجل وهو رجل كان لهُ فرس جواد فقيل لهُ ان لكل فرس جواد اسمًا فما اسم فرسك ففقأَ عينهُ وقال سميتهُ الاعور . ومن حجينة ومن المهورة من نعم ابيها او من مال ابيها ومن المهورة احدى خدمتيها ومن دُغَة وهي امرأة كانت حاملاً فدخلت الخلاء فولدت وهي لا تعلم ما الولد فخرجت تسأل جارتها ما هو ذلك وكانت من تميم فبنو تميم يعيّرون بذلك ويقال للمنسوب منهم يا ابن الجعراء ويقولون ايضًا احمق من شرنبث وهو رجل من بني سدوس ومن بَيهس الملقب بنعامة ومن ربيعة البكّاء وهو ابن عامر بن صعصعة ومن الدابغ على النحلي ومن راعي ضأْن ثمانين ومن لاطم الإشغى بخدّهِ والاشغى هو المثقب والسراد يخرز بهِ ومن الممتخط بكوعهِ ومن الربع ولكل منهم قصة يطول شرحها فاضربنا عنها تخفيفًا لجرم الكتاب ويتمثلون ايضًا بحماقة امرأة من قريش يقال لها ام ربطة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرّة وهي التي أُنزلت فيها الآية ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها قال المفسرون انها كانت تغزل وتأْمر جواريها ان يغزلنَ ثم تنقض وتامرهنَّ ان ينقضنَ ما فتلنَ فقالوا في المثل أَخرق من ناقضة وفي اللغة خرق حمق فهو أَخرق وهي خرقاء

ويضربون المثل في الغلط برجل يقال لهُ دالق كان كثير الاغلاط فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بذلك اغلط من دالق

ويضربون المثل في البلادة والعيّ برجل يقال لهُ باقل من ربيعة وقيل من اياد فيقولون اعيا من باقل

ومنهم مَن اشتهر بالخنث وهو ان يكون الرجل فيهِ لين النساء وحركاتهنَّ المهيجة وضرب المثل في ذلك برجل من الجاهلية يقال لهُ ابو جهل عمرو بن هشام المخزومي وهو الذي أُنزلت فيهِ آية تبّت يدا ابي لهب وامرأَتهُ ام جميل اخت ابي سفيان بن حرب ابي معاوية ويقولون ايضًا اخنث من هيت ومن دلال واسمهُ نافذ وكنيتهُ ابو يزيد ومن طويس وهم من اهل المدينة ودلال وطويس كانا من اشهر المغنين في مبادئ الاسلام .

اما ام جميل المذكورة فهي التي سمّيت بحمالة الحطب في سورة تبّت يدا ابي لهب ولذلك قالوا في المثل اخسر من حمالة الحطب كما قالوا اخسر من ابي غبشان وقد مرَّ ذكرهُ ومن مغبون

واشتهر في الخيبة رجل يقال له حنين حكي عنهُ انهُ كان وُلِد لهاشم بن عبد مناف في حيٍّ من احياء اليمن فسماهُ جدهُ ابو امهِ بهذا الاسم ثم لما شبَّ ارسلهُ الى قريش فلم يقبلهُ رهط هاشم حيث لم تكن معهُ علامة عليهِ فردُّ الغلام الى اهلهِ فحين رأوهُ قالوا جاء بخفي حنين اي جاء خائبًا حين جاء في خف نفسهِ ولو قبل لالبسوهُ خف ابيهِ وقيل غير ذلك والحاصل انهم ضربوا فيهِ المثل فقالوا اخيب من حنين كما قالوا اخيب من القابض على الماء

وضربوا المثل في الطمع برجل يقال لهُ اشعب كان في الاسلام وكانت تكفلهُ عائشة بنت عثمان هو وابا الزناد صاحب الحديث وربتهما سوية لكنهُ كان طماعًا مفرطًا حكى عن نفسهِ فقال كنت اسفل وكان ابو الزناد يعلو حتى بلغت انا وهو هاتين الغايتين وسئل ذات يوم هل رأيت اطمع منك قال نعم شاةً لي صعدت الى السطح فنظرت قوس قُزَح فظنتهُ حبل القتّ اي الفصفصة فاهوت اليهِ فسقطت من السطح فاندقت عنقها فاخذوا عن هذا الرجل الماجن هذه الخرافة وقالوا في المثل اطمع من شاة اشعب كما قالوا اطمع من اشعب

واشتهر في البخل جماعة من العرب ايضًا لكنهُ لم يضرَب المثل صراحةً الاَّ برجل يقال لهُ مخارق من بني هلال بن عامر بن صعصعة . حكي عنهُ انهُ مدر حوضًا بسلحهِ لتعافهُ ابل غيرهِ فلا تردهُ ولذلك قالوا في المثل ابخل من مادر كما قالوا ابخل من ذي معذرة ومن الضنين بنائل غيرهِ فلا يصرّحون باسم

يحكى انهُ لما قرِئَ على ابي عبيدة حديث مادر ضحك فقيل لهُ ما الذي اضحكك فقال تعجبي من تسيير العرب الامثال لو سيّروا ما هو اهم منها لكان ابلغ لها فقيل مثل ماذا قال مثل مادر هذا جعلوهُ عَلَمًا في البخل بفعلة تحتمل التأويل وتركوا مثل ابن الزبير مع ما يؤثر من لفظهِ وفعلهِ من دقائق البخل فتركوهُ

كالغفل من ذلك انهُ نظر الى رجل من اصحابهِ وهو يومئذٍ خليفة يقاتل الحجاج على دولتهِ وقد دق الرجل في صدر اهل الشام ثلاثة ارماح فقال لهُ يا هذا اعتزل عن حربنا فان بيت المال لا يقوى على مثل هذا

وقال بعض المؤلفين ان بخلاء العرب اربعة الحُطيئة وحميد الارقط وابو الاسود الدوئلي وخالد بن صفوان . اما الحطيئة فمرَّ بهِ انسان وهو على باب دارهِ وبيدهِ عصًا فقال انا ضيفٌ فاشار الى العصا وقال لكعاب الضيفان اعددتها . واما حميد الارقط فكان هجّاءً للضيفان فحّاشًا عليهم نزل بهِ مرة اضياف فاطعمهم تمرًا وهجاهم وذكر انهم اكلوهُ بنواهُ . واما ابو الاسود الدوئلي نسبة الى دؤل الكناني وفي اللغة الدؤل ابن آوى والذئب ودويبة شبيهة بابن عرس يقال انهُ تصدق على سائل بتمرة فقال لهُ جعل الله نصيبك في الجنة مثلها وكان يقول لو اطعنا المساكين في اموالنا كنا اسوأ حالاً منهم . واما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم اذا دخل عليهِ يا عيّار كم تعيّر وكم تطوف وكم تطير لاطيلنَّ حبسك ثم يطرحهُ في الصندوق ويقفل عليهِ

ومن البخلاء ايضًا عمرو بن يزيد الاسدي صاحب شرطة الحجاج امر غلامهُ ان يجمع الدهن الذي نزل من الحقنة ليسرج بهِ

والخليفة المنصور العباسي الذي انعم على مسلم او هو سلام الحادي وكان يحدو لهُ في ذهابهِ وايابهِ الى الحج بغير مؤونة بنصف درهم

وابو العتاهية الشاعر المشهور ومروان بن ابي حفصة والمتنبي الشاعر ومحمد بن الجهم وسهل بن هرون واهل مرو ولكل منهم حديث عجيب في البخل يطول شرحهُ قال جرير يهجو بني تغلب

قومٌ اذا اكلوا اخفوا كلامهمُ … واستوثقوا من رتاج الباب والدارِ
قومٌ اذا استنبح الضيفان كلبهمُ … قالوا لامهم بولي على النارِ
فتمنع البول شحًّا ان تجود بهِ … وما تبول لهم الاَّ بمقدارِ

ولنكتفي بهذا المقدار مما وُسم بهِ البعض من العرب من المساوئ والعيوب ونستطرد من ذلك الى الكلام على هذه النار التي تدل عندهم على الجود والكرم ونلحقها بما وُجد في مناقب آخرين منهم من كل نوعٍ مرغوب فنقول

لا يخفى ان العرب تفتخر بكثرة النيران لانها اعظم برهان عندهم على كثرة الاطعمة التي هي من اتحف الاشياء واعزّها لديهم لندرتها وتكون دليلاً للضيوف فيقصدونها ولذلك يسمّونها نار القرى يعني نار الضيافة قال بعض الافرنج ان السبب الاصلي في افتخار العرب بعمل الولائم واطعام الطعام هو لكي يظهروا بذلك شبعهم

يُحكى عن رجل يقال لهُ حاتم الطائي واسمهُ عبد الله بن سعد بن الحشرج ابن امرء القيس بن عدي بن اخزم بن ربيعة بن نعل بن الغوث بن طيّ وكان اسمهُ جلهمة فسمّي طيئًا لانهُ اول من طوى المناهل ومعنى حاتم قاضٍ والحاتم ايضًا الغراب وغراب البين وقد مرَّ ذكرهُ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة سُمي بذلك لانهُ يحتم عندهم بالفراق وكان حاتم المذكور من شعراء العرب وخطبائهم المشهورين ويكنى بابنتهِ سفانة وبهِ يضرَب المثل في الكرم فيقال اكرم من حاتم طيّ لانهُ كان جوادًا متلافًا قال الشاعر

ان السماحة والمروءة والندى في قبةٍ ضُرِبت على ابن الحشرجِ

يقال عنهُ بانهُ متى اظلم الليل يقيم غلامًا لهُ يوقد النار لتهتدي بها الضيفان ويقول لهُ

اوقد فان الليل ليلٌ قرّْ عسى يرى نارك مَن يمرّْ
ان جلبت ضيفًا فانت حرّْ

وكانوا اذا اشتد البرد وهبت الرياح ولم تشب النيران فرقوا الكلاب حول الحي وربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح فتهتدي الضلاَل وتاتي الاضياف على نباحها ولذلك يسمّون الكلب داعي الضمير والضمير الغريب ومتمم النعم

ومشيد الذكر لما يجلب من الاضياف بنباحهِ

والذين انتهى اليهم الجود بين العرب وضُرِبت بهم الامثال في الكرم غير حاتم المذكور كعب بن مامة الاياديّ وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله الآتي ذكرها وانما اشهرهم كعب وحاتم المذكورين قال ابو تمام الطائي

كعبٌ وحاتمٌ اللذان تقاسما خطط العُلى من طارفٍ وتليدِ[1]
هذا الذي خلف السحاب ومات ذا في المجد ميتة خضرمٍ صنديدِ[2]

يريد بالذي خلف السحاب حاتمًا لجودهِ كما يجود السحاب بالمطر واما الذي مات في المجد ميتة الخضرم الصنديد فهو كعب بن مامة فان هذا الرجل بلغ من كرمهِ انهُ مات لكونهِ سقى نصيبهُ من الماء يومين لرجل نمريّ وكان في ركبٍ وكانوا يتصافنون الماء في شهري ناجر وما كان يعرف ذلك النمري وانما كان النمري يشخص اليهِ فقط عند ما ينتهي العقب الى كعب المذكور ولذلك ضرب بهِ المثل في تفضيل الرجل صاحبهُ على نفسهِ فيقال اجود من كعب ابن مامة

واما هرم بن سنان فهو ابن ابي حارثة المرّي وقد سار بذكر جودهِ المثل فقيل اجود من هرم قال زهير بن ابي سلمى

ان البخيل ملومٌ حيث كان ولا كن الجواد على علاتهِ هرمُ
هو الجواد الذي يعطيك نائلهُ عفوًا ويظلم احيانًا فينظلمُ

يحكى ان الامام عمر بن الخطاب سأَل ابنة هرم ما كان الذي اعطي ابوكِ

---

(١) الطارف المال المكتسب والتليد المال الموروث ومما يتبع ذلك ايضاً المال اذا كان مدفونًا فهو ركاز واذا كان لا يرجى فهو ضمار فاذا كان ذهبًا وفضةً فهو صامت واذا كان ضيعةً ومستغلاً فهو عقار

(٢) الخضرم السيد الجواد والصنديد السيد الشجاع والحليم والكريم والشريف وغير ذلك

زهيرًا حتى قابلهُ من المديح بما قد سار فيهِ المثل فقالت أعطاهُ خيلاً تنضى[1] وإبلاً تتوى[2] وثيابًا تبلى وما لاَ يفنى فقال عمر لكن ما اعطاكم زهير لا يبليهِ الدهر ولا يفنيهِ العصر

واما خالد بن عبد الله فحكى عنهُ بانهُ جاء اليهِ بعض الشعراء ورجلهُ في الركاب يريد الغزو وانشدهُ

يا واحد العرب الذي ما في الانام لهُ نظير
لو كان مثلك آخرٌ ما كان في الدنيا فقير

فامر لهُ بعشرين الف دينار فاخذها وانصرف

وهنا ينبغي ان نلاحظ الفرق في العرب بين الجاهلية والاسلام والبدو والحضر فان البدوي نعم انهُ لم يتكرَّم في ظاهر الامر الا بشربةٍ من الماء لكنهُ مات بسببها واما الحضري فانهُ انعم بعشرين الف دينار من اجل كلمةٍ اذا صحَّ ما قيل ولم يتأثر لها

والسبب في ذلك ان البدو من العرب كانوا يسكنون في اراضٍ عقيمة وليس لهم حرفة يتعيشون منها الاَّ النهب والسلب فكان لا يمكن للجوَّاد منهم ان يتصدق بشيء أجلَّ مما بذل نفسهُ لاجل الحصول عليهِ كحصةٍ من طعامهِ وشرابهِ او بخلقٍ بالٍ من كسوتهِ ومتى فعل ذلك حقَّ لهُ ان يعتبر نفسهُ بانهُ عمل عملاً عظيمًا يفوق كل ما يمكن للانسان ان يجود بهِ ولا زالوا يتسابقون في ذلك حتى اتصل بهم الحال في الرغبة والتنافس الى ما فعلهُ كعب المذكور وفاق بهِ بذل غيرهِ من امثالهِ لكن بعدما سادوا على احسن البلاد وامتلكوا الاراضي والعقارات ذا المحاصيل الواسعة ارتقوا الى اقصى درجات السعادة وبلغ غناهم خطة الافراط فقد حكى ابن خلدون نقلاً عن المسعودي انهُ في ايام عثمان بن عفان اقتنى الصحابة الضياع والمال فكان لهُ يوم قتل عند خازنهِ خمسون ومئة الف

---

(١) تنضى تبلى او تفنى (٢) تتوى تحول او تبعد

دينار والف الف درهم وقيمة ضياعهِ بوادي القرى وحنين وغيرها مئة الف دينار وخلّف ابلاً وخيلاً كثيرة. وبلغ الواحد من متروك الزبير بعد وفاتهِ خمسين الف دينار وخلّف الف فرس والف امة وكانت غلّة طلحة من العراق الف دينار كل يوم ومن ناحية السراة اكثر من ذلك. وذكر بعضهم انهُ كان لعمرو بن العاص بستان بالطائف على ثلاثة اميال من وجّ كان يعرّش على الف الف خشبة شراء كل خشبة درهم. ومن الامثال المضروبة عند المولدين قولهم لمن ارادوا المبالغة في وصفهِ بالغنى أَمولُ من زبيدة واسمها أمة العزيز وهي بنت جعفر بن عبد الله المنصور بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس وكنيتها ام جعفر وهي زوج الخليفة هرون الرشيد وابنة عمهِ كانت مختصة في كثرة المال مهتمة في البرّ والافضال قيل انها انفقت على الحج وبناء المساجد والصدقات الف الف وسبع مئة الف دينار واجرت الماء من دجلة الى عرفات ثم الى مكة واجرت نبع العرعار من جبل لبنان الى بيروت حتى وصل الى وادي المكاس فبنوا لهُ طبقات قناطر حتى جرى الماء فوقهـا الى جانبهِ الاخر وتطرّق الى بيروت لانها كانت مرّت عليها حين قدمت للحج فوجدت الماء فيها قليلاً والى الآن يقال لهذه القناطر قناطر زبيدة

واذا اردنا ان نستقصي امثال هذه الحكايات يطول بنا الشرح ولذلك نكتفي بما ذكرناهُ دليلاً على انهُ بالنظر الى مثل هذا التموّل المفرط المقرون بما شبّت عليهِ الامة العربية بل فُطرت عليهِ طباعها من التنافس في البذل والمباهاة ليس في مقاديرهِ فقط بل في ضروبهِ وظروفهِ ايضاً كان لا يستغرب صنع خالد ابن عبيد الله المار ذكرهُ ولا ما يحكى عن الخلفاء اصحاب التصرف المطلق نظير بني أُميّة والعباسيين ونوابهم الذين اختصت بهم خيرات هذه المملكة الكبيرة واستقلوا بهـا كونهم كانوا يهبون الولايات ويتصرفون بالبدر[1] من الاموال ولا يرون ذلك شيئاً قال ابو الطيب المتنبي

(١) البدرة كيس فيهِ الف او عشرة آلاف درهم من الفضة او سبعة آلاف دينار

يستصغرُ الخطرَ الكبير لوفدهِ[١] ويظن دجلة ليس تكفي شاربا

بل هنا بعض الملحوظات نستنتج من نقل الاخباريين بان تلك المقادير الفاحشة التي كان يجود بها الملوك وذوو المناصب للمدّاح من الشعراء والمجتدين[٢] من الفقراء وارباب الفاقة لم تكن تُعطى تمامًا لاصحابها وانما تصالحهم الخزّان وامناء الاموال على شيء منها كما يروى عن الفاضل بن الربيع خازن المأمون العباسي بانهُ صالح رجلاً كان أمر لهُ هذا الخليفة بمئتي الف درهم فاعطاهُ نصفها ورجلاً آخر كان أمر لهُ باربعة آلاف درهم فلم يعطِهِ الربيع شيئًا فاحتال الرجل في تبليغ ذلك للمامون وهو انهُ مرّ معهُ على بيت عاتكة فقال يا امير المؤمنين هذا بيت عاتكة الذي يقول فيهِ الاخوص

يا بيت عاتكة الذي اتغزّلُ حذرَ العدى وبهِ الفؤاد موكّلُ

ففطن المأمون لما ارادهُ وهو بيتٌ من جملة ابيات هذه القصيدة يقول فيهِ

واراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق[٣] الحديث يقول ما لا يفعلُ

فامر لهُ بالف درهم فقال يا امير المؤمنين كانت اربعة آلاف فقال لهُ الفٌ يحصل خير من اربعة آلاف لا تحصل

وقد كانت أعطية بني أُمية في مبادئ الدولة الاسلامية الابل اخذًا بمذاهب العرب وبداوتهم فاذا حبوا حباء[٤] جعلوا في اسنمة[٥] هذه الابل ريش نعام ليُعرَف انها حِباء الملك وان حكم ملكهِ ارتفع عنها ثم صارت جوائز بني العباس

---

(١) الوفد الرسل مفردهُ وافد يعني رسول وهم قوم يفدون على الملك في امر فتح او تهنئة أو غير ذلك

(٢) المجتدين جمع مجتدٍ وهو السائل العافي يعني طالب الصدقة ومستمد الاحسان

(٣) المذق الممزوج ورجل مماذق اي غير مخلص

(٤) الحبو العطية بلا جزاء ولا منّ

(٥) السنام حدبة ظهر البعير وتعرف عند العامة بالحردبة

والعبيديين من بعدهم احمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن كتامة مع الاغالبة بافريقية وكذا بني طغج بمصر وشأن لمتونة مع ملوك الطوائف بالاندلس والموحدين كذلك وشأن زناتة مع الموحدين لان الحضارة كانت تنتقل من الدول السالفة الى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بني أُمية وبني العباس وانتقلت حضار بني أُمية بالاندلس الى ملوك الغرب من الموحدين وزناتة وانتقلت حضارة بني العباس الى الديلم ثم الى الترك ثم الى السلجوقية ثم الى الترك المماليك بمصر والتتر بالعراقين على ما رواهُ ابن خلدون

ومن قرأَ قصص بني المهلّب ووزراء بني أُمية وقصص البرامكة ووزراء بني العباس فضلاً عن حكايات ساداتهم وغيرهم من امراء العرب في الاسلام لاطّلع من ذلك على ما يفوق التصديق ومنهُ ما حكاهُ ابو الحسن المدائني عن يزيد ابن المهلب بن ابي صفرة الازدي قال ان وكيلهُ باع بطيخًا جاء من مغلّ بعض املاكهِ باربعين الف درهم فبلغ ذلك يزيد فقال لوكيلهِ تركتنا بقالين اما كان في عجائز الازد من نقسمهُ فيهنَّ قال عمر بن لجا

آلُ المهلّب قومٌ ان نسبتَهمُ	كانوا المكارمَ آباءً واجدادا
كم حاسدٍ لهم يعيا بفضلِهمِ	وما دنا من مساعيهم ولا كادا
ان العرانين تلقاها مجسدةً	ولا ترى للئام الناس حُسَّادا
لو قيل للمجد حُلْ عنهم وخلّهمِ	بما احتكمتَ من الدنيا لما جادا
ان المكارمَ ارواحٌ يكون لها	آلُ المهلب دون الناس اجسادا

يحكى ان يزيد هذا قال لهُ بعض جلسائهِ لِمَ لا تتخذ لكَ دارًا فقال وما اصنعُ بها ولي دارٌ محصلةٌ جاهزةٌ على الدوام فقال لهُ واين هي فقال ان كنت متوليًا فدار الامارة وان كنت معزولاً فالسجن وانما قال ذلك لما جرت بهِ العادة من معاملة الملوك للعمّال في ذلك العصر وكان يزيد هذا عاملاً لبني

أُمية ثم قتلهُ مسلَّمة وبعث برأسهِ الى اخيهِ يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ للهجرة (سنة ٧٢٠ م)

ويروى ان احمد بن حرب بن اخي يزيد المذكور اعطى ابا علي اسماعيل ابن ابرهيم بن حمدويه البصري الحمدويّ الشاعر طيلسانًا خليعًا فعمل فيهِ الحمدويّ مقاطيع ظريفة عديدة سارت عنهُ وتناقلها الرواة وهي اكثر من مئتين منها

يا ابنَ حربٍ كسوتني طيلسانًا   املتهُ الازمان وهو سقيمُ
فاذا ما رفوتهُ قال سبحـــا   نكَ محيي العظامَ وهي رميمُ

وقد ضُرِب المثل بهذا الطيلسان بين الادباء فاذا كان الشيء رثًّا باليًا شبهوهُ بطيلسان ابن حرب كما يقولون جلدُ عمرو المزّق بالضرب يريدون بذلك قول النحاة ضرب زيدٌ عمرًا فانهم ابدًا يستعملون هذا المثال ولا يمثّلون بغيرهِ فكانهم يمزقون جلدهُ لكثرة الضرب

ومن حكاية هذا الطيلسان وامثالها نعرف ما كان لهؤلاء الامراء من السماحة والمسامحة والمباسطة وكرَم الاخلاق فانهم لا يأنفون من مجون الشعراء وتنكيتهم على عطاياهم اذا كانت دون ما يرجونهُ منهم

وهناك حكايةٌ لمعن بن زائدة بن عبد الله بن مطر بن شريك بن عمرو الشيباني الذي كان متنقلاً في الولايات في ايام بني أُميّة ومات قتيلاً في سنة ١٥٨ للهجرة (سنة ٧٧٤ م) وهي تدل ليس فقط على شدّة كرم هذا الامير الذي استحق من اجلهِ ان يضرّب بهِ المثل فيقال اجود من معن بن زائدة بل تعرب ايضًا عما انضمّ الى كرمهِ من الحلم وطول الاناة المفرط حتى قالوا فيهِ حدّث عن معن ولا حرَج فان فتًى من العرب هجاهُ بابيات فظيعة وانشدها بحضرتهِ فكان يسمعها منهُ مع البشاشة ويجاوبهُ على كل بيت منها بقولهِ لهُ ثم ماذا الى ان انشد في آخرها بيتًا يطلب فيهِ هذا الغلام الشاعر جائزةً على ما هجاهُ بهِ فاجازهُ فثنّى

ببيتٍ آخر يطلب فيهِ الزيادة فزادهُ فختم حينئذٍ قصيدتهُ بقولهِ

سألت الله ان يبقيك ذخرًا   فما لك في البرية من نظيرِ

ويحكى عن هذا الامير ان شاعرًا اقام ببابهِ يريد الدخول فلم يتهيأْ لهُ فكتب هذا البيت على خشبةٍ وهو

ايا جودَ معنٍ ناجِ معنًا بحاجتي   فليس الى معنٍ سواك سبيلُ

والقى الخشبة في مسيل الماء لبستانٍ كان معن فيهِ فلما رأَى الخشبة اخذها وقرأَها واستدعى الرجل لوقتهِ وامر لهُ بمئة الف درهم ووضع الخشبة تحت بساطهِ ولما كان اليوم الثاني اخرجها وقرأَها ثم استدعى الرجل وامر لهُ بمئة الف درهم اخرى وفي اليوم الثالث كذلك ففكر الرجل وخاف ان ينظرهُ بعد ذلك ويأْخذ منهُ ما اعطاهُ فخرج من المدينة فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجدهُ فقال لقد ساء ظنهُ وقد هممتُ ان اعطيهُ حتى لا يبقى في بيت المال درهم ولا دينار قال بعض الشعراء

يقولون معنٌ لا زكاة لمالهِ   وكيف يزكي المال من هو باذلهْ
اذا حال حولٌ لم يجد في ديارهِ   من المال الاَّ ذكرهُ وجمائلهْ
تراهُ اذا ما جئتهُ متهلــلاً   كأَنك تعطيهِ الذي انت سائلهْ
تعوَّد بسط الكف حتى لوَ انَّهُ   اراد انقباضًا لم تُطعهُ انامِلهْ
فلو ان ما في كفّهِ عين نفسهِ   لجاد بهـــا فليتقِ الله سائلهْ

وقال محمد بن مبادر في آل برمك

اتانا بنو الاملاك من آل برمكٍ   فيا طيب اخبارٍ واحسن منظرِ
لهم رحلةٌ في كل عامٍ الى العدى   واخرى الى البيت العتيق المنوَّرِ
اذا نزلوا بطحاء مكة اشرقتْ   بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفرِ
فما خُلقت الاَّ لجودٍ اكفُّهم   واقدامهم الاَّ لسعيٍ مظفَّرِ

اذا رامَ يحيى الامر ذلّت صعابهُ   وناهيك من راعٍ لهُ ومدبرِ

ولابي نواس

ان البرامكة الكرام تعلموا   فعل الجميل وعلّموهُ الناسا
كانوا اذا غرسوا سقوا واذا بنوا   لا يهدمون لما بنوهُ اساسا
واذا هم صنعوا الصنائع في الورى   جعلوا لها طيب البقاء لباسا

وكان اول من وزر من البرامكة خالد بن برمك بن جاماس بن بشتاسف البرمكي استوزرهُ عبد الله السفاح الخليفة الاول من بني العباس وكان ابوهُ برمك المذكور مجوسيًّا من بلخ اشتهر هو وبنوهُ بسدانة النوبهار وهو معبدٌ للمجوس توقد فيهِ النيران في تلك المدينة ثم لما تولّى الخلافة هرون الرشيد خامس الخلفاء المذكورين استوزر جعفر بن يحيى وزوجهُ باختهِ العباسة[1] وبالجملة فانهُ رفع هذه العائلة الى اعلى درجات المجد حتى كان من حديث جعفر هذا انهُ خلا ذات يومٍ للشرب في دارهِ وامر حاجبهُ ان لا يدخل عليهِ احدًا الّا عبد الملك بن بحران قهرمانهِ فسمع الحاجب عبد الملك دون ابن بحران وعرف عبد الملك بن صالح الهاشمي مقام جعفر بن يحيى في دارهِ فركب اليهِ فارسل الحاجب ان قد حضر عبد الملك فقال ادخلهُ وعندهُ انهُ ابن بحران فلما دخل عبد الملك بن صالح في سوادهِ ورصافيتهِ اربدّ[2] وجه جعفر وكان ابن صالح لا يشرب النبيذ وكان الرشيد دعاهُ اليهِ فامتنع فلما رأى عبد الملك حالة جعفر دعا غلامهُ وناولهُ سوادهُ وقلنسوتهُ ووافى ارباب المجلس فسلم عليهم وقال اشركونا في امركم وافعلوا بنا فعلكم في انفسكم فجاءهُ خادمٌ فالبسهُ حريرةً واستدعى بطعامٍ فاكل وبنبيذ فأُتي برطل منهُ فشربهُ ثم قال لجعفر والله ما شربتهُ قبل

---

(١) زواج بنات الملوك في الدول الوراثية الاسلامية يكون بالاسم فقط لا بالفعل بقصد ان تحضر الزوجة امام الزوج مكشوفة الوجه فلا يحصل منها على اولاد

(٢) ربد وجههُ اي عبس وتغير لونهُ

اليوم فليخنف عني فامر ان يجعل بين يديهِ باطية يشرب منها ما يشاء ثم لما اراد الانصراف قال جعفر اذكر حوائجك فاني ما استطيع مقابلة ما كان منك قال ان في قلب امير المؤمنين موجدةً عليَّ فتخرجها من قلبهِ وتعيد اليَّ جميل رأيهِ فيَّ قال قد رضي عنك امير المؤمنين وزال ما عندهُ منك فقال وعليَّ اربعة آلاف الف درهم قال تقضى عنك وهي لحاضرة ولكن كونها من امير المؤمنين اشرف بك وادل على حسن ما عندهُ لك قال وابرهيم ابني أحبُّ ان ارفع قدرهُ بصهرٍ من ولد الخلافة قال قد زوجهُ امير المؤمنين العالية ابنتهُ قال واوثر التنبيه على موضعهِ برفع لواء على راسهِ قال قد ولاهُ امير المؤمنين مصرًا ثم انصرف عبد الملك ولما كان الغد ركب جعفر الى باب الخلافة وعرَّف الرشيد بما كان من امر عبد الملك من اولهِ الى آخرهِ وهو يقول احسن احسن ثم قال فما صنعت فعرفهُ ما كان من قولهِ لهُ فاستصوبهُ وامضاهُ جميعهُ بدون ان ينقص منهُ شيء. واخيرًا آل امر هذا الخليفة نفسهِ ان قتل جعفرًا المذكور في سنة ١٨٧ للهجرة (سنة ٨٠٣ م) ولازال بالبرامكة جميعًا حتى افناهم وقد ذكر المؤرخون لذلك اسبابًا كثيرة ولكنها مردودة . روى ابن خلكان عن ابن بدرون ان علية بنت المهدي قالت لاخيها الرشيد يا سيدي ما رأيت لك يوم سرور منذ قتلت جعفر فلايّ شيء قتلتهُ فقال لها يا حياتي لو علمت ان قميصي يعلم السبب لمزقتهُ

ويحكى انهُ لما زوج الحسن بن سهل ابنتهُ بوران للخليفة المأمون بن الرشيد المشار اليهِ احتفل ابوها بامرها وعمل لها من الولائم والافراح ما لم يعهد مثلهُ في عصرٍ من الاعصار وانتهى امرهُ الى ان نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة متى وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما في الورقة يمضي الى الوكيل المرصد لذلك ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعةً او ملكًا آخر او فرسًا او جارية او مملوكًا. ثم نثر بعد ذلك على الناس الدنانير والدراهم ونوافج

المسك والعنبر وانفق على المأمون وقوادهِ وجميع اصحابهِ وكل من كان معهُ من الاجناد والاتباع تسعة عشر يومًا فكان مبلغ النفقة خمسين الف الف درهم اما المأمون فانهُ امر لهُ عند منصرفهِ بعشرة آلاف الف درهم واقطعهُ الصلح فجلس الحسن وفرّق المال على قوادهِ واصحابهِ وحشمهِ وكان ذلك سنة ٢١٠ للهجرة (سنة ٨٢٥ م) وبوران هذه هي التي يضربون المثل بفرشها فيقولون اثمن من فراش بوران واسمها خديجة واما بوران فهو لقبٌ لها وفيها يقول بعض الشعراء

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا امام الهدى ظفرْ تَ ولكن ببنت مَنْ

قال ابو العيناء تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلّب في الدولة المروانية وعلى البرامكة في الدولة العباسية ثم على ان احمد بن ابي دوءاد اسخى منهم جميعًا وافضل وكان يكنى بابي عبد الله واما ابوهُ فاسمهُ فرج بن جرير بن مالك بن عبد الله بن عباد ويتصل نسبهُ بنزار بن معد بن عدنان الاياديّ وكان معروفًا بالمروءة والعصبية ولهُ مع المعتصم العباسي في ذلك اخبارٌ مأثورةٌ نشأ في طلب العلم وخاصةً الفقه والكلام ولم يرَ رئيس قط أفصح ولا انطق منهُ جعلهُ المعتصم المشار اليهِ قاضي القضاة بعد ان عزل يحيى بن اكثم وذكر ابن خلكان في ترجمتهِ انهُ امتحن الامام احمد بن حنبل والزمهُ بخلق القرآن لانهُ كان من المعتزلة وشاعرًا مجيدًا فصيحًا بليغًا توفي سنة ٢٤٠ للهجرة (سنة ٨٥٤ م) واجتمع يوم وفاتهِ على بابهِ كثيرٌ من اهل العلم والادب فلما طلعَ سريرهُ قام اليهِ ثلاثة منهم فقال احدهم

اليومَ مات نظامُ الملك واللسنِ ومات من كان يستعدي على الزمنِ
واظلمت سبل الآداب اذ حجبت شمس المكارم في غيمٍ من الكفنِ

وتقدم الثاني فقال

ترك المنابر والسرائر تواضعًا ولهُ منابر او يشا وسريرُ
ولغيرهِ يُجبى الخراج وانما يُجبى اليهِ محامدٌ واجورُ

وتقدم الثالث فقال

وليس فتيق[1] المسك ريح حنوطهِ ولكنهُ ذاك الثناء المخلَّفُ
وليس صرير[2] النعش ما تسمعونهُ ولكنهُ اصلابُ قومٍ تُقصَّفُ

ومن شيم العرب الامانة والوفاء ايضًا ويأنفون من خلف الوعد وقد ضربوا الامثال برجلين من يهود العرب لكل واحدٍ منهما مزيةٌ تخالف الاخرى فالواحد يُضرب بهِ المثل في الوفاء وهو السموأل بن عريض بن عاديا من عرب اليمن واحد الشعراء المشهورين فيقال اوفى من السموأل او من السموْل والسموأل مهموزٌ من اسماء الظل اذا ارتفع ورواهُ الخليل سمول بغير همزٍ كان امرء القيس استودعهُ دروعًا عند ذهابهِ الى قيصر ملك الروم فلما مات طالبهُ بها الحارث بن ابي شمّر الغساني وجهز عليهِ جيشًا والقصة مشهورة ملخصها انهُ سمح بذبح ابنهِ ولم يسلم الدروع الا الى ورثاء امرء القيس المذكور وانشد بعد ان ذبح الحارث ابنهُ

وفيتُ بادرع الكنديّ انّي اذا ما ذمّ[3] اقوامٌ وفيتَ
واوصى عاديًا يومًا بان لا تهدمُ يا سموأل ما بنيتُ

وفي محيط المحيط

وفيتُ بادرع الكنديّ اني اذا ما خان اقوامٌ وفيتُ
بنى لي عاديًا حصنًا حصينًا اذا ما سامني ضيمًا ابيتُ

---

(١) فتيق المسك شدة رائحتهِ (٢) الصرير صوت تعويج الخشب
(٣) الذمّ هنا من الذمة

ولهُ ايضًا القصيدة المشهورة التي يقول في مطلعها

تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا فقلت لها ان الكرامَ قليلُ

واما الثاني فيضرَب بهِ المثل في خلف الوعد ويقال لهُ عرقوب وهو من خيبر وقيل من ساكني يثرب وقيل من العمالبق كان كذوبًا يعد ولا يفي فقالوا في امثالهم اخلف من عرقوب كما قالوا ايضًا أخلف من ابي حباحب وهو رجل من العرب كان بخيلاً لا توقد لهُ نار بليلٍ مخافة ان يقتبس منها وقيل غير ذالك

وممن يضرَب بهم المثل في الوفاء عوف بن مُحلِّم وابنتهُ جماعة والحرث بن ظالم وام جميل من رهط ابي هريرة وابو حنبل الطائي والحرث بن عباد وفكيهة امرأة من بني قيس بن ثعلبة ولكلٍّ منهم حديث يطول شرحهُ

ولما كان من الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمي الذمار[1] كانت العرب ترى ذلك دَينًا تدعو اليهِ وحقًّا واجبًا تحافظ عليهِ فلا شيء يعادل عندهم في القدر والقيمة اغاثة الملهوفين وتأْمين الخائفين حتى انهُ كان اذا عقدَ رجل طرف ثيابهِ الى جانب طنب بيت وجب على صاحب الطنب ان يجيرهُ وان يطلب لهُ بظلامتهِ

وممن اشتهر بحسن المجاورة وضرِب بهِ المثل في ذلك رجل يقال لهُ قعقاع ابن شور وهو احد بني عمرو بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة من بني بكر بن وائل وابو دوءاد الاياديّ الذي سبق ذكرهُ ويعرف بالحذاقي[2] قال طرفة بن العبد البكري

اني كفانيَ من امرٍ هممتُ بهِ جارٌ كجار الحذاقيّ الذي انصفا

يريد بجار الحذاقي كعب بن مامة فانهُ كان جارًا لابي دوءاد المذكور

---

(٢) الدمار ما يلزمك حفظهُ وحمايتهُ من عرضٍ وحريم وناموس

(١) الحذاقي الرجل الفصيح اللسان البين اللهجة

وكانت الحمام بمكة لا تثار ولا تهاج احترامًا لمجاورتها لها ولذلك قالوا في امثالهم آمن من حمام مكة قال النابغة

والمؤمن العائذات الطير يمسحها ركبان مكة بين الغيل والسند[1]

ومن امثالهم ايضًا آمن من ظبي الحرم ومن الظبي بالحرم لان الصيد ممنوع في الحرم احترامًا وضربوا المثل ايضًا برجل يقال له مدلج بن سويد الطائي زعموا بانهُ حمى جرادًا وقع بفنائهِ فلم يبرح راكبًا فرسهُ ورمحهُ بيدهِ الى ان حميت الشمس وطار الجراد فقالوا احمى من مجير الجراد كما قالوا احمى من مجير الظعن وهو ربيعة بن مكدَّم الكناني الذي مانع نبشة بن حبيب السلميّ عن ظعن من كنانة بالكديد[2] اراد ان يحتويها الى ان طعنهُ نبشة ولا زال حتى كشف القوم وحمى الظعن وهو واقفٌ على فرسهِ متكئًا على رمحهِ الى ان مات

ودامت الحرب بين بكر وتغلب اربعين سنة بسبب عقر ناقة تسمى سراب كانت لرجل يقال لهُ سعد بن شمس وكان جارًا لامرأة يقال لها البسوس نسبت اليها هذه الحرب فقيل لها حرب البسوس لانها هي التي هيجتها ولذلك ضرب بهذه الناقة وبها المثل في الشؤم فيقال اشأم من سراب واشأم من البسوس والبسوس هذه كانت خالة عمرو بن مرّة بن ذهل الشيباني او البكريّ ويلقب بجسّاس وقيل بل هي جارتهُ وكان كليب بن وائل رجلًا عظيم المهابة يضرب المثل بعزّتهِ فيقال أعزُّ من كليب وائل وكان لا توقد نارٌ مع نارهِ ولا ترد ابلٌ على الماء حتى ترد ابلهُ وكان يحمي المراعي فلا يقربها احدٌ ويحمي الصيد فلا يصاد ولذلك يقولون في المثل حمى كليب (راجع نجد في الفصل الاول من المقالة الاولى) وكان لا يتكلم احدٌ في مجلسهِ ولا يجلس حتى يأمرهُ ويقال بانهُ هو

---

(١) الامن ضد الخوف والعياذ الالتجاء والمسح تحسين القول سخة دنة وايضاً انقطع والركبان جمع راكب والغيل الشجر الكبير الملتف والاجمة والوادي فيه ماء و سند ماء : سفح الجبل (٢) الكديد اسم موضع

اوّل من اصطاد بالفهود وكان لا يرعى احدٌ في حماهُ في انف الربيع الاَّ ابل جسَّاس المذكور فانهُ كان اخا امرأتهِ واذ نظر كليب هذا يومًا الى ناقة سعد ترعى مع ابل جسَّاس فانكرها ورماها بسهمٍ فاختلَّ ضرعها فولَّت حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها تتشب لبنًا ودمًا فلما نظر اليها صاحبها صرخ بالذل فخرجت جارتهُ البسوس ونظرت الى ناقة جارها وهي على هذه الحالة فضربت يدها على رأسها ونادت واذلاَّه وانشأَت تقول ابياتًا سمتها العرب بالموثبات حيث اوغرت صدور القوم منها

لعمرك لو اصبحت في دار منقذٍ[1] لِما ضِيمَ سعدٌ وهو جارٌ لا بياتي
ولكنني اصبحتُ في دار غربةٍ متى يعدُ فيها الذئب يعدُ على شاتي

فسمع جسَّاس قولها فسكَّن روعها وقال لها ليقتلنَّ غدًا جملٌ هو اعظم عقرًا من عقر ناقة جارك ثم صار يترقب كليبًا الى ان خرَج من الحي وتباعد عنهُ فخرج اليهِ وتبعهُ عمرو بن الحرث فوجدهُ وقد طعن كليبًا في صدرهِ فمات ويظنُّ ان ذلك كان في سنة ٤٩٠ م اي قبل الهجرة بنحو ١٣٢ سنة

ولما كان اخذ الثار مما لا محيص عنهُ عند العرب اثار المهلهل بن ربيعة التغلبي الحرب التي سبقت الاشارة اليها ليأخذ بثار اخيهِ كليب ولذلك يقولون في المثل آخذ بالثار من المهلهل فكان مدة طلبهِ ثار اخيهِ لا ينزعُ لامة حربهِ ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسهُ بالطيب ولا يأوي الى مضاجع النساء مع انهُ كان يلقَّب بزير[2] النساء لقبهُ بذلك اخوهُ كليب ويقال انهُ هو اول من قصد القصائد وقال الغزَل[3] واسمهُ امرءُ القيس ولقّب بالمهلهل لرقة شعرهِ من قولهم ثوبٌ مهلهل اذا كان رقيق النسج وهو خال امرء القيس الكندي قتلهُ عبداهُ

(١) منقذ اسم ابي البسوس المذكورة

(٢) الزير الرجل يحب محادثة النساء ومجالستهنَّ وكان المهلهل كذلك فلقبهُ اخوهُ بهِ

(٣) الغزل محادثة النساء ومراودتهنَّ ولذلك يقال في المثل اغزل من امرء القيس

وهو في بعض الفلوات[1] لضجرهم منهُ وكان نائمًا في ظلّ شجرةٍ ويحكى انهما لما اخذا بيدِهِ انتبه وقال لهما ما بالكما قالا نذبحك ما اذقت العرب قال ان لم يكن بدٌّ من ذالك فاذا اتيتما ابنتي فخصاها عني بالسلام وقولا لها هذا البيت

من مبلغ الاقوام ان مهلهلاً لله دركما ودرّ ابيكما

قالا نعم ثم بعد ان قتلاهُ ودفناهُ لحقا باهلهما يبكيان ويقولان وا مهلهلاه واسيداه وافارس العرب فلما سمعتهما ابنتهُ وكان اسمها سلمى قالت لهما ما وراكما فقالا مات ابوكِ المهلهل قالت فهل اوصاكما بشيء قالا لا غير انّا سمعناهُ يقول كذا وانشدها البيت ففكرت سلمى ومَن حولها فلم يجدوا مخرجًا لذلك واذا ابنتهُ الصغيرة تبكي وتقول وا ثكلاه قتيلٌ وربّ الكعبة اوثقوا العبدين فاوثقهما فتيانٌ من تغلب فاختلط كلامهما فقالت أتدرون ما اراد ابي قالوا لا قالت ما اراد الّا ان يقول

مَن مبلغ الاقوام ان مهلهلاً اضحى قتيلاً في الفلاة مجندلاً[2]
لله دركما ودرّ ابيكما لا يبرحُ العبدان حتى يقتلا

فامروا بالعبدين فضُربت اعناقهما

وكان من عادة العرب اذا قتل لاحدهم شخصٌ نشأت العداوة بين قبيلة المقتول وقبيلة القاتل فلا تترك الثار عشيرة المقتول لعشيرة القاتل او لقبيلتهِ ما لم يقع الصلح على ديةٍ معلومة مع انهُ لا ذنب لعشيرتهِ ولا لقبيلتهِ وربما يؤخذ ثار الابن بقتل ابيهِ او بالعكس وتدوم العداوة مدةً طويلة بين الذراري ولو نُسي السبب

وكان من عادتهم ايضًا في مثل ذلك ان يرموا بسهمٍ نحو السماء يسمّونهُ

(١) الفلوات جمع فلاة وهي الصحراء الواسعة والمفازة لا ماء فيها
(٢) المجندل المصروع على الجدالة وهي الارض

سهم الاعتذار فان رجع ملطخًا بالدم لم يرضوا الاّ بالقود[1] وان رجع نقيًا مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية وكان مسح اللحى علامةً للصلح قال ابن الاعرابي لم يرجع ذلك السهم الاّ نقيًّا اه . ويعبّرون عن هذا العمل بالعقيقة قال الشاعر

عقوا بسهمٍ ثم قالوا صالحوا   يا ليتني في القوم اذ مسحوا اللحى

وقد اوجبت الشريعة الاسلامية الدية لِما ورد في الكتاب وما كان لمؤمنٍ ان يقتل مؤمنًا الاّ خطاء ومن قتل مؤمنًا خطاء فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ ودية مسلّمة الى اهلهِ الاّ ان يصدّقوا فان كان من قوم عدوٍّ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة وان كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهلهِ وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين (الآية). ثم ان هذه الدية هي مقرّرة ومعلومة في كتب الفقه والمسلمون تتكافأُ دماؤُهم اي تتساوى في الدية والقصاص لا فضل لشريف على وضيع وقد يقع ان بعض اهل الكرم يدفع الدية عن القاتل المُعدَم فيكافيهِ القاتل بثنائهِ عليهِ في كل مكان

وكان من سننهم ايضًا اذا قتل لاحد العرب عزيز ولم تقع المصالحة بين قبيلتهِ وقبيلة القاتل على ما تقدّم وتقرّر طلب الثار فيجزّون ناصية فرس المقتول ويقطعون ذنبها ويقال ان اوّل من فعل ذلك هو الحرث بن عباد في حرب البسوس الذي مرّ ذكرهُ لما قتل المهلهل ابنهُ بجيرًا فاستدعى فرسهُ النعامة وفعل بها ذلك اشارة الى طلب الثار

واذا كان القاتل مجهولاً واتهموا شخصًا بذلك فلا يبرأُ المُدّعى عليهِ الاّ اذا لحس حديدةً محماة بالنار في سخونة محمصة البن فيسخّن القاضي الحديدة وينفخ عليها ويعطيها للمُدّعى عليهِ فيضع لسانهُ عليها فان وُجد لسانهُ غير محروق تبين حينئذٍ براءتهُ ويلتزم لهُ المدّعي ببعير ليجبر ما رماه بهِ في ادّعائهِ عليهِ اما اذا وَجِدَ لسانهُ محروقًا كان مستحقًا للقتل الاّ اذا عفت عنهُ عائلة القتيل على قدر

---

[1] القود قتل القاتل والقصاص وهو من القيادة نقيض السوق فان القود يكون من قدام والسوق من خلف يقال قاد الامير القاتل الى موضع القتل حمله اليهِ

معلوم دلّة على ما ذكرنا وزعم بعضهم ان للعرب حيلاً في عدم الاحتراق للمُدَّعى عليهِ خصوصاً اذا كان من احباب القاضي(١) والظاهر ان هذه الطريقة كانت عند العرب لخصوص المتهم بالقتل فلا تكون في سائر الدعاوي بل كان لتلك طرقٌ مناسبة كما يستبان من قول زهير ابن ابي سلمى المزني

فان الحق مقطعهُ ثلاثٌ يمينٌ او نفارٌ او جلاء

ويروى يمينٌ او شهودٌ او جلاء فاليمين هنا معلوم وهو القَسَم وان كان ما بعده نفارٌ فيكون المراد بهِ اما الحرب واما التنافر الى الحكماء والاول ارجح لان التنافر هو من قبيل التداعي فلا يكون حجةً بذاتهِ وان كان شهودٌ فالشهود البينة واما الجلاء فهو البرهان الذي يستفاد من واقعة الحال

وكانوا يتباهلون ايضاً في بعض منازعاتهم والتباهل التلاعن وتباهلوا تلاعنوا ومنهُ ابتهل اليهِ تعالى باخلاص واجتهاد وتضرع وفي سورة آل عمران فقل تعالوا ندعُ ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل قيل اي نتباهل بان نلعن الكاذب منا وفي الحديث اللعان حين لاعن هلال بن أميّة امرأتهُ قال ان جاءت بهِ اثيبج(٢) حمش الساقين فهو لزوجها وان جاءت بهِ ادرق جعداً جماليًا خدلّج الساقين سابغ الاليتين فهو للذي رُميت بهِ

---

(١) راجع الامتحانات الشرعية التي كانت الافرنج تستعملها في القرون الوسطى ويسمّونها قضاء الله

(٢) الاثيبج تصغير الاثبج وهو الرجل العريض ما بين الكاهل الى الظهر وحمش الساقين مرَّ تفسيرهُ في آخر الفصل الرابع من المقالة الخامسة واما الادرق فهو المسرع في مشيهِ والجعد يراد بهِ اجعد الشعر لان الجعودة غالبة على شعور العرب فلذلك يعنون باجعد الشعر الرجل الكريم وعكسهُ اجعد الكف وهو البخيل قال الشاعر

كذا فتحوا عن عليّ وطرفهِ بني اللوم حتى يعد الملك الجعدُ

اي الملك الكريم والجمالي من الرجال الضخم الاعضاء التام الخلق وخدلج الساقين ممتليهما وسابغ الاليتين طويلهما والالية العجيزة

وكانوا يتباهون بالحذاقة وجود الرأي والفراسة ويضربون المثل في ذلك بقيس بن زهير العبسي فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بجودة الرأْي قيس الرأي او ادهى من قيس وهو الذي افتقر في آخر ايامهِ فكبرت نفسهُ عن الاقامة في قومهِ فخرج عنهم ونزل ببني النمر بن قاسط وتزوج بامرأَةٍ منهم ثم رحل ونزل بعمّان وتنصَّر بها واقام حتى مات

واما في الاسلام فيضرَب المثل بذكاء عبد الله بن عباس فيقولون لمن يصفونهُ بالذكاء اذكى من عبد الله بن عباس كما يقولون أفرس من اياس وازكن من اياس وهو ابو وائلة بن معاوية بن قرّة المزني اللسن البليغ الالمعيّ المصيب كان قاضياً زكيًا تولى قضاء البصرة لعمر بن عبد العزيز وكان شهيرًا بالاجوبة المسكتة ايضاً ونوادر زكنهِ كثيرة كتب المدائني عليهِ كتاباً سمَّاهُ كتاب زكن اياس. حكي ان رجلين احتكما اليهِ في مالٍ فجحد المطلوب اليهِ المال فقال للطالب اين دفعت اليهِ المال فقال عند شجرةٍ في مكان كذا قال انطلق الى ذلك الموضع لعلّك تذكر كيف كان امر هذا المال ولعلَّ الله يوضح لك سبباً فمضى الرجل وجلس خصمهُ فقال اياس بعد ساعة أترى خصمك قد بلغ موضع الشجرة قال بعد قال قُمْ يا عدو الله انت خائن واحتفظ بهِ حتى اقرَّ وردَّ المال لصاحبهِ توفي سنة ١٢٢ للهجرة (سنة ٧٣٩ م)

ويضرب المثل ببراعة بني الفرات ايضاً فانهم كانوا اصحاب فضل وكرم وعلم وقلم فيقولون أبرع من بني الفرات وهم اربعة اخوة في الاسلام اكبرهم احمد ابو العباس وابو الحسن علي وابو عبد الله جعفر وابو عيسى ابرهيم وابوهم محمد ابن موسى بن الحسن بن الفرات ومنهم مَن تولَّى الوزارة للمقتدر بالله العباسي

ومن مزايا العرب الحميدة البرُّ بالوالدين ويضربون المثل في ذلك برجلين يقال لاحدهما العَملَّس وللثاني فلحَس يتأسى بهما البنون في برّ الآباء والامهات. يحكى عن العملَّس انهُ كان يحمل امهُ على عاتقهِ وفلحسٌ كذلك يحمل اباهُ وكان خرفًا كبير السنّ ويحجّان بهما البيت

ويضربون المثل في العلم بالشعبيّ وهو عمرو بن عامر بن شراحيل والشعب بطنٌ من همدان فيقال اعلم من الشعبيّ واحفظ من الشعبيّ لمن يريدون وصفهُ مع المبالغة في العلم او بالحفظ كما يقال احفظ من العميان توفي سنة ١٠٧ للهجرة (سنة ٧٢٥م)

ويضربون المثل في الحلم بمعاوية بن ابي سفيان فيقولون أحلم من معاوية كما يقولون أحلم من الاحنف بن قيس واسمهُ الضحّاك من بني تميم وكنيتهُ ابو بحر وقيل اسمهُ صخر وكان سيدًا مطاعًا بعقلهِ وحلمهِ. يحكى انهُ خلا بهِ رجلٌ فسبّهُ سبًّا بليغًا قبيحًا فقال لهُ الاحنف ان كان بقي من قولك فضلة فقل الآن قبل ان يأتي احد من قومي فيسمعها فتؤذى . ويحكى ايضًا انهُ سئل بماذا سدت قومك فقال لو ان الناس كرهوا الماء ما شربتهُ توفي سنة ٧٠ للهجرة (سنة ٦٨٩م)

الفصل الثاني

في شجعان العرب

وتوصف العرب بالشجاعة وقد اشتهر بها منهم رجالٌ في الجاهلية والاسلام تخلد ذكرهم ودام فخرهم ولا زال الناس الى وقتنا هذا يتفكهون بقصصهم ومآثرهم ومنهم في الجاهلية عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس بني زبيد ويكنى ابا ثور قيل لانهُ كان ياكل العجل ويشرب عليهِ زقًا من الخمر وكان من الابطال المعدودين أسلم ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام وكان من الشعراء المشهورين ايضًا

وهو الذي قتل رستم زار الذي قدّمهُ يزدجرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين وكما انهُ كان مشهورًا بالشجاعة كان مشهورًا كذلك بالكذب قيل لخلف الاحمر وكان يتعصب لليمن أكان ابن معدي كرب يكذب فقال كان يكذب في المقال ويصدق في الفعال وقالت احدى نساء العرب

أيا ليت جاري كجار الحصين وبعلي عمرو بن معدي كرب

توفي سنة ٢٢ للهجرة (سنة ٦٤٣ م)

ومنهم ربيعة بن المكدَّم بن عامر بن خويلد بن جذيمة بن علقمة بن جندل الطعّان بن فارس ربيعة المكدَّم الفراسيّ من بني كنانة احد فرسان مُضَر المشهورين قتلهُ نبيشة بن حبيب السلمي يوم الكديد

ومنهم دريد بن الصمّة ويكنى ابا دفافة وابا قرّة يتصل نسبهُ ببكر بن هوازن فارس شجاع شاعر فحل ومنهم مَن جعلهُ اول شعراء الفرسان وهو سيد بني جشم غزا نحو مئة غزوة قتلهُ المسلمون يوم حنين وكان جدّهُ لامهِ معدي كرب الزبيديّ فيكون عمرو خالهُ وكانت لهُ بنت شاعرة يقال لها سلمى واخرى يقال لها عمرة لها فيهِ مراثٍ كثيرة

وذو الخمار مالك بن نويرة يتصل نسبهُ بمضر بن نزار ويكنى ابا المغوار واخوهُ متمم ويكنى ابا نهشل وكان يقال لمالك فارس ذي الخمار بفرسٍ كان عندهُ يقال لهُ ذو الخمار وكان شريفًا فارسًا شاعرًا ويقال لهُ الجفول ايضًا قتلهُ خالد بن الوليد في خلافة ابي بكر متعللاً عليهِ بانهُ اتَّبع سُجاح وآمن بها (راجع الحلف بذمة العرب في الفصل الثالث من المقالة الرابعة)

وعروة بن الورد بن زيد بن عمرو بن زيد بن عبد الله من ولد مُضَر ابن نزار شاعرٌ من شعراء الجاهلية وفارسٌ من فرسانها وصعلوك(١) من صعاليكها المعدودين المقدمين الاجواد وكان يلقب عروة الصعاليك لجمعهِ اياهم وقيامهِ

---

(١) الصعلوك الفقير

بامرهم اذا اخفقوا[1] في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزا وقيل غير ذلك

وعنترة بن عمرو بن شداد العبسي صاحب القصة الشهيرة فارس بني عبس الذي يُضرب المثل بشجاعتهِ فيقولون اشجع من عنترة وهو من اغربة العرب اي سودانهم وُلد لشداد من امة سوداء يقال لها زبيبة ويقال لهُ هو عنترة الفلحاء تأنيث الافلح وهو المشقوق الشفة السفلى كما ان الاعلم المشقوق الشفة العليا وكان بنو عبس اسناقوا أمة مع غنائم اختطفوها من بني جذيمة ووقعت في سهم شداد ابن قراد ولما انتشى عنترة هام في عشق عبلة بنت مالك اخي شدّاد ثم صار يركب الخيل ويظهر الشجاعة وكان ظهورهُ في ايام الحرابة بين عبس وفزارة التي اوجبها سباق الخيل وصار لهُ اسمٌ يذكر في تلك الوقائع وهابتهُ فرسان العرب وكان بطلاً فصيحًا تزوّج بمحبوبتهِ عبلة وبلغ من فصاحتهِ وشجاعتهِ انهُ علّق قصيدتهُ على البيت الحرام بجملة المعلقات التي مرّ ذكرها في الفصل الاول من المقالة الرابعة . يحكى عنهُ انهُ قيل لهُ انت اشجع العرب واشدهم بطشًا فقال لا فقيل لهُ كيف شاع لك هذا الاسم بين الناس قال اني أقدمُ اذا رأيت الاقدام عزمًا وأحجمُ اذا رأيت الاحجام حزمًا ولا ادخل مدخلًا الاّ اذا رأيت لي منهُ مخرجًا واعتمد الضعيف الساقط فاضربهُ ضربةً يطير منها قلب الشجاع فاثني عليهِ فآخذهُ والحرب خدعةٌ . قتلهُ رجل يقال لهُ الاسد الرهيص سنة ٦١٥ م اعني قبل الهجرة بنحو سبعة سنين

وممن يُضرَب بهم المثل في الشجاعة من فرسان العرب ايضًا عتيبة بن الحرث بن شهاب فارس تميم ويقال لهُ سمّ الفرسان وعامر بن مالك بن جعفر بن كلاب فارس قيس وهو ابو براء ويقال لهُ ملاعب الاسنة وعامر بن الطفيل ابن اخي عامر المذكور وبسطام بن قيس الشيباني فارس بكر فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بالشجاعة افرس من سم الفرسان وافرس من ملاعب الاسنة وهكذا الى آخرهِ

(١) الخفقان اضطراب القلب واخفق الرجل خاب سعيهُ ومطلوبهُ وغزا ولم يغنم

اما اغربة العرب الذين مرّ ذكرهم واشتهروا بهذا الاسم فهم ثمانية منهم ثلاثة ينسبون الى امهاتهم احدهم عنترة المذكور يُنسب الى امهِ زبيبة وخفاف بن عمرو الشريدي يُنسب الى امهِ نُدْبة والسُليك بن عمير السعدي يُنسب الى امهِ السُلكة والخمسة الباقون فهم الشنفرى الازدي وتأبَّط شرًّا وهشام بن معيط وهمام بن مطرف وعمير بن ابي عمير ولكلٍّ منهم صفة اشتهر بها اه‍ . وفي محيط المحيط الاغربة في الجاهلية عنترة وخفاف بن ندبة وابو عمير بن الحباب وسليك ابن السُلكة وهشام بن عقبة بن ابي معيط الاّ انهُ مُخضرَم(١) وقد ولّى الاسلام ومن الاسلاميين عبد الله بن حازم وعمير بن ابي عمير وهمام بن مطرف ومنتشر بن وهب ومطر بن اوفى وتأبَّط شرًّا وهو زيد بن ثابت والشنفرى الازدي وحاجز

اما عنترة المذكور فانهُ اشتهر اخيرًا بالفروسية والشجاعة على ما تقدم واما السُليك ابن السُلكة فانهُ اشتهر باللصوصية على ما ورد في الفصل الاول من هذه المقالة ولكنهُ يُحسب من محاضير العرب الآتي ذكرهم هو وتأبَّط شرًّا والشنفرى الازدي

ويُراد بمحاضير العرب جماعة اشتهروا بالعدو على ارجلهم وسرعة الركض وهو من الإحضار والإحضار عَدْو الفرس ويقال بانهم خمسةٌ احدهم السليك المذكور ويقال لهُ السعدي واسمهُ الحرث بن عمرو بن زيد بن مناة التميمي والسُليك مصغَّر السالك وهو ولد الحجل سُمي بذلك لكون امهِ تسمَّى السالكة وهي انثى الحجل ويقال بانهُ كان اوَّل الناس بالجري على الارض واعداهم على رجليهِ لا تلحقهُ جياد الخيل وكما ضُرِب المثل بهِ في التلصّص ضُرِب كذلك بهِ المثل في العَدْو ايضًا فيقال اعدى من السُليك بن السلكة وكان من فصحاء العرب وشعرائهم ويسمّونهُ سُليك المقانب والمقانب الذئاب الضارية قتلهُ انس بن مدرك الخثعمي سنة ٦٠٥ م اعني قبل الهجرة بنحو عشرين سنة

وثانيهم الشنفرى وهو رجل من بني الازد سمّي بالشنفرى لعظم شفتيهِ ويُضرَب بهِ المثل في سرعة الركض كما يضرَب بالسليك المذكور فيقال اعدى

(١) المخضرم الرجل كان جاهليًا ثم ادرك الاسلام فقبلهُ واسلم

من الشنفرى وكان شاعرًا جاهليًا وهو صاحب لامية العرب المشهورة التي شُبهت لامية العجم للطغرائي بها

والثالث عمرو بن برّاق والرابع اسير بن جابر والخامس تأبّط شرًا واسمهُ ثابت بن جابر بن سفيان الفهمي

وهناك رجل يقال له دعيميص الرمل من سودان العرب ايضًا اشتهر في الدلالة على الطرق ولذلك يقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن دلالتهِ أدلّ من دعيميص الرمل كما يقولون أدلّ من حنيف الحناتم وهو رجل من تيم اللات ابن ثعلبة وسوف يأتي ذكرهُ كان دليلاً ماهرًا بالدلالة

ورجل آخر يقال له ربيعة بن الأخبط له قوة على سفر الليل فضربوا بهِ المثل في ذلك

واما الذين اشتهروا بالشجاعة في الاسلام فهم على طبقات الاولى منها عليّ ابن ابي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن ابي الاسود وسعد بن ابي وقاص الزهيري وطلحة الاسدي وابو دجانة الانصاري وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث النخعيّ والقعقاع بن عمرو طاعن الفيل

ودونهم في الطبقة عبد الله بن الزبير بن العوام وابو هاشم عبد الله بن محمد ابن علي بن ابي طالب وعبد الله بن حازم السلميّ فارس الاسلام ومسلمة بن عبد الملك بن مروان والمعتصم العباسي وابرهيم بن الاشتر النخعي وعبد الله بن الحرّ الجعفي وجحدر(١) بن ربيعة العكليّ والمهلّب بن ابي صفرة واولادهُ المغيرة ويزيد والمدرك وحبيب والمفضل وقبيصة(٢) وعبد الملك ومحمد المشهورون بآل ابي صفرة وكان ابوهم المهلّب احد امراء الحجاج بن يوسف وبهِ يضرب المثل في الكذب فيقال اكذب من المهلّب كان اذا حدّث قيل راح يكذب وكان ذامًّا لمن يكذب وهو الذي اخترع الركب للخيل من الحديد وكانت قديمًا من الخشب فكان الرجل يضرب بركابهِ فينقطع فاذا اراد الضحى

---

(١) الجحدر القصير (٢) القبيصة التراب المجموع

والضرب لم يكن له معين ولا معتمد توفي المهلّب سنة ٨٣ للهجرة (٧٠٢ م)

وكان المهلّب المذكور يقول اشجع الناس ثلاثة ابن الكلبية واحمر قريش وراكب البغلة فاما ابن الكلبية فهو مصعب بن الزبير واحمر قريش عمر بن عبد الله بن معمر وراكب البغلة عباد بن الحصين

وممن يقارعهم في الخوارج ابو بلال مرداس وشبيب الخارجي والحجاج في الكوفة وقطري بن الفجاءة

ودونهم في الطبقة معن بن زائدة الشيباني وعمرو بن حنيف وابو دلف القاسم بن عيسى العجلي

الفصل الثالث

في فصحاء العرب وشعرائها

لا شيء عند العرب يساوي الفصاحة اذ انهم قد اشتهروا بها منذ الاجيال القديمة جدًا وكانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وسرعة الخاطر في كل انواعها وضروبها الآتية وهي اولاً

الخطابة. فانهم كانوا يستعملون الخطب في كل امرٍ مهمّ واعيانهم هم الذين يخطبون في ذلك على ان الخطابة في العالم المتمدن هي احدى العلوم المنطقية وموضوعها انما هو الاقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور الى رأي او صدّهم

عنهُ اما العرب فكانوا يخطبون بهذه الاقوال عينها بدون ان يعرفوا ما هو المنطق

ويقال ان اول مَن خطب على الجماعة في الجاهلية هو عبد شمس الملقَّب سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان جدّ العرب

وكان قسُّ بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك بن النمر بن واثلة بن عبد مناة بن افصى بن دعمي بن اياد اسقف نجران التي سبق ذكرها في الفصل الثاني من المقالة الرابعة خطيب العرب وحكيمها وقاضيها في عصرهِ وهو اول من صعد على شرفٍ وخطب عليهِ واول من قال في كلامهِ اما بعدُ واول من اتكأ عند خطبتهِ على سيفٍ او عصًا واول من كتب من فلان الى فلان واول من اقرّ بالبعث عن غير علمٍ[1] واول من قال البينة على من ادَّعى واليمين على من انكر ويقال ان صاحب الشريعة الاسلامية رآهُ قبل البعثة وسمع خطبتهُ وبهِ يضربون المثل في البلاغة فيقولون ابلغ من قسٍّ ويزعمون انهُ عاش سبع مئة سنة

وكذلك سحبان وائل الباهليّ كان من خطباء باهلة وشعرائها وهو الذي يقول

لقد علمَ الحيّ اليمانون انني   اذا قلت اما بعدُ اني خطيبها

يحكى انهُ خطب في صلح بين حيين شطرَ يومٍ فما اعاد كلمةً ولذلك يقولون في امثالهم اخطب من سحبان

وابن خماعة[2] ايوب بن زيد بن قيس بن زرارة[3] الهلالي وجماعة امهُ وكانت تُعرَف بالقريّة[4] وهو ينسب اليها لشهرتها وكان معدودًا من خطباء

(١) هكذا في الاصل واما هو فكان نصرانيًّا فلا يكون اقرارهُ بالبعث عن غير علمٍ

(٢) الخماع العرج   (٣) الزرارة ما رميت بهِ في حائطٍ فلصق

(٤) القرية الاتان

العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وكان أُمّيًا لا يعرف القراءة توفي سنة ٨٤ الهجرة (سنة ٧٠٣ م)

وابو نعامة القطري بن الفجاءة وقد مرّ ذكرهُ والفجاءة اسم امهِ وهو خطيب من خطباء العرب كان ذا فطنة وذكاء وصاحب كيد ودهاء

وابو قدامة رجل في الاسلام يضرب بهِ المثل في البلاغة ايضًا ولهُ تصانيف كثيرة وهو ابو الفرج جعفر بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي ذكرهُ الحريري في مقدمة مقاماتهِ حيث يقول وان المتصدي بعدهُ (اي بديع الزمان) لانشاء مقامة ولو أُوتي بلاغة قدامة لا يغترف الاَّ من فضالتهِ ولا يسري ذلك المسرى الاَّ بدلالتهِ

وابو الحسين محمد بن احمد بن اسماعيل بن عيسى بن اسماعيل الشهير بابن سمعون فانهُ اشتهر في العصر الاسلامي بالوعظ وضرب فيهِ المثل فيقولون لمن ارادوا المبالغة في وصفهِ بحسن الوعظ اوعظ من ابن سمعون توفي سنة ٣٨٧ للهجرة (سنة ٩٩٧ م)

الامثال . وكان للعرب اليد الطولى في ضرب الامثال فهم يضربون لكل واقعة مثلاً مبنيًا على نادرة من نوادرهم او واقعة من وقائعهم وامثالهم على جانب من الفصاحة منها قسم كبير منتشر في اغلب اجزاء هذا الكتاب لكونهـا ذات دخل عظيم في تحقيق آدابهم والاطلاع على حقيقة اخبارهم فيحلّي المتأخرون بها خطبهم ويزينون اشعارهم وانشاءاتهم وقد اعتنى بجمعها كثيرون من مؤلفي المسلمين واشهر كتاب أُلّف فيها جامعًا للامثال المضروبة في الجاهلية والاسلام مجمع الامثال للعلامة الميداني وهو ابو الفضل احمد بن محمد بن احمد بن ابرهيم النيسابوري قال فيهِ ان اول مثل جرى للعرب هو قولهم المرأة من المرء وكل أدماء من آدم توفي سنة ٥١٨ للهجرة (سنة ١١٢٤ م)

الشعر . اما نظم الشعر فكان في زمن الجاهلية على ما قالهُ ابو دؤاد ليس احدٌ من العرب الاَّ وهو يقدر على قول الشعر طبعًا ركب فيهم قلَّ قولهُ او

كثر وقال آخرون انهم كانوا ينظمونهُ ارتجالاً ويتحصل من ذلك ان العرب وقتئذٍ لم تكن تعلم لهُ عروضاً ولا احتاجوا فيهِ الى درس علم البيان كما هو الحاصل الآن فانهُ انما اخترع ذلك لهُ المتأخرون بعد ظهور الاسلام لما عدمت منهم قواهُ الطبيعية واحتاجوا الى احيائها ثانةً فشرعوا حينئذٍ في معالجتها بالوسائط الصناعية التي استنتجوها من تتبع اشعار المتقدمين من اهل الوبر الذين كانوا مفطورين عليها وقال ابو عبيدة كان الشعراء في الجاهلية من قيس وليس في الاسلام مثل حظ تميم في الشعراء واشعرُ تميم جرير والفرزدق والاخطل وحيث قد تكلمنا بما فيهِ الكفاية في هذا المعنى عند الكلام على الشعر في المقالة الثانية من كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فلا نكرر ذلك هنا

غير انّا نقول ان شعراء العرب في الجاهلية والاسلام ينقسمون بحسب ادوارهم الى اربع طبقات ثلاثة منها كان نظم الشعر فيها سجيةً على ما قد تقدم اذ انها لم تدرك الزمن الذي فيهِ اخترع لهُ المتأخرون قواعد صار بواسطتها صناعةً وهي اولاً الجاهليون الذين عاشوا في العصر السابق على ظهور الاسلام وماتوا اما قبل ان يدركوا الاسلام واما ادركوهُ ولم يسلموا بل اصرّوا على ما كانوا عليهِ من العبادات في زمن الجاهلية كامرء القيس وأُمية بن ابي الصلت. ثانيًا المخضرمون وهم الشعراء من الجاهلية الذين ادركوا الاسلام وقبلوهُ كحسّان ابن ثابت وكعب بن زهير وهو ماخوذ من الناقة المخضرمة وهي التي قد قُطع نصف اذنها فيقال للشاعر منهم مخضرمٌ وسمع فيهِ محضرم بالحاء المهملة ثم توسع في ذلك حتى أُطلق على من ادرك دولتين كالدولة الاموية والدولة العباسية. ثالثًا المولّدون كالفرزدق وجرير اللذين مرّ ذكرهما. رابعًا المحدثون كالمعري وابن الرومي وهم الذين نبغوا من اول القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وكان نظمهم الشعر على مقتضى قواعد الآداب المخترعة لهُ اخيرًا مذ الزمن المذكور فيكون الشعر فيهم صناعةً لا طبعًا

ولما كان الشعر مشتقاً من الشعور فقد سُمي الشاعر شاعرًا لفطنتهِ ولهذا قد

كانوا من جهة النظم على طبقات متفاوتة فيقال للشاعر المفلق منهم خنذيذ ومن دونهُ شاعرٌ ثم شُوَيعرٌ ثم شعرورٌ ثم متشاعرٌ وقد اشار بعضهم الى هذه الطبقات بقوله

الشعراء في الزمان اربعَهْ فواحدٌ يجري ولا يُجرَى معَهْ
وواحدٌ يجول وسط المعمعهْ وواحدٌ لا تشتهي ان تسمَعهْ
وواحدٌ لا تستحي ان تصفعهْ

ومن ثمَّ انتخب العلماء من المتأخرين من منظومات الطبقات الثلاثة الاولى اعني الجاهلية والمخضرمين والمولدين عدَّة قصائد تحصل منها سبعة اسابيع وضعوا لكلٍّ منها وصفًا تُعرَف بهِ وهي شهيرةٌ بكونهـا افضل اشعارهم فقالوا المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات ولذلك نكتفي هنا بذكر الذين وقفنا على ترجماتهم من اصحاب هذه القصائد فقط لانهُ لو صممنا على ان نورد ترجمات كل الذين جمعنا ترجماتهم من الشعراء في الطبقات الاربعة المذكورة لاحتجنا ان نجعل جرم هذا الكتاب مضاعفًا

المعلقات . واصحابهـا هم امرؤ القيس بن حجر الكندي ويكنى ابا وهب ويقال لهُ الملك الضليل وذو القروح وامرأتهُ اخت كليب والمهلهل ابني ربيعة التغلبيين وكان راغبًا في الشعر والتشبب منذ صبائهِ فطردهُ ابوهُ لان ملوك العرب كانت تأنف من الشعر ويقال بان لهُ اوّل شعرٍ شبب فيهِ بالنساء ولهُ ديوان شعر وقد مرَّ ذكرهُ في عدَّة محلات من هذا الكتاب

وزهير بن ابي سلمى المزنيّ صاحب القصائد المسماة بالحوليات لانهُ كان ينظم الواحدة منها في اربعة اشهر ويهذبها بنفسهِ في اربعة اشهر ويعرضها على اصحابهِ الشعراء في اربعة اشهر فلا يشهرها حتى يأتي عليهـا حولٌ فلقبت بالحوليات وكان ابو زهير ربيعة وخالهُ بشامة وابناهُ كعب وبجير واختاهُ سلمى والخنساء وابن ابنهِ المُضرَّب وكلهم شعراء توفي زهير سنة ١٠ للهجرة (سنة ٦٣١م)

والحرث بن حلزّة اليشكري من شعراء الجاهلية

ولبيد بن ربيعة العامري شاعر مخضرم كان من اشراف الشعراء المجيدين الفرسان القراء[1] المعمرين يقال بانهُ عاش مئة وخمسة واربعين سنة وفي ذلك يقول

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيدُ

وكان يكنى ابا عقيل توفي سنة ٤١ للهجرة (سنة ٦٦٠ م)

وعمرو بن كلثوم التغلبي واسم ابيهِ مالك وامهُ ليلى بنت مهلهل اخي كليب المذكورين في ما تقدم ومن عقبهِ كلثوم بن عمرو العتابي الشاعر صاحب الرسائل وكان عمرو هذا يهجي النعمان بن المنذر هجاء كثيرًا ويزعمون بانهُ عاش مئة وخمسين سنة

وطرفة بن العبد البكري واسمهُ عمرو وطرفة لقبٌ لهُ والطرفة واحدة الطرفاء وهي اصنافٌ من الشجر منها الاثل وبها لُقّب او لُقّبَ بقولهِ

لا تعجلا بالبكاء اليوم مُطّرفا ولا اميريكما بالدار اذ وقفا

وهو شاعرٌ مجيد مقدمٌ من فحول الشعراء في الجاهلية ولهُ اختٌ اسمها خِرْنِق وهي شاعرة نظيرهُ ايضًا قتلهُ عمرو بن هند بسبب هجائهِ لا خيهِ قابوس

وعنترة العبسيّ وقد سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الثاني من هذه المقالة غير انهم اختلفوا في معلقتهِ الميمية التي يقول في مطلعها

هل غادر الشعراء من متردمِ أمْ هل عرفت الدار بعد توهمِ

فعدّها بعضهم من المذهبات وجعل مكانها قصيدة النابغة الذبياني التي يقول في مطلعها

(1) القرّاء الناسك المتعبد

يا دارَ ميّةَ في العلياءِ فالسندِ اقوَت وطال عليها سالفُ الامدِ

لكن لم يوافق الاكثرون على ذلك وعليهِ جرى في شرح المعلقات القاضي الزوزني والشيخ محمد بن زكريا الانصاري

المجمهرات. وهي عندهم الطبقة الثانية من هذه القصائد المنتخبة واصحابها النابغة الذبيانيّ الذي مرّ ذكرهُ من بني غطفان واسمهُ زياد بن معاوية بن خباب ويكنى بابي امامة وهو من الطبقة الاولى من المقدمين على سائر الشعراء وكان يضرَب لهُ قبةٌ من ادم بسوق عكاظ فتاتيهِ الشعراء لتعرض عليهِ اشعارها وكان كبيرًا عند الملك النعمان وخاصًا بهِ من ندمائهِ واهل انسهِ

ويوجد غيرهُ ممّن يسمّى بالنابغة من الشعراء ايضًا ومنهم النابغة الجعدي واسمهُ حسّان بن قيس ويتصل نسبهُ بغيلان بن مُضَر وفي ذلك خلاف وكنيتهُ ابو ليلى وسمّي النابغة لانهُ اقام مدّةً لا يقول الشعر ثم نبغ فقالهُ وهو من الشعراء المخضرمين المعلقين طويل البقاء في الجاهلية والاسلام وكان اكبر من النابغة الذبياني ومن شعرهِ

ومن يكُ سائلاً عني فاني من الفتيانِ ايام الخنانِ
اتت مئة لعام ولدت فيهِ وعشرٌ بعد ذاك وحِجَّتانِ
وقد ابقت خطوب الدهر مني كما ابقت من السيف اليماني

عاش الى خلافة يزيد بن عبد الملك

ومنهم النابغة الشيباني عبد الله بن المخارق من ولد ربيعة بن نزار شاعرٌ بدوي من شعراء الدولة الاموية . قال الاصبهاني يرى انهُ كان نصرانيًا لانهُ في شعرهِ يحلف بالانجيل وبالرهبان وبالايمان التي يحلف بها النصارى مدح عبد الملك بن مروان ومَن بعدهُ من ولدهِ مدائح كثيرة

ومن اصحاب المجمهرات ايضًا عبيد بن الابرص يتصل نسبهُ بمُضَر وهو شاعر فحل فصيح من شعراء الجاهلية جعلهُ ابن سلام في الطبقة الرابعة من فحولهم وقرن

بهِ طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد الآتي ذكرهُ وكان شاعر بني اسد غير مدافع قتلهُ المنذر بن النعمان في يوم بؤسهِ

وعدي بن زيد وهو المشهور بابن الرقاع العاملي وزيد اسم ابيهِ وقد نسبهُ الناس الى الرقاع وهو جدّ جدّهِ لشهرتهِ وكان عديّ المذكور شاعرًا مقدمًا عند بني أُميّة خاصًا بالوليد بن عبد الملك ولهُ بنت شاعرة يقال لها سلمى وهو من حاضرة العرب لا من باديتهم وكان منزلهُ بدمشق جعلهُ بعضهم في الطبقة الثالثة من شعراء الاسلام

وبشر بن حازم لم نقف على ترجمتهِ

وأُميّة بن الصلت عبد الله بن ابي ربيعة من ولد بكر بن هوازن مات في مبدإِ ظهور الاسلام ولم يسلم لزعمهِ بانهُ هو اولى بالنبوة من صاحب الشريعة الاسلامية وكان ابوهُ عبد الله بن ابي ربيعة شاعرًا قديمًا من شعراء الجاهلية ايضًا

وخداش بن زهير ولم نقف على ترجمتهِ

والنمر بن تولب يقال لهُ العكليّ ويتصل نسبهُ بنزار شاعرٌ مقلٌّ مخضرم ادرك الاسلام واسلم وكان احد اجواد العرب المذكورين وفرسانهم المشهورين وكان ابو عمرو بن العلا يسميهِ الكيّس لجودة شعرهِ وحسنهِ

المنتقيات. وهي الطبقة الثالثة واصحابها المسيّب بن علَس يحكى عنهُ انهُ انشد يومًا بين يدي عمرو بن هند

وقد اتلافى الهمّ عند احتضارهِ   بناجٍ عليهِ الصيعرية مِكدَمِ

وكان طرفة بن العبد وقتئذٍ حاضرًا وهو غلام فقال استنوق الجمل وذلك لان الصيعرية سمة تكون في اعناق النوق دون الفحول فذهبت كلمتهُ هذه مثلًا يضرَب للرجل يكون في حديث ثم يخلطهُ في غيرهِ وينتقل اليهِ فغضب المسيّب وقال ليقتلنهُ لسانهُ فكان كما قال (راجع حديثهُ في المعلقات)

والمرقش بن جرير ويوجد غيرهُ من الشعراء يسمّون بالمرقش ايضًا. قال

ابو الفرج الاصفهاني المرقش الاكبر هو احد الشعراء في الجاهلية واحد من قال شعرًا فلقّب بهِ فان لقب المرقش غلب عليهِ لقولهِ

الدار وحشٌ والرسوم كما   رقش في ظهر الاديم قلمْ

وهو عم المرقش الاصغر واما اسمهُ الاصلي فهو عمرو وقيل عوف بن سعد ان مالك و يتصل نسبهُ ببكر بن وائل

والمرقش الاصغر المذكور هو عمرو بن ربيعة بن حرملة بن سفيان عم طرفة بن العبد الذي مرّ ذكرهُ وهو اشعر المرقشين واطولهم عمرًا

وعروة بن الورد الذي سبقت ترجمتهُ في الفصل السابق

ودريد بن الصمة " " " " "

والمهلهل بن ربيعة " " " " " الاول

والمنخل بن عويمر بن عثمان بن سويد يتصل نسبهُ بهذيل وفيهِ اختلاف ويكنى ابا اثيلة قال الاصفهاني هو شاعرٌ من فحول شعراء هذيل وفصحائهم

المذهبات . وهي الطبقة الرابعة واصحابها حسّان بن ثابت ويكنى ابا الوليد فحلٌ من فحول الشعراء قيل انهُ اشعر اهل المدر عاش مئة وعشرين سنة منها ستين في الجاهلية وستين في الاسلام ويفضلونهُ على الشعراء بثلاث وهي انهُ كان شاعر الانصار في الجاهلية وشاعر صاحب الشريعة الاسلامية وشاعر اليمن كلها في الاسلام ضربهُ صفوان بن المعطل لِما قالهُ من الافك المشهور حديثهُ وكان قتلهُ في سنة ٦٠ للهجرة (سنة ٦٧٩ م)

وعبد الله بن رواحة شاعرٌ من الانصار

ومالك بن العجلان لم نقف على ترجمتهِ

وقيس بن الخطيم الاوسيّ يكنى بابي يزيد وابوهُ عدي بن عمرو بن ظفر وهو من شعراء الجاهلية

واحيحة بن الحلاج يكنى ابا عمرو وابا وحوحة وهو من شعراء الجاهلية ايضًا

وابو قبيس بن الاسلت شاعرٌ جاهليٌّ ولم يعرَف اسمهُ والاسلت لقب ابيهِ واسمهُ عامر وكانت الاوس قد اسندت الى ابي قبيس هذا حربها وجعلتهُ رئيسًا عليها يوم بعاث

وعمرو بن امرء القيس ولم نقف على ترجمتهِ

المراثي . وهي الطبقة الخامسة واصحابهـا ابو ذوئيب الهذلي واسمهُ خويلد ابن خالد يتصل نسبهُ بمُضَر من الشعراء المخضرمين ادرك الجاهلية والاسلام وكان شاعرًا فحلاً توفي في خلافة عمر بن الخطاب

ومحمد بن كعب الغنويّ ولم نقف على ترجمتهِ

والاعشى الباهليّ لم نقف على ترجمتهِ لكن الشعراء المعروفون بالاعشى كثيرون ومنهم الباهليّ المذكور

ومنهم ميمون بن جندل الاسدي ويكنى ابا بصير ويقال انهُ هو اول من سأل بشعرهِ وانتجع بهِ اقاصي البلاد وكان يغني في شعرهِ فسمّي صناجة العرب والصنج بالضمّ آلة من النحاس يضرَب بعضها ببعض للطرب وبها سمّي ايضا هذا الكتاب توفي ميمون المذكور سنة ٨ للهجرة (سنة ٦٢٩م)

ومنهم اعشى همدان واسمهُ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحرث ويتصل نسبهُ بكهلان بن سبا ويكنى ابا المصبح شاعرٌ فصيح كوفي من شعراء الدولة الاموية وكان زوج اخت الشعبي الفقيه الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من هذه المقالة والشعبيُّ ايضًا زوج اختهِ وكان احد الفقهاء القرَّاء ثم ترك ذلك وقال الشعر اسرهُ الحجاج في حروبهِ مع اهل العراق وقتلهُ لانهُ كان يحرّض قومهُ على القتال

والاعشى المازني وهو عبد الله بن الاعور المازني الحرمازي شاعر مخضرم ولم نقف لهُ على غير ذالك

والاعشى التغلبيّ واسمهُ ربيعة وقيل النعمان بن يحيى بن معاوية شاعرٌ من شعراء الدولة الاموية ايضًا وكان يسكن الشام اذا حضَر واما اذا بدا فينزل

في بلاد قومهِ بنواحي الموصل وديار ربيعة وكان نصرانيًّا وكان الوليد بن عبد الملك محسنًا اليهِ فلما ولّي الخلافة عمر بن عبد العزيز لم يعطهِ شيئًا فقال

لعمري لقد عاش الوليد حياتهُ   امامَ هدًى لا مستزادٌ ولا نزرُ
كأنَّ بني مروان بعد وفاتهِ   جلاميد لا تندي وان بلّها القطرُ

واعشى بني ربيعة اسمهُ عبد الله بن خارجة بن حبيب من ولد بكر بن وائل وكنيتهُ ابو عبد الله شاعرٌ اسلاميٌّ من ساكني الكوفة وكان مرواني المذهب شديد التعصب لبني أُميَّة وُجد في ايام عبد الملك بن مروان وابنهُ سليمان وعاقبة المطوس لم نقف على ترجمتهِ

وابو زبيد الطائي وهو حرملة بن المنذر بن معدي كرب بن حنظلة بن النعمان ويتصل نسبهُ بزيد بن كهلان كان نصرانيًا الَّا انهُ ادرك الجاهلية والاسلام فعدَّ من المخضرمين والحقهُ بعضهم في الطبقة الخامسة من الشعراء الاسلاميين وكان عثمان بن عفَّان يقرّبهُ ويدني مجلسهُ وصف لهُ يومًا اسدًا اتاهُ واطنب في وصفهِ فقال لهُ عثمان اسكت فقد ارعبت قلوب المسلمين

ومالك بن الريب النهشليّ يتصل نسبهُ بتميم كان شاعرًا ولصًّا فاتكًا منشأهُ في بادية بني تميم بالبصرة وهو من شعراء الاسلام في اول ايام بني أُميَّة وكان مرافقًا لشظاظ الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من هذه المقالة في قطع الطريق وكان اجمل الناس وجهًا واحسنهم ثيابًا واقلع اخيرًا عن خباثهِ عن يد سعيد بن عثمان بن عفّان وصار عاملاً لمعاوية على البصرة فاستصحبهُ واجرى لهُ رزقًا في كل شهر

ومتمم بن نويرة التميمي يتصل نسبهُ بمُضَر ويكنى ابا نهشل وهو اخو مالك ذي الخمار الذي قتلهُ خالد بن الوليد على ما تقدم في الفصل الثالث من المقالة الرابعة والثاني من هذه المقالة

• **المشوبات**. وهي الطبقة السادسة واصحابها كعب بن زهير وكان معاديًا

لصاحب الشريعة الاسلامية فاهدر دمهُ فاسلم وامتدحهُ بقصيدة شهيرة يقول في مطلعها

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ   متيَّمٌ اثرها لم يُفدَ مكبولُ

وجاء بها اليهِ فعفى عنهُ واحسن اليهِ ببردتهِ التي اخذها معاوية بن ابي سفيان من ولدهِ بعد موتهِ باثني عشر الف درهم قال صاحب تذكرة الحكم ان هذه البردة لازالت موجودة في الخزينة السلطانية وترك العهدة على الراوي

ونابغة جعدة وقد سبقت ترجمتهُ

والقطامي واسمهُ عمير بن شبيم وهو نصرانيٌّ كان في ايام عبد الملك بن مروان لكنهُ يعدّ من من الشعراء الاسلاميين المقلين وهو اول من لُقّب صريع الغواني لقولهِ

صريع غوانٍ راقهنَّ ورقنهُ
لدن شبَّ حتى شاب سود الذوائبِ

والحُطيئة واسمهُ اوس بن جرول بن مالك من بني مُضَر ويكنى ابا مليكة لُقب بالحطيئة لقصرهِ وقربهِ من الارض وكان قبيح المنظر دنيَّ النفس بخيلاً هجّاء خبيث اللسان قلما يسلم احدٌ من هجوهِ هجا بنيهِ وامهُ وزوجتهُ وفي ذلك يقول

لا احدٌ الأمُ من حُطيئة   هجا بنيهِ وهجا المُريَّة
من لؤمهِ مات على فريَّة

والفريَّة هي الاتان وذلك انهُ قبل موتهِ اوصى اقرباءهُ ان يحملوهُ على اتان ويتركوهُ راكبها حتى يموت فان الكريم لا يموت على فراشهِ والاتان مركبٌ لم يمت عليهِ كريمٌ. ويحكى عنهُ ايضًا بانهُ التمس ذات يوم انسانًا يهجوهُ فلم يجد وضاق عليهِ ذلك فجعل يقول

أَبتْ شفتايَ اليومَ الاَّ تكلّمَا   بسوءٍ فلم ادرِ لمن انا قائلهْ

وجعل يردد هذا البيت الى ان مرَّ على حوض ماء فرأى وجههُ فيهِ فقال

أرى لي وجهًا شوَّه الله خَلقهُ فقبّح من وجهٍ وقبّح حاملهُ

والشماخ بن ضرارة واسمهُ معقل والشماخ لقبٌ لهُ وهو من الشعراء المخضرمين هجا عشيرتهُ وهجا اضيافهُ ومنَّ عليهم بالقرى وكانت امهُ انجب نساء العرب ولهُ اخوان شاعران احدهما يقال لهُ مزرد واسمهُ يزيد والآخر جزء بن ضرار وذكر عنهُ انهُ كان اوصف الناس للحمير

وعمرو بن احمد وتميم بن مقبل ولم نقف لهما على تراجم

المحمات. وهي الطبقة السابعة واصحابها الفرزدق التميمي وكنيتهُ ابو فراس واسمهُ همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي والفرزدق في اللغة قطعة من العجين تُبسط فيخبز منها الرغيف والرغيف الضخم الذي تجففهُ النساء للفتوت ولُقّب بذلك لانهُ كان غليظًا ضخم الوجه وكان مجاهرًا بالفحشاء هجاهُ جرير بقصيدةٍ منها قولهُ

وكنتَ اذا حللتَ بدار قومٍ ظعنتَ بخزيةٍ وتركتَ عارا

فاتفق ان نفاهُ عمر بن عبد العزيز من المدينة لمراودتهِ زوجة صاحب البيت الذي كان مضافًا بهِ فلما خرج راكبًا ناقتهُ تذكر البيت فقال قاتل الله ابن المراغة لقد اخبر بحالتي قبل ان يراها وجاءهُ ذات يوم رجل من تميم قبيلتهِ وانشد لنفسهِ

ومنهم عمر المحمود نائلهُ كأنما رأسهُ طين الخواتيم

فضحك الفرزدق وقال لهُ اعلم يا اخي ان للشعر شيطانين احدهما يقال لهُ الهوثر والثاني الهوجل فمن انفرد بهِ الهوثر جاد شعرهُ ومن انفرد بهِ الهوجل ساء شعرهُ وفسد كلامهُ وقد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوثر في اولهِ فاحسنت وخالطك الهوجل في آخرهِ فاسأت

وكان من مزعومات العرب ان لكل شاعرٍ شيطانًا يلقنهُ الشعر وان شيطان الفرزدق يقال لهُ عميرة او عمرو قال ابو عبد الرحمن يونس بن حبيب النحوي لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨ م)

وجرير الخطفي الذي مرَّ ذكرهُ وهو ابن عطية التميمي واسمهُ حذيفة والخطفي لقب لهُ وكنيتهُ ابو حَزْرَة وكان من فحول شعراء العرب في الاسلام يضرَب بهِ المثل فيقال أَحسن بالتغزل من جرير ويقال ايضًا بأنهُ اشعر من الفرزدق المذكور وكان معاديًا لهُ ويشبهُ من شعراء الجاهلية بالاعشى واجمعت العلماء على مصادقة ما قالهُ ابو عبيدة بانهُ ليس في شعراء الاسلام مثلهُ ومثل الفرزدق والاخطل الآتي ذكرهُ ويروون ان بيوت الشعر اربعة فخرٌ ومديحٌ وهجاءٌ ونسيبٌ وفي الاربعة فاق جرير غيرهُ وقال المتنبي وفي الغزل ايضًا لا يبعد ان يكون أَبلغ توفي سنة ١١٠ للهجرة (سنة ٧٢٨م)

والاخطل التغلبي لُقِّب بذلك لانهُ كان من نصاري التغلبيين واسمهُ غياث ابن الغوث بن الصَّلت بن طارقة التغلبي ويكنى بابي مالك وقيل لهُ الاخطل لاسترخاء في اذنيهِ وقيل ان معنى الاخطل السفيه وفي مجمع الامثال للميداني الخاطل الجاهل واصلهُ من الخطل وهو الاضطراب في الكلام وغيرهِ وعليهِ قول الافعى الجرهميّ النجرانيّ حكم العرب الذي مرَّ ذكرهُ في الكلام على الكهان مساعدة الخاطل تعدُّ من الباطل وكان الاخطل هذا معاصرًا لجرير والفرزدق ويعدُّ من طبقتهما وكان بعضهم يفضلهُ عليهما سئل عنهُ حماد الراوية فقال ما تسأَلونني عن رجلٍ حبَّبَ اليَّ شعرهُ النصرانية

وعبيد الراعي اسم ابيهِ حصين بن معاوية ويكنى ابا جندل والراعي لقبٌ غلب عليهِ لكثرة وصفهِ للابل وجودة نعتهِ اياها وهو شاعرٌ من فحول شعراء الاسلام وكان مقدمًا مفضلاً حتى اعترض بين جرير والفرزدق اللذين مرَّ ذكرهما وكان معاصرًا لهما

وذو الرمّة ابو الحرث غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود من ولد معد ابن عدنان احد عشّاق العرب المشهورين صاحب ميّة بنت مقاتل بن طلبة ابن قيس بن عاصم المنقري ومن شعرهِ فيها

وقد عَلِقَتْ ميٌّ بقلبي علاقةً بطيئًا على مرّ الدهور انحلالها

وقال ابو تمام الطائي

ما ربعُ ميّة معمورًا يطيف بهِ غيلان ابهى ربًى من ربعها الخربِ

وكان تشبب بخرقاء ايضًا قال ابو الفرج الاصفهاني الخرقاء التي لا تعمل بيدها شيئًا لكرامتها على قومها وهي من بني البكاء بن عامر بن صعصعة رأت المفضل الضبيّ مرةً فقالت لهُ هل حججت قال غير مرّةٍ قالت فما منعك من زيارتي أما علمت اني منسكٌ من مناسك الحج فقال وكيف ذلك قالت أما سمعت قول عمك ذي الرمة

تمام الحج ان تقف المطايا على خرقاء واضعةِ اللثامِ

ويحكى ان جريرًا مرّ بذي الرمة وهو ينشد وقد اجتمع الناس عليهِ فقال نقط عروسٍ وابعارُ ظباء اي ان هذا الشعر مثل بعر الظبي من شمهُ وجد لهُ رائحةً فاذا فتّهُ وجدهُ بخلاف ذلك فذهبت مثلاً. وكان لذي الرمة ثلاثة اخوةٍ مسعود وجرفاش وهشام وكلهم شعراء ويقال بانهُ كان طفيليًا ولُقّب بالرُمّة وهي بضمّ الرّاء الحبل البالي وبكسرها العظم البالي لكونهِ اجتاز يومًا بخباء ميّ المذكورة وسألها ان تسقيهُ ماء وكان على كتفهِ رمة فلما ناولتهُ الماء قالت لهُ اشرب يا ذا الرُمة فصار ذاك لقبًا لهُ وسببًا لتعلقهِ بها قال ابو عبيدة وكان ذو الرمة يخبر فيحسن الخبر ويردُّ فيحسن الردّ ويعتذر فيحسن التخلص وقال ابو عمرو خُتم الشعر بذي الرمة وختم الرجز بروبة بن العجاج توفي سنة ١١٧ للهجرة (سنة ٧٣٥م)

والكميت بن زيد شاعرٌ اسلامي والشعراء المعروفون بالكميت ثلاثة احدهم جاهليٌ والثاني مخضرم والثالث اسلامي وهو الكميت بن زيد المذكور وكان اطولهم شعرًا قال الصاحب

قد طال قربك يا اخي فكأنهُ شعر الكميت

قال بعض المؤلفين الكميت شاعرٌ مقدمٌ عالمٌ بلغات العرب خبيرٌ بايامها وهو من شعراء مُضَر وكان في ايام بني أُمية ولم يدرك الدولة العباسية يقال ان مبلغ شعره حين مات كان خمسة آلاف ومئتين وتسعة وثمانين بيتًا وكان معاصرًا للعجاج الشاعر المشهور توفي سنة ١٢٦ للهجرة (سنة ٧٤٣م)

واما الكميت الجاهليّ فكان جدَّهُ الكميت بن ثعلبة

والكميت المخضرم فهو الكميت بن معروف قال الاصبهاني هو بدويٌّ وأحد المعرقين في الشعراء كان ابوهُ معروف شاعرًا وامهُ سعدى شاعرة واخوهُ خيثمة اعشى بني اسد وابنهُ معروف بن الكميت شاعرين ايضًا

والطرماح هو حكيم بن الحكم ويكنى ابا نفر وابا خبيبة ومعنى الطرماح الطويل القامة شاعر من فحول الشعراء الاسلاميين وفصحائهم منشأهُ بالشام ثم انتقل الى الكوفة مع من وردها من جيوش اهل الشام

واعتقد مذهب الشراة

الازارقة

المقالة السابعة

في تربية الخيول والابل عند العرب وباقي محصولات بلادها وتجارتها
وفيها اربعة فصول

الفصل الاول

في خيول بلاد العرب ومشاهيرها

من المعلوم بان العرب في الجاهلية كانت تحسن ركوب الخيل وتربيتها والخيل في اللغة هي جماعة الافراس قيل انها سمّيت بذلك لانها تختال في مشيتها وهي قسمان الكديشية وهي الخيول المعتادة والكحيلانية وهي الجيدة الجنس

اما الكحيلانية فهي موضوع الاعتناء عند العرب وعليها مدار الكلام هنا ويقال بان اصلها الاصيل من اصطبلات سليمان بن داود ملك اسرائيل وسلسلتها محفوظة من غير دخيل في جنسها وهي تصبر على التعب وتمكث عدّة ايام من غير اكل وتدخل كاسرة على الاعداء في الغارات

وقد اشتهر هذا القسم الكحيلاني في المحاسن حتى صارت له رنّة وصولة عند جميع شعوب الارض ومع ان العرب في وقتنا هذا قد عدموا اغلب ما كان لهم

في الزمن القديم من المزايا العظيمة التي كانوا يتصفون بها فهم لا زال الى الآن لم يعدموا شيئًا من الوصف بالفروسية وتربية هذه الخيول التي يرغب في اقتنائها عظماء العالم بل وجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ويضربون بها المثل وقد امتاز البعض منها في الزمن القديم وفاق غيرهُ في المحاسن حتى تخلَّد ذكرهُ كما يتخلَّد ذكر اصحاب الفضل من الناس ومنها

المشهَّرُ فرسٌ للمهلهل بن ربيعة الذي مرَّ ذكرهُ

والنعامة فرس الحرث بن عباد اليشكري

وثادق فرس منقذ بن طريف

وداحس والحنفاء فرسا قيس بن زهير العبسيّ وكان ابو داحس هذا فرسًا يقال لهُ ذو العقال لحوط بن جابر بن حميري بن رياح بن يربوع وامهُ جلوى فرس قرواش بن عوف بن عاصم بن عُبيد بن يربوع وبسببهِ تولدت الحرب بين عبس وفزارة كما يتضح ذلك مما يأتي فضرب بهِ المثل في الشوم فيقال اشأم من داحس كما يقولون اشأم من خُميرة وهي فرس شبطان بن مدلج الجشمي فان آثارها جرَّت وبالاً على حيّ بني جشم بن معاوية من بني اسد وعلى بني ذبيان

والغبراء والخطار فرسا حذيفة بن بدر الفزاريّ

والخطار والاعوج فرسا ابن الهلالية وقيل لهُ الاعوج لان غارةً وقعت على اصحابهِ وكان مهرًا فحملوهُ على الابل فاعوجَّ ظهرهُ وكان هذا الفرس لبني كندة ثم صار لبني سليم ثم لبني هلال بن عامر واليهِ تُنسب الاعوجيات وبنات اعوج وليس في العرب فحلٌ أشهر ولا اكثر منهُ نسلاً

وجُعَيْثن فرس آخر لم نقف على اسم صاحبهِ واليهِ تُنسب الخيول الجُعيثنية

والجُلف كذلك طائفةٌ من الخيل الاصلية لم نقف على اخبارها

واللاَّحق فرس معاوية بن ابي سفيان

وسكاب فرس الاجدع بن مالك وقد طلبها منهُ بعض الملوك فمنعهُ اياها وقال

ابيت اللعنَ ان سكاب عِلقٌ نفيسٌ لا يعــارُ ولا يُباعُ
مفدّاةٌ مكرمةٌ لدينـــا تجاعُ لها العيالُ ولا تجاعَ

والعُبيدُ وبَرَزة فرسا العباس بن مرداس السلمي

والعقاب فرس زيد الخيل النبهاني وذكر في شعرهِ ستة غيرها ايضًا وهي الهطال والكميت والورد وكامل ودوول ولاحق

والعصا وامها العُصيّة فرسا جذيمة الابرش ويقال في امثالهم ما ضلَّ من جرت بهِ العصا قال هذا المثل قُصَير لما ركبها وهرب وجرت بهِ الى غروب الشمس والقصة مشهورة وقد مرَّ لها ذكرٌ في ما سلف ايضًا قيل لما ماتت بنى عليها قصير برجًا يقال له برج العصا وعبارة الميداني يا ضلَّ ما تجري بهِ العصا قالهُ عمرو بن عدي لما رأى العصا فرس خالهِ جذيمة وعليها قُصَير كما ذكرنا اراد بذلك يا قومُ ما ضلَّ اي ما هلك ما تجري بهِ العصا يعني هلاك جذيمة

والابجر فرس عنترة العبسيّ

وبزحا فرس عوف بن الكاهن الاسلميّ

والبهْرامُ فرس النعمان بن عتبة العتكيّ

والجون فرس مروان بن زنباع العبسيّ

والجنباء فرس معوية البكائي

وخرنة فرس الهمام العكلي

والضحيا فرس ملاعب الاسنة

وقرذل فرس اخيهِ طُفَيل الخيل

وزيم فرس جابر بن حسيّ التغلبي واُخرى بهذا الاسم للاحنف بن شهاب

والزفوف فرس النعمان بن المنذر ولهُ فرس آخر يسمى اليحموم يقال انهُ كان يردي من ركبهُ

وخِصاف بالكسر فرس مالك بن عمرو الغسّاني كان اذا سبق عليهِ

لا يُلحق وإذا لحقَ ادركَ فكان يقتحم بهِ الاهوال ومنهُ قولهم في المثل أجرأُ من فارس خِصاف

وخصاف مُعرَّب حصان لسمير بن ربيعة الباهليّ وفيهِ يضرَب المثل المذكور ايضاً وحصان آخر لحمل بن زيد بن بكر بن وائل قيل انهُ لما كان عند ابن امرء القيس طلبهُ منهُ ليفتحلهُ فمنعهُ اياهُ فلجّ عليهِ الملك فقام الى الحصان وخصاهُ بين يديهِ غير مهيبٍ منهُ فضُرب بهِ المثل يقال هو أجرأُ من خاصي خصاف

والمعلَّى فرس الاشعر الشاعر

والعناق فرس مسلم بن عمرو الباهليّ

والعوجاء فرس جوين الطائي

وقراب فرس عبد الله بن الصمّة

والنجام فرس السُليك بن السلكة

والمرار فرس معاوية بن عبادة

والكامل فرس عبد الله بن زيادة

وندوة فرس ابي سواج عباد بن خلف الضبيّ

والقضيب فرس حرد بن جمرة اليربوعي

والخوصاء فرس توبة بن الحمير

والشماء فرس معاوية بن عمرو اخي الخنساء

وذو الخمار فرس مالك بن نويرة

والكتفان او الكتعان فرس مالك بن بدر

وموذوع فرس هرم بن ضمضم المريّ

وجرادة العيار فرسٌ كان شديد الوثوب كالجرادة فلُقب بها

والزائد اسم فرس نجيب جدًّا

والهجيسيُّ فرس لبني تغلب

وهدّاج فرس لباهلة

والتدمري فرس لبني ثعلبة

وذات الرماج فرس لضبّة كانت اذا ذعرت تباشرت بنو ضبّة بالغنم

وبليق فرس كان يسبق ومع ذلك يعاب فضُرب بهِ المثل يقال يجري بليق ويُذَمُّ يُضرَب في ذم المحسن

وكانت الخيل اعزُّ ما يباع عند العرب فاذا اشترى الرجل فرسًا قال لهُ البائع النقد عند الحافرة اي عند اول كلمة فذهبت مثلاً قال الشاعر

احبّوا الخيل واصطبروا عليها فان العزَّ فيها والجمالا
اذا ما الخيل ضيّعها اناسٌ ربطناها فاشركت العيالا
نقاسمها المعيشة كلَّ يومٍ ونكسبها الاباعر والجمالا

وكانوا اذا ارسلوا الخيل على الصيد فسبق واحدٌ منها خضّبوا صدرهُ بدم الصيد علامةً لهُ ويسمّون ذلك خضاب النحر

وكان يجري عندهم ايضًا سباق الخيل ومنهُ تولدت الحرب الشهيرة التي ابتدأت سنة ٥٦٨ م اعني قبل الهجرة باكثر من خمسين سنة بين عبس وبني فزارة بسبب داحس فرس زهير والغبراء فرس حذيفة بن بدر الفزاري وقد مرَّ ذكرها وانشد عنترة العبسيّ من قصيدتهِ التي رثى فيها مالك بن زهير المذكور وقد قتلهُ حذيفة في هذه الحرب بيتًا ذهب شطرهُ الاول مثلاً

فلا كانت الغبرا ولا كان داحسٌ ولا كان يومًا حلَّ فيهِ رهانُ

وقد دامت هذه الفتنة تؤجج نارًا وتوقد شرارًا الى ان تفانت القبيلتان ومُحيت الطائفتان

وكانوا يسمّون اوّل الخيل في الحلبة المجلّي وهو السابق ثم المصلّي ثم المسلّي ثم التالي ثم العاطف ثم المرتاح ثم المؤمّل ثم الخطيّ ثم اللّطيم ثم السُكَيت ثم الفِسكل

والقاشور وقد نظمها بعضهم بقوله

سبق المجلّي والمصلّي والمسلّي تاليًا مرتاحها والعاطفُ
وخطيئها ومؤمّلٌ ولطيمها سكيتها هو في الاواخر رادفُ

وكانوا يصفّون الخيل عند السباق على حبل يسمّونهُ المقوس وينصبون في حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها واخذها ليُعلم انهُ السابق من غير نزاع ومنهُ قولهم احرز قصب السبق ثم كثر حتى أُطلق على كل مبرز ومشمّر

ويقال ان عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب العامريّ كان احذق العرب بركوب الخيل وأجولهم على متونها وابصرهم في التصرّف عليها

وفي هذا اللعب بعد الاسلام عند عرب المغاربة وكل عند اهالي الاندلس فانهم كانوا يشتغلون بتعليم المصارعة على ظهور الخيل ثم سرى ذلك الى الافرنج بتلك البلاد منهم الى ان صاروا يتنافسون في سباق الخيل ويتراهنون عليهِ كما كان عند العرب فهو من رياضات امراء اوربا وأكابرها في هذا العصر

وللاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي ارجوزة في قيود اسنان الخيل والوانها عند العرب وهي هذه

المُهرُ في حَوْلَيهِ باسم الجذَعِ يُدعى وبالثَنِيّ في التالي دُعي
ثم الرباعِيُّ بعدهُ في الرابعِ وقارحٌ في الحِجَجِ التوابعِ
وَهوَ على اختلافِ لونِ جلدهِ يُدعَى بأوصافٍ جرَت في نقدهِ
فأدهمٌ وأبيضٌ وأحمرُ وأشقرٌ وأصفرٌ وأخضرُ
حتى اذا اشتدَّ سوادُ الأدهمِ يقالُ فيهِ الغَيهَبيُّ فاعلمِ
فإن ينقّط ببياضٍ أنمَشُ قيلَ ومع ذاكَ سواهُ أبرَشُ
فإن تكن نُقطَهُ تتسعُ فانهُ مدنّرٌ فابقعُ
وان يَشُب بعضُ السوادِ الابيضا فذاكَ بالاشهبِ في الوصفِ قَضَى

وانْ اصابَ الاحمرَ السوادُ فبالكُمَيتِ وصفُهُ المعتادُ
فانْ عرا الكُمتةَ لونٌ اشقرُ فذلك الوَرْدُ الذي لا يُنكرُ
وانْ يكُ الاشقرُ فيهِ خُلَسُ من السوادِ قيلَ هذا اغبسُ
وانْ رأيتَ اصفرًا يمتدُّ فيهِ السوادُ فهوَ السَمَنَدُ
فانْ عرا الصُّفرةَ لونٌ شُهبه فالسَّوْسَنيُّ وصفُهُ بالنِسبه
وانْ يكُ الاخضرُ فيهِ يحوَى شيءٌ من السوادِ فهوَ الاحوَى

واما ركض الخيل فقد روى الاصمعي عن قيس بن زهير بانهُ قال يجري الجذعان اربعين غلوة والثنيان ستين والربع ثمانين والقرح مئة والمئة غلوة اثنا عشر ميلاً ولا يجري اكثر من ذلك ومن امثالهم جري المذكيات غلابٌ والمذكية من الخيل هي التي اتي عليها بعد قروحها سنةٌ او سنتان يضرَب لمن يوصف بالتبذير على اقرانهِ في حلبة الفضل ومن امثالهم ايضًا أَمْهِ لك الويل فقد ضلَّ الجمل وهو مأخوذ من قولهم أَمهى العرس اذا اجراهُ واحماهُ في جريهِ والمعنى أَعدَّ فرسك فقد ضلَّ جملك يضرَب لمن وقع في امرٍ عظيم يؤْمر ببذل ما يُطلب منهُ لينجو

ويتشاءمون من الخيل بالاشقر قيل ان السبب في ذلك فرس تسمَّى الشقراء كانت لشيطان بن لاطم قتلت وقُتل صاحبها فقيل أَشأَم من الشقراء ومن كلام لقيط بن زرارة يوم جبلة يخاطب فرسهُ وكان اشقر يا اشقر ان تتقدم تُنحَر وان تتأَخر تُعقَر وذلك ان العرب تقول شقر الخيل سراعها وكمتها صلابها فهو يقول لفرسهِ يا اشقر ان جريت على طبعك فتقدمت الى العدوّ قتلوك واذا اسرعت فتأَخرت منهزمًا اتوك من ورائك فعقروك فتداولت العرب كلامهُ هذا وجرى عندهم مجرى المثل فيقولون كالاشقر ان تقدم نحِر وان تأَخَّر عُقِر

وترى العرب ان قصر الشعر في الخيل من علامات العتق والكرم فيقولون في مديح الفرس فرسٌ جرداء وكذلك سبوغ الذنب واستواء عسيبهِ هما من هذا القبيل ايضًا

اما سبوغ الذنب فهو شدَّة طولهِ وانسداله الى الارض والعسيب الفرس العظيم الذنب. والمجنَّب الفرس الذي في يدهِ انحناء وهو ممدوح اذا لم يفرط والجنيب المجنوب من الخيل وهو ان يجنب الفارس فرساً الى فرسهِ في السباق فاذا فتر المركوب تحوَّل الى المجنوب والادنُّ الفرس القصير اليدين وهو من العيوب والصافن الفرس اذا اقام على ثلاث قوائمٍ وثنى سنبكهُ الرابع والسُنبك طرف حافر الفرس والعكوة اصل ذنبهِ والمُبرقِعة غرة الفرس الآخذة جميع وجههِ غير انهُ ينظر في سوادٍ اي ما حول عينيهِ اسود. والارخم ما كان راسهُ ابيض وسائرهُ اسود والهَقعة دائرة تكون بعرض زور الفرس او بحيث تصيب رجل الفارس يتشاءم بها او لمعة بياض في جنبهِ الايسر. والمحجَّل ما كان في قوائمهِ بياض جاوز الارساغ ولا يجاوز الركبتين فان كان البياض في قوائمهِ الاربع فهو محجَّل اربعٍ وان كان في الرجلين جميعاً فهو محجَّل الرجلين وان كان في احدى رجليهِ وجاوز الارساغ فهو محجل الرجل اليمنى او اليسرى وان كان البياض في ثلاث قوائمٍ دون رجلٍ او دون يدٍ فهو محجل ثلاثٍ مطلق يدٍ او رجلٍ فان كان محجل يدٍ ورجلٍ من شقٍّ واحد فهو ممسك الايامن مطلق الاياسر او ممسك الاياسر مطلق الايامن وان كان من خلافٍ قلَّ او كثر فهو مشكول وان كان تحجيلهُ مستديراً فوق اشاعرهِ او جاوز البياض ارساغهُ او بعضها فهو أخدَم والانثى خدماء. والمجبَّب الذي ارتفع البياض منهُ الى الجبب وهو ركبة اليد والارساغ المواضع المستدقة بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل مفردهُ رسغٌ والوظيف مستدقُّ الذراع والساق من الخيل والابل او ما فوق الرسغ الى الساق او مقدَّم الساق جمعهُ أوظِفة ووظف. والشيظم الطويل من الخيل واليعبوب الفرس السريع الطويل او الجواد السهل في عدوهِ او البعيد القدر في الجري والاخلج الجواد السريع والفرط الفرس المتقدم السريع الخفيف والسراعيف كذلك الخيل السراع واحدتها سرعوفة وفرس بيعٍ وبيوعٍ بعيد الخطو والانثى بيعة والبلذم ما اضطرب من حلقوم الفرس وركع الفرس اذا

اقام على اربع وسقط على ركبتيهِ والطوالات الخيل والصيام ما كان منها ملجمًا مسرجًا وغير صيام ما كان على غير ذلك والأحقُّ الفرس يضع حافر رجلهِ موضع يدهِ وهو عيبٌ والفرس الذيب لا يعرق والخَروج فرس يطول عنقهُ فيغتال كل عنان جُعل في لجامهِ والصهوة مقعد الفارس من ظهر الفرس والرصيفة عقدة العنان على قَذال الفرس والقذال من الفرس معقد الغرار خلف الناصية جمعهُ قُذُل وأَقذِلة والعرف شعر عنق الفرس والسبيب شعر ذنبهِ وبهذا القدر كفاية والاّ فان الاستقراء في هذا الموضوع او غيرهِ من مواضيع هذا الكتاب يحتاج الى المجلدات الكبيرة والمدات الطويلة فاذًا ما قلَّ ودلَّ خيرٌ مما كثر فملَّ

الفصل الثاني

في تربية الابل وفوائدها

وللعرب اليد الطولى في تربية الابل والقيام على نتاجها وطلب الانتاج لها لارتياد مراعيها ومفاحص توليدها لشدة الاحتياج اليها في بلادهم فهي مراكبهم التي يحملون عليها احمالهم وينقلون اثقالهم وياكلون لحومها ويقتاتون من البانها ويكتسون من اوبارها ويفايضون عليها في المبايعات ويفتدون اسراهم بها عند نزول النكبات ويعطون منها في سائر الغرامات والديات والمراهنات ومهر الزوجات وبالجملة والتفصيل هي مصدر غناهم وقد جاء في الحديث لا تسبوا

الابل فان فيها رقو الدم اي انها تعطى في الديات فتحقن الدماء بها

ومن اشتهر عندهم في رعايتها وحسن القيام عليها رجل يقال لهُ حنيف الحناتم وآخر يقال لهُ مالك بن زيد مناة وبهما يضربون المثل في ذلك

وكانوا يعلفونها حبَّ الخِمخِم وهو نبتٌ معروف وينصبون في مباركها عودًا لتحتك بهِ الجرباء منها ويسمونهُ المحكك وفي مجمع الامثال للميداني الجذل وهو اسمٌ لاصل الشجرةِ وتصغيرهُ جُذَيلٌ وبهِ يضربون المثل في الخشونة فيقولون اخشن من جُذَيل ويقولون ايضًا جِذْلُ حكاك يضرَب للرجل يستشفى برأيهِ وعقلهِ يُنصب في المعاطن لتحتك بهِ الجرباء واما الثملة والطلياء والربذة فهي اسماء خرقةٍ تطلى بها الابل الجرباء وبها يضربون المثل في الخسَّة والاحتقار فيقولون لمن ارادوا الاحتقار بهِ اهون من ثملة ومن طلياء ومن ربذة

وكانوا اذا ارسلوا الجمال الى المراعي القوا جديلها على الغارب ولا يُترَك ساقطًا فيمنعها عن الرعي ولذلك يقولون في امثالهم القِ حبلهُ على غاربهِ يضربونهُ لمن تكره معاشرتهُ والمعنى دعهُ يذهب حيث يشاء

واذا كانت سنة مجدبة يخاف منها على الابل ذبحوا اولادها لتسلم الامهات ولذلك قالوا في امثالهم شرُّ دواء الابل التذبيح ولهم فيها معاملات اخرى

ولما كانت العرب اشد الناس تحملًا للمشاق والبرد والحرّ والجوع والعرى نظرًا لعقم اراضيهم وقلة المياه فيها كان اذا اراد الرجل سفرًا عوّد ابلهُ ان تشرب خمسًا اي كل خمسة ايام مرة ثم عودها على السدس حتى اذا اخذت في المسير تصبر عن الماء. وقال الميداني الظاهرة اقصر الاظماء وهي ان ترد الابل كل يوم مرة ثم الغبُّ وهي ان ترد الماء يومًا وتغبُّ يومًا والربع وهي ان ترد يومًا ويومين لا ترد وترد في اليوم الرابع وعلى هذا القياس الى العشر وفي الصحاح ليس في الورد ثلاث لان أقصر الورد الرِّفه وهي ان تشرب الابل كل يوم ثم الغب وهي ان ترد يومًا ثم تدَع يومًا فاذا ارتفع عن الغب فالظِمْءُ ثم الربع ثم الخمس وهكذا الى العشر قالهُ الاصمعي

وكان ركبهم يتصافون الماء ايضاً ولاسيما في شهري ناجر وتصافن الماء هو ان يطرح في القعب حصاة او نواة من نوى المقل ولذلك يقال لها المقلة ثم ثم يصبُّ فيهِ الماء بقدر ما يغمر الحصاة فيشربون بقدرٍ واحدٍ

واكبر الابل العربية لا يمشي في الساعة اكثر من الف وخمس مئة وخمسين خطوة واما الصغير منها فيمشي الفًا فقط وخطواتها بقدر خطوات الانسان مرتين والركض عليها متعب جدًّا بخلاف الحمير الآتي ذكرها ويعبرون عن الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها بالعوجاء واما الخربوت فهي الخيار الفارهة من النوق والمرقال مبالغة مرقل من الارقال وهو بين السير والعدو والأمون الناقة التي يؤمن عثارها والرسلة هي التي تكون سهلة السير تمشي هونًا والخدج التي تميل في احد الشقين لنشاطها في السير والدفاق المتدفقة في سيرها اي المسرعة غاية الاسراع والرزية التي ترزي في السفر اي تحلت لفرط هزالها

وللعرب لحنٌ يسوقونها بهِ ويسمّونهُ الحداء والحادي السائق الذي يسوق الجمال بصوتهِ الرخيم وقد اشتهر بينهم في ذلك بعد الاسلام رجل يقال لهُ سلام الحادي الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة السادسة لانهُ كان حسن الصوت في الغاية حتى كانوا يضربون بهِ المثل قيل انهم كانوا يعطشون الابل ثم يوردونها الماء ويقف سلامٌ من ورائها ويحدو لها فتنصرف عن الماء اليهِ وكان من خواص مروان بن محمد بن مروان الاموي

ومن امثال العرب شقُّ العصاء يضرَب للمتفارقين واصلهُ ان يكون الحاديان في رفقةٍ فاذا لزم افتراقهما شقّت العصاء التي معهما فاخذ هذا نصفها وذا نصفها ثم كثر حتى جُعل شقُّ العصاء مثلاً في كل فرقة

وذكر بعضهم ان العرب اذا كان لهم ناقة كريمة منعوا عنها كل فحل غير كريم وقرعوا على انفهِ بالعصاء اذا دنا منها ولذلك يقولون في امثالهم لا تقرع لهُ العصاء يضرَب لمن لا ينبغي ان يردَّ خائبًا وقيل بل يضرَب للمحنك المجرَّب وكان للنعمان بن المنذر اللخمي فحلان كريمان يُضرب بهما المثل وهما جديل وشَدْقَم

ويحكى عن فحل لبني عوافة بن سعد بن زيد مناة بن تميم يسمّى قاشر وكانت لقومهِ ابلٌ تذكر اي تنتج الذكور فاستطرقوهُ رجاء ان تؤنث ابلهم فماتت الامهات والنسل فضُرب بهِ المثل في الشؤم فيقال اشأم من قاشر وقيل في هذا المثل غير ذلك

وضلَّ لرجلٍ بعيرٌ فاقسم لئن وجدهُ ليبيعهُ بدرهم فاصابهُ فقرن بهِ سنورًا وقال أبيع هذا الجمل بدرهم وابيع السنور بالف درهم ولا ابيعهما الاَّ معًا فقيل لهُ ما ارخص الجمل لولا الهرة فجرت مثلاً يضرَب في النفيس والخسيس يقتربان

وللاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي ارجوزة في قيود اسنان الابل والوانها وهي

أوّلُ نتج الناقة الحوارُ	يُدعى كما جاءت بهِ الآثارُ
وهوَ لعامٍ واحدٍ فصيلُ	وابنُ مخاضٍ بعدهُ نقولُ
وابنُ لبونٍ ثم حِقٌّ جَذَعُ	ثم الثَنِيُّ فالرباعيْ يتبعُ
ثم السَدِيسُ بعدهُ والبازلُ	والعودُ في العَشْرِ رواهُ الناقلُ
فان صفت حمرتهُ فاحمرُ	قيلَ لهُ وهوَ لديهم يؤثرُ
فان تَشُبْها دُهمةٌ فأرمكُ	والجونُ ما فيهِ السوادُ أحلكُ
وذو البياضِ آدَمًا يلقَّبُ	فإن علتهُ حمرةٌ فأصهبُ
فان يكن بياضهُ يلتبسُ	بشقرةٍ فهوَ البعيرُ الأعبسُ
والاخضرُ المصفرُّ في سوادِ	يُدعى بأحوَى اللون في البوادي

ومما يلحق بذلك ايضًا السقب وهو ولد الناقة او ساعة يولد وقيل ولد البعير الذكر والفرع اوّل ولد تنتجهُ الناقة والربع الفصيل ينتج في الربيع وهو اول النتاج ويجمع على رباعٍ وارباعٍ والانثى ربعة ويجمع على ربعات ورباعٍ فاذا نتج في آخر النتاج فهو هبَع والانثى هبعة اما المَلِيط فهو السقط من اولاد الابل قبل ان يشعر تملطهُ الناقة اي تسقطهُ والمخدج الذي ولد لغيرِ تمام

والعجيُّ تموت امهُ فيربيهِ صاحبهُ بلبن غيرها والاقيل الفصيل والجادل من ولد الناقة فوق الراشح وهو الذي قوي ومشي مع امهِ

اما الشارف فهي المسنة من النوق وبها يضرَب المثل في الرأفة فيقولون أحنُّ من شارفٍ لانها تكون اشدّ حنانًا على ولدها من غيرها

والبروق الناقة التي تشول بذنبها فيظنُّ بها لقحٌ وليس بها

والجالية التي تشبه الجمل في وثاقة الخلق

والجَسَرة الناقة الموثقة الخلق ايضًا ويراد بالموثقة هنا المحكمة

والبرعِس الناقة الغزيرة الجميلة التامة الخلقِ الكريمة

والكَهاة والجُلالة الناقة الضخمة السمينة

والحائل الانثى والقلوص الانثى من الابل الشابة

والضروس الناقة السيئة الخلق عند النتاج

والاحوص الناقة الحائلة السمينة

والطلياء الناقة الجرباء المطلية بالهناء وهو القطران

والماجن البكرة التي تنتج قبل ان يطلع لها سنٌّ ومنهُ المثل جلَّ الرفد عن الماجن والرفد العطاء والصلة يضرَب للرجل القليل الخير

والبكر الناقة التي ولدت بطنًا واحدًا والفتى من الابل

والضجور الناقة الكثيرة الرغاء

والنقارة الناقة تزيد عن العدو وتشتدُّ ولاتنثني في مرّها

والمنفهة الذلول من النوق

والبلية الناقة التي تشد على قبر صاحبها حتى تموت راجع الرثية في الفصل الرابع من المقالة الرابعة

والعيطل الطويل العنق من النوق

والدعبل الناقة التي معها ولدها وقيل البعير المسنُّ

اما عصافير المنذر فهي ابلٌ كانت للملوك نجائب

الحلب

البسوس الناقة التي تدرُّ على الابساس لان الحالب لا بدّ له ان يونّس الناقة اولاً ثم يحلبها والابساس هو ان يقول لها بِسْ بِسّ لتسكن وتدرّ ولذلك يقولون في المثل الايناس قبل الابساس

ومَصَر الناقة اذا حلبها باطراف الاصابع

والضبُّ هو الحلب بالاربع اصابع

والفطر الحلب بالسبابة والوسطى

والبائن الحالب الايمن

والمستعلي الحالب الايسر

والغرار منع الناقة درتها ومنهُ الغرارة قلّة اللبن كما ان الدرة كثرتهُ

والصُّبحي الناقة اذا حُلب لبنها

والطالق الناقة التي يتركها الراعي لنفسهِ فلا يحلبها على الماء

والضارب الناقة التي تضرب حالبها

والقيل الناقة التي تحلَب عند القائلة يعني نصف النهار

والرائم الناقة التي تعطف على ولدها وتدرُّ عليهِ فان لم تدرّ سلخوا حوارًا وحشوا جلدهُ تبنًا ولطخوهُ بشيء من سلاها[1]

والعلوق الناقة التي ترأم الولد بانفها وتمنعهُ درها

والمحاريد الابل التي قلّت البانها

والعصوب الناقة يشدُّ فخذها حتى تدرّ

والشائلة الناقة التي خفّ ضرعها وقلّ لبنها

والمتراح الناقة التي يسرع انقطاع لبنها

الفحول

والقرم من الابل الفحل

(١) السلى الجلدة التي يكون فيها الولد من الناس والمواشي

والعركرك البعير الغليظ القوي

والترامز الجمل قد تمت قوّته او الذي اذا اعتلف رأيت هامتهُ ترجف

وصؤول البعير اذا صار يقتل الناس وفي المثل أَصْوَل من جمل يعني أعضُّ

والحفضُ البعير الذي يحمل عليهِ الخباء باسرهِ مع ما فيهِ من كساء وعمود

والظعن البعير الذي عليهِ هودج وفيهِ امرأة

والصلخدم الشديد من الابل

والفنيق الفحل

والقامح والمقامح الذي قد اشتدَّ عطشهُ حتى فترَ لذلك فتورًا شديدًا ويقال القامح الذي يرد الحوض ولا يشرب

والهيمُ الابل العطاش من الهيام وهو اشدّ العطش قال الشاعر

ويأكل أكل الفيل من بعد شبعهِ ويشرب شرب الهيم بعد ان يروى

والحرائز من الابل التي لا تباع لنفاستها مفردها حريزة

والمروح الابل المروحة الى اعطانها والعطن وطن الابل ومبركها

والغريسه ما تُرِك في مراعيهِ

والعوذ الابل قد نتجت واحدتها عائذٌ فاذا تبعها ولدها قيل مُطفلٌ

والضمور المسكة عن أن تجتر فاذا استعملته قيل راسغة

والليساء التي لا تبرح من المبرك

والعُشر الابل التي اتى عليها من حملها عشرة اشهر من ملقحها

والمتالي التي نتج بعضها والباقي يتلوها في النتاج

والغيط الابل التي لا وجع لها

والعبس اسم للناقة

والرّكاب الابل ولا واحدٌ لهم من لفظها وقال الفرّاء واحدها ركوب

والجامل اسم صيغ للجمع وهي ذكور الابل واناثها والجمال ذكورها والنوق اناثهــا

والتربوت الجمل والناقة الذلول

والزود اسم مونث لا يوحَّد ويجمع على ازواد يقع على قليل الابل ما بين الثلاث الى العشر الى العشرين الى الثلاثين ولا يتجاوز ذلك ومنهُ المثل الزود الى الزودِ ابلٌ يضرَب في اجتماع القليل الى القليل حتى يوّدي الى الكثير

والصِرم جمع صرمة وهي القطعة من الابل

والعرج القطيع من الابل نحو الثمانين ومنها الى تسعين او مئة وخمسين وفويقها او من خمس مئة الى الف

والجَول جماعة الابل

والجهمة ثمانون بعيرًا

والجرمة المئة من الابل او مئتان او ما بين الخمسين الى المئة

والفكر ما فوق الخمس مئة من الابل او الستون منها او ما بين الخمسين الى المئة

والقضاء ما بين الثلاثين الى الاربعين

والكور الجماعة الكثيرة من الابل او مئة وخمسون او مئتان واكثر

والهجمة من الابل اولها اربعون الى ما زادت او ما بين السبعين الى المئة او الى دونها فان بلغت المئة فهي هُنَيدَة

والامامة ثلاث مئة من الابل

ويعبرون عن الابل بالجليلة واجودها عندهم الاشهب البازل يعني الابيض القوي ويقولون ناقة هجان وجمل هجان والهجان حسن البياض واعتقة وقبل بل ان انفسها عندهم السوداء قال عنترة

فيها اثنتان واربعونَ حلوبةً سودًا كخافية الغراب الاسحمِ

الخافية ضدُّ العلانية ولكن هنا يراد بها ما ظهر وتبين من الغراب وفي القاموس خفاهُ خفيًا وخفيًا واختفاهُ أظهرهُ واستخرجهُ وخفا الشيء ظهر وخفا البرق لمع والاسحم الاسود

الفصل الثالث

في باقي الحيوانات المعروفة عند العرب

اما حيوانات بلاد العرب غير الخيل المشهورة في الجودة والجمال التي يعتمدون عليها لشدة احتياجهم اليها كما تقدَّم في ما مرَّ يوجد ايضًا الحمير الجيدة التي تباع باغلى قيمة وهي تقرب من صفة البغال وعليها تذهب الحجاج من اليمن الى مكة وتصل على تعب الطريق وتمشي في الساعة ثلاثة آلاف وخمس مئة خطوة وخطواتها بقدر خطوات الابل والركض عليها لا تعب فيهِ

وتوجد ايضًا المعزى والغنم والمعزى البرية ويعتنون بتربية الغنم كثيرًا وكما يعبّرون عن الابل بالجليلة يعبّرون كذلك عن الغنم بالدقيقة ولهم اصطلاحاتٌ في تعدادها ومن ذلك التَيعَة الاربعون من الغنم او ادنى ما تجب فيهِ الصدقة من الحيوان . والتيمة والثيمة الشاة الزائدة على الاربعين حتى تبلغ الفريضة الاخرى والتي تحلبها في المنزل وليست بسائمة والثلّة جماعة الغنم او الكثيرة منها او من الضأن خاصةً والحَبلة للمعزى كالثلّة للضأن فاذا اجتمعت الضأن والمعزى فكثرتا قيل لها ثِلّة ومن امثالهم لا يفرق بين الثُلة والثَلة اي

بين جماعة الغنم وجماعة الناس لان الثُلّة الجماعة من الناس والجزعة والجزيعة القطعة من الغنم جمعهُ جزائع والجزَمة المئة فصاعدًا من الماشية اومن العشرة الى الاربعين او هي الصُرمة من الابل والفرقة من الضأن

وتوجد ايضًا الجواميس وبقر الوحش وحمير الوحش وهي الفرا الذي يضربون بهِ المثل فيقولون كل الصيد في جوف الفرا بغير همزٍ اي كلُّ الصيد دونهُ يضرَب للرجل يكون لهُ حاجاتٌ كثيرة منها واحدة عظيمة فتقضى لهُ ولم يبالِ بفوات البواقي

وتوجد ايضًا الخنازير والارانب و[illegible] والظباء ويقال لها العفر واحدها أعفر وتكثر في براريهم الأُسد ويقال لها العنابس واحدها عبسة واسامة علمٌ لها والضبع والنمر ويقال لهُ ذو اللونين ويسمّونهُ السبنتي ايضًا والذئب والوعل والثعلب وابن آوى واليربوع وفي جهة الجنوب النسناس وهو كثير الجناية على الاثمار والفواكه

ويوجد ايضًا من الطيور النعام ويقال لذكورها الظلمان واحدها ظليم والقطا والحجل والصقر والكدري والكروان والغراب والعجع والرخم والهدهد والحمرمر وغير ذلك وعلى البحر الاحمر انواعٌ كثيرة من طير الماء كما ان مياه الابحر المحيطة كثيرة الاسماك والسلاحف

ويوجد في بلاد العرب من الاحناش حيّاتٌ موذية وعقارب وضبابٌ وانواع من النمل والرتيلاء وكثيرًا ما يسطو على هذه البلاد الجراد ويقال لهُ الجندب فيتلف اغراسها واكثر ما يستوطن في براري نجد

وقال الميداني عن حمزة ان العرب تسمّي ضروبًا من البهائم بضروب من المراعي تنسبها اليها فيقولون ارنب الخلّة وضبُّ السحا وظبيُ الحلب وتيس الربلة وقنفذ برقة وشيطان الحماطة وأخبث الذئاب ذئب الغضى وأخبث الافاعي افعى الجدب واسرع الظباء ظباء الحلب

فالشيطان المذكور هنا يريدون بهِ الحيّة والحماطة يبس الافاني وهي من

احرار البقول واحدتها افانية ويضرَب بشيطان الحماطة المثل للرجل اذا كان ذا منظرٍ قبيح والحلب شجرة حلوة يكون ظباؤها أسرع الظباء واما ظباء الحمض فتكون ابطأ الظباء لان الحمضَ مالحٌ وذلك كلهُ على قدر طباع الامكنة والاغذية العاملة في طباع الحيوان

ويسمّون بعض الابل حوكشية نسبةً الى حوكش ولعلها هي الابل التي يسمونها الحوشيَّة اي وحشية ينسبونها الى الحوش وهي على زعمهم بلاد الجنّ يعنون ان فحولها من الجنّ ضربت في نَعَم [illegible] حيدان فنسبت اليها اذ يقال لها ايضاً ابل مهرية او من الحوش اي من [illegible] فحول الحوش واماخفان وهي ارض بقرب الكوفة وعِفرِين وخفية وتَرْج وحلية هي من المواضع الموصوفة بكثرة الاسود ولذلك يقولون في امثالهم للجريّ أجرأ من الماشي بِتَرْج ولمن قهر رجلاً عظيماً قتلتَ أَسد خفّان وتمثلتْ ليلى الاخيلية من ابياتٍ ترثي توبة بن الحمير

فتًى كان احيى من فتاةٍ حَيِيّةٍ وأشجعَ من ليثٍ بخفّان خادرِ [1]

وانما اختلفوا في تفسير المثل المضروب وهو قولهم اشجع من ليث عفرِين فمنهم من جعلهُ دويبة ومنهم من قال ضربٌ من العناكب

وحيّة عبيدان هي حية يزعمون انها قد منعت وادياً يسمونهُ بهذا الاسم اي عبيدان فلا يرعى ولا يؤتى

ولم يكن ما ذكرناهُ في هذا الفصل من اسماء الحيوانات وغيرها مقتصرًا على هذه الاسماء فقط بل يوجد لكل نوعٍ من انواعها اسماء متعددة لذكورها واناثها ولصغارها وكبارها هذا فضلاً عن ترادف اسماء كثيرة على مسمًّى واحد فان الاسد مثلاً يقال بان لهُ نحو الف اسمٍ ولذلك لم نتعرّض للغوص بهذا البحر العويص بل نكتفي هنا بذكر اسماء اولادها وما اصطلحوا عليهِ من القابها هي نفسها

---

(١) الخادر معناهُ المقيم في خدرهِ اي ملازم اجمتهُ اذا كان من الاسود

اسماء اولاد الحيوانات . قد وضعت العرب لكل نوع من ولد الحيوان اسمًا مخصوصًا وهو ان ولد كل سبع جرو (ويطلق على الصغير من كل شيء) وولد كل وحشية طلا وولد كل طائر فرخ اما الشبل والحفص والفرهد فهي اسماء ولد الاسد وهرمس ولد النمر ودغفل ولد الفيل والمفيولا اولادهُ جملةً والبُرْعُل والبهدَل ولد الضبع والخنصيص ولد الببر والجبس او الجبيس ولد الدب والقشية ولد القرد والقُصعُل ولد الذئب وولد العقرب والهِجرِس ولد الثعلب والخنوص ولد الخنزير والفرهود ولد الوعل والمهر ولد الفرس والحبَرقص ولد الحرقوص والجمل الصغير والجحش والعفأ ولد الحمار اما ولد الناقة فقد سبقت الاشارة اليهِ في الفصل السابق والعجل والجَزَج والحسينة والذبب والفِراء والبِرْع ولد البقرة وكذلك البرغزة والبرغز والبرغوز والبرغاز ولد البقرة اذا مشى مع امهِ والتبيع ولدها في السنة الاولى والعضب ولدها اذا طلع قرنهُ والماري ولدها الاملس الابيض والانثى ماريّة والفرقد والزرع واليعفور والجوذر والغزّ ولد البقرة الوحشيّة والحَمَل ولد الشاة وهي انثى الضأن والجدي ولد العنز والخشف والحرُّ والشاذن والغرير ولد الظبي والبائع ولد الظبي ايضًا اذا باع في مشيهِ والخِزِق ولد الظبية الضعيف القوائم والطلو ولد الظبية ساعة يولد ويجمع على طلاء والجرو وقد مرَّ ذكرهُ ولد الكلب والدِرص ولد الفارة والحسل ولد الضب ويقال هو اولاً حسل ثم مطبخ ثم خِضرم ثم ضبٌّ والخِرنق والخونع والنهسر ولد الارنب والفرُّوج ولد الدجاجة والجَعْوَل والرأل والحونكيُّ ولد النعام والزغلول ولد الحمام والحرُّ وقد مرَّ ذكرهُ فرخ الحمامة وولد الحيّة ويقال لهُ المارن ايضًا والكَبرتل ولد الجُعل او هو الجُعل نفسهُ وقيل ان النهسر الذي مرَّ ذكرهُ وكذلك السمع هما ولدا الذئب من الضبع ويزعمون ان السمع لا يعرف العلل ولا الاسقام فهو كالحية يموت حتف انفهِ ويضربون بهِ المثل في شدَّة السمع فيقولون لمن ارادوا المبالغة في شدَّة سمعهِ أسمع من سمع . قال الشاعر

تراهُ حديد الطرف ابلج واضحًا اغرّ طويل الباع اسمع من سمعِ

والعسبار ولد الضبع من الذئب او ولد الذئب والعسبور والعسبورة ولد الكلب من الذئبة وفي بعض المؤلفات الاسبور ولد الذئبة من الضبع والدروان ولد الضبعان من الذئبة والازلُ ذئب ارسح[1] يتولد بين الضبع والذئب ايضًا والخَيْهَفعاء بالمد والقصر ولد الكلب من الذئبة والديسم ولد الذئب من الكلبة وقيل ولد الثعلب منها او ولد الدب والبُرْغُل وقد مرَّ ذكرهُ يقال ايضًا انهُ ولد الوبر من ابن آوى والفرنب ولد الفارة من اليربوع

كُنى الحيوانات. وكما تكني العرب النوع الانساني كذلك تكني الاطعمة والبعض من النباتات والحيوانات وقد تقدّم في الفصل الثالث من المقالة الخامسة كنى الاطعمة اما كنى الحيوانات فنها ابو الحرث وابو الابطال وابو شبل وابو العباس كنية الاسد

وابو جهم وابو دلف وابو دخَل وابو جُعَندَل وابو دغفل وابو الحجاج كنية الفيل وامّ سبل الانثى منهُ

وابو الابرد وابو الاسود وابو جُعدَة وابو جهل وابو خطاف وابو الصعب وابو رقاش وابو عمرو وابو المرسال وابو فارس للنمر وامّ الابرد وامّ رقاش الانثى منهُ

وامّ نُزْمُل وامّ جَعار وام حِذْرف وامّ رمال وامّ عناب وامّ عنبان وامّ عمرو وامّ عامر وامّ خنوّر وامّ طِرّيق وام القبدور وامّ نوفل انثى الضبع وابو عامر وابو كلدة وابو الهنبر ذكر الضبع

وابو جعدة وابو جاعد وابو جُمادة وابو ثمامة وابو مِذقة وابو عسلة وابو رعلة الذئب

وابو حميد وابو جُهينة وابو جهل الدب

---

(1) الارسح الرجل نزلّ لحم عجزهِ وفخذيهِ لخفّة وركيهِ

وابو معاوية وابو النجم وابو الحصن وابو الحصين وابو الحنبص الثعلب
وابو قيس وابو زهرة ابن آوى
وابو ايوب وابو صابر الجمل
وابو خالد الكلب
وابو زرعة وابو عقبة الخنزير
وابو زنة القرد
وابو منقذ وابو منجي الفرس
وابو المختال وابو قموص وابو حرون البغل
وابو زيا وابو محمود وابو جحش وابو العفا الحمار وامّ الهنبر الاتان وهي انثاهُ
وابو برائل وابو سليمان وابو اليقظان وابو حسّان وابو حماد الديك وامّ حفصة وامّ ناصر الدين وامّ الوليد وامّ احدى وعشرين الدجاجة
وامّ البيض وامّ ثلاثين النعامة وبنات الهيق جماعتها وابو خاتم ذكرها
وابو القعقاع الغراب
وابو المليح الصقر
وابو الاشعث وابو لاحق البازي
وابو الهيثم وابو وثاب وابو الحجاج وابو حسّان وابو الدهر وابو الاشيم ذكر العقاب وامّ الحوارِ وامّ الشعر وامّ طلبة وامّ لوح وامّ الهيثم الانثى منهُ
وابو مالك وابو المنهال وابو يحيي وابو الابرد وابو الاصبع النسر وامّ قشعم انثاهُ
وابو الاخبار وابو ثمامة وابو الربيع وابو روح وابو سجار وابو عباد الهدهد
وامّ الخراب وامّ الصبيان البومة
وابو عكرمة الحمام
وامّ جعران وامّ عجينة الرخمة

وابو حُدَيج اللقلق

وابو براقش المُنَس قيل هو طائرٌ صغير بريٌّ كالقنفذ اعلى ريشهِ أغبرٌ واوسطهُ احمر واسفلهُ اسود فاذا هُيّج انتفش فتغير لونهُ الوانًا شتى حتى قيل لكل متلونٍ ذي وجهين أحول من ابي براقش ومنهُ قول الشاعر

كأبي براقش كل يو م لونهُ يتغيرُ

وابو نجا او ابو نجادبي ضربٌ من الجنادب ومن الجراد وضربٌ ضخمٌ من الخنافس وامّ عوف الجرادة

وابو الحسن طائر صغير ذو صوت حسن ويسمّى الحسّون

وابو كثير الصرد وهو الأخيل

وابو سلمى الوزغ

وابو جعفر الذباب

وامّ وردان الصرصور

وابو حِسْل وابو حُسَيل الضبهُّ

وابو جعران الجُعَل

وابو سفيان القنفذ

وامّ عِرْيَط وام ساهرة العقرب

وامّ حباحب دويبة ذات الوانٍ كالجندب وهو ذكر الجراد او القبوط

وامّ الاموال الغنم

وابو حبيب الجدي

وابو غزوان وابو خداش وابو الهيثم وابو شماخ السنور وامّ شماخ انثاهُ

وابو حَنَر الحرباء وامّ قرّة وام حبب الانثى منهُ وام الحُبين مصغرة الحرباء ايضًا

وام محبوب وابو عثمان الحية

وابو طامر وابو عدي وابو وثاب البرغوث

وابو مشغول النمل وامّ نوبة وامّ مازن النملة

وابو راشد الفار وامّ خراب الفارة

وابو المنح وابو هُبَيرة وابو معبد ذكر الضفدع وامّ هبيرة انثاهُ

وامّ اربع واربعين دويبة مسمّة معروفة

لاحقة . لا يخفى بانهُ عند العرب كل شيء انضمّت اليهِ اشياء فهو امٌّ لها والامهات للناس والامات للبهائم وامّ كل شيء اصلهُ وعمادهُ وللقوم رئيسهم ومن القرآن الفاتحة او كل آية محكمة من آيات الشرائع والفرائض وللنجوم المجرّة وللرأس الدماغ او الجلدة الرقيقة التي عليها وللرمح اللواء وللتنائف اشدّ المفاوز واشقها وللبيض النعامة على ما تقدم والامّة الجماعة

وامّ القُرَى مكة

وامّ الدنيا مصر لكثرة اهلها

وامّ القِرَى النار

وامّ الكتاب اصلهُ او اللوح المحفوظ او الفاتحة او القرآن جميعهُ

وامّ دَفْر وامّ حباب الدنيا

وامّ مثواك صاحبة منزلك

وامّ الصبيان الصرع

وامّ مِلْدَم الحمى

وامّ الجراف الدلو والترس

وامّ حَبَوْكَر وامّ حَبَوْكَران وام حَبَوْكرى وامّ خشّاف وامّ جُندَب الداهية العظيمة والاساءة والغدر والظلم واما قول امرء القيس في مطلع بعض قصائدهِ

خليليّ مرّا بي على امّ جُندَبِ　　لنقضي لبانات الفؤاد المعذَّبِ .

فهو بريد بذلك امرأة من بني طي كان تزوج بها حين هرب الى قومها من وجه المنذر بن ماء السماء ملك العراق

الاصوات. ولما وضعت العرب اسماء لانواع الاصوات منها الصرير للباب والقلم والسرير والصريف للاسنان . والطنطنة للاوتار. والرنين للقوس والقصيف للرعد والبحر. والزفير لصوت النار. والخشخشة للقرطاس والثوب الجديد. والصلصلة للحديد والسيف والدراهم. والزمزمة حكاية صوت المجوس. والنشيش لصوت غليان القِدْر ونحوها . وغِق غِق حكاية صوت الغليان. والبقبقة صوت غليان الماء في الكوز ونحوه . والدقدقة صوت القرع. والدبدبة صوت وقع الحافر على الارض وكل صوتٍ كوقع الحافر على الارض الصلبة. والطقطقة صوت الاحجار ومنهُ طِقّ لصوت وقع الحجارة . وطاق للضرب . والخرير للماء والريح والعقاب اذا حنّت وغطيط النائم . والخُشارِمُ للغليظ من الاصوات. والحتْف والخشفة للصوت والحركة والصوت الخفي او صوت دبيب الحيّات وصوت الضبع . واللغط اصواتٌ مبهمة لا تفهم . والتغمغم صوتٌ بكلامٍ لا يتبيّن. وجلنبلق حكاية صوت باب ضخم ذي مصراعين في فتحهِ . والصوّة لصوت الصدى. وطيخ لصوت الضاحك وياء ياء لصوت يدعى بهِ الناس للاجتماع وامثال ذلك وضعوا ايضاً لكل صوت من اصوات الحيوانات اسماً ومنها الزئير للاسد. والعواء للذئب. والنباح للكلب والهرير له اذا انكر شيئاً او كرههُ . والضباح للثعلب . والمواء للهرة . والقبـاع للخنزير. والخوار للبقر. والرغاء للشاء. والنزيب للظبي . والصهيل للفرس . والنهيق للحمار. والهدير للحمام. وطِق والنقيق للضفدع . والفحيح للحية. والخترشة صوت آكل الجراد والخرور صوت السنور. والصقاع للديك. والنعيق والنعيب والتنعاب للغراب والبوم. وغاقِ لصوت الغراب. وغِقّ غِقّ حكاية صوت الغراب اذا اغلظ صوتهُ وصوت الماء اذا صار من سعةٍ الى ضيقٍ والحفيف للشجر والجناح الطائر وماء والبغام صوت الظبية. والظاب صيـاح التيس . والفيق والقرق لصوت

الدجاج . وقَطا قَطا حكاية صوت القطا ومنهُ وقط وقط اسم صوت لدعاء القطاة . والوع حكاية صوت ابن آوى والطفل اذا بكى . والزفزفة للعصفور . والتغريد للطائر والمغني والحادي . وكَهْ كَهْ حكاية صوت الاسد والبعير

زجر الحيوانات . وكما وضعوا هذه الاسماء لاصوات الحيوانات على ما تقدم وضعوا كذلك اسماء للاصوات التي يزجرونها بهـا ومنها إجْد واجط وايّا يا ويَا يا ويَا يَه وبس بس وجو جو وجَوت جَوت وحاي حاي وحاين حاين وحا وحل حل وهأْ هأْ وهرْ وهج واي ويهيا اصواتٌ تُزجرُ بها الابل

ونُه نُه وحِلِق وجاه جاه وجوه جوْه وحاب وحوب وهَتْ هَتْ اصواتٌ يُزجر بها البعير

وجي جي وشيب اصواتٌ تدعى بها الابل للشرب

وهِي هِي صوتٌ تدعى بِهِ الابل للعلف

ودَي دَي من حداء العرب تُدعى بِهِ الابل للمشي

ودُه وداهِ داهِ اصواتٌ تدعى بِهِ الناقة الى ولدها

وهِدَع هِدَع صوتٌ يُسكَّن بِهِ صغار الابل عن نفارها

واخ صوت اناخة الجمل

ودَوْه دَوْه صوت لدعاء الربع

وحِيط ودَه وهلاَ وهِجر وهجرَم وهال وهاب وهب وهبي لزجر الخيل

واوْه صوت دعاء للفرس

وجاه جاه زجرٌ للسبع وللبغل

وحدَس او عدَس زجرٌ للبغال خاصةً

وحِيْ وحِيْ صوتٌ يدعى بِهِ الحمار

وعوْه عوه صوتٌ يدعى بِهِ الجحش

وحِيز وحَيه وساء وشاء وشو شو وهيس اصواتٌ تزجَر بها الحمير .

وأجي أجي ورحاله رحاله وسدف سدف وقَصب قَصب وهدَف هدَف

اصواتٌ لدعاء النعجة

وأَسْ أَسْ و إِجْدَم او هِجْدَم وحَبَل حَبَل لزجر الشاة

وأَرْ أَرْ ودُعْ دُعْ لدعاء الغنم

وأوس أَوس وجحط وحَيه وشاء وعَلْ عَلْ وعاي وهجهج وهُس اصواتٌ لزجرها

وتأْ تأْ دعاء للتيس لينزو

وحا حا دعاء له ليشرب

وجاج جناج تُدعى بهِ العنز للحلب

وحَيَل حَيل لزجرها

وأوس أَوس ووحّ لزجر البقر

وأس أس كلمة تقال للحية لتخضع

ونه نه وقوس وقرقوس دعاء للكلب

ودَج دَج صوت صياح للدجاجة

وحَف حَف زجرٌ لها

وغس لزجر السنور

الامثال . وتضرب العرب امثالها بكثير من صفات بعض الحيوانات والنباتات او خواصها الطبيعية لكن اذا اردنا ان نذكر السبب لكل من هذه الامثال يطول بنا الشرح ولذلك نقتصر على المثل فقط كقولهم

للاحمق أحمق من رجلة وهو نبت يعرف بالبقلة ايضًا وأحمق من الضبع لزعمهم ان الصائد يخدعها بكلام بقولهِ لها حين يحتفر عليها وهو ابشري ام عامر فتبرز اليهِ وتسلم نفسها له واحمق من الربع ومن نعجة على حوض ومن نعامة ومن رخمة ومن عنعق ومن ام الهنبر والهبر الاتان وفي لغة فزارة هي الضبع ايضًا واخرق من حمامة واحمق من جهيزة وهي انثى الدب

وبقولون في الحذر أحذر من غراب ومن ذئب ومن ظليم

ويقولون في الحيرة احير من ضبّ ومن ورل

ويقولون في الحزم أحزم من فرخ العقاب ومن حرباء

ويقولون في المحاولة احول من ابي براقش ومن ابي قلمون ومن الذئب

ويقولون في الحسن أحسن من شنف الانضر يعنون قرط الذهب ومن الدرّ ومن الطاوس ومن الديك ومن العسل ومن بيضة في روضة لانهم يستحسنون رؤية نقاء البيضة في نضارة خضرة الروضة ومن الدهم الموقفة وهي الخيل التي في قوائمها بياض

ويقولون في الحرص أحرص من كلب على جيفة ومن كلب على عرق والعرق العظم عليهِ اللحم ومن كلب على عقى والعقى اول حدث الصبيّ ومن نملة

ويقولون في الحراسة أحرس من كلب

ويقولون في البخل ابخل من كلب

ويقولون في الجوع اجوع من كلبة حَوْمَل فان حومل هذه امراة من العرب لها كلبة تقيدها بجانب البيت لتحرسها ولا تطعمها فكانت تاكل ذنبها من شدّة الجوع فضُرب بها المثل

ويقولون في المحاكاة أحكى من قردٍ لانهُ يحكي الانسان في افعالهِ سوى النطق

ويقولون في العيوب مثل حمار طيّاب وبغلة ابي دلامة

ويقولون في الكفر هو اكفر من حمار لكنهم لا يعنون بذلك الحيوان المعروف بهذا الاسم وانما يريدون رجلاً يقال لهُ حمار بن مالك او مويلع كان مسلمًا اربعين سنة فخرج بنوهُ وكانوا عشرة للصيد فاصابتهم صاعقة فهلكوا فكفر وقال لا اعبد من فعل ببنيَّ هذا فضربوا المثل بكفرهِ

ويقولون في الاختيال اخيل من غراب لانهُ يختال في مشيتهِ واخيل من ثعلب في استهِ عهنة والعهنة قطعة قضيب مكسور

ويقولون في الخفّة أخف من فراشة واخف رأسًا من الذئب واخف رأسًا

من الطائر واخف حلمًا من عصفور يضرَب في احلام السخفاء ومثلهُ اخف حلمًا من بعير واخف من براعة والبراعة يقال بانها ذبابٌ فهو مثل قولهم اخف من فراشة وقيل هو القصبة

ويقولون في الخبث اخبث من ذئب الخَمَر والخَمَر هو ما وارى يعني ستر من شجر او حجر او جرف وادٍ واخبث من ذئب الغضى

ويقولون في الخيانة اخون من ذئب

ويقولون في الخداع اخدع من ضبٍّ

ويقولون في الخطإ اخطأ من ذباب ومن فراشة

ويقولون في العربسة اخبط من عشواء وهي الناقة لا تبصر في الليل فهي تطأُ كل شيء

ويقولون في الحلم أحلم من فرخ العقاب

ويقولون في الحلاوة احلى من التوحيد قيل هو نوعٌ من التمر بالعراق واليهِ ينسب ابو حيَّان التوحيديّ صاحب كتاب المحاضرات والمناظرات قال المتنبي

يترشفنَ من فمي رَشَفاتٍ هنَّ فيهِ احلى من التوحيدِ

ويقولون في الحدَّة احد من ليطة وهي قشر القصب

ويقولون في الخلف اخلف من شرب الكمون لان الكمون يسقى السِقي ولا يسقى والسِقي بالكسر الزرع الذي يسقى واخلف من ولد الحمار يعنون البغل لانهُ لا يشبه اباهُ ولا امهُ واخلف من نار الحباحب قيل ان الحباحب طائرٌ يظهر في الظلام كقدر الذباب يتراءى جناحهُ كشعلة نار وقيل غير ذلك واخلف من صقر وهو من خلوف الغم اي تغيُّر رائحتهِ واخلف من بول الجمل لان الجمل يبول الى خلف

ويقولون في الصيانة احمى من انف الاسد واحمى من است النمر

ويقولون في السرقة اسرق من زبابة وهي فارة برية صماء مثل الخلد

ويقولون في الشمّ اشمّ من نعامة(١) واما تمثيلهم الطويل بظل النعامة اذ يقولون اطول من ظل النعامة فليس هو من قبيل مشابهته بظل الطائر المعروف بهذا الاسم بل يريدون بذلك الراية وكل بناء مرتفع او على جبل وكذلك قولهم في المثل شالَتْ نعامتهُ فهم يعنون بذلك موتهُ لانهم يريدون بالنعامة هنا النفس كما في القاموس وفي مجمع الامثال للميداني شالت نعامتهم اذا انتقلوا بكليتهم كما يقولون زفَّ رألهم اذا انتقلوا عن الموضع ولم يبقَ لهم فيهِ شيء والزفُّ في اللغة الاسراع والرأل ولد النعام

الصيد. وكانت العرب في الجاهلية ترغب في صيد الحيوانات فمنها ما اصطادوهُ بالنبل والسهام ومنها ما نصبوا لهُ الحبائل والشراك ويقولون ان اول من اصطاد منهم بالفهود كان كليب بن وائل وكانوا يسمّون ما جاء منها عن شمال الصائد وولاهُ ميامنهُ بالسانح وما جاء عن يمينهِ وولاهُ شمالهُ بالبارح وما تلقاهُ بالناطح وما استدبرهُ بالقعيد ويسمّون ناموس الصائد القترة والحفرة التي تحفر للاسد اذا ارادوا صيدهُ زبية ومنهُ المثل بلغ السيل الزبى ويعبّرون عن اللصوق بالارض لختل الصيد التلبُّد ورجوع الصائد بلا صيد بالاخناق وكانوا لا يعافون لحم شيء مما يصطادونهُ اصلاً

ثم لما جاء الاسلام أُحلَّ لهم ايضاً صيد البحر وطعامهُ وصيد البرّ الاَّ ما داموا حرمًا غير انهُ قد حرّم عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله بهِ والمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الاَّ ما ذكّوا وما ذُبح على النصب ولم يستثنَ من الميتة الاَّ السمك والجراد ومن الدم الاَّ الكبد والطحال ولذلك يبذل المسلمون جهدهم في اصطياد الطيور والحيوانات بطريقة يظهر معها اثر خروج الدم مما يصطادونهُ منها واما الاسماك وسائر الحيتان والزهومات البحرية فلا قيد فيها

وقولهُ ما داموا حرمًا يعني في مكة وهي حرم لاحتوائها على البيت الحرام

(١) يقال بانهُ ليس للنعامة حاسة السمع ولذلك كان لهُ شم بليغ

ويقال لهُ الحرم المكيّ ايضاً اما الحرم المدني فهو مسجد المدينة وفيهِ ضريح صاحب الشريعة الاسلامية ويُطلق عليهما كليهما اسم الحرمين الشريفين وقولهُ في ما حرَّم عليهم اكلهُ الميتة فيراد بهِ الفاطسة والدم اي المسفوح وما أُهلَّ لغير الله بهِ معناهُ بان ذبح على اسم غيرهِ والمنخنقة اي الميتة خنقاً والموقوذة المقتولة ضرباً والمتردية اي الساقطة من علوٍ الى اسفل فانت النطيحة المقتولة بنطح اخرى لها واما قولهُ الاَّ ما ذكيتم بالذال المعجمة اي ادركتم فيهِ الروح من هذه الاشياء فذبحتموهُ

الفصل الرابع

في باقي محصولات بلاد العرب النباتية والمعدنية والصناعية وتجارتها

ينبت في بلاد العرب الاصلية المرّ والبيلسان وكثير من الاشجار والنباتات العطرية ويخرج كذلك في ما كان صالحاً للنبات والشجر من الجبال والاودية الطرفاء والدوم والصفصاف والحنّاء والزنجبيل والياسمين والفل والتمر هندي والنخل والقصب والحنطة والشعير والفوة والبن والتبغ والعفص والبنج والفلفل والباذنجان والصبر والرمان واللوز والفستق والمشمش والتفاح والسفرجل والليمون والتين والورد والشقائق والخزام والبنفسج والنرجس والنيلة والخروع وانواع القثاء والبطيخ والموز والطلح الذي منهُ الصمغ العربي والنارجيل المعروف بالجوز الهندي (ومنهُ أُخذَ اسم الناركيلة وهي آلة للتدخين) وشجر اللبان في شِحر وشجر البسر الذي تعمل منهُ المسابح

وفي نواحي جبل سيناء توجد دودة مثل دودة القرمز تثقب قشر شجر الطرفاء فيخرج من الثقوب في شهري حزيران وتموز رشح كالصمغ حلو المذاق طيب الرائحة تلتقطهُ رهبان دير القديسة كاترينا الكائن في تلك النواحي ويهادون بهِ او يبيعونهُ ويسمّونهُ منًّا تشبيهًا لهُ بالمن الذي أُعطي لبني اسرائيل عند ما كانوا تائهين في تلك البراري

ومن اعشاب تلك البراري ايضًا ما يسمّونهُ بالغيلة وهو شجر الاراك اذا كانت رطبة والاراك نباتٌ يستاك[1] بهِ والهيشر وهو كثير الشوك تاكله الابل

ويقال بان للرمان عند العرب مزية على غيرهِ من انواع الفواكه لان في كل رمانة من رمان الارض حبة من رمان الجنة فيجب ان يحرص مَن ياكل رمانة ان يسقط منها حبة لئلا تكون هي تلك الحبة

وبعض القدماء مدح بلاد العرب بسبب وجود الجواهر بها والزمرد والحجر الاسود والزبرجد ويقول الجغرافيون ان معادن بلاد العرب قد قلّت في هذه الايام مع انها كانت كثيرةً في الزمن القديم فكان يوجد في بلاد اليمن كثير من معادن الذهب والفضة والى الآن يوجد في بعض الاماكن معادن حديد ونحاس ورصاص وحجر الجزع والعقيق اليمني في اليمن واللؤلؤ في خليج فارس ببلاد عمّان والبحرين ولاشك انهُ يوجد فيها ايضًا معادن كثيرة الى الآن لم تُكتشف

وكانت العرب تنقل على ابلها لمدن مصر[2] والشام التجارية اللبان والمرّ والعطريات البخورية كالرانيج وغيرهِ من سائر البهارات التي بعضها كانوا يجلبونهُ من بلاد الهند لسكان الساحل الجنوبي وبعضها كان يخرج من بلادهم لان العرب الذين لم يألفوا الحرب كان اكثرهم يصرف زمنهُ في التجارة حتى قبل ان

(١) السواك الدلك ويستاك بهِ اي تدلك بهِ الاسنان للنظافة وفي الحديث خير خلال الصائم السواك اي استعمال السواك (٢) انظر تك ص ٣٧:٢٥ ٠

بلاد العرب كانت في الزمن القديم مستودع التجارة التي تربط الامم بعضها ببعض ولذلك كان الاسكندر الاكبر اراد ان يجعل قاعدة ملكه بلاد العرب ثم لما جاء الاسلام اباح هذه الحرفة ايضًا اذ قد ورد في الحديث تسعة أعشراء[1] الرزق في التجارة

وقال ابن خلدون القرش في اللغة الكسب والجمع وبهِ سميّت قريش ايضًا لانها كانت تعاني التجارة وقيل تصغير قَرْش وهو الحوت الكبير المفترس دواب البحر وقال آخر كانت قريش في متاجرها تأتي الشام في فصل الصيف لاجل طيبة بلادها في هذا الفصل وتأتي اليمن في فصل الشتاء لانها بلاد حارة لا يستطاع الدخول اليها في فصل الصيف وقال ابو محمد عبد الملك بن هشام ان اول من سنّ الرحلتين رحلة الشتاء ورحلة الصيف هو هاشم جدُّ صاحب الشريعة الاسلامية وانهُ توفي بمدينة غزة ولذلك يقال لها غزة هاشم اه.لكن ابن خلدون يقول ان الرحلتين هما من عوائد العرب في كل جيل لمراعي ابلهم ومصالحها فيفرّون بها من اذى البرد عند التوليد الى القفار ودفئها وطلب التلول في المصيف للحبوب وبرد الهواء

وقال بعض المؤلفين الظاهر ان هذه البخورات التي كانت تتجر بها العرب في ذلك الزمان كان اليونانيون يبخرون بها هياكلهم ومعابدهم والرومانيون كذلك يبخرون بها قبور بعض كهنتهم وفي زمن ملوك مصر البطليموسية والروم كانت مصر تتلقى هذه البضائع من يد تجار العرب بواسطة البحر الاحمر وكانت العرب تأْخذ من الروم والعجم في مقابلة هذه البخورات المعادن النفيسة والجواهر التي كانوا يزينون بها مدنهم وهياكلهم وقصورهم (راجع الفصل الاول من المقالة الخامسة) ولم تنقطع اسباب التجارة عن بلاد العرب الاَّ منذ انكشف الطريق بين الغرب والهند على راس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ للهجرة (سنة ١٤٨٦ م)

وكان للعرب في زمان جاهليتهم اسواقٌ في محلات معلومة من بلادهم

(١) اعشراء جمع عشيرة وهو جزء من عشرة كالعُشر

يجتمعون فيها في اوقات معينة من السنة للبيع والشراء وكانوا يتفاخرون ايضاً في اثناء تلك الاجتماعات ويتناشدون الاشعار ومن هذه الاسواق سوق كان يقوم في عكاظ (راجع الفصل الاول من المقالة الاولى) كل يوم احد ثم في كل سنة ايضاً كانت تجتمع قبائل العرب في اول شهر ذي القعدة ويلبثون هناك شهراً او عشرين يوماً فلما جاء الاسلام هدم السوق لكن قام مقامه مرْبد البصرة وهو ساحة تحبس فيهـــا القوافل كانت العرب تجتمع اليها من الاقطار ويتناشدون الاشعار ويبيعون ويشترون وكان يؤخذ من بائعي السُلَع في مثل هذه الاسواق دراهم في زمن الجاهلية يعبّرون عنها بالمكس

وكان من عادتهم ايضاً ان يضرب المشتري على يد البائع ان رضي البيع ولذلك سمّي عقد المبيع صفقةً ويقال ربحت صفقتك للشراء وصفقة رابحة وصفقة خاسرة وتصافق القوم عند البيعة

وكان يقع عندهم البيع بالملامسة وهو ان يقول اذا لمست ثوبك او لمست ثوبي فقد وجب البيع بكذا وهو ان يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر اليهِ ثم يوقع البيع او يقال ابيعك هذا المتاع بكذا فاذا لمستك وجب البيع او يقول المشتري كذلك

وبيع المنابذة ايضاً والنباذ هو ان تقول انبذ اليَّ الثوب او انبذهُ اليك وقد وجب البيع بكذا وكذا او ان ترمي اليهِ بالثوب ويرمي اليك بمثلهِ او ان تقول اذا نبذت الحصاة وجب البيع او ان يحضر الرجل القطيع من الغنم فينبذ الحصاة فيقول لصاحبها ان ما اصاب الحجر فهو لي بكذا

والمحاقلة وهو بيع الزرع قبل ظهور صلاحهِ او باعهُ اياهُ في سنبلهِ بالحنطة او زارعهُ بالثلث او الربع او اكثر او اكترى الارض منهُ بالحنطة

وبيع حَبَل الحُبلى اي ما في بطن الناقة او حمل الكرمة قبل ان يبلغ او ولد الولد الذي في البطن او نتاج النتاج وولد الجنين على ان من امهاتهم اذا اشتريت فاذكر البيع لتجتنب العيوب

لكن لما جاء الاسلام نهى عن مثل هذا البيع الفاسد بل وحقق للشاري الخيار في ما اشتراهُ لعدّة اسباب منها ان يختار ردالمبيع الى بائعهِ لعيبٍ وُجد فيهِ ويسمّونهُ خيار العيب اما خيار التعيين فهو اذا اشترى احد الثوبين بعشرة مثلاً فلهُ الخيار في تعيين ايهما شاء وخيار الرؤية وهو اذا اشترى ما لم يرهُ فلهُ الخيار في ردهِ وخيار الشرط وهو ان يشترط احد المتعاقدين امرًا كنقد الثمن او غيرهِ الى ثلاثة ايام او اقل منها فان اخلّ صحّ الخيار في الفسخ

وكان من عادتهم في الرهن ايضًا ان يقول الراهن لمن يمسك رهنهُ ان لم آتِك الى كذا فالرهن لك فان اتاهُ بالدَين بعد الامد قال لهُ غَلَق الرهن فجرى ذلك بينهم مجرى المثل قال الميداني غَلَق الرهن بما فيهِ يُضرَب لمن وقع في امرٍ لا يرجو انتياشًا منهُ قال الشاعر

وفارقتك برهنٍ لافكاك لهُ يومَ الوداع فامسى الرهن قد غُلِقا

فلما جاء الاسلام ابطل كذلك هذه العادة حيث ورد في الحديث لايُغلق الرهن يعني لا يستحقهُ مرتهنهُ اذا لم يردّ الراهن ما رهنهُ فيهِ

وكانت بلاد اليمن تتجر في البن تجارةً عظيمة واغلب ايراد الدولة كان من المكس الذي يؤْخذ على ما يخرج منهُ وكانوا منعوا خروج زريعتهِ من بلادهم وجعلوا جزاء من يخرجها عقابًا شديدًا ومع كل ذلك قد وجد الفرنسوية والفلمنك والانكليز طريقًا لنقل هذه الشجرة الى قبائلهم ونزلائهم المستوطنة في البلاد البرانية وبذلك اضروا في تجارة هذه البلاد بهذا الصنف ولئن كان شتّان بين بنّ الافرنج وبنّ اليمن وتدّعي العرب بانهم نقلوا هذه الشجرة في الاصل من بلاد الحبشة ولعل ان الحبشة هم اول من عرف نفع البن وزراعتهِ

وحكى بعض الذين تكلموا على بلاد اليمن ان اهالي هذه البلاد مع كونهم يتجرون في البن الذي هو من نوافع بلادهم فلا يستعملون شرب القهوة الاّ نادرًا ويدّعون انها حارّة فيستعملون بدلها شراب قشر البن الذي يصنعونهُ كالشاي

ومنهم من يتعاطى نوعًا من النباتات مخدرًا كالحشيشة

ولا زال لليمن تجارة واسعة مع بلاد الحبشة المذكورة في العطريات والعاج والتبر ويأتيها من اوربا ايضًا انواع المعادن والاسلحة والزجاج وعندهم عدة انوال للشاش وفي مدينة المخا معمل للزجاج ولكن صناعهم خشنة وانما يجيدون صياغة الذهب والفضة التي تصطنعها غالبًا اليهود حتى ان السكة في مدينة صنعاء يضربها اليهود ويشتغلون بعض زنبلكات وهي المسماة مكاحل ولكنها غير جيّدة بل متوسطة الصناعة واكثر بيوت الجبل منقوبة في الصخور الحادّة ولا يعرفون من آلات الموسيقى الاّ الطنبور والمزامير وسفنهم خشنة وشراعاتها نوع من الحصر

واما البلاد التي افتتحها العرب بعد الاسلام فقد اجادوا فيها انواع الزراعة بعد ان دخلت بينهم العلوم والمعارف القديمة واخذوا هذا الفن عن ديوسقريدس الفيلسوف اليوناني كما سوف يرد ذلك في محلهِ بجملة باقي العلوم التي تعاطوها وبرعوا فيها كما برعوا في التجارة وسائر العلوم التي ترجمت كتبها من اليونانية الى العربية وحسبنا ان نذكر مثالاً لذلك هنا ما ذكرهُ صاحب المقتطف في بعض نشراتهِ حيث يقول

قال بعض المؤلفين يظهر من تاريخ العرب عمومًا والاندلسيين خصوصًا ان متاجرهم بلغت الآفاق برًّا وبحرًا في زمان الخلفاء وانهم فاقوا غيرهم في الزراعة والتجارة وبرعوا في استخراج المعادن وسبكها وفي البناء والحياكة والصياغة والصباغة والدباغة والنقش والدهن والتذهيب والزخرفة على انواعها وكانت مالقة (بلدٌ بالاندلس) من اشهر الامصار بصنع الفخار المذهب العجيب ترسلهُ الى اقاصي البلاد وكانت خيراتها كثيرة عنب وتين ولوز ورمان مرسي ياقوتي لا نظير لهُ واشتهرت اشونة بعنبرها ومسكها واشبيلية بمتاجرها العظيمة وزيتونها وتينها حتى ان الماشي كان يمشي في ظلّ زيتونها وتينها اربعين ميلاً طولاً واثني عشر ميلاً عرضًا واشتهر اهلها بحب الغناء والخلاعة وفن

التطريب واشتهرت كورة باجة بمعدن الفضة الذي فيها وبدباغة الاديم وصناعة الكتان. وفاقت المرية سائر المدن بصنعة ديباجها ودار صناعتها حتى قال بعضهم كان فيها لنسج طرز الحرير ثماني مئة نول وللحلل النفيسة والديباج الفاخر الف نول وللثياب الجرجانية كذلك وللاصفهانية مثل ذلك وللعنابي والمعاجر المدهشة والستور المكلّلة ويصنع بها من صنوف آلات الحديد والنحاس والزجاج ما لا يوصف وفاكهة المرية يقصر عنها الوصوف حسناً ووادِيها طوله اربعين ميلاً في مثلها كلها بساتين بهجة وجنات نضرة وانهار مطردة وطيور مغرّدة وقيل لم يكن في بلاد الاندلس أكثر مالاً من اهلها ولا اعظم منهم متاجر وذخائر وكان بها من الحمامات والفنادق نحو الالف ولجودة ارضها قيل كانما غربلت من تراب. واشتهرة شنترة بجودة ارضها وحسن غرسها قال ابن اليسع ان التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة اشبار واكثر وقال نقلاً عن ابي عبد الله الباكوري وكان ثقةً ان رجلاً من اهل شنترة اهدى الى المعتمد ابن عباد اربعة من التفاح ما يقلُّ الحامل على راسهِ غيرها دور كل واحدة خمسة اشبار. وذكر هذا الرجل بحضرة ابن عباد ان المعتاد عندهم اقل من هذا فاذا ارادوا ان يجيء بهذا العظم وهذا القدر قطعوا اصلها وابقوا منهُ عشراً او اقل وجعلوا تحتها دعامات من الخشب. وكان بجوار المرية توتٌ كثير وبها حرير وقرمز وكانت مرسية تسمى البستان لكثرة جنانها. والورق يعمل بشاطبة من اعمال بلنسية وبالاجمال كان اهل الاندلس خبيرين باستعمال الاطياب والعقاقير والافاويه وباستخراج الحجارة الكريمة والمعادن فكانوا يستخرجون العنبر وعود الانجوج العطر الرائحة والحلب والقسط والسنبل والجنطيانه والمرّ والكهرباء والقرمز وحجر اللازورد وحجر النجادي والبلور والياقوت الاحمر الاّ انهم لصغرهِ لم يستعملوهُ والمغناطيس وحجر الشادنة يستعملونهُ في التذهيب والذهب والفضة والقصدير والزئبق يتجهز بهِ منها الى الآفاق والتوتيا والنحاس والحديد والسبّ والكحل وقيل كانوا يصغون يصبغون النحاس بالتوتيا وكانوا يجرون

بالزعفران والزنجبيل ويلتقطون المرجان عن سواحلهم فاذا تأمل القارئ في كثرة هذه المواد وما ينهال منها على البلاد من سيول الثروة وضمّ اليها نخوة العرب وعظم اقدامهم على الاعمال يتبين ان الاندلس صارت تحت يدهم جنّة العالم وتحقق صدق واصفيها والقائل فيها

وكيف لايبهج الابصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء
انهارها فضةٌ والمسك تربتها والخزّ روضتها والدرُّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به من لا يرقّ وتبدو منهُ اهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحرًا ولا انتثار لآلى الطلّ انداء
وانما أرجُ الندّ استثار بها في ماء وردٍ فطابت منهُ ارجاء

اما اتقن شيء من مصنوعات الاندلسيين فهو مبانيهم فاهل الصناعة والذوق لايزالون يقرّون لهم بحسن المباني ايام كان سواهم من اهل اوربا يسكنون البيوت الحقيرة واشهر من شاد المباني الباذخة الخليفة الناصر (على ما تقدمت تفاصيلهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة)

واما محصولات اراضي سلطنة مراكش فهي كما في الديار المصرية ويشتغل فيها الحرير والصوف والبسط والأدم من جلود المعزى واكثر تجارتها لازالت حتى الآن مع اهالي البلاد والقبائل التي في الجهات الجنوبية

المقالة الثامنة

في جيوش العرب واسلحتها ووقائعها وفتوحاتها البرية والبحرية
وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في جيوش العرب وكيفية حروبها

يقال بانهُ كان للنعمان بن المنذر ملك العرب خمس كتائب احداها تسمّى دوسر وهي اشدُّها بطشًا حتى ضُرب بها المثل فيقال أبطش من دوسر وكانت من كل قبائل العرب واكثرها من ربيعة سمّيت بذلك لاشتقاقها من الدسر وهو الطعن والدفع. والثانية الرهائن وكانت خمس مئة رجل رهائن لقبائل العرب تقيم بباب الملك سنةً ثم ياتي بدلها خمس مئة اخرى فتنصرف الاولى وكان الملك يغزو بها ويوجهها في اموره وكان ملك العرب في رأس كل سنة وذلك في ايام الربيع يأتيهِ وجوه العرب واصحاب الرهائن وقد صيّر لهم آكالاً عندهُ وهم ذوو الآكال فيقيمون عندهُ شهرًا وياخذون آكالهم ويبدلون رهائنهم ثم ينصرفون الى احيائهم. والثالثة الصنائع وهي بنو قيس وبنو تيم اللات

ابني ثعلبة وكان هولاء خواص الملك لا يبرحون من بابهِ . والرابعة الوضائع وكانوا الف رجلٍ من الفرس يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدةً لملك العرب وكانوا يقيمون سنة كالرهائن ثم يأتي بدلهم الف رجل فينصرف اولئك. والخامسة الاشاهب وهم اخوة ملك العرب وبنو عمهِ ومن يتبعهم من اعوانهم وقيل لهم الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

ويسمّون رئيس القوم بالعريف لانهُ عُرِف بذلك . اما النقيب فهو دون الرئيس وقيل العريف يكون على نُفيرَ والمنكب يكون على خمسة عرفاء ونحوها ثم الامير فوق هولاء والدِخْيَة رئيس الجند ويجمع على دحاء

والجند هو جمعٌ معدٌّ للحرب والعسكرْ والاعوان والفيئة والانصار وصنف من الخلق على حدةٍ يقال هذا جندٌ قد اقبل

اما الحَصِيْص وهو العدد يقال حصيصهم كذا اي عددهم كذا فهو اولاً الصُنْتوت وهو الفرد الواحد والزوج للاثنين ويجمع على ازواج . واما الزوج والزوجة فليسا من هذا القبيل بل يقال لهما زوجان. والنيف هو من الواحد الى الثلاثة ولا يقال نيف الاّ بعد عقد العشرة من الرجال . والبضع اكثر ما يستعمل بين الثلاث الى التسع او الى الخمس او ما بين الواحد الى الاربع او من اربع الى تسع او هو سبع وقيل البضع ما بين العقدين من الواحد الى العشرة ومن احدى عشر الى عشرين ومع المذكر بهـا ومعها اي مع المؤنثة بغيرها يقال بضعة وعشرون رجلاً وبضع وعشرون امرأة ولا يعكس . وقيل البضع غير معدودٍ لانهُ بمعنى القطعة . والخَرَنجَم العدد الكثير والنفر لما دون الناس كلهم من ثلاثة الى عشرة وقيل الى سبعة ولا يقال نفرٌ في ما زاد عن العشرة . اما الوتيرة فهي اسمٌ لعقد العشرة اي اذا بلغ العدد عشرة يسمّى وتيرة واذا بلغ اربعين يسمّى عصابة. ثم الهجمة وهي من التسعين الى المئة فاذا بلغت المئة فهي هُنيدَة . والجماعة من المئة الى الالف فاذا بلغت الالف قيل جمرة وقيل ان كل قبيلة فيها ثلاث مئة فارس تسمّى ايضًا بهذا الاسم وقيل ان كل من كان

يدًا واحدة من القبائل كبني ضبّة والحرث وعبس فانهُ يقال لهم جمرات العرب

والحضيرة جماعة القوم او الاربعة او الخمسة او الثمانية او التسعة او العشرة او النفر يُغزَى بهم ومقدمة الجيش

والثُبة الجماعة والعصبة من الفرسان والاثبية الجماعة الكثيرة ج أثابي

والجاهشة الجماعة من الناس والسرية بالياء المثناة هي الجماعة من خمسة انفس الى ثلاث مئة او اربع مئة قيل لها ذلك لانها تسري في خفيةٍ او لانها جماعة مستراة اي مختارة من الجيش وقيل التسعة فما فوقها سرية وقيل السرية القطعة من الجيش يقال خير السرايا اربع مئة

واما السربة بالباء الموحّدة فهي الجماعة وجماعة الخيل ما بين العشرين الى الثلاثين

والطليعة تكون ثلاثة او اربعة ونحو ذلك

والعدقة ما بين العشرة الى الخمسين من الرجال

والمِقْناب ما بين الثلاثين الى الاربعين من الخيل او زهاء[1] ثلاث مئة

والقَنبل الطائفة من الناس ومن الخيل ما بين الخمسين فصاعدًا وقيل ما بين الثلاثين الى الاربعين

والمَنسرُ والمِنسرُ من الخيل ما بين الثلاثين الى الاربعين او من الاربعين الى الخمسين او من الستين الى المئة الى المئتين وقطعة من الجيش تمرُّ قدام الجيش الكبير

والوضمة صرم[2] من الناس فيهم مئتا انسان او ثلاث مئة

والجِدْ من الناس الجماعة ومن الخيل مئة واكثر

والبرازيق الجماعات من الناس والفرسان او جماعات خيل دون الموكب

---

(١) الزهاء المقدار والحزر يقال عندي زهاء مئة اي مقدار مئة وحزرها

(٢) الصرْم الضرب والصنف والجماعة ج اصرام واصارم واصاريم وصرمان ويراد بالصرَم الجماعة من البيوت ايضًا

والبريم الجيش ولفيف القوم قبل سمّي بذلك لان فيهِ اخلاطًا من الناس

والبغايا الطلائع تكون قبل ورود الجيش

والتجريدة جماعة من الجند منقطعة

اما الكتيبة فهي الجيش والعظيم منهُ فيلق وعرمرم ولهام وقيل الفيلق ما كان منهُ خمسة آلاف والبَنْد ما كان عشرة آلاف والجحفل الجيش الكثير وجيش جرار يجرُّ غبار الحرب وكتيبة جرارة ثقيلة السير لكثرتها والطحون الكتيبة العظيمة تطحن ما لقيت واما الجميعة فهي الجيش الصغير والجول الكتيبة الضخمة وجماعة الخيل او ثلاثون منها او اربعون وقيل الجيش اربع مئة وقيل اربعة آلاف والنغي ما يتطرق من معظم الجيش والثكنة مركز الاجناد ومجتمعهم وان لم يكن هناك لواء ولا علم

اما حومة الحرب فهي معظمها يعني حيث تحوم الحرب اي تدور غمرات الحرب والوقعة والوقيعة هي صدمة الحرب والقتال والعظيم من الحروب ملحمة واشدُّها الحرب العوان والجبار من الحروب ما لا قود فيها (اي ما لا قصاص للقاتل فيها) وعليهِ قولهم جرحهُ جبارٌ اي لا يطالب بهِ ومن امثالهم ايضًا الحرب سجال يعني تارةً لقومٍ واخرى عليهم اما الوغى والوعى فهو صوت الجيش في الحرب ثم استعير للحرب واللجب صوت العسكر والوغر صوت الجيش وجبلته والجمعة اختلاف الاصوات وشدَّة زجلها واجلب القوم بمعنى جلبوا وتجمعوا من كل وجهٍ للحرب والجلَب اختلاط الاصوات . والجلاد والمجالدة تضارب المتحاربين بعضهم بعضًا بالسيوف والحبوكرى المعركة بعد انقضاء الحرب والتوغُّن الاقدام في الحرب والذمر الحضُّ على القتال. واحرنبى الرجل احرنباء ازبأرَّ وتهيأ للغضب والشرّ كاحرنبأ بالهمز. وحزَّفر القوم تهيأوا. والحملة الكرة في الحرب

وكانت العرب تكني عن الحرب بثلاثة اشياء احدها ثوب محارب وهو رجل من قيس غيلان يتخذ الدروع والدروع ثوب الحرب والثاني برد فاخر

وفاخر هذا رجل من تميم كان اول من لبس البرد الموشّى فيهم وهو ايضاً كناية عن الدرع . والثالث عطر منشم يقولون في امثالهم دقّوا بينهم عطر منشم او يقولون اشأم من منشم زعم بعضهم ان منشم اسم امرأة كانت عطارة تبيع الطيب فكانوا اذا قصدوا الحرب غمسوا ايديهم في طيبها وتحالفوا عليه بان يستميتوا في تلك الحرب ولا يولوا او يقتلوا فصار جميع ذلك كناية عن الحرب

والسبب في غمس ايديهم بطيب هذه المرأة هو ان من عادة العرب اذا ارادوا الحرب غمسوا ايديهم في خَلوق ليكون ذلك علامةً لهم على التحالف عليه ومن ذلك سمّي المطيبون والرباب على ما سبقت الاشارة اليه في الفصل الرابع من المقالة الخامسة ومنهُ ايضاً حلف الفضول ذكرهُ الاصبهاني فقال ان اناساً من قريش اجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وصنع لهم يومئذٍ طعاماً وكان معهم صاحب الشريعة الاسلامية قبل البعثة وهو ابن خمس وعشرين سنة فاجتمعت بنو هاشم واسد وزهرة وتيم وكان الذي تعاقدوا عليه هو ان لا يُظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حرٌّ ولا عبدٌ الاّ كانوا معهُ حتى يأخذوا له بحقهِ ويؤدّوا اليه مظلمتهُ من انفسهم ومن غيرهم ثم عمدوا الى ماء من ماء زمزم فجعلوهُ في جفنةٍ ثم بعثوهُ الى البيت فغسلت اركانهُ ثم اتوا بهِ فشربوهُ وقال الواقدي ان سبب تسمية تحالفهم هذا بحلف الفضول هو ان قوماً من جرهم يقال لهم فضل وفضال ومفضل تحالفوا على مثل هذا في ايامهم وسمّي تحالفهم حلف الفضول فلما تحالفت قريش هذا التحالف سُمّوا بذلك ايضاً اه. وهكذا احابيش قريش ايضاً هم قومٌ من قريش وكنانة وخزيمة وخزاعة اجتمعوا في الحُبش وهو جبل باسفل مكة وتحالفوا انهم يدٌ واحدة ما سجا[1] ليلٌ ووضح نهارٌ وما رَسا الحبش اي الجبل المذكور فقيل لهم ذلك

وكانت اسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حللهم واحيائهم من

---

(١) السجوّ السكون والدوام وفي سورة الضحى وَالليل اذا سجا اي سكن اهلهُ او ركد ظلامهُ

الاهل والولد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل عيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى قال الزوزني كانت العرب تشهد نساؤها الحروب وتقيمها خلف الرجال ليقاتل الرجال ذبًّا عن حرمهم فلا تفشل مخافة العار بسبي الحرم

وكان الشعر في حروب الجاهلية يقوم بمزية الآلات الموسيقية او القرع في الطبول او النفخ بالآلات والقرون عند العجم فكانوا في خروجهم الغزوات يتغنون بالشعر في مواكبهم فيطربون وتجيش هم الابطال عليه ويسارعون الى مجال الحرب وينبعث كل قرنٍ الى قِرْنه ولازال الامر على هذا في بعض قبائل العرب بعد الاسلام فان زناتة من امم المغرب كان يتقدم الشاعر عندهم امام الصفوف فيحرّك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث الى الاستماتة واما قرع الطبول والنفخ في الابواق فلم يتخذهُ الاسلام الاّ بعد ان تولى الخلافة العباسيون في المشرق والعبيديون في المغرب

وكانوا ينصبون الرايات على ابواب بيوتهم لتعرّف بها وكانوا يتفخرون بالراية الصفراء لانها راية لملوك اليمن واما الرايات الحمر فهي لاهل الحجاز لكن في الاسلام كانت الرايات السود لبني العباس حزنًا على شهدائهم ونعيًا على بني أُمية في قتلهم ولذلك سمّوا بالمسوّدة وكانوا ينصبون هذه الرايات السود على المنابر ايضًا فلما نزع المأمون العباسي عن لبس السواد وشعاره في دولته على ما تقدم في الفصل الثاني من المقالة الخامسة عدل الى لون الخضرة فجعل راياته خضراء واما الرايات البيض فكانت للطالبيين من الهاشميين لما خرجوا على العباسيين وذهبوا الى مخالفتهم ولذلك سمّوا بالمبيضة ومنهم العبيديون والقرامطة وغيرهم

وكان من عادة العرب في الجاهلية قتل اسرى الحروب فان من امثالهم المضروبة ليس بعد السلب الاّ الاسار وليس بعد الاسار الاّ القتل لكن كان اذا اكل الاسير وشرب من مال مَن اسرهُ أَمن من القتل فاذا منّوا عليه

واطلقوهُ جزّوا ناصيتهُ[١] وكان الشريف اذا أُسِر فُدِيَ بمئين من الابل وسمّي هذا الفداء عندهم عقال[٢] المئين ثم لما جاء الاسلام ابطل الاسر من العرب حيث ورَد في الحديث لا سباً على عربي ولا سباً في الاسلام ولا رقّ على عربي في الاسلام ولذلك كانت الطيبة في الرقيق هو ما سبي من قوم يحلّ استرقاقهم والخِبثة ما كان بعكس ذلك

وكانوا يقاتلون بالكرّ والفرّ[٣] ولا يعتبرون قتال الزحف صفوفًا المعتبر عند سواهم من الاعاجم وكانوا يصفّون ابلهم والظهر الذي يحمل ظعانهم وراء عسكرهم فيكون فئةً لهم ويسمونها المجبوزة لان ضرب المصاف وراء العساكر من الجمادت والحيوانات العجم لتكون ملجأً للخيالة في كرّهم وفرّهم يطلبون به ثبات المنازلة هو من مذهب اهل الكرّ والفرّ ويفعلهُ اهل الزحف ايضًا

ثم في مبادئ الاسلام جعل العرب حروبهم زحفًا وابطلوا الكرّ والفرّ لسببين الاول ليقابلوا اعداءهم بمثل مقابلتهم والثاني لانهم كانوا مستميتين في حروبهم والزحف اقرب الى الاستماتة وفي الآية ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيلهِ صفًّا كأنهم بنيان مرصوص

ولما تولى الخلافة مروان بن الحكم ابطل الصف في الحروب وصار الى تعبية الكراديس والكراديس هي ان يجعل بين يدي الملك عسكر منفرد بصفوفهِ متميز بقائدهِ ورايتهِ وشعارهِ ويسمونهُ المقدمة ثم عسكر آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى سمتهِ ويسمّونهُ الميمنة ثم عسكر آخر من ناحية الشمال ويسمّونهُ الميسرة ويقال لهما المجنبتان ثم عسكرٌ آخر من وراء العسكر الساقة ويقف الملك واصحابهُ في الوسط بين هذه الاربع ويسمّون موقفهُ القلب

---

(١) الناصية الشعر الذي يقع على الوجه من مقدم الراس

(٢) العقال تأدية الجناية يقال عقل القتيل اذّى جنايتهُ والعقل دية القتيل وعاقلة الرجل عصبتهُ

(٣) الكرّ العطف وكرّ الفارس فرّ للجولان ثم عاد للقتال فهو كرار وفرّ للفارس اوسع الجولان للانعطاف

وهنا نضرب صفحًا عن تعداد المؤلفات واسماء المؤلفين من العرب الذين ألّفوا في احوال الحروب وتعبيتها وادواتها وسائر متعلقاتها كفضل الفارس على الراجل والراجل على الفارس وزي المتقاتلين ولباس الرجال والفرسان وانواعها وما يلزم ان يكون مع المتقاتلين وما يتعلق بانواع الاسلحة التي حدثت بعد الاسلام كالمنجنيق والدبوس والخنجرة والمقلاع والقوس والنشاب والمكامن والمبارزة والاسرى وفضل الجهاد والسير والمغازي وفتح الثغور وبناء المعاقل واصول الفروسية والهندسة والمصابرة على الحصار والقلاع والرياضة الميدانية والحيل الحربية وسائر فنون العلاج والسلاح وعمل ادوات الحرب والكفاح لانها هيهات ان تحصر او يسعها هذا المختصر

واول من اتخذ طائفة الافرنج في جندهم هم ملوك المغرب ليقاتلوا بهم العرب الخارجين عليهم من اهل وطنهم لثبات الافرنج في الحروب واعتيادهم على حرب الزحف واما في الجهاد اي في حروبهم مع النصارى فلا يستعينون بهم خوفًا من ميلانهم على المسلمين

الفصل الثاني

في اسلحة العرب الاصلية

وكما كانت العرب تغلب فيهم الشجاعة ويعدون ويجرون كذلك كانوا يحسنون حمل السلاح كما يحسنون ركوب الخيل التي سبق الكلام عليها فيلبسون الدروع السَلوقية (نسبة الى سَلوق بلدة في اليمن يُنسب اليها الدروع والكلاب)

ويعتقلون الرماح الخطّية ويتنكبون القسي ويضربون بالسيوف المشرفية

اما الرماح الخطية فهي منسوبة الى الخط جزيرة بالبحرين ترفأُ اليها السفن ويقولون ايضًا رماحٌ سمهرية ورماحٌ ردينية فالسمهرية تنسب الى سمهر رجل كان في جزيرة خط المذكورة مثقفًا ماهرًا وقناهُ يعني رماحهُ صلبة وكانت زوجتهُ ردينة وهي مثل زوجها في تقويم الرماح واليها تُنسب الرماح الردينية وهناك رجل آخر مشهور بعمل الاسنة يقال لهُ قُعضُب

وقد اشتهر بملاعبة هذه الاسنة عامر بن مالك الذي يقال لامهِ ام البنين الاربعة وهي المجب امرأة في جاهلية العرب لانها ولدت عامر المذكور والطفيل وابا تمام وربيعة وبذلك افتخر احدهم ربيعة المذكور بقولهِ "نحن بنو ام البنين الاربعة" وضُرب المثل بعامر في ملاعبة الرماح فيقولون لمن يريدون المبالغة في وصفهِ بذلك العب بالاسنة من عامر بن مالك كما ضُرب المثل ايضًا بابن تِقن(1) فيقال ارمى من ابن تقن وقيل ارمى من تِقن وهو رجل من عاد كان ارمى مَن تعاطى الرمي في زمانهِ ويقولون ايضًا ارمى سهامًا من بني ثُعَل وهم قبيلة من العرب يوصفون بجودة الرمي فيها واشهرهم في ذلك رجل يقال لهُ عمرو بن المشبّح

وكان الرجل من العرب اذا غضب يخبط الارض بسهامهِ فيكسر ارعاظها والارعاظ جمع رعظ وهو مدخل النصل في السهم ولذلك يقولون في المثل انهُ ليكسر عليّ ارعاظهُ غضبًا يضرَب للغضبان

ويسمّون آخر سهم يبقى في الكنانة رديئًا كان او جيدًا الاهزع وهو انهُ اما افضل سهامها فأُذخَر لشديدة واما اردأُها فتترك قال النمر بن تولب

فارسل سهامًا لهُ اهزعا فشكّ نواهقهُ(2) والفما

(1) التقن الرجل الحاذق
(2) النواهق مخارج النهاق وهو ما يكتنف الخياشيم من الدابة

اما الحرماة فهي سهام الهدَف . والخِصب ويضمّ صوت القوس . والمشقص نصل عريض او سهم فيهِ ذلك يرمى بهِ الوحش . والناقر السهم اذا اصاب الهدَف . واما اذا لم يصب فليس بناقر . والزلخ رفع اليد في الرمي الى اقصى ما يقدر عليهِ . والسهم الزالج الذي اذا رمى بهِ الرامي قصّر عن الهدَف واصاب الصخرة اصابةً صلبة ثم ارتفع الى القرطاس فهذا لا يُعدّ مقرطسًا والقرطاس الغرض لرشق السهام والمقرطس الذي اصاب القرطاس . وحبض السهم اذا وقع بين يدي الرامي . وتخط السهم اذا نفذ من الرمية والشداد السهم الذي لا نصل لهُ ولا ريش . والمفرّو السهم المريش . والناصل السهم سقط نصلهُ . والافوق الذي انكسر فوقهُ . وافقت السهم اذا وضعت فوقهُ الوتر . والسهم الشبيع القاتل . واصمى الرامي اذا اصاب . وانمى اذا شوى اي اصاب الشوى ولم يصب المقتل والشوى اطراف البدن وصرد السهم اذا نفذ في الرمية والصرد النفوذ . وخزق السهم وخسق بمعنى صرَد ايضًا . واحبض السهم ضدُّ اصرد والمعراض السهم الذي لا ريش عليهِ . والقِدْح السهم قبل ان براش ويركب نصلهُ . والحراث سهم لم يتم بريهُ . والحابُّ السهم وقع حول القرطاس . وزج الرمح الحديد المركب في اسفلهِ واذا قيل زجاج الرمح عني بهِ ذلك الحديد

وكان من عادة العرب اذا التقت فيئتان منهم شد كل واحدٍ منهما زجاج الرماح نحو صاحبها وسعى الساعون في الصلح فان ابتا الأ التمادي في القتال قلّب كلٌّ منهما الرماح واقتتلتا با لاسنة ولذلك يقولون في المثل من عصى اطراف الزجاج اطاع عوالي الرماح وعالية الرمح ضد سافلتهِ والجمع العوالي والسنان واللهذم الرمح الطويل والخباع من السهام الذي لا نصل لهُ

واما الجوْب والمجنّ فهما الترس . والجُرُوخ ادوات ترمى عنها السهام والحجارة . والتجفاف آلة للحرب تلبسها الفرس والانسان ليتقي بها كانها درع . والجُلبَّار قراب السيف او حدّهُ . والحرباء مسمار الدرع او راسهُ في حلقة الدرع . والحطميّات دروعٌ تُنسب الى حطمة بن محارب كان يعمل الدروع او هي

الدروع التي تكسر السيوف او الثقيلة العريضة

واما السيوف المشرفية فهي منسوبة الى المشارف . قال الشيخ ناصيف اليازجي في كتابهِ مجمع البحرين هي قرية في اليمن وقال الميداني في مجمع الامثال المشرفية تُنسب الى مشارف الشام وهي قراها فيسمّون السيف المشرفي وفي القاموس مشارف الارض اعاليهـا والسيوف المشرفية الثمينة الرفيعة واما البصروية فمنسوبة الى بصرى موضع بالشام ايضًا والبيلمانية نسبة الى بيلمان موضع باليمن او السند او الهند والحنيفية نسبة الى الاحنف بن قيس

ويصفون السيف بالابتر والباتر والبتار والجِذم والخاروقة والحسام والحنفد والخذوم والخِذَم والخاشف والخضم والصروم والصلت والاصمع والقباب والقرضاب والقرضوب والقضـاب والنهيك . والعضب والباضك والبضوك للسيف الماضي القاطع اما الاقرع فهو السيف الجيد الحديد والمهند القاطع المحدد او المطبوع بالهند والصمصام السيف لا ينثني ويقال الصمصامة بزيادة التاء للمبالغة كالخاروقة والثامل من السيوف القديم العهد بالصقال والابريق السيف البراق والبارقة السيوف . والابيض والمصفحة السيف ايضًا . والضامي السيف الظالم . والباتك السيف الصارم والبرند من السيوف ما كان عليهِ اثر قديم او هو الفرند . والخيض من السيوف ما كان من حديد انيث وحديد ذكر . والرقارق السيف الكثير الماء . والصموت السيف الرسوب . والمعصوب السيف اللطيف والمُها سيفٌ رقيق . والكشوج سيفٌ من السيوف السبعة التي اهدتها بلقيس لسليمان . والاخثم السيف العريض والخشيب سيف ضد الصقيل والمعضد اردأُ السيوف لانهُ يقطع بهِ الشجر

ومما اشتهر من سيوف العرب المعلوب[1] وذو الحيّات سيفا الحرث بن ظالم المرّيّ

---

(١) المعلوب السيف تثلّم حدهُ او حزم مقبضهُ بعلباء البعير

والباتك[١] والجماد[٢] لمالك بن كعب الهمذاني

ولسان الكلب لتبع بن حسّان الحميري من ملوك اليمن

وذو الفقار[٣] سيف العاص بن منبّه فلما قتل اخذهُ صاحب الشريعة الاسلامية ثم صار للامام علي بن ابي طالب وكثيرًا ما تذكرهُ الشعراء الاسلاميون في غزلياتهم يصفون بهِ الالحاظ واللحظ باطن العين واللحاظ مؤخرها كما انهم يصفون القدود بالرماح

ومنها قُلزَم والصمصامة لعمرو بن معدي كرب الزبيدي وكان اشهر سيوف العرب قال الشاعر

اخٌ ماجدٌ ما خانني يوم مشهدٍ كما سيف عمرٍو لم تخنهُ مضاربُه

حكى الاصبهاني ان عمرًا المذكور انشد في يوم مقتل رستم

انا ابو ثور وسيفي ذو النون[٤] اضربهم ضرب غلام مجنون[٥]

يا لزبيد انهم يموتون

ودلدل[٦] وذو الكف لذي جدن احد ملوك اليمن

وذو النون سيف مالك بن زهير العبسيّ

وولول[٧] سيف عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن ابي العاص

والمجّ[٨] سيف زهير بن جناب الكلبيّ

والخذوم[٩] والمِخذَم سيف الحرث بن ابي شمّر الغساني

---

(١) الباتك القاطع (٢) الجماد من السيوف الصارم

(٣) الفقار الدواهي (٤) النون شفرة السيف

(٥) المخبون من غبنة المية يعني مات (٦) الدلدل الامر العظيم

(٧) ولول اعول قال وا ويلاهُ (٨) المج الشق والطعن والغلب والمناجزة

المبارزة يقال بالجبته فجبتهُ اي غلبتهُ (٩) الخذوم والمخذم القاطع يسرعة قال عنترة

فطعنتهُ بالرمح ثم علوتهُ بمهنّدٍ صافي الحديدة مخذمِ

والاضرس[1] سيف الحرث بن هشام

والزائد سيف خُبَيب بن اساف

والمُصدّع[2] سيف زهير بن جذيمة العبسيّ

والصارد[3] سيف عاصم بن ثابت بن ابي الاقلح

والمُصمت[4] والوشاح[5] لشيبان المندي

والعطشان سيف ابن عبد المطلب بن هاشم

والغمام سيف جعفر الطيار

والفرد سيف عبد الله بن رواحة الانصاري

وذو الفوق سيف مفروق ابي عبد المسيح الرياني

والمخرنات سيوف المنذر بن ماء السماء

وذو القرط سيف خالد بن الوليد المخزومي

وذو النونين سيف معقل بن خويلد

والمصمم وذو الوشاح لعمر بن الخطاب

---

(١) الاضرس المجرّب في الحروب والمحكم وضارس القوم مضارسةً تحاربوا وتعادوا

(٢) المصدّع من الصدع وهو الشق في شيء صلب

(٣) الصارد النافذ (٤) المصمت المسكت

(٥) الوشاحة السيف وتوشح الرجل السيف تقلد به

الفصل الثالث

في وقائع العرب وفتوحاتها

لا يخفى بان للعرب في زمن جاهليتها وقائع كثيرة لا يمكن حصرها ولا معرفتها بالتمام واغلبها لم يكن الاَّ من نوع العدوان اذ لم يكن هناك اسباب توجبها الاَّ في كونهم جعلوا ارزاقهم في رماحهم ومعاشهم في ما بايدي غيرهم فكانت مقاصدهم بها غلب الناس على ما في ايديهم فقط وقد ألَّف ابو الفرج الاصبهاني كتابًا في ايام العرب يحتوي على الف وسبع مئة يوم وهي ايام الوقائع والحروب التي جرت بينهم اشهرها هو ما ذكرهُ الاديب الفاضل الشيخ ناصيف اليازجي اللبناني في ارجوزةٍ ضمنها نحو المئة يوم وهي

قد ذكر القوم لايام العرب ... مواقعًا تدعى بهنَّ كاللقب

من ذلك الكديد والبيداء ... بُعاث والنُترة والهيماء

كذا كُلابٌ مَنعِجُ الجفارُ ... والحجرُ والزخيخُ والسِتارُ

شَبطةٌ والزَورُ غبيط المَدره ... كذا الغبيطانِ اللوَى وبَثره

جَوٌّ نطاعٍ ذوطُلوحٍ والعنب ... دُرنى الكُبلُ والغديرُ ذو نجب

نخلةُ قَيَفُ الريحِ قرنٌ فلجٌ ... طُوالةٌ وفيى زَرودُ المرَجُ

عُوَيرضُ الحدائقُ النِسارُ ... قُشاوةٌ كُفافةٌ سنجارُ

ذَرَخرَحٌ خَوٌّ خُوَيٌّ داب ... عينُ أَباغٍ فادمٌ إرابُ

عُراعِرُ النَهيُ الربيعُ ملهمٌ ... نجرانُ والعينانِ غَولٌ رَقمٌ

ذوالأثلِ ذاتُ الرَمرَمِ النَشاشُ ... عُنيزةٌ عَقَبةٌ أعشاشُ

وواردات الجنو رحرحانُ والدركُ السوبانُ والسُلاّنُ
شعبٌ خزازى والعُظالى حاطبُ قُراقِرُ الدُثينةُ الذنائبُ
جبلةُ القرعاء والصليبُ ظهرٌ وذات الحرملِ الكثيبُ
أُوارةٌ لِهابةٌ ذو قارِ أفرنُ وجٌ حيرةٌ سفارِ
شعواء والهباءة المرتقبُ قَطَنُ ذو حِسِي الفروق يُحسبُ
بُسيانُ والهريرُ ذو أحثالِ وما عسى نحصي من الرمالِ

واما الحروب المفيدة الناجحة التي شيّدت الامة العربية ورفعت شأنها وقوّت شوكتها ومدّت سلطانها في كل نادٍ ونصبت لها اعلام السلطة على اعظم الممالك واجمل البلاد فهي الحروب التي اجرتها بعد ظهور الاسلام

وافتتاح هذه المغازي هي الحروب التي اجراها صاحب الشريعة الاسلامية لمقاومة اعدائهِ والتغلب على بلاد العرب وهي . اولاً غزوة بدر التي غزا فيها بثلاث مئة رجل من اصحابهِ قافلةً لقريش كان فيها نحو الف رجل وكان رئيسها ابو سفيان فانتصر عليها

ثانيًا وقعة أُحد كانت بعد هذه بسنة واحدة جنّد فيها ابو سفيان المذكور ثلاثة آلاف رجل فكسر المسلمين وشنّع بهم

ثالثًا غزوة الطائف التي قتل فيها نحو عشرة آلاف من اليهود وكانت في سنة ٥ للهجرة (سنة ٦٢٦ م)

رابعًا غزوة خيبر موقعها على الشمال الشرقي من يثرب واهلها يهود ويقال بانهم باقون على ذلك الى الآن غير انهُ لاقرابة بينهم وبين اليهود الساكنين باطراف بلاد العرب ولعلهم من فرقةٍ منهم يقال لها القرائين وهي مبغوضة بغضًا شديدًا من باقي اليهود وهم مستقلون يحكمهم مشائخ كغيرهم من العرب واعداء للقوافل ولهذا تُعيِّر بهم اليهود فيقال لليهودي اذا أُريد وصفهُ بالرذائل خيبري وكانت خيبر هذه مدينة احصن قرى العرب فغزاها صاحب الشريعة الاسلامية

المشار اليهِ سنة ٦ للهجرة (سنة ٦٢٧ م)

خامسًا وقعة مونة وهي في اراضي الشام غلب فيها ثلاثة آلاف من المسلمين ثلاثين الفًا من الروم سنة ٨ للهجرة (٦٢٩ م) غير ان هذه الواقعة لا يجزم بها الافرنج

سادسًا غزوة حنين وهي آخر غزواتهِ تمَّ لهُ فيها الاستيلاء على بلاد العرب باجمعها . واما عام الوفود المشهور في الكتب العربية فهو العام الذي انقاد فيهِ الامراء سنة ٩ للهجرة (سنة ٦٣٠ م) واعظم مَن اسلم منهم باذان وابنة صحار خاتمة ملوك اليمن

وكان يعامل غير المسلمين بالحلم واللطف ويؤمنهم بالعهود والمواثيق التي يمنحها لهم في البلاد التي يفتحها كالصحيفة التي كتبها بين المسلمين وبين اليهود واعطاها الى اليهود بعد ان قتل كعب بن الاشرف والكتاب الذي كتبهُ الى النمر بن تولب ليبقى في يد اهلهِ ولكنّا لم نقف على صورة ما كُتب لهم في تلك الصحف وانّما وقفنا على صورة العهدة التي منحها الى رهبان دير القديسة كاترينا الكائن في جبل سيناء مترجمة باللغة التركية لان الاصل محفوظ الى الآن في الخزينة السلطانية ولا يوجد انطوش من الديورة المتعلقة بهذا الدير في المدن الاسلامية الَّا ويوجد فيهِ صورة باللغة التركية مطبقة من المحاكم الشرعية وعليها اوامر من الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من الملوك والسلاطين للعمل بموجبها وهذه ترجمتها

هذا كتابٌ كتبهُ محمد بن عبد الله بشير ونذير وامين الخلق اجمعين لوديعة الله في خلقهِ كي لا تكون حجة على الله بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا كتبهُ لمن هم على دينهِ عهدًا لاولئك القوم جميعًا الذين هم على دين النصرانية من مشارق الارض الى مغاربها بعيدهم وقريبهم عربيهم وعجميهم معلومهم ومجهولهم هذا كتاب ما عهدهُ اليهم وكل من خالف ما فيهِ من العهد يكون مخالفًا لهُ ولغيرهِ ومتعديًا على ما أُمرَ بهِ وقد افسد عهد الله ولم يصدق ميثاقهُ ولم يخضع لهُ ويكون

قد استهزأ بدينهِ ومستحقًا للعنتهِ ان يكن سلطانًا او كان غيرهُ من المسلمين المؤمنين . فمتى كان راهبٌ او سائحٌ مجتمعًا في جبل او وادٍ او مغارة او معمورٍ او سهل اوكنيسة او معبد فنحن من ورائهم واني لاذبُّ عنهم بنفسي واعواني وانصاري وشعبي هم واموالهم واثوابهم اذ انهم من رعيتي واهل ذمتي وادفع عنهم كل ما يكدرهم من تلك الاثقال التي تعطيها اهل العهد فلا يعطون الاّ ما طابت له نفوسهم من الاشياء خراجًا ولا يكدّرون ولا يكون عليهم جبرٌ ولا اكراه ولا يتغير من كان عليهم قضاةً منهم عن وظيفتهم ولا رهبانهم عن رهبانيتهم ولا اصحاب الخلوات عن الاقامة في صوامعهم ولا يسلب احدٌ سياحهم ولا يهدم بيتًا من بيوت كنائسهم ولا بيتلعهُ ولا يدخل شيءٌ منها الى بيوت المسلمين وكل من اخذ شيئًا من ذلك فيكون قد افسد عهد الله وخالف رسولهُ حقيقةً ولا يطرح خراج على قضاتهم ورهبانهم ولا مَن كان مشغولاً في العبادة منهم ولا شيءٌ آخر غرامة كان او خراجًا او مظلمة اخرى فاني انا احفظ ذمتهم في البحر والبرّ والمشرق والمغرب والشمال والجنوب اينما كانوا وهم في ذمتي وميثاق اماني من جميع الاشياء التي يكرهونها فلا يؤخذ خراجٌ ولا اعشارٌ ممن يتعبد في خلوة في الجبال ولا ممن بزرع في تلك الاراضي المباركة ولا احدٌ يشاركهم في طريقهم ولا يشترك معهم بدعواهُ ان ذلك لغيرهم ويعطى لهم في اوقات المواسم من كل اردب قدحًا لاجل ماكولهم فلا يقال لهم ان هذا كثير ولا يطالبون بخراج ولا يؤخذ من ذوي الخراجات ايضًا ولا من الاغنياء وارباب التجارة زيادة عن اثني عشر درهمًا في السنة عن كل راس ولا يكلّف المسنون منهم زيادة عن الحد المعين ولا يكلفهم احد الى سفر او يلزمهم الى حرب او نقل سلاح انما المسلمون يحاربون عنهم . ويجادلونهم على احسن وجه اتباعًا للآية ولا تجادلوا اهل الكتاب الاّ بالتي هي احسن فيعيشون مرحومين ويمنع عنهم ما يكدرهم او يضيق عليهم من كل داعٍ اينما كانوا او في اي محل نزلوا واذا تزوجت امرأة نصرانية بمسلم فلا يكون ذلك الاّ برضا تلك المرأة ولا تمنع من الذهاب الى كنيستها لاجل الصلاة وتحترم

كنائسهم فلا يمنعون من تعميرها ولا من مرمة دبورتهم ولا يلتزمون بنقل سلاح او حمل حجارة وانما المسلمون يذبون عنهم ولا احد من الامة يخالف هذا العهد الى يوم القيامة وانقضاء الدنيا هذا العهد الذي كتبهُ محمد بن عبد الله الى جميع ملة النصارى اشترط جميع ذلك ليفي بهِ ومعهُ ايضاً الذين اثبتوا اسماءهم وشهادتهم وقد اشهد الصحابة العظام عليهِ في آخرهِ وهم

علي بن ابي طالب . وابو بكر بن قحافة . وعمر بن الخطاب . وعثمان بن عفان . وابو الدرداء . وابو هريرة . وعبد الله بن مسعود . وعباس بن عبد المطلب . والفضل بن عباس . والزبير بن العوّام . وطلحة بن عبد الله . وسعيد بن معاذ . وسعيد بن عبادة . وثابت بن نفيس . وزيد بن ثابت . وابو حنيفة بن عتبة . وهاشم بن عبيد . ومعظم بن قريش . والحارث بن ثابت . وعبد العظيم بن حسن . وعبد الله بن عمرو بن العاص . وعامر بن ياسر

وقد كتب هذا العهد بخطهِ في مسجد النبي صلَّى الله عليهِ وسلم عليّ بن ابي طالب في اليوم الثالث من المحرَّم والسنة الثانية من الهجرة

وكان بعد ان توفي صاحب الشريعة الاسلامية المشار اليهِ حدثت امور كثيرة كادت توقع فشلاً كبيرًا في الاسلام لو لم يتداركها بحكمةٍ بالغة وشجاعة فائقة الامام عبد الله بن ابي قحافة الشهير بابي بكر الصديق الذي اختارهُ اكثر القريشيون وقتئذٍ لمسند الخلافة ومن تلك الامور المهمة ما كان واقعًا بين القريشيين المذكورين من تفرّق الآراء على مسند الخلافة فان بعضهم كان يجد ان الحق فيهِ للامام علي بن ابي طالب. اما الذين اختاروا ابا بكر المشار اليهِ فكانوا يمنعون عليًا منهُ لخوفهم من ان تتم الشوكة لبني هاشم الذين كان هذا الامام سيدهم وهذا التفرق هو الذي نشأ عنهُ اخيرًا ظهور بدع وتشيُّعات في الاسلام لم يعد ممكنًا لاهل السنة استئصالها فكان اول ما شرع بهِ ابو بكر المشار اليهِ هو ان دعى اليهِ ابا عبيدة بن الجراح وعندهُ الامام عمر بن الخطاب وقال لهُ يا ابا عبيدة ما ايمن ناصيتك وابين الخير بين عارضيك ولقد كنت من

رسول الله (صلعم) بالمكان المحوط والمحل المغبوط ولقد قال فيك في يوم مشهور ابو عبيدة امين هذه الامة وطالما اعزّ الله بك الاسلام واصلح فساده على يدك ولم تزل للدين ملجأً وللمؤمنين روحًا ولاهلك ركنًا ولاخوانك رداء وقد اردتك لامرٍ ما بعده خطر مخوف وصلاحه معروف وان لم يندمل جرحه بسبرك ولم تستجب حيّته لرقيتك فقد وقع اليأس واعضل البأس واحتيج بعد ذلك الى ما هو امرّ من ذلك واعلق واعثر منه واغلق والله اسأل اتمامه بك ونظامه على يدك فتأنّ له يا ابا عبيدة وتلطف فيه وانصح لله تعالى ولرسوله (صلعم) ولهذه العصابة غير آلٍ جهدًا ولا قالٍ جدًا والله كالئك وناصرك ومصرك وبه الحول والتوفيق امض الى عليٍّ واخفض جناحك له واغضض من صوتك واعلم انه سلالة ابي طالب ومكانه ممن فقدناه بالامس (صلعم) وقل له

البحر مغرقة والبرُّ مفرقة والجو اكلف[1] والليل اغلف[2] والسماء جلواء[3] والارض صلعاء[4] والصعود متعسر والهبوط متيسر والحق رؤوف عطوف والباطل عنيف[5] مشنوف[6] والضغن[7] رائد[8] البوار والتعريض[9] شجار[10] الفتنة والعُقّة[11] ثقوب العداوة هذا والشيطان متكئ على شماله متحيل بيمينه نافخ حضنيه لاهله ينتظر يوم الشتات والفرقة ويدب بين الامة بالشحناء والعداوة عنادًا لله عزّ وجل ولرسوله (صلعم) ولدينه فهو ثالب يوسوس بالفجور ويدلي[12] بالغرور ويمني اهل الشرور ويوحي الى اوليائه بالباطل دأبًا له مذ كان على عهد ابينا آدم وعادة منه مذ اهان الله عزّ وجل في سالف الدهر لا ينجي[13] منه الاّ الناجذ[14] على الحق وغاضّ الطرف عن الباطل وواطئ

(١) متغير اللون معبس (٢) الغلاف الدشاه (٣) مصحية
(٤) لا نبات فيها (٥) غير مرفق (٦) مزموم من الزم (٧) الحقد
(٨) طالب (٩) ضد التصريح (١٠) نزاع (١١) اسم لعبة للصبيان
(١٢) ثقوب العداوة (١٣) ينعد بمتزل
(١٤) المعين من الاعانة

هامة عدوّ الله وعدوّ الدين بالاشدّ فالاشد والاجد[١] فالاجدّ وسالم اليقين لله عزّ وجلّ في ما يوجب رضاهُ ويجنب سخطهُ ولا بدّ الآن من قول ينفع اذا ضرّ السكوت وخيف غبّهُ[٢] ولقد ارشدك من فاد ضالّتك وصادقك مَن احيى مودتهُ لك بعتابك واراد الخير بك من آثر البقاء معك ما هذا الذي سولت لك نفسك ويدوي به قلبك ويلتوي به عليك رأيك وتتخاوص[٣] دونهُ طرفك وتسري به ظعنك ويترادّ معهُ نَفَسك وتكثر معهُ صعداتك ولا يفيض به لسانك العجمة بعد افصاح أتلبيس بعد ايضاح أدين غير دين الله عزّ وجلّ أخلقٌ غير خُلق القرآن أهدى غير هدى النبي (صلعم) أمثلي يمشي اليهِ الضراء ويدب اليهِ الخمراء[٤] أم مثلك ينقبض عليهِ الفضاء ويكسف في عينهِ الضمراء[٥] فما هذه القعقعة بالشنان. وما هذه الوعوعة باللسان انك جدّ[٦] عارف باستجابتنا لله ولرسوله وخروجنا عن اوطاننا واموالنا واحبتنا هجرةً الى الله تعالى ذكرهُ ونصرةً لنبيهِ (صلعم) في زمان انت فيهِ في كنّ[٧] الصبا وخدر العذراء غافل عما يشيب ويريب لا تعي ما يراد ويشاد ولا تحصل ما يساق ويقاد سوى ما انت جارٍ عليهِ الى غايتك التي اليها وصلت وعندها حطّ رحلك اذ ذاك غير مجهول القدر ولا مجحود[٨] الفضل ونحن في اثناء ذلك نعاني احوالاً تزيل الرواسي ونقاسي اهوالاً تشيب النواصي خائضين غمارها راكبين تيارها نتجرّع صابها[٩] ونسرج عبابها[١٠] ونكرع عُبابها ونحكم اساسها ونبرم امراسها[١١] والعيون تطرف بالحسد والانوف تعطس بالكبر والصدور تستعر بالغيظ والاعناق تتطاول بالفخر والشفاه تشحذ[١٢] بالمكر والارض تميد[١٣]

---

(١) الجد والاجتهاد (٢) عاقبتهُ (٣) الحرص ضيق في آخر العين
(٤) شرّ الناس (٥) والعجم والروم والترك والفرس والهنود
(٦) الحاذق البالغ في التحقيق (٧) استار (٨) منكور
(٩) عصارة شجر مرّ او هو عصارة الصبر (١٠) الخيول السريعة الجري
(١١) المرس من الرجال الشديد العلاج (١٢) تتنازع (١٣) تتحرك

بالخوف ولا ننظر عند المساء صباحًا ولا عند الصباح مساء ولا ندفع في بحر امرٍ الاّ بعد ان نحسو[١] الموت دونهُ ولا نتبلغ الى شيء الاّ بعد رجع الغصص معهُ ولا نقوم منادٍ الاّ بعد اليأس من الحياة عندهُ وقد فادينا في كل ذلك رسول الله (صلعم) بالاب والام والخال والعمّ والنشب[٢] واللبد[٣] والهيّة[٤] والبلّة[٥] والسبد[٦] بطيب نفس وقرور عين ورحب اعطان[٧] وثبات عزائم وصحة عقول وطلاقة اوجه وذلاقة السن هذا الى خفيات اسرار ومكنونات اخبار كنت عنها غافلاً ولولا حداثة سنك لم تكن عن شيء منها ناكلا كيف وفوادك مشهوم[٨] وعودك معجوم[٩] وغيبك محبور[١٠] والقول فيك مشهور والآن قد بلغ الله بك وجعل مرادك بين يديك وعن علمٍ اقول ما تسمع فارتقب زمانك وعفلك بين غيبك وقلّص[١١] اليهِ ارادتك ودع التجسس والتعبس لمن لا يهلع[١٢] لك اذا اختطى ولا يتزحزح عنك اذا تعطّى[١٣] فالامر غضّ[١٤] والنفوس فيها مضّ[١٥] وانك اديم[١٦] هذه الامة فلا تحلم لجاجًا[١٧] وسيفها العضب فلا تنبب اعوجاجًا وماؤها العذب فلا تحيل اجاجًا[١٨] والله لقد سألت رسول الله (صلعم) عن هذا الامر فقال لي يا ابا بكر هو لمن يرغب عنهُ لا لمن يرغب فيهِ ويجاحش[١٩] عليهِ ولمن يتضاءل[٢٠] لهُ لا لمن ينتضخ[٢١] اليهِ يقال هو لك لا لمن

---

(١) نتجرع او نشرب شيئًا بعد شيء
(٢) العقار والمال الاصيل من الناطق والصامت (٣) الكثير
(٤) القطعة من الثوب (٥) طراءة الشباب (٦) القليل
(٧) المبرك والمربض وهو هنا كناية عن الوطن (٨) من الشهامة
(٩) من قولهم عجمت عود فلان اي بلوت امرهُ وخبرت حالهُ
(١٠) من الحبر وهو الحسن والسرور (١١) وجّه او انهض
(١٢) لا يجزع (١٣) سأل العطا (١٤) طري (١٥) لا تحتمل ما يسوءها (١٦) اصل هذه الامة (١٧) التمادي في الخصومة
(١٨) الملح المرّ (١٩) يزاحم (٢٠) يهرع اليهِ او ينقلب لهُ
(٢١) يترشش لهُ

يقول هو لي والله لقد شاورني رسول الله (صلعم) في آل صهر فذكر فتياناً من قريش فقلت له اين انت من عليّ فقال اني لاكره لفاطمة ميعة[١] شبابهِ وحداثة سنهِ فقلت له متى كنفتهُ يدك ورعتهُ عينك حفّت بها البركة واسبغت عليها النعمة مع كلام كثير خطبت بهِ عنك ورغبةً فيك وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء[٢] ولا لوجاء[٣] فقلت ما قلت وانا ارى مكان غيرك واجد رائحة سواك وكنت لك اذ ذاك خيراً منك الآن لي وان كان عرّض بك رسول الله (صلعم) فقد كنى عن غيرك وان كان قال فيك فما سكت عن سواك وان تختلج في نفسك شيءٌ فهلمّ فالحكم مرضٍ والصواب مسموع والحق مطاع . . . ولقد نُقِل رسول الله الى ما عند الله تعالى وهو عن هذه العصابة راضٍ وعليها حدِبٌ[٤] يسرّهُ ما يسرّها ويكيدهُ ما يكيدها ويرضيهِ ما يرضيها ويسخطهُ ما يسخطها أما تعلم انهُ لم يدع احداً من اصحابهِ وخلطائهِ واقاربهِ وشجرائهِ[٥] الاّ انابهُ بفضيلةٍ وخصّهُ بكرمةٍ وافردهُ بجلالة لو اصفقت[٦] الامة عليهِ لكان عندهُ ايالتها[٧] وكفالتها[٨] وكرامتها[٩] وغرازتها[١٠] أتظن انهُ (صلعم) ترك الامة بشراً[١١] سدًا[١٢] بردًا[١٣] عدى[١٤] عباهل[١٥] طلاحى[١٦] مناهل[١٧] مفتونةً بالباطل مغبونة[١٨] عن الحق لا رائد[١٩] ولا حائط ولا ساقي ولا واقي ولا هادي ولا حادي[٢٠] كلاّ والله ما اشتاق الى ربهِ ولا سأله المصير الى رضوانهِ حتى ضرب الصوى[٢١] واوضح الهدى وآمن المهالك والمطاوح[٢٢] وسهل المبارك[٢٣]

---

(١) اول الشباب (٢) قبيحًا (٣) حسنًا (٤) عطوف
(٥) منازعوهُ وحواشيهِ (٦) ارتدت او اطبقت او اجمعت على البيعة له
(٧) سياستها (٨) اعالتها اياها او صيانته لها (٩) تعزيزها
(١٠) قوتهُ بعد الذلّ (١١) منشورة (١٢)
(١٣) فترة او جافية نافرة (١٤) متعادية (١٥) مهملة
(١٦) جائعة او عيّنة (١٧) عطشانة (١٨) قليلة الفطنة والذكاوة
(١٩) مرشد او دليل (٢٠) سائق (٢١) جمع السباخ
(٢٢) المقاذف (٢٣) موضع المبارك والجلوس

والمانح[1] وبعد ان شرخ يافوخ الشرك باذن الله عزّ وجلّ وشرم وجه النفاق لوجه الله تعالى وجدع انف الفتنة في ذات الله تبارك اسمهُ وتفل في وجه الشيطان وصدع بملء فيهِ ويدِهِ امر الله عزّ وجلّ وبعد فهولاء الانصار والمهاجرون عندك ومعك في دارٍ واحدة وبقعةٍ جامعة ان استقاموا لي الك واشاروا عندي بك فانا واضع يدي في يدك وصائر الى رائهم فيك وان تكن الاخرى فادخل في ما دخل فيهِ المسلمون وكن العون على مصالحهم والفاتح لمغالقهم والمرشد لضالهم والرادع لغاويهم[2] فقد امر الله بالتعاون على البرّ واتاهب الى التناصر على الحق ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدورٍ بريئة من الغلّ والقى الله تعالى بقلوبٍ سليمة من الضغن وبعد فالناس عامة فارفق بهم واحنُ عليهم ولن لهم ولا تشق نفسك بنا خاصةً فيهم واترك ناجم[3] الحقد حصيدًا وطائر الشرّ واقعًا وباب الفتنة مغلقًا فلا قال ولا قيل ولا لوم يسمع والله عزّ وجلّ على ما نقول شهيد وبما نحن عليهِ بصير

قال ابو عبيدة فلما تهيأت للنهوض قال سيدي عمر كن لدى الباب هنيهةً فلي معك ذوق من القول فوقفت ولا ادري ما كان بعدي الاَّ انهُ لحقني ووجههُ يبدي تهللاً وقال قل لعلي

الوقار محلةٌ والجاج ملحمة والهوى مقحمة وما منا الاَّ ولهُ مقام معلوم وحق شائع او مقسوم ونباء ظاهر او مكتوم وان اكيس الكيس من منح الشارد تألفهُ وقارب البعيد تلطفهُ ووزن كل امرٍ بميزانهِ ولم يخلط خبرهُ بعيانهِ ولم يجعل فترهُ مكان شبرهِ ولا حيرةٌ في معرفة مشوبة بنكرهِ فلا خيرٌ في علمٍ معقل[4] في جهل اولسنا كبُدة عتر البعير بين الجان والذنب وكل صالٍ[5] فبنارهِ وكل مسيلٍ فالى قرارهِ وما كان سكوت هذه العصابة الى هذه الغاية لعيٍ ولا شيء وكلامها اليوم لفتقٍ او رتق فقد جدع الله بمحمد (صلعم) انف كل ذي

(١) الماشي (٢) الضال عن الرشد (٣) نابت من النبات
(٤) مقيد (٥) من الاصطلاء وهو الاستدفاء بالنار

كبر وقصف ظهر كل جبار وقطع لسان كل كذوب فإذا بعد الحق الاّ الضلال فما هذه الخُنْزُوانة[1] التي في فراس رأسك وما هذا الشجي المعترض في مدارج انفاسك وما هذه الوحرة[2] التي اكلت شراسيفك[3] والقذاة التي اغشت ناظريك وما هذه الدمس[4] والرفس[5] اللذان يدلان على ضيق الباع وخور الطباع[6] وما هذا الذي لبست بسببه جلدة النمر واشتملت عليه بالشحناء والنكر اشد ما استسريت اليها وسرت سيريّ ابن انقد[7] اليها ان العوان لا تُعلَّم الخِمرة[8] وان الحصان لا تكلم خبرة وما احوج الصلعاء[9] الى حال[10] وما افقر الفرعاء[11] الى قال لقد خرج رسول الله (صلعم) والامر مفيد محبس ليس لاحدٍ فيه ملمس ولا مأنس لم يسبر فيك قولا ولم يستنزل فيك قرآناً ولم يجزم في شأنك حكماً ولسنا في كسروية كسرى ولا قيصرية قيصر ولسنا كاخدان[12] فارس وابناء الاصفر قومٌ جعلهم الله خرزاً لسيوفنا وحرزاً لرماحنا ومرمى لطعاننا وتبعاً لسلطاننا بل نحن في نور نبوةٍ وضياء رسالةٍ وثمرة حكمةٍ واثرة[13] رحمةٍ وعنوان نعمةٍ وظل عصمةٍ بين امةٍ مهدية بالحق والصدق مأمونة على الفتق والرتق لها من الله عزّ وجلّ قلبٌ ابيّ وساعد قويّ ويد ناصرة وعين باصرة أتظن ان ابا بكر الصديق وثب على هذا الامر مفتاتاً على هذه الامة خادعاً لها متسلطاً عليها تراه امتلخ[14] احلامها وازاغ ابصارها وحل عقدها واحال عقولها واستل من صدورها حميتها وانتزع من اكبادها عصبتها وانتكث رشاءها[15] وانتصب ماءها واضلها عن هداها وساقها الى رداها وجعل نهارها

( ) الكبرياء او هي ذبابة تطير على انف البعير فيشمخ لها

(٢) وزغة كسام ابرص لا تطأ شيئاً الا سمته (٣) غضاريفك

(٤) كتم الخبر او جعله في ظلمة (٥) الدفع بالرجل

( ) ضعف حمل القوم بعضهم على بعض (٦) القنفذ او الحداة

(٨) مثل عرب (٩) المنحسر شعر مقدم راسها (١٠) ما يزخرف من الحلي ليقوم له مقام الشعر (١١) تامة الشعر (١٢) اصحاب (١٣) رواة

(١٤) انتزع او انتضى (١٥) انقض حبل دلوها

ليلاً ووزنها كيلاً ويقظتها رقاداً سلاحها فساداً وان كان هكذا فان سحره لمبين وان كيده لمتين كلاّ والله بأي خيل ورجل وباي سنان ونصل وباي قوة منه وباي ذخر وعدة وبأي ايدٍ وشدّة وبأي عشيرة واسرة[١] وبأي تدرع وبسطة ولقد اصبح عندك بما وسمته منيع العقبة[٢] رفيع العتبة لا والله لكن سلاعها فولهت[٣] به ونطأ من لها فاصفت به ومال عنها قالت اليه واشمل دونها فاشتملت عليه حبوةً حباهُ الله بها وعافية بلغة الله اياها ونعمة سربلة الله جمالها ويدٌ وجب عليه شكرها وامة نظر الله به لها ولطالما حلّت[٤] فوقه في ايام رسول الله (صلعم) وهو لا يلتفت اليها ولا يرتقب وقتها والله اعلم بخلقه وأرأف بعباده يختار ما كان لهم الخيرة وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوة ومعدن الرسالة وكهف الحكمة ولا يجحد حقك في ما اتاك ربك ولكن . . لك من يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك وقرب اسنى من قربك وسن اعلى من سنك وشيبة اروع[٥] من شيبتك وسادة لها عرفٌ في الجاهلية وفرع في الاسلام والشريعة ومواقف ليس لك فيها من جمل ولا ناقة ولا تذكر فيها في مقدمة ولا ساقة ولا تضرب فيها بذراع ولا اصبع ولا تخرج منها بباذل[٦] ولا هبعٍ[٧] فان عذرت نفسك في ما تهذر به شقشقتك[٨] من صاغيتك[٩] فاعذرنا في ما نسمع منا في لين وسكون ما لا نبعدهُ منه ولا نناضله عليه ولئن خذّيت بهذا نفسك لينتخسنّ[١٠] عليك ما ينسيك الاولى ويلهيك عن الاخرى ولو علم من ظنّ به بما في انفسنا له وعليه لما سكن ولا اتخذتَ وليجة[١١] الى بعض الارب . . . . فاما

---

(١) عشيرة (٢) المرقى الصعب (٣) شغفت

(٤) من قولهم حلّق الطائر اذا ارتفع في طيرانه (٥) افزع او اعجب بالحسن وجهارة المنظر او الشجاعة (٦) عاطي مجيد متكرم (٧) المستعين بعنقه في مشيته تيهاً (٨) شيء كالرئة يخرجهُ البعير من فيه اذا هاج

(٩) الذين يميلون اليك ويأتونك من ذوي القرابة والاصحاب

(١٠) ليحرك (١١) بطانة وخاصة من الرجال ومن يعتمد عليه من غير الاهل

ابو بكر الصديق فلم يزل حبةً في سويداء قلب رسول الله (صلعم) وعلاقة همّهِ وعيبة سرهِ ومثوى حزنهِ ومفزع رأيهِ ومشورتهِ وراحة كفهِ ومرمى طرفهِ وذلك كلهُ بمحضر للصادر والوارد من المهاجرين والانصار وشهرتهُ مغنية عن الدلالة عليهِ ولعمري انك اقرب الى رسول الله (صلعم) قرابةً[1] ولكنهُ اقرب قربة والقرابة لحم ودم والقُربة روح ونفس وهذا فرق قد عرفهُ المؤمنون ولذلك صاروا اجمعين ومهما شككت فيهِ فلا تشكّ ان يد الله مع الجماعة ورضوانهُ لاهل الطاعة فادخل في ما هو خير لك اليوم وانفع لك غدًا والفظ من فيك ما تعلق بلهاتك[2] وانفث سخيمة[3] صدرك عن ثناياك فان يكن في الامل طول وفي الاجل فسحة فستاكلهُ مريئًا[4] او غير مري وستشربهُ هنيئًا او غير هني حين لا رادّ لقولك الاّ من كان منك ولا تابع لك الاّ من كان طامعًا فيك يمضي اهابك[5] ويفري على قادمتك[6] ويدري على هدبك هناك تقرع السنّ من ندم وتجرع الماء ممزوجًا بدم وحينئذٍ تأسى[7] على ما مضى من عمرك ودارج[8] قومك فتودّ لو ان سُقيت الكاس التي ابيتها ورددت للحال التي استبربتها[9] ولله فينا وفيك امر هو بالغهُ وغيب هو مشاهدهُ وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها وهو الولي الحميد الغفور الودود

قال ابو عبيدة فمشيت مزملاً[10] انوجًا[11] كانما اخطو على امّ راسي فرقًا من الفرقة وشفقًا على الامة حتى وصلت الى عليّ في خلاء فابثثتهُ بثي[12] كلهُ وبرئت اليهِ منهُ ورفقت لهُ فلما سمعها ووعاها وسرت في اوصالهِ حميًّا ما قال

---

(١) ما يتقرب بهِ الى الله تعالى من اعمال البر والطاعة
(٢) الطمطلة (٣) الحقد (٤) هنيئًا (٥) الجلد
(٦) مستقبلك الآتي عليك (٧) تحزن (٨) المائت او المنقرض
(٩) وجدتها لذاتك (١٠) ملتفًا بثوبهِ
(١١) خدر يأخذ الابل في اياديها وارجلها ويأخذ الانسان من المشي
(١٢) كشف السر واظهارهُ

حلَّتْ معاَرِطَةً (١) وولت مخلوطةً (٢). حلٌ. لاحليت النفس ادنى لها من قول لعا (٣)

احدى لياليكَ فهيس هيسِ (٤) لا تنعمي الليلة بالتعريسِ (٥)

نعم يا ابا عبيدة أ كل هذا في انفس القوم يحثون دليهِ ويطيعون بهِ . قال ابو عبيدة لاجواب الك عندي انما انا قاض حقّ الدين وراتق فتق الاسلام للمسلمين وسادٌ ثلمة الامة ويعلم الله ذلك من خلجان قلبي ومرارة نفسي

قال عليّ (رضه) والله ما كان قعودي في كسر هذا البيت قصدًا للخلافة ولا انكارًا للمعروف ولا رزية على مسلم بل لما وقذني بهِ رسول الله (صلعم) بفراقهِ واودعني من الحزن بفقدهِ وذاك اني لم اشهد بعدهُ مشهدًا الاّ جدّد لي حزنًا وذكرني شجوًا وان الشوق الى اللحاق بهِ كافٍ عن الطمع في غيرهِ فقد عكفت على عهد الله انظر فيهِ واجمع ما تفرّج (٦) منهُ رجاء ثوابٍ معدّ لمن اخلص عملهُ وسلم لعلم ومشيئة ربهِ على اني ما علمت التظاهر عليّ واقع ولا عن الحق الذي سيق اليّ رافع واذ قد افعم الوادي (٧) بي وحشد النادي من اجلي فلا مرحبًا بما ساء احدًا من المسلمين وفي النفس كلام لولا سابق قول وسالف عهد لشفيت غيظي بخنصري وبنصري (٨) وخضت لجتهُ باخمصي ومفرقي لكني ملجمٌ الى ان القى ربي عزّ وجلَ وعندهُ احتسب ما نزل بي وانا غادٍ الى جماعتكم ومبايع لصاحبكم وصابر على ما ساءني وسرّكم ليقضي الله امرًا كان مفعولاً وكان الله على كل شيء شهيدًا

قال ابو عبيدة فعدت الى ابي بكر (رضى الله عنهما) وقصصت له القول

---

(١) موسومة بالعلاطة وهو حبل يجعل في عنق البعير

(٢) ممزوجة من اجزاء مختلفة (٣) دعاء يقال للعاثر

(٤) كلمة تقال عند امكان الامر والاغراء به (٥) مصدر عرس يريد بذلك وصالها

(٦) تبين او انكشف (٧) مثل عربي

(٨) الاصبع بين الوسطى والخنصر

على عره[1] ولم استنزل شيئاً من حلوه ومرّه وذكرت غدوه الى المسجد

فلما كان الصباح يومئذٍ وافى عليّ فخرق الصفوف الى ابي بكر فبايعه وقال خيراً ووصف جميلاً وجلس زميناً واستأذن للقيام ونهض فشيعه عمر تكرمةً له واستثاراً[3] لما عنده فقال له علي ما قعدت عن صاحبكم كارهاً له ولا اتيته فرقاً منه وما اقول ما اقول تعلّة[2] واني لاعرف مسمى طرفي ومخطأ نعلي ومنزع قوسي وموقع سهمي ولكني قد أرِنتُ[4] على فامي[5] ثقةً بالله في الاباله في الدنيا والآخرة

فقال له عمر كفكف عزبك[6] واستوقف سربك[7] ودع العصا بلحائها[8] والدلاء برشائها[9] فانّا من خلفها ووراءها ان قدحنا أورينا وان متحنا اروينا وان جرحنا ادمينا وان نصونا ابرينا[10] ولقد سمعت اما يلك التي نعوت بها عن صدرٍ أُكل بالجوى[11] ولو شئت قلت على مقالتك ما اذا سمعته ندمت على ما قلته زعمت انك قعدت في كسر بيتك لما وقذك به رسول الله (صلعم) من فقده فراق رسول الله وقذك وحدك ولم يقذ سواك بل مصابه اعظم واعزّ من ذلك ومن حقّ مصابه ان لا يصدع شمل الجماعة بكلمةٍ لاعصام لها ولا يذرسي على اخبارها بما لا يؤمَّن من كيد الشيطان في عقباها هذه العرب حولنا والله لو تداعت علينا في مصبح يومٍ لم نلتقِ في ممسى وزعمت ان الشوق الى اللحاق به كاف عن الطمع في غيره فمن الشوق اليه نصرة دينه وموازرة اولياء الله تعالى ومعاونتهم فيه وزعمت انك عكفت على عهد الله عزّ وجلّ تجمع ما تبدّد منه فمن العكوف على عهده النصيحة لعباده والرأفة على خلقه وبذل ما يصلحون به ويرشدون اليه وزعمت انك لم تعلم ان التظاهر عليك واقع ولا عن الحق الذي

---

(1) عوبه من العز وهو الجرب (2) ابتغاء (3) اي لاشعال النفس واطلاعها (4) نشطت (5) آلة حديد للقلع

(6) بعدك او غيابك وانفرادك (7) طريقك او ماشيتك (8) قشرها

(9) حبلها (10) احكمنا (11) الحزن والحرقة وشدة الوجد من الحزن

سبق اليك دافع فايّ تظاهر وقع عليك واي حق لك ليسهّد دونك قد علمت ما قال الانصار لك بالامس سرًّا وجهرًا وما تقلبت عليهِ بطنًا وظهرًا فهل ذكرتك واشارت بك او وجدنا رضاها عنك هولاء المهاجرون مَن الذي قال بلسانهِ تصلح لهذا الامر او اومى بعينيهِ او همهم في نفسهِ أَ تظن ان الناس قد ضلُّوا من اجلك وعادوا كفّارًا زهدًا فيك وباعوا الله عزَّ وجلَّ ورسوله (صلعم) تحاملاً عليك لا والله لا يقال الك اعتزلت تنتظر الوحي وتتوكف[١] مناجاة الملك لك فذلك امرٌ طواهُ الله عزَّ وجلَّ بعد محمد (صلعم) كأَنَّ الامر معقودًا بانشوطة[٢] او مشدودًا باطراف ليطة[٣] كلاَّ والله ان الغبابة[٤] لمحقة وان الشجرة لمورقة ولا عجماء بعد حمد الله الاَّ وقد فصحت ولا عجفاء[٥] الاَّ وقد سمنت ولا بلهاء الاَّ وقد فطنت ولا شوكة الاَّ وقد نحت[٦] ومن اعجب قولك انك اولا سباق قول وسالف عهد لشفيت غيظي وهل ترك الدين لاحدٍ من اهلهِ ان يشفي غيظهُ بلسانهِ وبدهِ تلك جاهلية قد استأْصل الله شافتها ودفع عن الناس آفتها وقلع جرثومتها وهوّر[٧] ليلها وغوَّر سيلها وادلنا منها الروح والريحان والهدى والبرهان وزعمت انك مُلجم فلعمري ان من اتقى الله عزَّ وجلَّ وآثر رضاهُ وطلب ما عندهُ امسك لسانهُ واطبق فاهُ وجعل سعيهُ لما واراهُ[٨]

قال علي (رضه) والله ما بدلت عزمي واما اريد فلتة ولا اقررت واما اريد حولاً عنهُ وان اخسر الناس صفقةً عند الله من آثر النفاق واحتضن الشقاق وبالله سلوة من كل كارث[٩] وعليهِ التوكل في كل الحوادث ارجع يا ابا حفص نافع[١٠] القلب فسيح البال مبرود الغليل فصيح اللسان فليس وراء

---

(١) تتعرض او تنتظر (٢) عقدة يسهل انحلالها (٣) قشرة القصب
(٤) التأني وترك العجلة (٥) ضعيفة او مهزولة (٦) قشرت واستخلص جيدها من رديئها (٧) كسر ظلامه او خبّب (٨) اخفاهُ
(٩) اشتداد الغم وبلوغ المشقة منه (١٠) ثابت

ما سمعتهُ وقلتهُ الاَّ ما يشدُّ الازر[١] ويحط الوزر[٢] ويضع الاصر[٣] ويجمع الالفة ويرفع الكلفة فيوقع الزلفة[٤] بمعونة الله عزَّ وجلَّ وحسن توفيقهِ

قال ابو عبيدة وانصرف عمر وهذا اصعب ما مرَّ بناصيتي بعد فراق رسول الله (صلعم)

وفي رواية ابي منصور ثم حضر علي (رضه) وقال يا ابا بكران عصابة انت فيها لمعصومة وان امةً انت فيها لمرحومة ولقد اصبحت عزيزًا علينا كريمًا لدينا نخاف الله اذا سخطت ونرجوهُ اذا رضيت ولولا اني شُرِهت[٥] لما اجيب اليهِ ولقد حط الله عن ظهري ما اثقل بهِ كاهلك وما اسعد من نظر الله اليهِ بالكفاءة وانّا اليك لمحتاجون وبفضلك عالمون والى الله عزَّ وجلَّ في جميع الامور راغبون

ثم بعد ان استكنَّ هذا الحال وتمهد لابي بكر المشار اليهِ الامر على هذا المنوال استقر على عرش الخلافة رخي العيش هني البال في سنة ١٢ للهجرة (سنة ٦٣٣ م)

وما كان حاصلاً وقتئذٍ من تلك الامور المهمة التي سبقت الاشارة اليها هو ان جلوس هذا الامام في مسند الخلافة كان في وقتٍ فشا فيهِ الارتداد بين العرب ولذلك كان اول ما شرع بهِ هذا الخليفة منذ تولى الخلافة في السنة التي مرَّ ذكرها هو ملافاة هذا الامر فافتتح اولاً الحروب مع المرتدين وبعد ان ظفر بمسيلمة الكذاب الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة واجتمع كثيرٌ من العرب المرتدة على الاسلام وجه عزائمهم الى ارض فلسطين وبرّ الشام فحوّل بذلك مقاصدهم الحماسية ورغبتهم في التتك الذي الفوهُ في زمن الجاهلية الى غزو من جاورهم في البلاد ونشر الدين الاسلامي في كل ناد لكن لما لم يساعدهُ الاجل على بلوغ الامل توفي بعد ان حكم سنتين وثلاثة شهور تاركًا مشروعاتهِ

---

(١) الظهر (٢) الاثم والثقل (٣) الانعطاف

(٤) التقدم والتقرب (٥) دهشت وتحيرت

الحرية لمن يخلفهُ بعد ان كانت فُتحت الحيرة في ايامهِ بالامان

غير ان ارسالية هذه ذاقت اثمار هذه الغزوة في ايام خليفتهِ عمر بن الخطاب حيث فتحت لها ابواب اورشليم المسماة في الكتب العربية بيت المقدس بالامان وتسلطت على اراضي فلسطين ثم فتحت كذلك اقليم مصر بتمامهِ باربعة آلاف فارس من العرب تحت راية عمرو بن العاص فقال الامام المقريزي ان فتوح مصر كان على يد قافلة من قوافل العرب على انهُ كان يوجد فيها قريب من مئة الف من عسكر الروم ما خلا القبط

وذكر مؤرخو الاسلام انهُ لما افتتح عمر بن الخطاب المشار اليهِ مدينة القدس كتب الى صفرونيوس بطريركها العهدة الشهيرة بالشروط العمرية بها رخَّص للنصارى التمسك بدياناتهم واشترط عليهم ان لا يحدثوا كنيسةً ولا ديرًا ولا قلايةً ولا صومعة راهب ولا يجددوا ما خرب منها ولا ما كان مختطًّا منها في خطط المسلمين وان يوسعوا ابوابها للمارين وابن السبيل وان ينزلوا من مرَّ بهم من المسلمين ثلاث ليالٍ يطعموهم وان لا يأووا في كنائسهم ولا في منازلهم جاسوسًا ولا يكتموهُ عن المسلمين ولا يعلموا اولادهم القرآن ولا يظهروا شرعهم ولا يدعوا اليهِ احدًا ولا يمنعوا احدًا من ذوي قرابتهم عن الدخول في دين الاسلام ان ارادهُ وان يوقروا المسلمين ويقوموا لهم من مجالسهم اذا ارادوا الجلوس وان لا يتشبهوا بالمسلمين في شيءٍ من ملابسهم من قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا يتكلموا بكلامهم ولا يكتنوا بكناهم ولا يركبوا في السروج ولا يتقلدوا بالسيوف ولا يتخذوا شيئًا من السلاح ولا يحملوهُ معهم ولا ينقشوا على خواتمهم بالعربية ولا يبيعوا الخمر وان يجزوا مقادم رؤوسهم وان يلتزموا زيَّهم حيثما كانوا وان يشدوا الزنار[1] على

(١) الزنار خيط غليظ بقدر الاصبع من الابريسم يشد في الوسط وهو غير الكستيج قال بعضهم ان جميع الذميين في بلاد المسلمين كانوا يتزنرون بخيط دقيق وعليهِ قول المسلمين ان الذمي اذا عطس ينقطع زنارهُ اي ان الذمي المالك بحسب مقتضى الذمة يكون زنارهُ خيطًا دقيقًا اذا عطس ينقطع من ضغط احشائهِ

اوساطهم ولا يظهروا صلبانهم او كتبهم في شيء من اسواق المسلمين وطرقهم ولا يضربوا بالنواقيس في كنائسهم الا ضربًا خفيفًا ولا يرفعوا اصواتهم مع موتاهم ولا يظهروا النيران في شيء من طرق المسلمين ولا اسواقهم ولا يجاوروهم بموتاهم ولا يتخذوا من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين ولا يتطلعوا على منازلهم وان خالفوا في شيء فلا ذمة لهم

ثم زاد على هذه الشروط ايضًا بان لا يشتروا شيئًا من سبايا المسلمين ومَن ضرب مسلمًا عمدًا فقد خُلِع عهدهُ

ويروى ان الامام عليًا بن ابي طالب زاد على ذلك استنادًا على حديث نقله عن صاحب الشريعة الاسلامية. فقال لا تساووهم في المجالس ولا تعودوا مرضاهم ولا تشيعوا جنائزهم واضطروهم الى اضيق الطرق وان سبوكم فاضربوهم وان ضربوكم فاقتلوهم

ثم زاد على هذه الشروط عمر بن عبد العزيز بان يركبوا على الاكف عرضًا من شقٍ واحد وكتب الى عماله ان لا يولوا على الاعمال الا اهل القرآن

وزاد على هذا ايضًا اصحاب الشافعي بان تلبس النصارى قلانس يميزونها عن قلانس المسلمين بالحمرة ويكون في رقابهم خاتمٌ من نحاس او رصاص او جرس يدخلون به الحمام وان لا يلبسوا العمائم ولا الطيلسانات واما المرأة فانها تشدُّ الزنار تحت الازار وقيل فوقه (يرى الابشيهي بان الاولى يكون فوقه) ويكون في عنقها خاتمٌ تدخل به الحمام ويكون احد خفيها اسود والاخر ابيض ولا يتصدرون في المجالس ولا يبدأُون بالسلام ويلجأُون الى اضيق الطرق ويمنعون ان يتطاولوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة وقيل لا تجوز وان تملكوا دارًا عاليةً اقروا عليها ويمنعون من اظهار المنكر كالخمر والخنزير والناقوس والجهر بالتوراة والانجيل ويمنعون من المقام في ارض الحجاز وهي مكة والمدينة واليمامة وان امتنعوا عن اداء الجزية انتقض عهدهم وكذلك ان زنى احدٌ بمسلمة او اصابها بنكاح او اوى عينًا للكفار او دل على عورة المسلمين او فتن مسلمًا عن

دينه او قتله او قطع عليه الطريق تنقض ذمته

لكن لما كتب الهندي كتابة في الرد على النصارى حرّر صورة كتاب الامان من عمر لنصارى الشام على الوجه الآتي وهو

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اعطى عبد الله بن عمر امير المؤمنين اهل ايليا (اعني اورشليم وهي القدس) من الامان امانًا لانفسهم وكنائسهم وصلبانهم سقيمها وبرّها وسائر ملتها ان لا تسكن كنائسهم ولا تهدّم ولا ينتقص منهـا ولا من صلبانهم ولا شيءٌ من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احدٌ منهم ولا يسكن ايليا احدٌ من اليهود وعلى اهل ايليا ان يعطوا الجزية كما اعطوا اهل المدائن وعليهم ان يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فهو آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن اقام منهم فهو آمنٌ وعليه مثل ما على اهل ايليا من الجزية ومَن احبَّ من ايليا ان يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعتهم وصليبهم فانهم آمنون على انفسهم وعلى بيعتهم وعلى صليبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان فيها من اهل الارض فمن شاء قعد وعليه مثل ما على اهل ايليا من الجزية ومن شاء رجع الى ارضه وان لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهم من الجزية شهد على ذلك من الصحابة رضي الله عنهم خالد بن الوليد. وعمرو بن العاص . وعبد الرحمن بن عوف. ومعاوية ابن ابي سفيان

ولنرجع الى ما كنا بصدده من الفتوحات فنقول. ثم في زمن خلافة عثمان ابن عفان فتحت بلاد فارس واستولى هذا الخليفة على تاج كسرى الاكبر وبيرق السلطنة

وفي ايام خلافة عبد الملك بن مروان فتحت افريقية واستولى هذا الخليفة على قرطاجنة وغيرها من مدن البحر واسبانيا وافتتح طارق بن زيد الجبل المسمى الآن باسمه وهو جبل طارق

قال بعض المؤلفين انهُ في مدة اثني عشرة سنة بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية تملك العرب ستة وثلاثين الف مدينة وقلعة وخربوا اربعة آلاف كنيسة نصرانية غير الهياكل والمذن وذكر في تواريخ القرون الوسطى ان العرب في ظرف ثمانين سنة افتتحوا من الاقاليم اكثر ما افتتحه الرومانيون بظرف ثمانية قرون هذا ما كان من امر فتوحات العرب البرّية

واما ما كان من امر سطوتهم البحرية فهو كما لا يخفى بان العرب كانوا في اقدم الاعصر الخالية يسافرون في البحر الى بلاد الهند ولا يعرفون البحر المتوسط وكانت سفنهم التي يسافرون بها قوارب مغطاة بالجلد لم يدخل في مادتها شيء من المسامير وربما بلغت مدة السفر ذهابًا وايابًا نحو خمس سنوات ولم يعرفوا السفر في وسط البحر بواسطة الرياح الدورية الاَّ في القرن الاول من التاريخ المسيحي

وحكى ابن خلدون انهُ بعد ان افتتح المسلمون بلاد مصر كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ان صِف لي البحر فكتب اليهِ ان البحر خلقٌ عظيم يركبهُ خلقٌ ضعيف دودٌ على عود فاوعز حينئذٍ بمنع المسلمين من ركوبهِ فلم يركبهُ احدٌ الاَّ مَن افتات على عمر في ركوبهِ ونال من عقابهِ كما فعل بعرفجة بن هرثمة الازدي لما غزا عمان في البحر وعنَّفهُ

ثم لما كان العهد لمعاوية بن ابي سفيان اذن للمسلمين في ركوب البحر والجهاد على اعوادهِ فاستخدموا حينئذٍ من النوتية في حاجاتهم البحرية امما تكررت ممارستهم للبحر وثقافتهِ وشرعوا الى الجهاد فيهِ وانشأوا السفن والشواني[1] الى ان بلغت في ايامهِ الفًا وسبع مئة مشحونة بالرجال والسلاح واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب لهذا البحر وعلى حافتهِ مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس واوعز الخليفة عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة

(١) الشواني جمع شونة وهي مركب الحرب والقتال والعظيم منها يسمى بارجة ايضًا اما الجفاية فهي السفينة الفارغة

بتونس لانشاء الآلات البحرية وكانوا يسمّون صاحب قيادة الاساطيل[1] وهو عبارة عن قبودان باشي في الدولة العلية العثمانية باسم الملند بتفخيم اللام منقولاً من لغة الافرنج

وما زال امر العرب يتقوّى في البحر الى ان سادوا عليهِ فلم تعد تسبح للنصرانية فيهِ الواحٌ وامتلكوا جزائرهُ وافتتحوا كثيرًا من سواحل القارة واتسعت تجارتهم اتساعًا عظيمًا ومكثت دول العرب الغربية بشمال افريقية مدةً طويلة تسلب في بحر الروم مراكب الافرنج وتسبي جميع النصارى الذين فيها وتضرب عليهم الرقّ لتبيعهم فكانت بلاد تونس والجزائر مشحونةً من هولاء الارقاء الذين كانوا يتبدلون عمّا تعودوا عليهِ من العزّ في بلادهم بالذل الذي يهلكهم في هذه البلاد

ودام الحال على هذا المنوال الى ان ادرك الدولة الاموية والعبيدية الوهن والفشل ومدَّ النصارى ايادبهم الى جزائر البحر الشرقية وامتلكوها وملكوا السواحل الشامية اثناء الحروب الصليبية وتراجعت قوتهم الى ما كانت عليهِ من قبل فاخذت حينئذٍ قوة العرب البحرية في الرجوع القهقرى منذ القرن السادس للهجرة (الثالث عشر للميلاد). ثم آل الامر اخيرًا الى انقراض ما بقي من آثارها لما افتتح الفرنسويون بلاد الجزائر سنة ١٢٤٦ للهجرة (سنة ١٨٣٠ م) حيث كان من شروط هذه الدولة التي عندتها سنة ١١٥٢ للهجرة (سنة ١٧٤٠ م) مع الدولة العلية ما معناهُ لدولة فرنسا ان تقابل اهل ولايات المغرب باساءتهم من غير ان يعدّ ذلك من باب الاساءة في حقّ حضرة السلطان وكان دأب اهل الجزائر قطع الطريق البحرية وبذلك انقرضت شوكة العرب من البحر بالكلية

---

(١) الاساطيل جمع اسطول وهي ما يسمونهُ الآن بالعمارة البحرية

المقالة التاسعة

في دول العرب القديمة والجديدة وخططها وامارة المؤمنين وخصوصياتها وترتيب الدواوين وبعض الامور المالية وفيها ثلاثة فصول

الفصل الاول

في دول العرب وخططها

لا يخفى بانه كان للعرب في الزمن المتوغل في القدمية دول وملوك ذهبت اخبارهم واندرست آثارهم ولم يبقَ للمتاخرين الّا معرفة كونهم كانوا موجودين قبل زمن خروج بني اسرائيل من مصر ودخولهم الى ارض كنعان وانما يحصل من بعض المؤلفات العربية اخبار غير كافية عن بعض الدول العربية كانت موجودة الى زمن ظهور الاسلام ومن ذلك

ان صنعاء اليمن كانت في الزمن القديم تسمّى ازال فلما ملكتهـا الحبشة عام الفيل بنوها واحكموها فقالت الاحباش صنعة ومن ثمّ سمّيت صنعاء وكانت هي وحصن تعز الجنوبي من زبيد مقرّ ملوك اليمن في الجاهلية وهم التبابعة

ومنهم الاذواء الذين مرّ ذكرهم في الفصل الرابع من المقالة الخامسة وهذه المملكة هي اعظم اقاليم العرب الاصلية وكانت لعهدٍ قريب متمتعة باستقلالها القديم فانها وان تكن فُتحت بالاسلام في زمن الخلفاء ودخلت بعد ذلك في قبضة الاكراد الايوبية ملوك مصر لكنها خرجت اخيرًا عن طاعة المماليك في سنة ٩٢٣ للهجرة (سنة ١٥١٧م) ثم في سنة ١٠٤٠ للهجرة (سنة ١٦٣٠م) اقرّ السلطان مراد الرابع العثماني السيد حسن بن محمد على هذه المملكة واعترف له بانه ملكها لكن تحت سيادة الدولة العثمانية فتوارثها خلفاؤه من بعده واستقلوا باحكامهم فيها لكن من ذلك الوقت ذهب عنها عدة اقاليم في الجبل والسهل جهة الشمال والشرق وخرجوا عن طاعة ملك اليمن واستقلوا بذواتهم وبقي الحال على هذا المنوال الى ان جرت اسبابٌ اوجبت سلب هذا الاستقلال منها وادخالها في حوزة احكام السلطنة العلية العثمانية منذ بضع سنين

واما الحيرة فكانت مقرّ ملوك العراق اللخميين الذين كان منهم جذيمة الابرش واسمه مالك بن فهم والاصل في لقبه الابرص لبرصٍ كان فيه وانما قيل له الابرش تأدبًا ومنهم من يلقبه بالوضاح من الوضح وهو البرص واصله من الازد وكان اول من ملك قضاعة بالحيرة واول من حذا النعال وادلج[1] من الملوك وصُنع له الشمع . اما اول من اتخذ الحيرة دارًا لملكه فهو ابن اخته عمرو بن عدي وقد مرّ ذكرهُ في عدة مواضع من هذا الكتاب واول مَن تنصّر من ملوكها هو امرؤ القيس بن عمرو المذكور وكان منزل الملوك بالانبار (راجع الفصل الثالث من المقالة الاولى)

واما الشام فكانت مقرّ ملوك غسّان الذين كانوا عمالاً للقياصرة عليها ومنهم الحارث الملك الذي كان يريد ان يقبض على بولس الرسول (٢كو ١١:٣٢و٣٣)

وللعرب في الجاهلية ملوك آخرون كملوك حرهم الثانية وملوك كندة وملوك

(١) الادلاج السير من الليل

الحجاز وغيرهم وليس في الكلام عليهم شيء من موضوع كتابنا هذا

واما دول العرب بعد الاسلام فهي كثيرة منبسطة في بلاد المشرق . اولاً الخلفاء الاربعة ويليهم بنو أُمية ثم بنو العباس وكانت حكومتهم ممتدة في ابتداء الامر على بلاد المغرب ايضاً فلما خرجت تلك البلاد عن طاعتهم ترتب على ذلك وجود دول اخرى فيها على ما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الاول من المقالة الخامسة ومن ذلك الدولة الاموية ببلاد الاندلس ودولة الشيعة وهم العبيديون بافريقية والقيروان ودولة الموحدين باسبانيا ودولة العبيديين المذكورين بمصر ودولة بني حفص بتونس ودولة زناتة بالمغرب كما ان ضعف شوكة الخلفاء بالمشرق ترتب عليهِ وجود دول متعددة لغير العرب لا حاجة لنا في الكلام عليها

والظاهر ان البيعة للملوك وهي العهد على الطاعة كان معروفاً عند الجاهلية وشُرِع في الاسلام ايضاً فكان المبايع يعاهد اميرهُ على ان يسلّم لهُ النظر في امر نفسهِ وامر غيرهِ ولا ينازعهُ في شيء ويطيعهُ في كل امرٍ

ثم جرت العادة في صدر الاسلام عندما يبايعون الامير ويعقدون عهدهُ يجعلون ايديهم في يدهِ تاكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمّي بيعة مصدر باعَ وصارت البيعة مصافحةً بالايادي واول ما وقع ذلك في بيعة صاحب الشريعة الاسلامية ليلة العقبة وعند الشجرة وكان الخلفاء من بعدهِ يستحلفون على العهد ويستوعبون الايمان كلها لذلك وكذلك ولاية العهد التي من شأنها حفظ التراث على الابناء فكان الخليفة يكتب صكّاً بها لمن يوليهِ عهدهُ ويشهد عليهِ بذلك

وكان الردف في الجاهلية خليفةً للتبل والقيل والحرمَز والأصبد والصيدَق والصيدَن هو الملك دون العاهل الذي هو الملك الاعظم والقطن الاتباع والحشمُ والقتو والقتا حسن خدمة الملوك والمقتوون الخدام احدهم مقتوى ومقتى ومقتوين اما الحباء فهو جليس الملك وخاصتهُ ج أحباء

والردف في الجاهلية كالوزارة في الاسلام وهي نوعان احدهما ان يردفهُ الملك على فرسهِ والثاني ان يجلسهُ الملك عن يمينهِ وكان اذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس واذا غزى الملك جلس الردف مكانهُ وكان خليفتهُ على الناس حتى يرجع فاذا عادت كتيبة الملك اخذ الردف منها المرباع وهو ربع المغنم

واما الوزارة في الاسلام فهي امُّ الخطط السلطانية والرتب الملكية لان اسمها يدل على مطلق الاعانة فهو مأخوذ اما من الموازرة وهي المعاونة او من الوزر وهو الثقل وكانوا عند ما يقلدون الوزير يخلعون عليهِ خلعها وهي الجبة والعمامة

والوزارة انواع وهي اما ان تكون في امور حماية الملكة واسبابها من النظر الى الجند والسلاح والحروب وسائر امور الحماية والمطالبة وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في دول الاسلام القديمة بالمشرق والمغرب واليهِ يدفع ختم السلطان ليختم بهِ السجلات. واما ان تكون في المخاطبات لمن بعد في الزمان والمكان وتنفيذ الاوامر في من هو محجوبٌ عنهُ وهذا هو الكاتب. واما ان تكون في جباية المال وانفاقهِ وضبطهِ وهذا هو صاحب المال والجباية . واما ان تكون في مدافعة الناس وذوي الحاجات عن الملوك لئلاَّ يزدحموا عليهم فيشغلوهم عن فهمهم وهذا هو الحاجب وكان اول من وضعهُ على بابهِ معاوية بن ابي سفيان فآل امر هذه الوظيفة اخيرًا الى الحجر على الملوك عند هرَم دولتهم وضعف شوكتهم

واما قيادة الثغور وولاية الجبايات المخصوصة والنظر في حسبة الطعام والسكة فان اصحابها تبعًا لاصحاب النظر العام المارّ ذكرهم

وكانت العرب تسمّي ابا بكر وزير صاحب الشريعة الاسلامية قياسًا على ما عرفوهُ في دول قيصر وكسرى والنجاشي لان هذه الرتب لم تكن موجودة عند الخلفاء في صدر الاسلام وانما حدثت على التدريج

وعندهم ان رتبة السيف تستغني عن معاناة العلم واما المال والكتابة

فيضطران الى ذلك للبلاغة في الكتابة والحسبان في المال فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة ويقلدونه

وكانت ديوان الرسائل غير ضرورية في كثير من الدول لاستغنائهم عنها رأساً كما في الدول العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكّد الحاجة اليها في الدول الاسلامية وكان كاتب الامير لا بدّ ان يكون من اهل نسبه ومن عظماء قبيلته كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام والعراق لعظم امانتهم وخلوص اسرارهم

ومن نصائح امير المسلمين الملك موسى بن يوسف ابي حمو بن زيان العبد الوادي لولي عهده في كتابه الذي سماهُ واسطة السلوك في سياسة الملوك ما نصّهُ . واما كتّابك فتختار منهم لسرك كاتباً من وجوه لديك موفياً لغرضك ومقصدك فصيح اللسان جري الجنان بليغ البيان عارفاً بالآداب سالكاً طريق الصواب بارع الخط حسن الضبط عالماً بالحل والربط كاتماً للاسرار متحلياً بحلى الوقار ذا عقلٍ وافر وفهمٍ حاضر وذهنٍ ثاقب وفكرٍ صائب حلو الشمائل موصوفاً بالفضائل جميل الهيئة واللباس والموالاة للناس لان الكاتب عنوان المملكة وبهِ تتبين الامور المشتبكة ومن كتّابك يُستدَلُّ على عقلك ويُعترَف بمعرفتك وفضلك . فهذا اقلُّ ما يُشترَط للكاتب ويكون في حقهِ وحقك من الواجب فانهُ اذا كان الكاتب بهذه المثابة صلح ان يكون اهلاً للكتابة وان اخلَّ بهذه الشروط كان جديراً بالتأخر والسقوط لاخلالهِ بكتابتهِ وعدم اصابتهِ وكان ذلك وصماً في حقّ مخدومهِ ودليلاً على جهلهِ في تقديمهِ

ثم لما فسد اللسان العربي وصار صناعةً اختص بهِ من يحسنهُ فكتب عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الكاتب مولى ابي العلاء بن وهب العامري الذي يُضرَب بهِ المثل في الكتابة والبلاغة اذ انهُ اوّل من نهج الكتابة وبسط باع البلاغة وشنف الرسائل وقرّظها ولخص فصولها وخلّصها واستحق لفظ الكاتب عليهِ لفصلهِ رسالةً الى الكتّاب استوعب فيهـا الشروط المعتبرة لاصحاب رتبة

القلم وهي طويلة الاّ انها مفيدة فلا بأس من ايرادها هنا وهي بعد البسملة[1]

اما بعدُ حفظكم الله يا اهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وارشدكم فان الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامهُ عليهم اجمعين ومن بعد الملوك المكرمين اصنافًا وان كانوا في الحقيقة سواء وصرفهم في صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب رزقهم فجعلكم معشر الكتّاب في اشرف الجهات اهل الادب والمروءات والعلم والرزانة بكم ينتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلدانهم لا يستغني الملك عنكم ولا يوجد كافٍ الاّ منكم فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسنتهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها يبطشون فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما اضفاهُ من النعمة عليكم وليس احدٌ من اهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ايها الكتّاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسهِ ويحتاج منهُ صاحبهُ الذي يثق بهِ في مهمات اموره ان يكون حليمًا في موضع الحلم فهيمًا في موضع الحكم مقدامًا في موضع الاقدام محجامًا في موضع الاحجام مؤثرًا للعفاف والعدل والانصاف كتومًا للاسرار وفيًّا عند الشدائد عالمًا بما يأتي من النوازل يضع الامور مواضعها والطوارق في اماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمهُ وان لم يحكمهُ اخذ منهُ بمقدار ما يكتفي بهِ يعرف بغريزة عقلهِ وحسن ادبهِ وفضل تجربتهِ ما يردُ عليهِ قبل ورودهِ وعاقبة ما يصدر عنهُ

---

(1) البسملة منتطمة من بسم الله الرحمن الرحيم والهيللة من لا اله الاّ الله والحمدلة من الحمد لله ربّ العالمين والحوقلة من لا حول ولا قوة الاّ بالله العلي العظيم والحيعلة من قول المؤذن وهو الداعي للصلاة حيَّ على الفلاح والصلعم من صلى الله عليهِ وسلم ورضه من رضي الله عنهُ وعم من عليهِ السلام والخ من الى آخره والر من الراوي والش من الشرح وقس عليهِ

قبل صدوره فيعدّ لكل امرٍ عدته وعتاده ويهيّئ لكل وجهٍ هيئته وعادته فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأوا بكتاب الله عزّ وجلّ والفرائض. ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها وسفساف الامور ومحاقرها فانها مذلّة للرقاب مفسدة للكتّاب ونزّهوا صناعتكم عن الدناءة واربأوا بانفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير احنة وتحابّوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم وتواصوا عليها بالذي هو اليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوهُ حتى يرجع الى حاله ويثوب الى امره وان أقعد احدًا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروهُ وعظموهُ وشاوروهُ واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده واخيه فان عرضت في الشغل محمدةٌ فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغيير الحال فان العيب اليكم معشر الكتّاب أسرع منه الى القراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبهُ من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه ان يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير امره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعًا له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه. فاستشعروا ذلك وفقكم الله من انفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء والضراء فنعمت الشيمة هذه من وُسِمَ بها من اهل هذه الصناعة الشريفة واذا وُلّي الرجل منكم او صيّر اليه من امر خلق الله وعياله امرٌ فليراقب الله عزّ وجلّ وليؤثر طاعته

وليكن على الضعيف رفيقًا وللمظلوم منصفًا فان الخلق عيال الله واحبهم اليه ارفقهم بعباله ثم ليكن بالعدل حاكمًا وللاشراف مكرمًا وللغنى موفرًا وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا وعن اذاهم متخففًا وليكن في مجلسه متواضعًا وفي سجلات خراجه واستقضاء حقوقه رفيقًا واذا صحب احدكم رجلاً فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بالطف حيلة واجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرًا بسياستها التمس معرفة اخلاقها فان كانت رموحًا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبًا اتقاها من بين يديها وان خاف منها شرودًا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونًا قمع برفقه هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرًا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم والكاتب لفضل ادبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوله من الناس ويناظره ويفهم عنه او يخاف سطوته اولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم اوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابًا ولا تعرف صوابًا ولا تفهم خطابًا الاّ بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا ما امكنكم فيه من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة ولا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان اهلها ولاسيما الكتّاب وارباب الآداب وللامور اشباه بعضها دليلٌ على بعض فاستدلوا على مؤتنف اعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها محجة واصدقها حجة واحمدها

عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة مهلكة وهو الوصف الشاغل لصاحبهِ عن انفاذ علمهِ ورويتهِ فليقصد الرجل منكم في مجلسهِ قصد الكافي من منطقهِ واوجز في ابتدائهِ وجوابهِ وليأخذ بمجامع حججهِ فان ذلك مصلحة لفعلهِ ومدفعة للشاغل عن اكثارهِ وليضرع الى الله في صلة توفيقهِ وامدادهِ بتسديدهِ مخافة وقوعهِ في الغلط المضرّ ببدنهِ وعقلهِ وآدابهِ فانهُ ان ظنّ منكم ظانٌّ او قال قائل ان الذي برز من جميل صنعتهِ وقوة حركتهِ انما هو بفضل حيلتهِ وحسن تدبيرهِ فقد تعرّض بحسن ظنهِ او مقالتهِ الى ان يكلهُ الله عزّ وجلّ الى نفسهِ فيصير منها الى غير كافٍ وذلك على من تأملها غير خافٍ ولا يقول احدٌ منكم انهُ ابصر بالامور واحمل لعبء التدبير من مرافقهِ في صناعتهِ ومصاحبهِ في خدمتهِ فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعجب وراء ظهرهِ ورأى ان اصحابهُ أعقل منهُ واجمل في طريقتهِ وعلى كل واحدٍ من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جلّ ثناؤهُ من غير اغترار برأيهِ ولا تزكية لنفسهِ ولا يكاثر على اخيهِ او نظيرهِ وصاحبهِ وعشيرهِ وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمتهِ والتذلل لعزّتهِ والتحدث بنعمتهِ (وانا اقول) في كتابي هذا ما سبق بهِ المثل من تلزمهُ النصيحة يلزمهُ العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامهِ بعد الذي فيهِ من ذكر الله عزّ وجلّ فلذلك جعلتهُ اخرهُ وتممتهُ بهِ تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى بهِ من سبق علمهُ باسعادهِ وارشادهِ فان ذلك اليهِ وبيدهِ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتهِ انتهى . ولنرجع الى ما كنا فيهِ فنقول

وكانت رتبة الكاتب رفيعةً عند بني العباس فان جعفر بن يحيى البرمكي مع كونهِ وزير الدولة هو الذي كان يوقّع في القصص بين يدي الخليفة هرون الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت توقيعاتهُ يتنافس البلغاء في تحصيلها للوقوف على ما فيها من اساليب البلاغة وفنونها . قيل انها كانت تُباع كل قصة منها بدينار . وكان الكاتب هو الذي يصدّر السجلات مطلقةً ويكتب في آخرها اسمهُ ويختم عليها بخاتم السلطان وهو طابعٌ منقوش عليهِ اسم السلطان او

اسارته يُغمَّس في طين احمر مذاب بالماء ويسمّى طين الختم ويطبع بهِ على طرف السجلّ عند طيهِ والتصاقهِ ثم صارت السجلات بعدهم تصدر بامر السلطان ويضع الكاتب فيها علامتهُ اولاً او آخراً على حسب الاختيار وصارت رتبة الكاتب ترتفع تارةً وتنحط اخرى بارتفاع مكانة غير صاحبها عند السلطان من اهل المراتب في الدول الاسلامية الكائنة في بلاد المشرق والمغرب ثم أُستعملت العلامة فيما بعد عند اصحاب المراتب في هذه الدول ترفعاً وتعظيماً عن ان يكتب الاسم

وكانت عادة الملوك والوزراء والامراء من العرب اتخاذ الندماء والمصاحبين للمسامرة كما في سائر الدول ويكونون من الشعراء واهل الادب فينادمون سادتهم ويشرحون صدورهم فاذا اراد الامير انفضاض المجلس جعل لذلك اشارةً يعرفها جلساؤهُ كما لو طلب منديلاً واتكأ على وسادة او غير ذلك من الاشارات فينصرفون

وكان اذا قال الامير لاحدٍ عزمت عليك ان تقول كذا وكذا او تحدثنا بما تعلم من الشيء الفلاني لزم ذلك الرجل ان يقول او يحكي ما امرهُ بهِ لانهم يرون لعزمة الامير حقاً ويراد بعزمت عليك اقسمت عليك وعزم على الامر اراد فعلهُ او جدَّ على فعلهِ

الفصل الثاني

في امارة المؤمنين وخصوصياتها

ذكرنا في الفصل الرابع من المقالة الخامسة ان العرب في الجاهلية كانت نسمّي صاحب الشريعة الاسلامية امير مكة وامير الحجاز ثم بعد ان توفي وتولى الخلافة بعدهُ ابو بكر الصديق تلقّب بالخليفة لكن لما تولى الخلافة بعدهُ عمر تلقب بامير المؤمنين وكان السبب في ذلك هو انهم لما كانوا يلقبون ابا بكر بالخليفة كان هو اول خليفة لصاحب الشريعة المشار اليهِ ورأوا انهُ يلزمهم ان يسمّوا عمر خليفة الخليفة وهكذا كل من جاء بعدهُ يقال خليفة خليفة خليفة الخ . فكره عمر ذلك فقال لهُ المغيرة نحن المؤمنون وانت اميرنا فانت امير المؤمنين ومن ثمَّ صار ذلك لقبًا لكلّ من تولى الخلافة بعدهُ واتخذ مع تمادي الزمان معنى ملك الملوك لانهُ في زمن الخلفاء العباسيين صارت ولاة الاطراف وعمالها يسمّون ملوكًا وسلاطين(١) ايضًا

وكان من خصوصيات الخلفاء الذين من وظيفتهم حفظ الدين وسياسة الدنيا وظيفة القضاء فان من خطط الخلافة الدينية الامامة في الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد واعطاء الامارة والوزارة والحرب وجباية الخراج وملاحظة امور المساجد العظيمة العامّة وضرب السكة للنظر في النقود والتعامل بها بين

---

(١) قال الزوزني السلطان مأخوذ من السليط وهو الزيت ودهن السمسم سمي بذلك لاضاءتها السراج ولذلك سمي السلطان سلطانًا لوضوح امرهِ وفي الكليات كل سلطان في القرآن فهو حجة (اي بمعنى الحجة)

الناس وحفظها مما يداخلها من الغش والنقص فيضع عليها السلطان علامته للاستجادة والخلوص والحسبة وهي البحث عن المنكرات وتعزير وتأديب من يرتكبها والمنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين واهل السفن من الاكثار في الحمل والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين وامضاء الحكم في الدعاوي التي تتعلق بالغش والتدليس في المعايش وفي المكاييل والموازين ونقابة الاسلاف المعروفة بنقابة الاشراف التي يتوصل بها الى الخلافة والحق في بيت المال (راجع الفصل الرابع من المقالة الثانية) لكن قد استناب الخلفاء اخيرًا الوزراء في هذه الخطط المتعلقة بوظيفتهم

وكان الخليفة عمر بن الخطاب اول من استناب في القضاء بعد ان كان الخليفة يباشرهُ بنفسهِ وكتب لمن فوضهُ فيهِ الكتاب المشهور الذي عليهِ تدور احكام القضاة ومن جملة ما فيهِ البيّنة على من ادّعى واليمين على من انكر والصلح جائزٌ بين المسلمين الاّ صلحًا احلّ حرامًا او حرّم حلالاً وان يراجع نفسهُ في ما يقضي ويرجع الى الحق وان المسلمين عدول بعضهم على بعض الاّ مَن كان مجلودًا في حدٍّ او مجربًا عليهِ شهادة زور او ظنينًا في نسبٍ او ولاء

وكان منصب القضاء وقتئذٍ مختصًّا بالفصل بين الخصوم فقط ثم دُفع بعد ذلك للقضاة امور اخرى على التدريج وهي استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في اموال المحجوز عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السفه وفي وصايا المسلمين واوقافهم وتزويج الايامى عند فقد الاولياء والنظر في مصالح الطرقات والابنية وتصفح الشهود والامناء والنواب وغير ذلك وربما كان الخلفاء يجعلون للقاضي قيادة الجهاد في عسكر الطوائف وكان من وظيفة القاضي ان يفرض العقوبات الزاجرة قبل ثبوت الجرائم ويقيم الحدود[1]

(١) الحدود جمع حدّ وهو عقوبة مقدرة تجب حقًّا لله تعالى سميت به لانها تمنع من المعاودة الى الذنب

الثابتة في محالها ويحكم في العقود والقصاص ويقيم التعزير[٢] والتأديب في حق من لم ينتهِ عن الجريمة وكان ذلك كلهُ من خصوصيات الخلفاء على ما ذكرنا

وكانت الاحكام في صدر الاسلام تجري على مقتضى ما في معرفة الحكّام بالكتاب والسنة ورواية الحديث فكانت القضية اذا نزلت بابي بكر اول الخلفاء قضى فيها بما عندهُ من ذلك او سأل مَن بحضرتهِ من الصحابة الذين كانوا يفتون في زمن صاحب الشريعة الاسلامية وإلاَّ اجتهد في الحكم

والذين كانوا يفتون في زمن صاحب الشريعة المشار اليهِ هم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ ابن جبل وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت وابو الدرداء وابو موسى الاشعري وسلمان الفارسي

وكان بعد ان توفي ابو بكر وتولى الخلافة عمر بن الخطاب زاد تفرّق الصحابة في ما افتتحوهُ من البلاد فكانت الحكومة تنزل بالمدينة او بغيرها من الامصار فان كان عند احد الصحابة الحاضرين لها في ذلك اثرٌ حكم بهِ وإلاَّ اجتهد امير تلك البلدة فيها مع انهُ يكون في تلك القضية حكم موجود عند صاحب آخر لم يكن حاضراً وقتئذٍ اخذهُ عن صاحب الشريعة في وقت لم يكن حاضراً فيهِ غيرهُ من الصحابة ومن ثمَّ انتدب اقوامٌ لجمع الحديث وتقييدهِ فكان اول من دوَّنهُ محمد بن شهاب الزهري وكان اول من صنف فيهِ وبوّب سعيد بن عروبة والربيع بن صبيح بالبصرة ومعمر بن راشد باليمن وابن جريج بمكة ثم سفيان الثوري بالكوفة وحماد بن سلمة بالبصرة والوليد بن مسلم بالشام وجرير

(٢) التعزير تأديب دون الحدّ والفرق بينهُ وبين الحدّ ان الحدّ مقدَّر والتعزير مفوَّض الى راي الامام وان الحدّ يدرأ بالشبهات والتعزير يجب مع الشبهات وان الحد لا يجب على الصبي والتعزير يشرع عليهِ وان الحد يطلق على الذمي اذا كان مقدراً والتعزير لا يطلق عليهِ وانما يسمى عقوبةً

ابن عبد الحميد بالريّ وعبد الله بن المبارك بمرو وخراسان وهشيم بن بشير بواسط وتفرّد بالكوفة ابو بكر بن ابي شيبة بتكثير الابواب وجودة التصنيف وحسن التأليف فوصلت الاحاديث من البلاد البعيدة الى من لم تكن عنده وقامت الحجة على من بلغهُ شيءٌ منها

وكان ابو جعفر المنصور اول الخلفاء العباسيين اول من تعلم الفقه وغيرهُ من العلم واشار على الامام مالك بن ابي عامر بن عامر بن الحرث الاصبحي بتاليف كتاب في الفقه وقال لهُ يا ابا عبد الله لم يبقَ على وجه الارض أعلم مني ومنك واني قد اشغلتني الخلافة فضع انت للناس كتابًا ينتفعون فيهِ تجنّب فيهِ رخص ابن عباس وشدائد ابي عمرو ووطئهُ للناس توطئةً . قال مالك لقد علمني التصنيف يومئذٍ واذاك سمى كتابهُ الموطأ وبعد ان اشتهر مذهبهُ توفي في ايام خلافة هرون الرشيد سنة ١٧٩ للهجرة (سنة ٧٩٥ م)

ثم في ايام هذا الخليفة نفسهِ ظهر الامام ابو حنيفة النعمان بن ثابت بن النعمان بن المرزبان الفارسي فوضع مذهبهُ في الفقه متقدمًا على غيرهِ من المذاهب قال الامام الشافعي الآتي ذكرهُ الناس عيال على هولاء الخمسة . من اراد ان يتجر في الفقه فهو عيالٌ على ابي حنيفة ومن اراد ان يتجر في الشعر فهو عيالٌ على زهير بن ابي سلمة ومن اراد ان يتجر في المغازي فهو عيالٌ على محمد بن اسحاق ومن اراد ان يتجر في النحو فهو عيالٌ على الكسائي ومن اراد ان يتجر في التفسير فهو عيالٌ على مقاتل بن سليمان انتهى كلامهُ . ويحكى عن الامام ابي حنيفة المشار اليهِ انهُ توفي في حبس هذا الخليفة لكونهِ لم يقبل منصب القضاء الذي كان يدعوهُ اليهِ وكان يجلدهُ كل يوم عشر جلدات وقيل انهُ توفي مسمومًا في سنة ١٥٠ للهجرة (سنة ٧٦٧ م)

ثم ظهر بعدهُ مذهب الامام محمد بن ادريس بن العباس بن عثمان بن شافع القرشي المعروف بالشافعي المتوفي في خلافة المأمون العباسي سنة ٢٠٤ للهجرة (سنة ٨١٩ م)

واخيرًا وضع الامام احمد بن حنبل بن هلال بن اسد الشيباني مذهبهُ المشهور بالحنبلي توفي في عصر خلافة المتوكل على الله العباسي سنة ٢٤١ للهجرة (سنة ٨٥٥ م)

فهذه هي المذاهب الاربعة المعتبرة في الفقه ولكلٍّ منها جماعة تنقاد اليوم في البلاد الاسلامية السنّية وعُملت لاجلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر البلاد وعُودي من تمذهب بغيرها وأُنكر عليهِ ولم يولَّ قاضٍ ولا قبلت شهادة احدٍ ولا قدم للخطابة والامامة والتدريس احدٌ ما لم يكن مقلدًا لاحدى هذه المذاهب التي قد افرغ أئمتها ومقلدوهم من العلماء كنانة الجهد في علم الفقه على ثلاثة اطراف . اولها العبادات وهي ما حقٌّ لله على الناس . والثاني البيوع وهي ما حقٌّ للناس على الناس في المعاملات . والثالث الفرائض وهي ما حقٌّ للاحياء من الاموات

ولما تولى منصب القضاء في ايام الخليفة هرون الرشيد ابو يوسف يعقوب ابن ابرهيم بن حبيب الانصاري صاحب الامام ابي حنيفة وكان فيها عالمًا دُعي قاضي القضاة فكان هو اوّل من سمّي بذلك وهو الذي غير لباس العلماء الى هذه الهيئة التي هم عليها الآن وكان ملبوس الناس قبلهُ شيئًا واحدًا لا يتميز احد عن احد بلباسهِ توفي سنة ١٨٣ للهجرة (٧٩٨ م)

الفصل الثالث

في تدوين الدواوين وبعض الترتيبات المالية

حكى ابن خلدون المغربي عن عظم مقدار الغنائم التي كانت تغنمها فرسان العرب في فتوحاتها بعد ظهور الاسلام فقال كان الفارس الواحد يُقسم لهُ في بعض الغزوات ثلاثون الفًا من الذهب او نحوها وكان من عادتهم ان يرسلوا الى الخلفاء الخُمس من الغنائم ليصرفوهُ في مصالحهم العامة اه. وكان ما يردُ الى الخلفاء من هذه الغنائم وغيرها توزعهُ الخلفاء المشار اليهم في مبادئ الاسلام على اهل البيت والصحابة والمهاجرين والانصار وكل من اشترك معهم في الغزو والجهاد ولا يخصّصون لانفسهم منهُ الاّ ما قلّ وربما كان دون غيرهم لانهم ذكروا ان امير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يرقّع ثوبهُ بالجلد ثم لما قدم ابو هريرة على هذا الخليفة بمالٍ من البحرين سألهُ عمر ماذا جئت بهِ فقال خمس مئة الف درهم فاستكثرهُ عمر وقال أتدري ما تقول قال نعم مئة الف خمس مرات فصعد عمر المنبر وقال ايها الناس قد جاءنا مالٌ كثير ان شئتم كلنا لكم كيلاً وان شئتم عددنا لكم عدًّا. ثم لما تعب في قسمتهِ استحضر الهرمزان الفارسيّ ليسألهُ عن طريقة يستوضحون بها زمن كتاباتهم وما يضبطون بهِ حساباتهم واوقاتهم فقال لهُ الهرمزان ان لنا حسابًا نسميهِ ماه روز معناهُ حساب الشهور والايام فعرّبوا كلمتهُ هذه وقالوا مورّخ ثم جعلوهُ اسمًا للتاريخ واستعملوهُ وطلبوا وقتًا يجعلونهُ اولاً لتاريخ دولتهم فوقع اتفاقهم على السنة التي هجر بها صاحب الشريعة الاسلامية مكة وسكن المدينة

ثم بعد ذلك اتخذ الخليفة المشار اليهِ باشارة الهرمزان المذكور بيت المال

فكان بذلك هو اول من دوّن الدواوين ورتب ديوان الجيش عملاً بما كان في بلاد فارس وعيّن له كتّابًا من القريشيين

والديوان لفظٌ فارسيٌ مأخوذٌ من قولهم ديوانه اي مجنون وسبب تسميته على ما ذكروا ان احد ملوك فارس نظر يومًا الى كتّاب ديوانه وهم يحسبون على انفسهم كأنهم يحادثون فقال ديوانه اي مجانين فسمّي موضعهم بذلك وحُذِفت الهاء تخفيفًا فقيل ديوان وقيل انهُ اسم الشياطين بالفارسية فان الواحد منهم يسمّونهُ ديو وزيادة الالف والنون للجمع سمّي الكتّاب بذلك لسرعة نفوذهم في فهم الامور وجمعهم لما شذّ وتفرّق

واول مَن اتخذ ديوان الختم وحزم الكتب معاوية بن ابي سفيان ولم تكن تحزم وسبب ذلك انهُ كان أمر لعمر بن الزبير عند زيادٍ بالكوفة بمئة الف ففتح الكتاب وصيّر المئة مئتين فلما دفع زياد حسابهُ انكرها معاوية وطلب بها عمر وحبسهُ واتخذ عند ذلك ديوانًا لحزم الكتب وختمها

ثم وضع هذا الخليفة ايضًا البريد في البلاد الاسلامية وكان ذلك في سنة ٤٣ للهجرة (سنة ٦٦٣م) وخالف المقريزي في هذا فقال ان الذي وضع البريد هو محمد المهدي العباسيّ وانهُ جعلهُ بين مكة والمدينة واليمن

واما كتابة ديوان التصريف يعني الخراج في دمشق فكانت باللغة الرومية ودامت على ذلك في عهد الخلفاء الامويين الى ان استولى عبد الملك بن مروان فنقلها لهُ الى العربية ابو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل وعزل عنها كتّاب الروم وكان الذي يكتب على هذا الديوان في ايام معاوية المشار اليهِ رجلاً يقال لهُ سرجون بن منصور النصراني ثم كتب بعدهُ ابنهُ منصور

وكانت كتابة ديوان العراق بالفارسية وكان الحجاج بن يوسف الثقفي عاملاً لمعاوية المشار اليهِ على العراق المذكور فرغم كتّاب الفرس على نقلها الى العربية

ثم لما تولى الخلافة عبد الله المأمون العباسيّ احدث دواوين الانشاء

والاعمال في بغداد فبنى حجرةً واسعة في داره وجعل فيها محلاً للنسخ ومجلساً للمعاملة ومجلساً للمحاسبة ومجلساً للانشاء ومجلساً للخزان وعيّن لكل مجلس من هذه المجالس كاتبين مشتركين وكان كثيرًا ما يخرج الى هذه المجالس على حين غفلة فيتأمل ما يشكرهُ او ينكرهُ فكانت العمال دائمًا على حذر

وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام ان يجعل ما يكتب فيهِ صحفاً مدرّجةً فلما انقضت ايام بني أُمية وقام بالامر عبد الله السفاح العباسي استوزر خالدًا بن برمك بعد ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل هذا الوزير الدفاتر في الدواوين من الرقوق المتخذة من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى ان تصرّف بالوزارة حفيدهُ جعفر بن يحيى البرمكي في ايام الرشيد فاتخذ الكاغد وتداولهُ الناس من بعدهِ وقال ابن خلدون المغربي ان الذي اشار بصناعة الكاغد هو الفضل بن يحيى اخو جعفر المار ذكرهُ

ويروى ان العرب في الزمن المتوغل في القدم كانوا يستعملون في الخط حروف الهجاء القديمة الشبيهة بالمسامير في الشكل المسماة عند علماء التفتيش في آثار القدماء حروفًا برسپوليسية اي فارسية قديمة ثم تغيرت هذه الحروف بالحروف الحميرية وهي الخط المسند الذي كان لحِمْير يكتبون كل حروفهِ منفصلة عن بعضها (راجع خطة العرب الاصلية واقسامها في الفصل الاول من المقالة الاولى) ومن حِمير انتقل الى الانبار ومن الانبار الى الحيرة ومن الحيرة لُقنهُ اهل الطائف وقريش ولتوغلهم في البداوة دامت خطوطهم غير مستحكمة الاجادة لأوّل الاسلام

ويرى كثيرون من مؤرخي العرب بعد الاسلام ان اول من كتب باللغة العربية كان اسماعيل بن ابرهيم الخليل وقال البعض منهم ان العرب كانوا يعرفون الكتابة في زمن ايوب الصديق وقد يوافقون بذلك راي بعض الافرنج والكتبة المتأخرين فقال بعضهم قد يترجّح الظنّ بانهُ لا ينكر على العرب في الاجيال الصاعدة جدًّا نحو القدمية تقدمهم في العلوم والمعارف الطبيعية

والملكية ونظم الشعر بالاستدلال على ذلك من بعض الامور منهـا مخاطبات ايوب المقدم ذكرهُ واصحابهِ التي يظنُّ بانها كانت نحو سنة ١٥٧٧ قبل الميلاد وقال غيرهُ قد اجمع فضلاء الافرنج الذين امتازوا البلاغة بالحق على ان ايوب المشار اليهِ هو افضل شعرًا من اوميروس الشاعر اليوناني وشكسبير الشاعر الانكليزي اللذين يعتقدونهما أشعر الخلق وان لهُ عليهما فضيلة السبق لان صحفتهُ اقدم الصحف الاولى على الاجماع وقد خُيِّل للبعض منهم ان اصلها كان باللغة العربية ثم نقلهُ موسى النبي الى اللغة العبرانية وان الاصل العربي هو مفقود الآن فلا يعلم هل كان بلغة حِمير او بلغة مُضر ثم بانضمام ذلك الى آداب اللغة العربية الموجودة سليقةً في جاهلية العرب ترجَّح عند كثيرين ممن ذكرها بان العرب القدماء كانوا يعرفون صناعة الكتابة لكن لم يبقَ شيءٌ من كتبهم القديمة اصلاً كما استدلوا على قدمية آداب اللغة اليونانية من اشعار اوميروس المذكور فقالوا انها كانت موجودة قبل ظهور هذا الشاعر ناشئة من كتب مؤلفة في علوم الادب لكنهُ لما اندرست تلك الاجيال اندرست كذلك اخبار اهلها (وهكذا العرب ايضًا)

وقال ابن خلدون نقلاً عن الطبريّ ان ولد ضخم بن ارام كانوا يسكنون الطائف هلكوا في مَن هلك من ذلك الجيل وقال غيرهُ انهم هم اوّل من كتب بالخط العربي الاَّ ان مثل هذه الاقوال هو مردودٌ عند ارباب التحقيق منهم ويرون الصحيح هو ان رجلاً يقال لهُ مرامر بن مرّة ويقال مروة من بني طي وقيل من بني مرّة من اهل الانبار هو الذي ادخل اولاً الكتابة في الانبار وان هذه الصناعة انتشرت بين العرب هناك وان المثل المضروب عندهم انا خدَش الخدُوش أنوش والخدوش الاثر وانوش هو ابن شيت بن آدم اي انهُ اوّل من كتب واثر بالخط في المكتوب هم يضربونهُ في ما تقادم عهدهُ فلا يراد بهِ الخط العربي وانما كان انتشار هذه الصناعة بينهم قبل ظهور الاسلام بقليل لانهُ لما جاء هذا الدين لم يكن بجميع اليمن من يقرأ ويكتب وقد اتفق على

ذلك جمهور المحققين من المسلمين وإنما كان لحمير قلم الخط المعروف بالمُسند فكانوا يكتبون كل حروفهِ منفصلة عن بعضها ويمنعون العامة من تعلمهِ فلا يتعلمهُ احدٌ الاَّ باذنهم وكان بالغًا مبلغًا من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة في العصبية والمجددين لملك العرب بارض العراق لكنهُ لم يكن في الجودة عندهم كما كان عند التبابعة ثم من الحيرة لُقّنهُ اهل الطائف وقريش بالتسلسل عن مرامر بن مرّة على ما تقدم

وفي حديث زيد بن ثابت حين امرهُ ابو بكر ان يجمع القرآن ما يدل دلالةً واضحةً بانهُ لم يكن عندهم ادوات تصلح للكتابة ايضًا حيث يقول فجعلت اتّبعهُ على العسب واللخاف وصدور الرجال والعسب هي سعوف النخل واللخاف حجارة بيض رقاق واحدها لخفة . وقال الزوزني انهم كانوا يأْخذون الخرقة ويطلونها بشيءٍ ثم يصقلونها ويكتبون عليها ويسمّونها المُهرق ويجمعونها على مهارق وهو معرّب مَهَرة كَرْدَه لفظٌ فارسيٌ ولم تعرف العرب قراطيس الكتابة الاَّ منذ استعملها الحجاج فهو اوّل من كتب بها

ثم بعد ان فتحت العرب الامصار وملكوا المالك واحتاجوا الى الكتابة استعملوا الخط وطلبوا صناعتهُ وأُبدل الخط الحميري بالخط الكوفي واُخترعت الحركات ووُضعت النقط لتمييز الحروف المتشابهة كما سبقت الاشارة الى ذلك في كتابنا المسمّى زبدة الصحائف في اصول المعارف صفحة ٧٠ فبلغ هذا الخط رتبة من الاتقان الاَّ انها كانت دون الغاية

وكذلك بعد ان انتشرت العرب في المغرب وافتتحوا افريقية والاندلس واختط ابو جعفر المنصور العباسيّ مدينة بغداد وصارت دار الاسلام ومركزًا للعلوم العربية على ما تقدم في الفصل الاول من المقالة الخامسة ظهر الخط البغدادي وقد ذكروا ان رجلًا يقال لهُ الشيخ علي بن هلال السمساني وصل احرف الهجاء العربية بعضها ببعض على هيئة استعمالها الآن في الكتابة بعد ان

كانت حروفًا مقطعة. وقال آخرون ان اول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وابرزها في هذه الصورة المستعملة الآن هو تلميذهُ ابو علي محمد بن علي ابن الحسين الشهير بابن مقلة وزير الخليفة المقتدر بالله العباسيّ وبهِ يضربون المثل بحسن الخط فيقولون لمن ارادوا المبالغة في حسن خطهِ اجود من خط ابن مقلة توفي سنة ٣٢٨ للهجرة (سنة ٩٣٩ م) ومن اراد التوسع في هذا الموضوع باكثر من ذلك فليراجع الكلام على الكتابة في كتابنا المار ذكرهُ صفحة ١١٣ — ١٢٥ هذا ما كان من امر تدوين الدواوين في ايام الخلافة العربية

واما ما كان من امر الترتيبات المالية التي جرت في تلك الاوقات ايضًا فهو انهُ كما كان بدء تدوين الدواوين في ايام خلافة عمر بن الخطاب كذلك كان اول من شرع بترتيب جباية الاموال الاميرية هذا الخليفة نفسهُ. قال بعض المؤلفين من العرب انهُ ابطل الفردة التي كانت مرتبة على الرؤوس ورتب المكس في التجارة فكان يؤخذ من تجار المسلمين والنصارى والحربيين وانما بدرجات مختلفة حتى انهُ كان يؤخذ من تجار الحرب العشر عن بضائعهم وكذلك رتب المكس على العبيد والدواب

وعيَّن مقدار الجزية التي تؤخذ من الذميين وملخص ما ذكرهُ المؤرخون في ذلك هو ان الخليفة المشار اليهِ كتب الى عاملهِ على البصرة عثمان بن حنيف بتعيين مقدار الجزية فوضع على الغني ثمانية واربعين درهمًا وعلى من دونهُ اربعة وعشرين درهمًا وعلى من دونهُ اثني عشر درهمًا وكان الصرف اثني عشر بدينار وهذا مذهب ابي حنيفة واحمد بن حنبل واحد قولَي الشافعي ثم قالوا انهُ يجوز للامام ان يزيد على ما قدَّر عمر ولا يجوز ان ينقص عنهُ ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين

ووضع ايضًا على سواد العراق خراجًا لكل جريب صاعًا من برّ او شعير ودرهمًا

ووضع ايضًا قانونًا بان من كان لهُ ارض ثم تركها ثلاث سنوات لا يعمرها

فعمرها قوم آخرون فهم أحق بها

ووصل النيل بجون العرب بواسطة خليج القلزم كما كان صنع البطليموسية والفراعنة وطرايانوس وخصص ثلث ابراد مصر بعمل الجسور والترع لارواء الاراضي

ولما تولى الخلافة بعده عثمان بن عفان شرع في اقطاع القطائع وبيع الاراضي (وفي ذالك خلاف)

وفي خلافة عبد الملك بن مروان أمر هذا الخليفة الحجاج وكان عاملة على البصرة فضرب الدراهم والدنانير فكان استعمالها والتداول بها بين الاسلام سنة ٧٦ للهجرة (سنة ٦٩٥ م) وكانوا قبل ذلك يتعاملون بالفضة والذهب وزنًا

وفي ايام خلافة ابي عبد الله محمد المهدي العباسي وضع الخراج على الحوانيت فكان هو اول من احدث ذلك في الاسلام

المقالة العاشرة

في وضع آداب اللغة العربية وطلب العرب العلوم الفلسفية القديمة بعد ظهور الاسلام وفيها ستة فصول

الفصل الاول

وضع آداب اللغة العربية واسباب ذلك

لا يخفى ان العرب في زمن جاهليتهم كانوا في اعلى طبقة من نباهة الفكر وفصاحة اللسان وسرعة الخاطر وكانت فصاحتهم طبيعية حتى انهم كانوا ينظمون الشعر ارتجالاً كما سبقت الاشارة الى ذلك جميعهِ في محلات متعددة من هذا الكتاب ولما لم يكن لهم اعمال يشتغلون بها فكانوا يصرفون هممهم الى تهذيب لغتهم والتفنن فيها حتى ذهبوا في ذلك كل مذهب وساعدهم على التصرّف فيها ما عندهم من الحذاقة فكانوا يجعلون لكل حكم من احكامها وجهاً سديدًا بحكم العقل بصحتهِ فكانت باعتبار الفاظها منقولةً وباعتبار احكامها معقولةً

وكانت القبائل التي يوثق بعربيتها بين العرب سبعة وهي قريش وهذيل

وهوازن وكنانة وبنو تميم وقيس وغيلان واليمن وهذه القبائل هي اوساط العرب ولا تعتبر لغات القبائل الأُخر لاختلاطها بالاعاجم وقيل بل ان القبائل الموثوق بعربيتها هي بنو قيس وتميم واسد وبعض الطائيين وبالاختصار ان لغة العرب قبل الاسلام كانت متشعبة الى لغتين اصليتين وهما لغة قريش ولغة حِمير وكانت الاولى مستعملة في مكة وما حولها والثانية ببلاد اليمن فلما نزل القرآن بلغة قريش غلبت على لغة حمير وبقيت متداولة في المكاتبات والتآليف والاشعار

وقولهم بقيت متداولة في المكاتبات والتآليف والاشعار يراد به حصر بقاء اللغة حسب قواعدها واصولها في القلم فقط وسلب ذلك عنها في المخاطبات الشفاهية المعتادة لانهُ بعد ان ظهر الاسلام اختلطت لغات القبائل كلها بما فيها القبائل الموثوق بعربيتها مع لغات الاعاجم من الشعوب الكثيرة التي دخلت فيهِ فانتشر الفساد في اللغة العربية ولذلك اضطرّ الحال فيما بعد الى وضع مؤلفات لحفظها وصيانة قواعدها من التلف والضياع

وكان القرآن الذي هو اساس الدين الاسلامي الوحيد لا زال الى زمن خلافة ابي بكر غير مجموع في صحف بل باقيًا في مستودع اذهان الحفظة الذين سمعوهُ من فم صاحب الشريعة الاسلامية فاعتنى هذا الخليفة في كتبهِ في صحف وكان ذلك باشارة عمر بن الخطاب خوفًا من ان يذهب كثير منهُ بموت الذين يحفظونهُ من القراء الذين كانوا يُقتلون في الجهاد فامر زيدًا بن ثابت فجمعهُ كما سبقت الاشارة الى ذلك ولا زال يبحث عن آخر سورة التوبة حتى وجدها مع ابي خزيمة الانصاري ولم يجدها مع احدٍ آخر غيرهِ فلولا سرعة اهتمام هذا الخليفة بجمعهِ لكان في ذلك مصيبة على الاسلام بفقد كثير منهُ

ثم في ايام خلافة عثمان بن عفّان وقع اختلاف في القراءة بين الحفظة فجاء حذيفة بن اليمان فاخبرهُ بذلك فامر زيدًا بن ثابت المذكور وعبد الله بن الزبير وسعد بن العاص وعبد الله بن الحارث بن هشام بان ينسخوا الصحف المذكورة في المصاحف وقال عثمان للوسط القريشيين الثلاث اذا اختلفتم انتم

وزيد بن ثابت في شيء فاكتبوهُ بلسان قريش فانما نزل بلسانهم ففعلوا قال القاسم بن معن لم تختلف لغة قريش والانصار في شيء من القرآن الاَّ في التابوت فلغة قريش بالتاء والانصار بالهاء. حتى اذا نسخوا الصحف في المصاحف ردَّ عثمان تلك الصحف الى حنظة حيث كانت محفوظةً اولاً وارسل الى كل افقٍ بمصحفٍ ما نسخوا وامر بما سواهُ من القرآن في كل صحيفةٍ او مصحفٍ يحرَق وكانت فقدت آية من الاحزاب فالتمسوها ووجدوها مع خزيمة بن ثابت الانصاري فالحقوها في سورتها

وقال ابن خلدون ان الخط العربي لاول الاسلام كان غير بالغ الى الغاية من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لما كان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمهُ الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضتهُ رسوم صناعة الخط عند اهلها

وذكر ابن خلكان في ترجمة ابي عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري ما نصهُ قال حدَّثنا قتادة السدوسي قال لما كُتب المصحف عُرِض على عثمان بن عفّان فقال ان فيهِ لحنًا ولتقيمنَّهُ العرب بالسنتها وقال ايضًا نقلاً عن كتاب التصحيف لابي الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري ما نصهُ وعبر الناس يقرأُون في مصحف عثمان بن عفّان نيفًا واربعين سنة الى ايام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالعراق ففزع الحجّاج بن يوسف الى كتابهِ وكان يومئذٍ عاملاً على البصرة وسأَلهم ان يضعوا الى هذه الحروف المشتبهة علاماتٍ فقام بذلك النضر بن عاصم ووضع النقط افرادًا وازواجًا وخالف بين اماكنها فعبر الناس بذلك لا يكتبون الاَّ منقوطًا فكان مع استعمال النقط يقع التصحيف ايضًا فاحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط والاعجام واذا أُغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم تعرَف حقوقها اعترى التصحيف فلم يقدروا فيها الاَّ على الاخذ من افواه الرجال بالتلقين

النحو. وكان ابو الاسود الدؤلي واسمهُ ظالم بن عمرو بن جُندل بن سفين ابن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدؤل بن بكر بن كنانة المتوفي سنة ٦٩ للهجرة (سنة ٦٨٨ م) يعلم اولاد زياد بن ابيهِ وهو يومئذٍ والي العراقين وكان لا يخرج شيئًا اخذهُ عن علي بن ابي طالب فبعث اليهِ زياد المذكور ان اعمل شيئًا يكون للناس امامًا ويُعرَف بهِ كتاب الله عزّ وجل فاستعفاهُ من ذلك الى ان جرت اسبابٌ كثيرة لوضعهِ علم النحو لا نذكر منها هنا الاّ ما يوافق المقام فقط ما اوردناهُ في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف

حكي انهُ سمع ذات يوم قارئًا يقرأ ان الله بريءٌ من المشركين ورسولهِ بالكسر فقال ما ظننت ان امر الناس آل الى هذا فرجع الى زياد وقال افعل ما امر بهِ الامير فليبغني كاتبًا لبقًا يفعل ما اقول فاتى بكاتبٍ من عبد القيس فلم يرضهُ فاتى بآخر فقال لهُ ابو الاسود اذا رايتني فتحت فمي فانقط بين يدي الحرف وان كسرت فاجعل النقطة من تحت ففعل ذلك وقال العاري في حاشيتهِ على شرح الاجروميه ان عليًا دفع الذي جمعهُ الى ابي الاسود وقال لهُ انحُ هذا النحو اي اقصد هذا القصد فسمّي حينئذٍ هذا الفن نحوًا انتهى كلامهُ . وهو علمٌ يعرَف بهِ تركيب الالفاظ الدالة على اصل المعنى المراد بواسطة تغيير اواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها لفظًا او تقديرًا

المناظرات . ويقال بان في ايام الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي وضع عبد الله بن المقفّع الآتي ذكرهُ في محلهِ كتاب كليلة ودمنة وقيل انهُ لم يضعهُ وانما كان باللغة الفارسية فعربهُ ونقلهُ الى العربية وان الكلام الذي في اول هذا الكتاب هو من كلامهِ . وقال ابن خلدون ان كتاب كليلة ودمنة تُرجم الى الفارسية في ايام كسرى انوشروان الذي كان محبًا للعلم مكرمًا للعلماء ترجمة من لسان اليهود وكان ذلك في الزمن الذي ولد فيهِ صاحب الشريعة الاسلامية وقال صاحب تذكرة الحكم ان المقفع كان كاتبًا لابي جعفر المنصور وهو الذي ترجم لهُ الثلاثة الكتب في المنطق وترجم ايضًا كتاب فرفريوس الصوري

المعروف بايساغوجي بعبارة سهلة قريبة المأخذ وترجم كذلك كتاب كليلة ودمنة من الهندية الى اللغة الفارسية وان من تأليفهِ رسالة في الادب والسياسة ورسالة في الطاعة للسلطان انتهى كلامهُ . وحكى ابن خلكان ان المقنع كان زنديقًا[1] والزندقة في اللغة تطلق على من يبطن الكفر ويظهر الايمان فارسية معرَّبة ومن تأليفهِ الدرة اليتيمة التي لم يُصنَّف مثلها في فنها قتلهُ سُفيَان متولي البصرة بامر ابي جعفر المنصور وهو يومئذٍ في خدمة عمهِ سنة ١٥٤ للهجرة (سنة ٧٦٣ م) وقيل لهُ المقفَّع لانهُ كان يعمل القفاع وبيعها وهي شيءٌ يُعمل من الخوص شبيه بالزنابيل لكنهُ بغير عروة وخلاصة الكلام ان المقفَّع المذكور اما بترجمتهِ كتاب كليلة ودمنة او بتأليفهِ اياهُ وضع اساسًا لعلم المحاضرات الذي ألف فيهِ اخيرًا كثيرون من علماء العرب في الاسلام وهو من فنون الادب الاثني عشر التي هي علم متن اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقوافي والخط وقرض الشعر وانشاء الرسائل والخطب والتواريخ وهي من مشتقات علم المحاضرة والمحاضرة في اللغة هي ما بين القوم ان يجيب الواحد صاحبهُ بما يحضرهُ من الجواب

الانشاء . وكانت سياسة الخليفة ابي جعفر المشار اليهِ قتلت ابن ... بجملة من قتل من خواص مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء الامويين عبد الحميد بن يحيى بن سعيد الكاتب المشهور الذي بهِ يُضرَب المثل فيقولون لمن ارادوا المبالغة في مدحهِ من الكتَّاب ابلغ كتابةً من عبد الحميد لانهُ كان هو اوَّل من نهج الكتابة وبسط باع البلاغة والانشاء . والانشاء صناعة يُعلم بها كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها بكلامٍ يطابق الحال وتدوينها

اللغة . وكان للخليفة هرون الرشيد العباسي معلمًا يقال لهُ ابو عبيدة وهو احد الرواة المشهورين الآتي ذكرهم وصنعة لهُ اسحق بن ابرهيم الموصلي ...

---

(١) الزندقة نسبة الى زند وهو اسم لغة قدماء فارس مكتوب بها كتب ديانتهم المجوسية المسماة زند اوستاه

فاستدناهُ الخليفة من البصرة بعد ان اسقط مرتبة الاصمعي بوشاية اسحق المذكور ايضًا لما فسد ما بينهما وكان اسحق قبل ذلك يسمعهُ ويكثر الرواية عنهُ وكان ابو عبيدة اوَّل من دوَّن اللغة العربية لانهُ كان اعلم الناس بلغة العرب واخبارهم وايامهم

متن اللغة . ثم ظهر في ايام الخليفة المشار اليهِ ابو علي محمد بن المستنير بن احمد النحوي اللغوي المعروف بقطرب تلميذ سيبويه امام البصريين في علم النحو والقطرب ذبابٌ يطير في الليل ولا ينام وقيل دُوَيبة يُضرَب بها المثل في السير فيقال سير القطرب وأجول من قطرب واسهر من قطرب سمَّاهُ بذلك سيبويه المذكور لانهُ كان يبكر على بابهِ وقيل القطرب هو ذكر السعالى صنَّف كتبًا كثيرة وهو اول من وضع المثلَّث في اللغة وبهِ اقتدى غيرهُ من العلماء ويراد بالمثلث متن اللغة وهو علمٌ تُعرَف بهِ مباني الالفاظ العربيَّة اي اوضاع المفردات التي تتكلم عنها كتب اللغة المساة بالقاموس

الصرف . وفي ايام الخليفة المشار اليهِ ظهر ايضًا معاذ بن مسلَّم الهرَّاء شيخ الكسائي امام الكوفيين في النحو فوضع علم الصرف وقيل بل ان من دوَّن هذا العلم هو ابو عثمان بكر بن محمد بن عثمان بن حبيب المازني البصري المتوفي سنة ٢٤٨ للهجرة (سنة ٨٦٢م) وهو علم تُعرَف بهِ احكام ابنية الالفاظ المتداولة في المعاني المختلفة

العروض . وفي ايام الخليفة المشار اليهِ ظهر ايضًا الخليل بن احمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي ويقال الفرهودي الازدي اليحمدي وكنيتهُ ابو عبد الرحمن وهو صاحب كتاب العين المشهور في اللغة وكان لهُ معرفة في الايقاع والنغم فاحدثت لهُ تلك المعرفة علم العروض فانهما متقاربان في المأخذ فوضع هذا العلم الذي بهِ يُعرَف صحيح اوزان الشعر وفاسدها وسماهُ بالعروض لان العروض اسم لِما يُعرَض عليهِ الشيء فنقل الى هذا الفن لانهُ يعرض عليهِ الشعر فما وافقهُ فصحيح وما خالفهُ ففاسد وقال بعضهم انهُ انما سمي بالعروض لان الخليل

الَّفهُ في العروض وهي مكة فسماهُ بها تبركًا وبهِ يُضرَب المثل في هذا الفن فيقال اوضع للعروض من الخليل

القوافي . والخليل المذكور هو الذي وضع علم القوافي ايضًا وهو علمٌ يبحث عن تناسب وعيوب الاعجاز في الشعر

البديع . وفي زمن خلافة المعتمد بالله العباسي كان ابن اخيهِ ابو العباس عبد الله بن المعتز قد اخذ الادب عن جماعة من اكابر اهلهِ الى ان صار اديبًا بليغًا شاعرًا مطبوعًا مقتدرًا على الشعر قريب المأخذ سهل اللفظ جيّد القريحة حسن الابداع للمعاني ولهُ ديوان شعر ومن مؤلفاتهِ كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر وكتاب الزهر والرياض وكتاب الجوارح والصيد وكتاب السرقات وكتاب اشعار الملوك وكتاب الآداب وكتاب حلى الاخبار وكتاب طبقات الشعر وكتاب الجامع في الغناء وفيهِ ارجوزة في ذمّ الصبوح فوضع هذا الامير كتابًا ايضًا في علم البديع وهو علمٌ تُعرَف بهِ وجوه تحسين الكلام

المعاني والبيان . ولما ظهر الشيخ عبد القادر الجرجاني نسبةً الى جرجان مدينة بفارس صاحب كتاب دلائل الاعجاز المتوفى سنة ٤٧١ للهجرة (سنة ١٠٧٨ م) في ايام خلافة المقتدي بالله العباسي وكان رجلًا فاضلًا في المعارف والآداب فوضع علمي المعاني والبيان . اما المعاني فهو علمٌ تعرف بهِ احوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال . واما البيان فهو علمٌ يعرَف بهِ ايراد المعنى الواحد بطرقٍ مختلفة في وضع الدلالة عليهِ فاكمل بهما علم البلاغة

باقي الفنون . وهكذا مع تمادي المدة سواء كان في خلال ما ذكرا او بعدهُ عُرِف ما يتصل بذلك من الفنون العديدة كعلم الاشتقاق واصول النحو وقرض الشعر وانشاء النثر والفصاحة والمحاضرة والخط ومقاطع الحروف والاحكام المتعلقة بها وقد تعرضنا لشيء مما ذُكر في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف فاننا هناك بسطنا تفاصيل مستوفية بقدر الامكان عن كامل ما اوردناهُ في هذا الفصل فليراجعهُ مَن اراد

علم الكلام . لا يخفى بانهُ لم يكن عند احدٍ من المسلمين في صدر الاسلام ما يستدلُّ بهِ على اثبات التوحيد او النبوءة فضلاً عن امورٍ اخرى غيرها سوى القرآن ولا بحث احدٌ منهم عن شيءٍ من الطرق الكلامية او المسائل الفلسفية كما حدث اخيرًا بعد ان شغف الخليفة المأمون العباسي بالعلوم القديمة وعرَّب كتب الفلاسفة الذين منذ اشتهرت كتبهم هذه بين الناس وانتشرت بعامة الامصار اقبلت اصحاب البدع من المعتزلة والقرامطة والجهمية وغيرهم عليها واكثروا من النظر فيها والتصفُّح لها فانجرَّ من ذلك ما لا يوصف من البلاء والمحنة حيث بالغ القدري في القدَر فجعل العبد خالقًا لافعالهِ . وبالغ الجبريّ في مقابلتهِ فسلب عنهُ الفعل والاختيار . وبالغ المعطّل في التنزيه فسلب عن الله سبحانهُ صفات الجلال . وبالغ المشبّه في مقابلتهِ حتى جعلهُ كواحد من البشر . وبالغ المرجي في سلب العقاب . وقال المعتزلّي بالتخليد في العذاب . وبالغ الناصبي في دفع علي عن الامامة . وبالغ فيهِ الغلاة حتى جعلوهُ الهًا . وبالغ السنّي في تقديم ابي بكر وبالغ الرافضي في تأخيرهِ حتى نسبهُ الى الكفر فعارضت الظنون وكثرت الاوهام وبلغ كل فريقٍ في العناد ما ساقهم الى التباغض والتلاعن واستحلال الاموال واستباحة الدماء وانتصروا بالدول واستعانوا بالملوك وحينئذٍ قام ابو منصور محمد بن محمود الماتريدي امام الحنفية في سمرقند وابو حسن علي الاشعري[1] امام الشافعية بالبصرة وترأسا على اهل السنة والجماعة

وكان ابو الحسن الاشعري المذكور من ايمة فرقةٍ من جملة الفرق التي ذكرناها يقال لها المعتزلة وهم الغلاة في نفي الصفات الالهية القائلون بالعدل والتوحيد وان المعارف كلها عقلية حصولاً ووجوبًا قبل الشرع وبعدهُ واكثرهم على ان الامامة بالاختيار وهم عشرون فرقة قد ذكرت بتفاصيلها في كتابنا

(١) اشعر قبيلة في اليمن وكان جدّهُ عبد الله بن قيس الشهير بابي موسى الاشعري من الصحابة

المسمّى سوسنة سليمان في اصول العقائد والاديان والواضع الاوّل لهذه الفرقة رجلٌ يقال لهُ واصل بن عطا كان اول من اعتزل مجلس الحسن البصري واول من تسمّت جماعتهُ المعتزلة لهذا السبب يقال بانهُ اخذ العلم عن ابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وخالفهُ في الامامة واعتزالهُ يدور على اربع قواعد هي اولاً نفي الصفات على ما تقدم ثانيًا القول بالقَدَر ثالثًا القول بمنزلة بين المنزلتين رابعًا اوجب الخلود في النار على مَن ارتكب كبيرةً وكان لكثرة صمتهِ يظنُّ بهِ الخرس توفي سنة ١٣١ للهجرة (سنة ٧٤٨ م)

ووُجِدت فرقة اخرى من الفرق المذكورة تضادُّ المعتزلة المذكورين يقال لها المشبهة او المجسمة تنقسم الى سبع فرق ايضًا ولكنهم كلهم يغلون في اثبات صفات التجسيم لله تعالى

فلما رجع ابو الحسن الاشعري المذكور عن القول بخلق القرآن وغيرهِ من آراء المعتزلة الّف كتابًا في اعتقاد اهل السنة والجماعة قال المقريزي انهُ الّف خمسة وخمسين كتابًا منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب ايضاح البرهان وكتاب التبيين على اصول الدين وكتاب الشرح والتفصيل في الردّ على اهل الافك والتضليل وكتاب الابانة وكتاب تفسير القرآن قيل انهُ في سبعين مجلدًا ثم توفي ببغداد سنة ٣٢٧ للهجرة (سنة ٩٤٨ م)

وحقيقة مذهبهِ انهُ سلك مذهبًا متوسطًا بين النفي الذي هو مذهب الاعتزال وبين الاثبات الذي هو مذهب اهل التجسيم فانتشر مذهبهُ نحو سنة ٣٨٠ للهجرة (سنة ٨٩٠ م) وجملة عقيدتهِ مذكورة بتمامها في كتابنا سوسنة سليمان المار ذكرهُ صفحة ٣٠٩ وكان ذلك بداءة الالتفات الى علم الكلام ويسمى علم اصول الدين ايضًا ثم بعد ذلك اخذ العلماء البارعون في التاليف المعتبرة في هذا الفن وهو علم من العلوم الشرعية المدونة للبحث عن ذات الله تعالى وصفاتهِ واحوال الممكنات من المبدإ والمعاد على قانون الاسلام

قال بعض المؤلفين انهم اقتفوا بهذا العلم اثر ارسطاليس الفيلسوف اليوناني

الذي اخذوا عنهُ علم المنطق وزادوا عليهِ ايضًا امورًا أُخر من اجتهادهم وعلى هذه الصفة اخذ الافرنج ايضًا عنهم قواعدهم واصولهم الفلسفية التي نقرأ في المدارس ببلاد اوربا ويسمونها علم الكلام السكولاستيكي (اي اللاهوت المدرسي)

التاريخ . لا يخفى ان التاريخ بمعناهُ الحقيقي له ثلاث درجات . فالدرجة الاولى هي مجرَّد علم الازمنة الماضية وتاريخها فقط من غير التفات الى حوادثها وهذه الدرجة تكون اساسًا الى الدرجة الثانية التي هي علم سلسلة الزمان وتاريخ اهلهِ وترتيبهم ونسبة زمان كل قوم ومقابلة احكامهم بوجهٍ مجمل وهذه الدرجة تكون اساسًا للدرجة الثالثة التي هي علم السيَر والاخبار وهذه الدرجات الثلاثة يقال لكلٍ منها تاريخ وكلها لا وجود لها في العصر الجاهليّ اصلاً وانما حدثت بعد ظهور الاسلام كما يتضح ذلك من الابحاث الآتية

ان ما يروى من اخبار العرب في الجاهلية لم يُعرَف زمن وقوعهِ بالتحقيق المدقق الاّ اذا كان بعضهُ يُلاحَظ له زمنٌ بالتقريب من وجود قرائن له حالية كما لو كان له علاقة مع بعض الاشخاص المشهورين من شعوب اخرى غير العرب او كان مرتبطًا كذلك بحادثة من الحوادث المعروفة العهد لسائر الامم وما ذاك الاّ لكون العرب المذكورين لم يعرفوا ان يتخذوا لذواتهم زمنًا لحادثةٍ من الحوادث يجعلونهُ اساسًا لمعرفة ما يجدّ بعدهُ من وقائعهم الاخرى بالنسبة اليهِ كما حصل اخيرًا بعد ظهور الاسلام وانما كانوا يوقتون اوقاتهم بطلوع النجم واوقات سنتهم يحفظونها بالانواء حتى انهم كانوا يسمّون الوقت الذي يحلُّ فيهِ الاداء نجمًا تجوُّزًا لان الاداء لا يُعرف وقتهُ عندهم الاّ بواسطة ظهور النجم المعيَّن له وكانوا يذكرون ما لهم من الوقائع بدون معرفة مقدار ما مرَّ عليها من السنين كما هو الحال في كثيرٍ من الاميين في وقتنا هذا الذين يذكرون وقائع شهيرة جرت في الاعصار الخالية ولا يعرفون زمن وقوعها فيقولون مثلاً الحروب الصليبية وفتوح القسطنطينية بدون ان يعرفوا أيّة واقعة كانت قبل الاخرى ولاكم من السنين مرَّ بعد وقوعها وهكذا كانت العرب ايضًا تتفكه

بذكر بعض الحروب التي جرت بين قبائلها من غير معرفة ازمنة وقوعها ولا ايّها وقعت قبل الاخرى وانما يميزونها باضافتها اما الى اسماء بعض الامكنة التي جرت فيها كيوم الكديد مثلاً بين بني سليم وبني كنانة ويوم البيداء بين حِمْيَر وبني كلب واما الى اشياء أُخر تمتاز بها كقولهم عام الفيل وبنيان الكعبة ولذلك كان جلّ ما عُرِف لهم من الحوادث لا يتجاوز بداءة التاريخ المسيحي لانهُ على ما قيل ان كنانة احدى قبائل العرب حسبت من موت كعب بن لوي حتى كان عام الفيل وهو العام الذي ملك فيهِ النجاشي اليمن سنة ٥٢٩ م وجعل الملك عليهِ ارباط ابا ابرهة الاشرم صاحب الفيل المذكور فاضافوا الواقعة الى فيلهِ وقالوا عام الفيل كما ذكرنا وكان بين موت كعب المذكور والفيل خمس مئة وعشرين سنة وكان بين الفيل والفجار[1] اربعون سنة ثم عدوا من الفجار الى وفاة هشام ابن المغيرة فكان ست سنين ثم عدوا من وفاة هشام الى بنيان الكعبة فكان تسع سنين ثم كان بين بنائها وبين الهجرة خمس عشرة سنة

ومعنى الهجرة هو هجر صاحب الشريعة الاسلامية مكة وتوطنهُ في المدينة وكان ذلك على ما حققهُ العلامة الفاضل رفاعة بك الطهطاوي يوم الجمعة الواقع في سادس عشر تموز سنة ٦٢٢ م وقد اختارها المسلمون بدء لتاريخهم كما سبقت الاشارة الى ذلك في اول الفصل الثالث من المقالة التاسعة

وقال ابن خلدون المغربي ان تاريخ بدء الخليقة وان يكن قد عرفهُ

(١) الفجار يوم من ايام العرب وهي اربعة افجرة احدها كان بين كنانة وعجز في موضع بين مكة والطائف يقال له نخلة . والثاني بين قريش وكنانة في مكان يقال له شمطة . والثالث بين كنانة ومضر بن معوية في العبلاء . والرابع بين قريش وهوازن في عكاظ وكان السبب في ذلك ان رجلاً يقال له البراق بن قيس الكناني قتل رجلاً يقال له عروة الرحال فهاجت الحرب بينهم وانما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لانها كانت في الاشهر الحرام فلما قاتلوا قالوا قد فجرنا وحضرها صاحب الشريعة الاسلامية وهو ابن عشرين سنة وفي الحديث كنت انبل على عمومتي يوم الفجار ورميت فيهِ باسهم وما احب اني لم اكن فعلت

المسلمون اخيرًا الاّ ان ضعفاء الاخباريين منهم يعتبرونهُ تاريخًا لوجود آدم الاب الاول للجنس البشري الموجود الآن على سطح الكرة وليس هو لمطلق المخلوقات التي اسكنها الباري تعالى جلّت عظمتهُ فيها فهم يتبعون في ذلك آراء بعض الحكماء القائلين بقدمية العالم والادوار ووجود عوالم أُخر قبل آدم كالحنّ[1] والطم وغيرها

فاذًا بعد ان عرفنا هذا جميعهُ عن الدرجة الاولى التي هي اوّل اساس للتاريخ وانها كانت مجهولة الاسم والرسم عند الجاهلية وانما حدثت عند العرب بعد الاسلام فلا يلزمنا ان نبحث عن الدرجة الثانية فضلاً عن الثالثة الاّ في العصر الاسلامي حينما عرف العرب ضرورة التاريخ وفضلهِ بجملة ما عرفوهُ من العلوم والفنون التي مارسوها من بعد ان تولّى العباسيون تحت الخلافة على ما نقدم قال صاحب تذكرة الحكم ان التاريخ مع كونهِ معدودًا من العلوم العربية لم تؤلّف فيهِ العرب الاّ في الازمنة الاخيرة

اما ما وصل الى المتأخرين من اخبار الجاهلية المذكورين غير ما جاءت بهِ الكتب الدينية فانما وصل اليهم برواية الرواة الآتي ذكرهم قال ابن خلدون انهُ لم يكن للعرب كتاب لبداءتها وانما بقي من اشعارها ما ذكرهُ رواة الاسلام وقيدوهُ من محفوظ الرجال

ثم ان هولاء الرواة الذين كانوا يطوفون احياء العرب ويقيّدون بعد البحث لغاتهم ويتلقون عنهم الاحاديث الشائعة بينهم بالنقل الشفاهي عن البعض من امرائهم وشجعانهم ووقائعهم وعوائدهم وآدابهم وملابسهم ومآكلهم وخيولهم ومواشيهم ومعارفهم وانسابهم الى غير ذلك مما بحثوا عنهُ لم يمكنهم ان ينسقوا ما

---

(١) الحنّ راجع اسماء اهل العالم الروحاني في الفصل الخامس من المقالة الرابعة وعند الدروز هو ثاني العوالم الثلاثة التي يعتقدون بوجودها وهي عالم الجنّ وعالم الحنّ وعالم البنّ وهذا الاخير هو الذي نحن منهُ ومن المعلوم انهم يتبعون في ذلك آراء بعض الفلاسفة كما في كثير من معتقداتهم

دوّنوهُ في طواميرهم على اسلوب التواريخ المعتادة بل وضعوا مؤلّفاتهم على سبيل مجاميع حكايات ونوادر متفرقة بل ان البعض منهم لم يكتفوا بتدوين بعض قصص المشاهير من الشجعان بحسب ما كانت تترنم بهِ ربما مع المبالغة تلك القبائل التي ينسبون اليهـا بل زخرفوها بكل ما وصلت اليهِ مبالغاتهم من التمييقات بنوعٍ يفوق ما جرت بهِ عادة امثالهم من اوائل المؤرخين الذين كانوا البداءة في جمع اخبار اصولهم القديمة ولذلك يقلُّ الاعتماد عليها غالبًا لكون كثيرٍ منها يحمل على الخرافات التي معظمها خالٍ عن الفائدة نظير قصة عنترة وامثالها والظاهر ان الذي حملهم على ذلك هو ما غُرِس في خلقهم طبعًا من الكرم والعشق والميل الى الاستقلال والتفاخر بحيث لم تَعُد تقنعهم في ذلك جميعهِ النوادر المحتملة الوقوع ومن مطالعة ترجماتهم الآتية تعلم كمية مؤلّفاتهم والطريقة التي اختاروها في تأليفها

فمن الرواة المذكورين حماد الراوية وهو ابو القسم بن ميسرة بن المبارك بن عبيد الديلمي الكوفي مولى بني بكر بن وائل وكان يُضرَب بهِ المثل في الحفظ فيقال أحفظ من حماد وكان اعلم الناس بأيام العرب واخبارها واشعارها ولغاتها وهو الذي جمع السبع الطول اي المعلقات الشعرية التي مرَّ ذكرها في الفصل الثالث من المقالة السادسة ويقال ان ملوك بني أُمية كانت تقدّمهُ وتؤثرهُ وتستزيرهُ وكان ينادمهم ويجزلون صلتهُ الّا انهُ كان غير ثقةٍ في نقلهِ فكان يزيد في الاشعار ما ليس منها ويقال انهُ كان بالكوفة ثلاثة انفار يقال لهم الحمّادون وهم حماد هذا وحماد عجرد وحماد بن الزبرقان يتنادمون على الشراب ويتناشدون الاشعار ويتعاشرون معاشرةً جميلة وكانوا يرمون بالزندقة جميعًا توفي حماد الراوية سنة ١٥٥ للهجرة (سنة ٧٧١ م)

ومنهم ابو عبد الرحمن الهيثم بن عدي الطائي الثعالبي البحتري الكوفي كان راويةً اخباريًّا ويرى رأي الخوارج ومن مؤلفاتهِ كتاب المثالب وكتاب المعمرين وكتاب بيوتات العرب وكتاب بيوتات قريش وكتاب هبوط آدم وافتراق

العرب ونزولها ومنازلها وكتاب نزول العرب بخرسان والسواد وكتاب نسب طيّ وكتاب مديح اهل الشام وتاريخ العجم وبني أُميّة وكتاب مَن تزوّج من الموالي من العرب وكتاب الوفود وكتاب خطط الكوفة وكتاب تاريخ الاشراف الكبير وكتاب تاريخ الاشراف الصغير وكتاب طبقات الفقهاء والمحدثين وكتاب كنى الاشراف وكتاب خواتم الخلفاء وكتاب قضاة الكوفة والبصرة وكتاب المواسم وكتاب الخوارج وكتاب النوادر وكتاب التاريخ على السنين وكتاب اخبار الحسن بن علي بن ابي طالب وكتاب اخبار الفُرس وكتاب عمّال الشُرَط[1] لامراء العراق وغير ذلك توفي سنة ٢٠٧ للهجرة (سنة ٨٢٣ م)

ومنهم الاصمعي وهو ابو سعيد عبد الملك بن قريب بن عاصم بن عبد الملك ابن اصمع بن مظهر بن رياح بن عمر بن عبد الله الباهليّ نسبةً الى باهلة قبيلة من قبائل العرب توصف بالخساسة ولذلك يقول بعض الشعراء

لو قيل للكلب يا باهليّ عوى الكلب من لؤم ذاك النسبِ

كان في عصر الخليفة هرون الرشيد وولدِهِ المأمون وكان قبيح المنظر للغاية أَلّف على ما قيل نحو مئتي مجلّد جمع فيها روايات العرب واحاديثها فضُرِب بهِ المثل في سعة الرواية وكثرة الحكايات والنوادر فيقال اروى من الاصمعي ومن مؤلفاتهِ كتاب خلق الانسان وكتاب الاجناس وكتاب الانواء وكتاب الهمزة وكتاب المقصور والممدود وكتاب الفرق وكتاب الصفات وكتاب الاثواب وكتاب الميسر والقِدْح وكتاب خلق الفَرَس وكتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب الشاء وكتاب الاخبية وكتاب الوحوش وكتاب فعل وافعل وكتاب الامثال وكتاب الاضداد وكتاب الالفاظ وكتاب السلاح وكتاب اللغات وكتاب مياه العرب وكتاب النوادر وكتاب اصول الكلام

---

(١) الشرط هم اعوان الوالي واحدهم شرطي ويقال له في ايامنا هذه ضابطي نسبة الى الضابطة اي الحكومة

وكتاب القلب والابدال وكتاب جزيرة العرب وكتاب الاشتقاق وكتاب معاني الشعر وكتاب المصادر وكتاب الاراجيز وكتاب النحلة وكتاب الابيات وكتاب ما اتفق لفظهُ واختلف معناهُ وكتاب غريب الحديث وكتاب نوادر الاعراب وغير ذلك توفي سنة ٢١٧ للهجرة (سنة ٨٣٢م)

ومنهم ابو عبيدة معمّر بن المثنى التيمي البصري النحوي وهو اول من فسّر الغريب (اي البعيد عن الفهم من اللغة والمعاني) قال الجاحظ لم يكن في خارجي ولا جماعي اعلم بجميع العلوم منهُ وكان من الشعوبية يرى رأي الخوارج وسخًا ألثغ مدخول النسب مدخول الدين وكان لا يقبل شهادتهُ احد من الحكام وكان طويل الاظفار والشعر ابدًا ويغضب من لقب ابي عبيدة لانهُ من اسماء اليهود ولُقّب بهِ تعريضًا بان جدّهُ يهودي وكان يبغض العرب أنّف في مثالبها وزعم الباهليُّ صاحب كتاب المعاني ان طلبة العلم كانوا اذا اتوا مجلس الاصمعي اشتروا الدرّ في سوق البعر لانهُ كان حسن الانشاء والزخرفة لرديّ الاخبار والاشعار حتى كان يحسن عندهُ القبيح وان الفائدة مع ذلك قليلة وان ابا عبيدة كان معهُ سوء عبارة مع فوائد كثيرة وعلوم جمّة وهو اول من دوّن العربيّة على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على اللغة وتصانيفهُ تقرب المئتين منها كتاب مجاز القرآن وكتاب غريب القرآن وكتاب معاني القرآن وكتاب غريب الحديث وكتاب الديباج وكتاب التاج وكتاب الحدود وكتاب خراسان وكتاب خوارج البحرين واليمامة وكتاب الموالي وكتاب البله وكتاب الدبقان وكتاب مرج راهط وكتاب المنافرات وكتاب القبائل وكتاب خبر البرّاض (١) وكتاب القرائن وكتاب البازي وكتاب الحمام وكتاب الحيّات وكتاب العقارب وكتاب النواكح وكتاب النواشر وكتاب حضر الخيل وكتاب الاعيان وكتاب بيان باهلة وكتاب ايادي الازد وكتاب الخيل وكتاب الابل وكتاب الانسان وكتاب الزرع وكتاب الرحل وكتاب الدلو وكتاب البكرة وكتاب السرج

(١) البرّاض من يتلف ماله كلهُ اكلاً ج بُرّاض

وكتاب اللجام وكتاب الفرس وكتاب السيف وكتاب الشوارد وكتاب الاحتلام وكتاب مقاتل الفرسان وكتاب مقاتل الاشراف وكتاب الشعر والشعراء وكتاب فعل وافعل وكتاب المثالب وكتاب خلق الانسان وكتاب الفرق وكتاب الخفّ وكتاب مكة والحرَم وكتاب الجمل وصفين وكتاب بيوتات العرب وكتاب اللغات وكتاب الغارات وكتاب المعاتبات وكتاب الملاومات وكتاب الاضداد وكتاب مآثر العرب وكتاب مآثر غطفان وكتاب ادعية العرب وكتاب مقتل عثمان وكتاب اسماء الخيل وكتاب الفقه وكتاب قضاة البصرة وكتاب فتوح الاهواز وكتاب فتوح ارمينية وكتاب لصوص العرب وكتاب اخبار الحجاج وكتاب قصة الكعبة وكتاب الحُمْس من قريش وكتاب فضائل الفُرس وكتاب ما ظنّ فيهِ العامّة وكتاب السواد وفتحهِ وكتاب مَن شُكرَ من العُمال وحُبِيَ وكتاب الجمع والتثنية وكتاب الاوس والخزرج وكتاب محمد وابرهيم ابني عبد الله بن الحسن وكتاب الايام الصغير وكتاب الايام الكبير وكتاب ايام بني مازن واخبارهم وغير ذلك مات بالبصرة سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٣م)

ومنهم ابو الفرَج الاصبهاني علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وجدّهُ مروان المذكور آخر خلفاء بني أُميّة وهو اصفهاني الاصل بغدادي المنشأ كان شديد العناية باخبار العرب وهو صاحب كتاب الاغاني الذي وقع الاتفاق بانهُ لم يكتب مثلهُ في بابهِ كان في ايام سيف الدولة ابن حمدان وكان يحفظ من الشعر والاغاني والاخبار والآثار والاحاديث المُسندة والنسب واللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من النجوم والطبّ والاشربة ولهُ شعر يجمع اتقان العلماء واحسان الظرفاء والشعراء من تصانيفهِ ايضاً كتاب القيان وكتاب الاماء الشواعر وكتاب الديارات وكتاب دعوة التجار وكتاب مجرّد الاغاني وكتاب جحظة البرمكي

ومقاتل الطالبين وكتاب الحانات وآداب الغرباء وكتاب نسب بني عبد شمس وكتاب ايام العرب الذي سبق ذكرهُ في الفصل الثالث من المقالة الثامنة وكتاب التعديل والانتصاف في مآثر العرب وامثالها وكتاب جمهرة النسب وكتاب نسب بني شيبان (احدى امهات القبائل الاربع وهم عرب العراق) وكتاب نسب المهالبة الذين كانوا وزراء بني أُميّة وقد مرّ ذكرهم في الفصل الاول من المقالة السادسة وكتاب نسب بني تغلب ونسب بني كلاب وكتاب الغلمان المغنين وغير ذلك توفي سنة ٣٥٦ للهجرة (سنة ٩٦٦ م)

الفصل الثاني

في فنّ التطريب المعروف بالموسيقى

قال ابن خلدون المغربي ان الغناء لا يحدث الاَّ في العمران متى توفّر وجاوز الحدَّ الضروريَّ الى الحاجيّ ثم الى الكمالي وصناعتهُ لا يستدعيها الاَّ من فرغ من حاجاتهِ الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل فلا يطلبها الاَّ الفارغون عن سائر احوالهم ولذلك لم يكن للعرب اولاً الاَّ فن الشعر يؤلفون فيهِ الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدَّة حروفها المتحركة والساكنة ويفصلون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلاً يكون كل جزء منها مستقلاً بالافادة لا ينعطف على الآخر ويسمّونهُ البيت فتلائم الطبع بالتجزئة اولاً ثم تناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام عليها فلهجوا بهِ فامتاز

من بين كلامهم بحظٍّ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه بهذا التناسب وجعلوهُ ديوانًا لاخبارهم وحكمهم وشرفهم ومحكًّا لقرائحهم في اصابة المعاني واجادة الاساليب واستمرّوا على ذلك مع ان هذا التناسب الذي هو من اجل الاجزاء والمتحرّك والساكن من الحروف قطرة من بحرٍ من تناسب الاصوات الموسيقية كما يُعرَف ذلك من كتب الموسيقى الاّ انهم لم يشعروا بما سواهُ لانهم لم ينتحلوا علمًا ولا عرفوا صناعةً ثم تغنّى الحداة منهم في حداء ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم فرجّعوا الاصوات وترنموا اه . وقال آخرون بان للعرب في الجاهلية لحن آخر ارقُّ من الحداء يغنون بهِ يُعرَف عند اهل الموسيقى بالسَلك ويسمّى نَصْب العرب

وكانوا يسمّون الترنُّم اذا كان بالشعر غناء واذا كان بالتهليل وانواع القراءة تغبيرًا بالغين المعجمة والباء الموحدة وعلّلها ابو اسحق الزجاج بانها تذكّر بالغابر وهو الباقي اي باحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبةً بسيطةً كما ذكرهُ ابن رشيق في آخر كتاب العمدة وغيرهِ وكانوا يسمّونهُ السناد وكان اكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليهِ ويمشي في الدُّف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمّون هذا الهزج وهذا البسيط كلهُ من التلاحين الذي هو من اوائلها ولا يبعد ان تتفطن لهُ الطباع من غير تعليم

وكانت آلات طربهم الطبول والمزامير ولا زال ذلك مستعملاً عند عرب المغاربة وتغنّي عندهم البنات على صوتهِ

وكانوا يضربون المثل بحسن الصوت في رجلٍ يقال لهُ بُدَيح كان حسن الصوت في الجاهلية ورجل آخر يقال لهُ جذيمة بن سعد الخزاعي واطلقوا عليهِ اسم المُصطَلق لحسن صوتهِ وشدتهِ

ويقال ان اول من غنّى في العرب قينتان للنعمان يقال لهما الجرادتان على ما رواهُ الشيخ ناصيف اليازجي في كتابهِ مجمع البحرين ولكن الميداني يقول في مجمع الامثال ان العرب تقول في امثالها ألحن من جرادتين وهما قينتان

لمعاوية بن بكر العمليقي سيد العمالقة الذين كانوا نازلين بمكة في قديم الزمان واسمهما نُعاد وبعاد وفي حاشية الشهاب على القاضي البيضاوي في سورة الاعراب كان اسم احدهما وردة والاخرى جرادة فقيل لهما جرادتان على التغليب وفي كتاب الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ان الجرادتين كانتا لعبد الله بن جدعان تغنيان في الجاهلية سماهما بجرادتي عاد ووهبهما لامية بن ابي الصلت الثقفي

ثم لما جاء الاسلام واستولت العرب على الممالك وصاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية وافترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالي للعرب غنوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم وظهر بالمدينة نشيط الفارسيّ وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوهُ واجادوا فيهِ ثم اخذ عنهم معبد المغنّي وطبقتهُ وابن سريج ونظائرهُ وما زالت صناعة الغناء تتدرج الى ان كملت في ايام بني العباس عند ابرهيم المهدي وابرهيم الموصلي وابنهِ اسحق وابنهِ حمّاد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما تبعهُ الحديث بعدهُ بهِ وبمجالسهِ لهذا العهد وعنهم اتصلت ببلاد المغرب

واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم عليها وجُعل صنفًا وحدهُ واتخذت آلات اخرى للرقص تسمّى الكرج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة باطراف اقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرّون ويفرّون ويثاقفون وامثال ذلك من اللعب المعدّ للولائم

الفصل الثالث

في انتباه العرب لطلب العلوم الفلسفية بعد الاسلام

قبل ان نتكلم على انتباه العرب للعلوم والفنون وغير ذلك من المعارف وخاصةً الفلسفة وما زينوا بهِ اخيرًا تلك الانتصارات الفاخرة لا سيما في زمن الخلفاء العباسيين بالمشرق والامويين بالمغرب ينبغي ان نذكر ما وقع من هولاء الفاتحين الباسلين من الاضرار التي اصابت معارف تلك البلاد وعلومها والآثار القديمة التي كانت تحلى بها في عصر اسلافهم نظرًا لجهلهم بها وعدم معرفتهم منفعتها وفوائدها

قال بعض المؤلفين انهُ متى صرفنا النظر عن فوائد التجارة التي اكتسبتها هذه البلاد بعد الفتوح والتفتنا الى ما عداها من الامور التي جرت في اقسام الارض التي داستها العرب من اسيا وافريقية واوربا وما فعلوهُ من الفظائع نجد انهُ لا شيء يقدر ان يعزّي تلك البلاد عما خسرتهُ من التحف الجميلة والذخائر النفيسة التي تلفت بحريق المدن مع المكاتب العظيمة وهدم الابنية والآثار القديمة وكسر التماثيل البديعة التي كانت زينةً للبلاد وغير ذلك من الامور التي يتأسف منها كثيرًا المولعون في النفائس والغرائب ولا يمكن تعويضها بشيء من الاشياء هذا عدا عن القتل والنهب والسبي والسلب وقد اقام هولاء الفاتحون نحو قرن ونصف من الزمان في حروب خارجية وداخلية غير ملتفتين لشيء من المعارف والفنون بل ابادوها بالكلية حتى انهم عند ما انتبهوا اليها اخيرًا وارادوا ممارستها لم يجدوا لها اثرًا في ممالكهم التي كانت في ما سلف مصدرًا لها فاحتاجوا ان يطلبوها من بلاد اليونان وغيرها

وكانت النكبة الاولى التي حلّت بالمكاتب هي حريق مكتبة الاسكندرية التي حرقها عمرو بن العاص بامر الامام عمر بن الخطاب على ما رواهُ مترجم[١] تاريخ القرون الوسطى نقلاً عن ابي الفداء (مجلد ١ صفحة ١٥١) وقد تأسف ابن خلدون المغربي ايضاً على علوم الفرس التي امر بمحوها عثمان بن عفّان اما المكاتب التي كانت باقيةً في انطاكية وبيروت وقيصرية فانها اندرست بمجرد رؤيتها الى اعلام المسلمين ومكاتب دمشق خربها يزيد بن عبد الملك الاموي سنة ١٠١ للهجرة (سنة ٧١٩ م)

وكذلك تأسف ابن خلدون المذكور على ما كان عزم عليهِ هرون الرشيد العباسي من خراب ايوان كسرى الذي كان بناهُ على ما حكاهُ مؤرخو العرب سابور ذو الاكتاف وقال انهُ لما شرع الرشيد المشار اليهِ في ذلك ادركهُ العجز وكان استشار عنهُ يحيى بن خالد البرمكي وهو في محبسهِ فنهاهُ عنهُ وقال لا تفعل يا امير المؤمنين واتركهُ ماثلاً يستدل بهِ على عظم ملك آبائك الذين سلبوا الملك من اهل ذلك الهيكل. فاتهمهُ الرشيد وظن بان اتخذتهُ النعرة للعجم وشرع في هدمهِ وجمع الايدي عليهِ واتخذ لهُ الفوس وحماهُ بالنار وصب عليهِ الخل حتى ادركهُ العجز بعد ذلك كلهِ وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيرهُ ثانيةً في التجافي عن الهدم فقال لا تفعل يا امير المؤمنين واستمرّ على ذلك لئلاَّ يقال بانك عجزت عن هدم مصنع من مصانع العجم فعرفها الرشيد واقصر عن هدمهِ

وليس ذلك باعجب من كون المأمون العباسي ابن الرشيد المشار اليهِ الذي كان مولعاً بالفلسفة وعلوم الاوائل اراد هدم الاهرام الشهيرة بمصر وجمع الفعلة لهدمها فلم يحُل بطائل قال ابن خلدون وشرعوا في نقبهِ فانتهوا الى جوٍّ بين الحائط الظاهر وما بعدهُ من الحيطان وهو الى اليوم في ما يقال منفذ ظاهر

---

(١) مترجم هذا الكتاب المطبوع في مصر هو رفاعة بك الطهطاوي الشهير والفصل المدرجة في هذه الجملة هو المترجم اوحى اليهِ وضعهُ في هذا الكتاب عوضاً عن فصل للمؤلف الاصلي انكرهُ عليهِ فلذا وضع هذا الفصل من كلامهِ هو نفسهُ بدلاً عنهُ

وقال المقريزي ايضاً لو امكن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الايوبي الذي استقلّ بملك مصر بعد ابيهِ ان يزيل هذه الاهرام ويمحو اثرها لما تأخر عن ذلك فانهُ ابتدأ بهدم الصغير منها ولا زال الى ان نفذت النفقات وتضاعف النصب ووهت عزائم العملة وكفوا محسورين لم ينالوا بغيةً بل شوهوا الهرم وابانوا عن عجزٍ وفشل

وكانت العامة ايضاً تتلف الآثار والابنية اما طمعاً في وجود الدفائن والخبايا كما فعل الوليد الاموي في منارة فاروس بالاسكندرية او لازالة ما ينكرون عليهِ كالهياكل والصور والاوثان نظير ما فعل رجلٌ يقال لهُ الشيخ محمد صائم الدهر الذي كان موجودًا في آخر القرن الثامن للهجرة والرابع عشر للميلاد فانهُ شوّه وجه الصنم الكائن بالقرب الاهرام المذكورة ويسمّونهُ ابا الهول او لاستعمال موادها في شيء آخر نظير ما فعل الامير بلاط بمصر سنة ٧١١ الهجرة (١٣١١ م) بكسرهِ الصنم المعروف بالسرية وقطعهُ اعتابًا وقواعد للعمد الصوان التي بجامع الجديد المعروف بالناصريّ

وليس انهم كانوا يفعلون ذلك في الآثار القديمة المتخلفة عن غير العرب فقط بل في كل التقلبات التي وقعت في دولهم الجديدة كانوا يهدمون ويحرقون ويمحون آثار بعضهم بعضاً قال المقريزي وهذا شأن الملوك ما زالوا يطمسون آثار من قبلهم ويميتون ذكر اعدائهم فقد هدموا بذلك السبب اكثر المدن والحصون وكذلك كانوا في ايام العجم وفي جاهلية العرب وهم على ذلك الى ايام الاسلام فقد هدم عثمان بن عفّان صومعة غمدان الذي مرّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة وهدم الآطام التي كانت بالمدينة وهدم زياد بن ابيهِ كل قصرٍ ومصنع كان لابن عامر في مصر وهدم بنو العباس مدن الشام لبني مروان

وقال ابن خلدون المغربي ان العرب اذا تغلبوا على اوطانٍ اسرع اليها الخراب لانهم امة وحشية باستحكام عوائد التوحش واسبابهِ فيهم فصار لهم خلقًا وجبلّة وكان عندهم ملذوذًا لما فيهِ من الخروج عن ربقة الحكم فغاية الاحوال

العادية عندهم الرحلة والتغلب واما الحجر فانما حاجتهم اليه لنصب آثافي لقدر فينقلونه من المباني ويخربونها عليه والخشب ليعمروا به خيامهم فيخربون السقف عليه فلذلك صارت طبيعة وجودهم منافية للبنــاء واذا تمّ اقتدارهم على ذلك بالتغلّب والملك بطلت السياسة في حفظ اموال الناس وخراب العمران فلا يرون لاعمال اهل الصنائع والحرف قيمةً ولا قسطًا من الاجر والثمن فهم متنافسون في الرياسة وقلّ ان يسلّم احدٌ منهم الامر لغيره ولو كان اباهُ او اخاهُ او كبير عشيرته الاّ في الاقلّ وعلى الكره فيتعدّد الحكام منهم والامراء وتختلف الايادي على البلاد فيفسد العمران وانظر الى ما ملكوهُ وتغلبوا عليه من الاوطان من لدن الخليقة كيف تقوّض عمرانهُ واقفر ساكنهُ فاليمن قرارهم هي خرابٌ الاّ قليلاً من الامصار وعراق العرب الذي كان للفرس اجمع قد خرب عمرانهُ والشام لهذا العهد وكذلك افريقية والمغرب لما جاز اليهــا بنو هلال وبنو سليم منذ اول المئة الخامسة (القرن الثاني عشر للميلاد) قد لحقت بها وعادت بسائطهُ خرابًا كلها بعد ان كان كلهُ عمرانًا

فبناء على ما ذكر جميعهُ يلزمنا ان نبحث هنا عن السبب الذي يتبع العقل في طلب قومٍ كالعرب المذكورين الذين هذه الصفات صفاتهم للعلوم والفنون والرغبة الزائدة في الفلسفة القديمة كما يتضح ذلك من الفصل الآتي والذي يظهر لنا بانهُ لا سبب لذلك يمكن ان نعتبرهُ وجيهًا الاّ رغبتهم الزائدة في معرفة مستقبل احوالهم التي منذ زمن جاهليتهم يظنون كل الظنّ بانها تحصل لهم جيدًا من اتقان علم الفلك لانهم كانوا يعتقدون في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات على ما سبقت الاشارة اليه في الكلام على الصناعة من الفصل الرابع من المقالة الرابعة في المدارك الغيبية واخيرًا أيّد لهم ذلك كل التأييد الاطباء الذين استخدموهم منذ ظهور الاسلام من الروم والفرس وغيرهم كما يتضح ذلك مما يأتي وبهذه الواسطة انساقوا الى طلب كل العلوم والمعارف الفلسفية لانهم اقنعوهم بما كانوا يعتقدونهُ وهو المعوّل عليه عندهم بانهُ لا يتاتى

لانسان ان يكون طبيبًا ما لم يكن منجمًا ولا منجمًا حاذقًا الاّ اذا كان فيلسوفًا ويبرهن لنا صحة ما قلناهُ ان الخلفاء العباسيين لم يطلبوا شيئًا من العلوم ولا ترجموا كتابًا من كتب الاعاجم قبل ان ترجموا كتاب سند هند الكبير للخليفة ابي جعفر المنصور العباسيّ كما سوف يأتي الكلام على ذلك في محلهِ وهكذا الخليفة المأمون الذي هو اوّل من ادخل العلوم المذكورة بين الاسلام لم يتقن علمًا من هذه العلوم الاّ علم الفلك

ومن ثمَّ عرفت العرب قدر الكتب القديمة وعدلوا عما كانوا اعتادوهُ من حرق المكاتب في البلاد التي كانوا يفتحونها وابدلوا الازدراء بهــا بالالتفات اليها والمحافظة عليها الى ان صارت عندهم من اعظم الغنائم التي يتحفون بهـــا ملوكهم فينقلونها الى عواصم بلادهم

وكانت بداءة هذا الفعل الحميد في زمن الخليفة هرون الرشيد خامس الخلفاء العباسيين المشار اليهم فان هذا الخليفة ابدى في العلم رغبةً فائقة قال بعض المؤلفين انهُ كان لا يخرج الاّ في مئة من العلماء ورفع منار المعارف في بلادهِ وقرب اليهِ اهلها ووضع لهم احكامًا حسنة كوجوب اقامة مكتب بجانب كل جامع فسرى العلم في مملكتهِ وبدل روح اهلها واستمالهم الى الحضارة

الفصل الرابع

في جمع الكتب القديمة وترجمتها

وكان لما افتتح الخليفة هرون الرشيد المتقدم ذكرهُ مدينة انقره وجد بها جندهُ كثيرًا من الكتب التي كانت محفوظة في خزائنها فاحضروها الى بغداد ومن ثمّ امر هذا الخليفة يوحنا بن ماسويه طبيبهُ وسوف ياتي ذكرهُ في الكلام على الطب ان يترجمها الى اللسان العربي فترجم اكثرها وكان جعفر البرمكي وزير هذا الخليفة وجماعةٌ من اهل بيتهِ يعتنون ايضًا بترجمتها اعتناء زائدًا فقال فيهم بعض الشعراء

اولاد يحيى اربعٌ كاربع الطبائعِ
فهم اذا اختبرتهم طبائع الصنائعِ

ومع ذلك لم يبلغ هذا الخليفة ولا غيرهُ ممن اتى بعدهُ درجة ابنهِ الخليفة عبد الله المأمون الذي مرّ ذكرهُ لان هذا الامير الذي اشتهر بكثيرٍ من المعارف والعلوم كان اكثر رغبةً ممّن تقدمهُ في طلب الفلسفة وكان يكرم العلماء واصحاب المعارف ويجمعهم من كل جهةٍ ليزين بهم دار سلطنتهِ ويعتني بكل جهدهِ في ترجمة الكتب اليونانية الى اللغة العربية قال بعض المؤلفين ان في ايام خلافة هذا الخليفة زهت العلوم واينعت حدائق المعارف فبعث العلماء الى الاقطار وجمع من كتب اليونان كل ما طالت يدهُ اليهِ ثم استخلص نفائسها وامر بترجمتهِ وتوزيعهِ على اهل بلادهِ وشغف بالعلم كل ايامهِ ولم يكن مجالس -

الاّ العلماء ولم يألُ جهدًا عن جمعهم اليهِ وقال آخرون انهُ بذل الى ثاوفيلس قيصر القسطنطينية مئة وزنة من الذهب على ان يبعث اليهِ بالاون الرياضي الشهير فابى واغلظ لهُ في الجواب بما معناهُ لا يليق بنا ان نبذل اهل العلم الى قوم متبربرين لكن صاحب تذكرة الحكم يقول غير ذلكَ وترجمة ما قالهُ هو ان المأمون ارسل رسولاً الى ملك الروم بهدايا وتحف جزيلة وطلب منهُ ان يبعث لهُ بكتب الفلاسفة التي كانت موجودةً وقتئذٍ بمكتبة اثينا قصبة اليونان فبعث بها اليهِ فاهتم بترجمتها الى العربية. واقتفى اثرهُ في هذه الهمة بعض الخلفاء من بعدهِ وزادت رغبة الناس في هذه الكتب وجدّوا في مطالعتها وتعلمها فكثرت العلوم الفلسفية واشتهرت اشتهارًا عظيمًا

قال ابن خلدون المغربي لم يصل الى العرب من علوم الفرس والكلدانيين واهل بابل والقبط شيء وانما وصل اليهم علوم امةٍ واحدةٍ وهي اليونان خاصةً لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتدارهِ على ذلك بكثرة المترجمين وبذل الاموال فيها

وذكر ابو معشر البلخي في بعض مؤلفاتهِ ان عدة المترجمين في التراجم اربعة اشخاص احدهم حنين بن اسحق العبادي وكان طبيب الخليفة المأمون المشار اليهِ وسيأتي ذكرهُ مع الاطباء وكان عارفًا باللغة اليونانية وماهرًا في العربية ايضًا اخذ العربية عن الخليل بن احمد فلما قدم الى بغداد في ايام المأمون امرهُ فترجم لهُ عدةً من الكتب منها كتاب اقليدس الذي نقحهُ وهذبهُ ثابت بن قرة الحراني الآتي ذكرهُ وكتاب المجسطي واكثر كتب الحكماء والاطباء وكان اشدَّ الجماعة اعتناء بتعريب هذه الكتب

والثاني يعقوب بن اسحق الكندي احد المنجمين وهو فيلسوف من فلاسفة المسلمين تحلت دولة المعتصم بهِ وبمؤلفاتهِ وسوف يأتي ذكرهُ

والثالث ابو الحسن ثابت بن قرة بن هرون ويقال زهرون بن ثابت بن كرايا بن مارينوس بن ما لاجريوس الحاسب الحكيم الحراني نسبةً الى حرّان

مدينة في بلاد الجزيرة وكان الغالب عليهِ الفلسفة ولهُ تآليف كثيرة في فنون من العلم مقدار عشرين تأليفًا واخذ كتاب اقليدس الذي عرَّبهُ حنين فهذبهُ ونقحهُ واوضح منهُ ما كان مستعجمًا على ما تقدم وكان صابيّ المذهب قيل انهُ كتب رسالةً في الصابئين فطُرد من بلادهِ فلقاهُ محمد بن موسى بن شاكر الآتي ذكرهُ وهو راجعًا في ما جمعهُ من الكتب من بلاد الروم فجاء بهِ الى بغداد فادخلهُ الخليفة في جملة المنجمين وسوف ياتي ذكرهُ في الكلام على علم الهيئة توفي سنة ٢٨٨ للهجرة (سنة ٩٠٠ م)

والرابع علي بن فرجان الطبري لكن ترجمة حنين المارّ ذكرهُ دونهم جميعًا هي اوضح وعباراتها احسن واصلح وقد اهتم حنين المذكور بترجمة وتلخيص وتنقيح كتب ابقراط وجالينوس وتهذيبها

وكان لحنين هذا ابنٌ يقال لهُ اسحق يلحق بابيهِ في النقل وفي معرفتهِ باللغات وفصاحتهِ فيها وكان يعرّب كتب الحكمة كما كان يفعل ابوهُ الاَّ ان الذي وُجد في كتب الحكمة من كلام ارسطاليس وغيرهِ اكثر مما يوجد في تعريبهِ لكتب الطب توفي سنة ٢٩٩ للهجرة (سنة ٩١١ م) في ايام خلافة المقتدر بالله

ويعلم من روايات بعض المؤلفين اسماء بعض الكتب التي ترجمها المترجمون المذكورون من كتب فلاسفة اليونانيين وعلمائهم في ذلك الزمان وقبلها العرب وهي

مؤلفات فيثاغورس في الارثماطيقي وعلم الموسيقى وغير ذلك من العلوم الرياضية

ومؤلفات افلاطون ومنها كتاب في النفس وكتاب السياسة المدنية وطيماوس البرهان في ترتيب العوالم الثلاث العقلية وهي عالم الربوبية وعالم العقل وعالم النفس وطيماوس الطبيعي في تركيب العالم الطبيعي وهذان الكتابان كان علمها هذا الفيلسوف الى تلميذٍ لهُ اسمهُ طيماوس فسماها باسمهِ .

ومؤلفات ارسطاليس في المنطق والاشكال الذين جعلهم آلةً للعلوم

النظرية وكتاب الخطوط وكتاب الخبل وكتاب الكون والفساد وكتاب العالَم والسماء وكتاب سمع الكيان وكتاب الآثار العلوية وكتاب الحيوان وكتاب النبات وكتاب الحسّ وكتاب النفس وكتاب الصحة والسقم وكتاب الشباب والهرم وكتاب في السياسة من جملة ما قالهُ فيهِ هذه الدائرة المشهورة وهي العالَم بستان سياجهُ الدولة . الدولة سلطان تحيى بهِ السنّة . السنّة سياسة يسوسها الملك . الملك نظام يعضدهُ الجند . الجند اعوان يكفلهم المال . المال رزق تجمعهُ الرعية . الرعية عبيد يكتنفهم العدل . العدل مألوف وبهِ قوام العالَم ثم ترجع الى الاول فتقول العالَم بستان سياجهُ الدولة

ومؤلفات ابقراط ومنها كتاب الفصول ومقدمة المعرفة وكتاب افيديما وكتاب ماء الشعر وكتاب الجنين وغير ذلك

ومؤلفات جالينوس قالوا انها تجاوز المئة

ومؤلف ديسقوريدس في الادوية

ومؤلفات اقليدس صاحب الهندسة ومنها كتاب المدخل وكتاب الاركان وكتاب المسبع وكتاب مساحة الدائرة وكتاب الاكرة والاسطوانة والمخروط وغير ذلك

وكتب بطليموس الذي كان فيلسوفًا واستاذًا في مدرسة الاسكندرية ونبغ في القرن الثاني بعد الميلاد في زمن اندريانوس احد قياصرة الروم وكان بارعًا في معرفة النجوم والعلوم الفلكية ولهُ تصانيف كثيرة منها كتاب المناظر وكتاب المقالات الاربعة في احكام النجوم وكتاب الموسيقى وكتاب الانواء وكتاب القانون والمجسطي المشهور وهو كتاب مطوّل في الهيئة ومعنى المجسطي الاعظم وكان شرحهُ الفضل بن حاتم التبريزي ثم اختصره محمد بن جابر الشيباني ذكروا انهُ ثلاث مجلدات احدهم في علم الهيئة وحركات النجوم والثاني لارسطاليس في صناعة المنطق والثالث كتاب سيبويه البصري وهو جامع لجميع قواعد النحو

وبينما كان العرب مشتغلون في الشرق بترجمة هذه الكتب لم ينتهِ القرن الثالث من الهجرة اوائل القرن العاشر من الميلاد حتى سرت هذه الرغبة الى العرب في بلاد المغرب ايضاً واخذ عبد الرحمن الآخر الملقب بالناصر بعد ان تولى مملكة الاندلس يبذل جهده بجعل مدينة قرطبة عاصمة بلاده شبيهة بمدينة بغداد مركزاً للخلافة ودارًا للعلوم وطلب من رومانس قيصر القسطنطينية رجلاً يعلم له عبيدًا ليكونوا مترجمين عنده فارسل له راهباً يسمّى نقولا ثم بعث الى افريقية وبلاد فارس ومصر وبلاد العرب بمن يشتري له الكتب او ينسخها اذا لم يتهيأ له ابتياعها وكتب بنفسهِ الى مؤلفي زمانهِ يطلب منهم كتبهم واجازهم عليها خير الجزاء حتى جمع على ما يقال اربع مئة الف مجلد او ست مئة الف على قول البعض وكان شديد العناية باجازة العلماء ومكتبتهِ ولا زال يجث عن العلوم والفنون ونقدمها ووسائل انتشارها في بلادهِ الى ان حصل على ما ارادهُ من ذلك بمدة خلافتهِ التي استغرقت نحو خمسين سنة

قال بعض المؤلفين لما فتح العرب الاندلس تولاها عشرون واليًا كان يقيمهم خلفاء دمشق او عمّالهم بافريقية من غير موارثة ولم يتجاوزوا في السمة لقب الامير وقضوا في الحرب جلّ زمانهم وان يكن بعضهم عنوا بترقية اسباب الرفاهة كالسمح بن مالك الخولاني فانهُ كان عالمًا بطريق الفلاحة والسقي على اصطلاح اهل مصر واشور وغيرها من بلاد المشرق وكتب لخليفة كتابًا بديعًا مستوفيًا وصف الاندلس وذكر فيهِ تدبير تربية غلاتها وتعميم فوائد استعمالها لكن لم تصفُ محاسن راحة البلاد ولم تبلغ الاندلس زهوها الاّ في زمان دولة بني أمية الذين اوّل من تسمّى منهم خليفةً وتلقب باميرالمؤمنين على ما سبق ايضاحهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة وادخل الى بلادهِ علوم الاقدمين التي نحن بصددها هو الامير عبد الرحمن الناصر المذكور

والظاهر ان العرب عندما شرعوا في ترجمة هذه الكتب اليونانية ومؤلفات العلوم الفلسفية وجدوا العلوم الادبية القديمة غير حماسية فلم تعجبهم شعراء مدينة

اثينا ولا رومية وكذلك لما كان من طبيعتهم ان لا تهمهم الامور المتعلقة بغيرهم فلم يلتفتوا الى مؤرخوها بل اعترفوا بنجابة فلاسفتها فقط ولذلك اهملوا ما ألفهُ هوميروس وفيرجيل من الاشعار والآداب ولم يترجموا الى لغتهم سوى تآليف اشهر الفلاسفة اليونانيين على ما تقدَّم

وكانت اصحاب البدع المتجددة من فرق الشيع الاسلامية المتعدّدة آخذةً وفتئذٍ في تشتيت عصابة بعضهم بعضًا وتفريق قوّة الأمة فمن ثمَّ بردت همتها وجمعت شدَّتها عن ان تفي بما كان قائمًا في ذهنها من ان تمحق عن وجه الارض كل من خالف ديانتها بل انكبوا جميعًا على مطالعة هذه الكتب والنظر بما فيها في كل من خلافتي بغداد والاندلس ليتمكنوا بواسطة العلوم الموجودة فيها من مقاومة بعضهم بعضًا قال ابن خلدون ان البلاد التي ذخرت فيها بحار العلم هي بغداد وقرطبة والقيروان والبصرة والكوفة

فلما طما بحر العمران والحضارة في الدول الاسلامية وعمَّ ذلك كل اقطارها وعظم الملك ونفقت اسواق العلوم انتسخت الكتب وأُجيد كتبها وتجليدها وملئت بها القصور والخزائن الملكية بما لا كفاء لهُ وتنافس اهل الاقطار في ذلك وتناغوا فيهِ

وكانوا يطوفون المدن والبلاد الاجنبية للبحث عن الكتب اليونانية وجمعها كما فعل الافرنج اخيرًا في الكتب العربية وغيرها فقد حكى ابن خلكان ان ابا عبد الله محمد واخويهِ احمد والحسن اولاد موسى بن شاكر (هم ثلاثة اخوة يُنسب اليهم جبل موسى اظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الاقل ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبةٍ وهو مجلد واحد) كان لهم همةٌ عالية في تحصيل العلوم القديمة وكتب الاوائل واتعبوا انفسهم في شأنها فانفذوا الى بلاد الروم من اخرجها لهم واحضروا النقلة من الاصقاع الشاسعة والاماكن البعيدة بالبذل السني توفي محمد المذكور سنة ٢٥٩ للهجرة (سنة ٨٧٣ م)

واحمد بن يوسف السليكي امنازي وزر لابي نصير احمد بن مروان الكردي صاحب تاريخ ميافارقين وديار بكر ترسل الى القسطنطينية مرارًا وجمع كتبًا كثيرة اوقفها على جامع ميافارقين وجامع امد توفي سنة ٤٣٧ للهجرة (سنة ١٠٤٥ م)

وبلغت كثرة الكتب عند الاهلين من العرب فضلاً عن الخزائن الملكية والمدارس الشهيرة هذا المقدار حتى انهُ اعجزهم حملهُ في رحلاتهم ولئن كان في ما ذكروهُ رائحة المبالغة فقد حكى ابو الفرج الاصفهاني ان الاصمعي سأَل ابن ابرهيم الموصلي وكان خرج مع الرشيد الى الرقة هل حملت معك شيئًا من كتبك قال نعم حملت منها ما خفَّ حملهُ فقال كم . قال ثمانية عشر صندوقًا فقال هذا وقد خففت فلو ثقلت كم كنت تحمل فقال اضعافها

ويحكى ايضًا عن الصاحب ابي القسم اسماعيل بن ابي الحسن بن عباد بن العباس بن عباد بن احمد بن ادريس الطالقاني بانهُ اعتذر الى نوح بن منصور احد ملوك بني سامان وكان استدعاهُ ليفوض اليهِ وزارتهُ بانهُ يحتاج الى اربع مئة جمل لاجل نقل كتبهِ خاصةً توفي سنة ٣٨٥ للهجرة (سنة ٩٩٥ م)

فاذن اذا كانت هذه حالة القوم من طلبة العلم وراغبيهِ فلا غرابة في ما قيل عن الاندلس بانها اصبحت في ختام القرن الحادي عشر (مبادئ القرن الخامس للهجرة) ذات سبعين مكتبة محشوة بكتب اهلها

قال صاحب المنتطف لم يكن العلم محصورًا في الخاصة من العرب بل كانت عامتهم على جانب عظيم من محبة المعارف ولو لم يحصلوها قال ابن سعيد في بعض كلامهِ عن قرطبة انها كانت اكثر بلاد الاندلس كتبًا واشدَّ الناس اعتناء بخزائن الكتب حتى ان الرئيس منهم الذي لا تكون عندهُ معرفة يحتفل في ان تكون عندهُ خزانة كتب في بيتهِ وينتخب فيها ليس الَّا لان يقال فلان عندهُ خزانة كتب والكتاب الفلاني ليس عند احدٍ غيرهِ والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصلهُ وظفر بهِ . وحكى غيرهُ بانهُ جرت مناظرة بين

ابن رشد وابن زهر (وكلاهما من فلاسفة العرب الآتي ذكرهم) فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة ما ادري ما تقول غير انهُ اذا مات عالمٌ باشبيلية فأُريد بيع كتبهِ حُملت الى قرطبة حتى تباع فيها

الفصل الخامس

في العلوم التي مارستها العرب عن اليونان

وكان العرب في طلبهم للعلوم القديمة اتّبعوا آراء الفلاسفة الذين سبقت الاشارة اليهم فتفرغوا بالكلية للعلوم المنطقية والهندسية والفلكية والطبية والكيمياء والنباتات وما وراء الطبيعيات وتدارسوا هذه العلوم وتقدموا فيها واعانهم ذلك على الترقي الى درجات الكمال كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية

الكلام على المنطق وفلاسفة العرب

اما المنطق فاخذوهُ عن منطق ارسطاليس بحسبما شرحهُ ابن سيناء وابن رُشد الآتي ذكرها والظاهر انهم لم يزيدوا عليهِ شيئًا يذكر واوّل من ترجمهُ الى العربيّة عبد الله بن المقفّع الخطيب الفارسي الذي اسلم في ايام ابي جعفر المنصور العباسي وكان كاتبًا لعيسى بن علي عمّ الخليفة المشار اليهِ وكان مشهورًا بالبلاغة ولهُ رسائل بديعة فاستكتبهُ ابو جعفر المشار اليهِ فترجم لهُ الثلاثة كتب الذين

لارسطاليس في المنطق وهو علمٌ من العلوم المدونة ويسمّى بالميزان ايضاً ويعرف بانهُ آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطاء في الفكر ونسبتهُ الى القلب كنسبة النحو الى اللسان والعروض للنظم ونحو ذلك

قال احد المؤلفين ان هذا العلم اشرق متلألئاً بعد ان ترجمت الفلسفة عند المسلمين الاَّ انهم اختصروا اخيرًا على مباديهِ حيث ضُرِب المثل عندهم "من تمنطق فقد تزندق" وقد لخص ابو نصر الفارابي الآتي ذكرهُ كتاب ارسطو في كتابهِ المسمّى بالثمانية وعلّق عليهِ شروحاً ولخصها ايضاً ابن رشد تلخيصاً حسناً ولحنين بن اسحق المسيحي الذي مرَّ ذكرهُ بجملة المترجمين في الفصل السابق كتاب المسائل في المنطق ولابنهِ اسحق كتاب اختصار اقليدس وكتاب المقولات وكتاب ايساغوجي واما مؤلفات يعقوب بن اسحق الكندي الآتي ذكرهُ فسوف تُذكر اسماؤُها في ترجمتهِ وللمتقدمين من بعدهِ ايضاً كتبٌ كثيرة فيهِ زاد عليها المتأخرون فمن الكتب المختصرة كتاب عين القواعد للكاتبي وكتاب المنهاج للاوحدي وكتاب القسطاس للسمرقندي وكتاب التجريد لنصير الدين الطوسي ومن المتوسطة كشف الاسرار لنصير الدين المذكور وعليهِ حواشي مهمّة لابن البديع البندي وكتاب جامع الدقائق الكاتبي وكتاب نخبة الفكر لابن واصل ومن الكتب المبسوطة المنطق الكبير للامام فخر الدين الرازي الآتي ذكرهُ وكتاب شرح القسطاس لمصنفهِ السمرقندي وكتاب شرح كشف الاسرار للكاتبي والبحر الخضم منطق الشفاء للشيخ الرئيس ابن سيناء بل ان معظم كتب المنطق مجموعة مع كتب الطبيعيات والالهيات من ذلك ما هو مختصر ككتاب كشف الحقائق لاثير الدين الابهري وكتاب تنزيل الافكار لهُ ايضاً ومن المتوسطة كتاب التلويحات للسهروردي الآتي ذكرهُ وكتاب التلخيص للامام فخر الدين المارّ ذكرهُ وعليهِ حواشي مفيدة للابهري وكتاب مطالع الانوار للارموي وكتاب الحكمة الجديدة لابن كونه وكتاب المعتبر لابي البركات ومن المبسوطة الشفاء وشرح التلويحات لابن كونه ايضاً وكتاب شرح الملخص للكاتبي وكتاب

شرح الاشارات والتنبيهات لنصير الدين الطوسي وبذلك كفاية

غير ان المتقدين عليهم من الاجانب يقولون ان منطقهم افضى بهم الى مراعاة اللفظ اكثر من مراعاة المعنى فلقبهم بعضهم بحكماء الالفاظ وبعضهم بالهاذرين وفي ما ذكرناهُ في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف وجه ٩٥ ما اقاموا بهِ الحجة على خلل قواعد هذا العلم عند العرب ما يغني عن اعادتهِ هنا

ومن ثمَّ قام بين العرب عددٌ غفير من الفلاسفة الذين اتبعوا في الفلسفة فلسفة ارسطو في ما لا يمس منها اصول معتقدهم اشهرهم يعقوب بن اسحق الكندي الذي مرَّ ذكرهُ بجملة مترجمي الكتب واشتهر بفيلسوف العرب وكان من ابناء ملوكها قال صاحب تذكرة الحكم انهُ لم يشتهر احدٌ غيرهُ بالفلسفة في الاسلام ولهُ تصانيفٌ في اكثر العلوم تبلغ خمسين كتابًا منها كتاب في المنطق وكتاب التوحيد المعروف بنعم المذهب وكتاب في الردّ على الذين يذهبون مذهب الازلية القديمة وكتاب الموسيقى وكتاب في اثبات النبوة وكتاب في الادب ورسالة تسلية الاحزان وقال ابن خلكان كان يعقوب بن اسحق الكندي المسمَّى فيلسوف الاسلام من ولد الاشعث بن قيس من الكوفة وانتقل الى بغداد واشتغل في علم الفلسفة والادب وحلَّ مشكلات كتب الاوائل وحذا حذو ارسطاليس وصنف الكتب الجليلة الجمَّة واجودها كتاب اقسام العقل الانسي وكتاب الجوامع الفكرية وكتاب الفلسفة الاولى وقال بعض مؤلّفي الافرنج ان يعقوب الكندي كان من جملة المشهورين في استخراج الكتب ولهُ مؤلّفات منها كتاب الفلسفة الاولى في ما دون الطبيعيات والتوحيد وكتاب الفلسفة الداخلة والمسائل المنطقية وما فوق الطبيعيات ورسالة في ان الفلسفة لا تنال الاَّ بعد الرياضيات وكتاب الحثّ على تعلم الفلسفة ورسالة في كميَّة كتب ارسطو وكتاب في قصد ارسطو من المقولات ورسالتهِ الكبرى في مقياسهِ العلمي وكتاب في اقسام العقل الانسي وكتاب في ماهية العلم واقسامهِ وكتاب في ان افعال الباري تعالى كلها عدل لا جور فيها وكتاب في ماهية الشيء الذي لا نهاية لهُ

وكتاب في الفاعلة والمنفعلة من الطبيعيات الاول وكتاب في عبارات الجوامع الفكرية وكتاب ابساغوجي لفرفريوس وكتاب في المدخل المنطقي مبسوط وآخر مختصر ومسائل كثيرة في المنطق وغيره ورسالات كثيرة في كل العلوم وهي مئتان وخمسون رسالة مفيدة بكل علم اقتضتهُ وكلها مذكورة في كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة

ومنهم ابو النصر محمد بن طرخان بن اوزلغ المشهور بالفارابي وهو معدود من اكابر فلاسفة المسلمين. قال صاحب تذكرة الحكم بانهُ لم يكن فيهم من بلغ رتبتهُ وهو تركي الاصل من مدينة فاراب كان يقول بعدم انقراض الانواع واستحالة انقطاع المكونات وخصوصاً في النوع الانساني ووافقهُ على ذلك حكماء الاندلس واقاموا عليهِ الادلة التي ردَّ عليها ابن سينا الآتي ذكرهُ وكان يملي على تلامذتهِ كتب ارسطاليس في المنطق ويشرحها لهم لانهُ كان ارتحل الى حرّان وفيها يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني فاخذ عنهُ طرفاً من هذا العلم ثم قرأ في بغداد علوم الفلسفة وتناول جميع كتب ارسطاليس وتمهر في اخراج معانيها ولهُ كتاب جليل في احصاء العلوم والتعريف باغراضها لم يسبق اليهِ وألف كتاباً في السياسة المدنية وقد ذكرهُ بعض مؤلفي الافرنج بجملة مستخرجي الكتب وقال انهُ لخص كتاب ارسطو في كتابهِ المسمّى بالثمانية في علم المنطق وعلّق عليهِ شروحاً على ما سبقت الاشارة اليهِ في الكلام على المنطق وذكر بعض مؤرّخي العرب بانهُ هو الذي انشأ القانون (آلة من آلات الطرب) واهداهُ الى سيف الدولة بن حمدان العدوي فاجازهُ جائزة عظيمة توفي بدمشق سنة ٣٣٩ للهجرة (سنة ٩٥٠ م)

وابن سينا الشيخ الرئيس ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري المشهور الذي مرَّ ذكرهُ كان عارفاً بحساب الهندسة والجبر والمقابلة وقرأ على الحكيم عبد الله الناتلي وفي بعض المؤلفات ابي سهل المسيحي الجرجاني ايساغوجي واحكم عليهِ المنطق واقليدس والمجسطي وفاقهُ اضعافاً كثيرة حتى اوضح لهُ منها

رموزًا لم يكن الناتلي يدريها ثم اشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعي والالهي وغير ذلك ثم رغب في الطبّ وألف كتابهُ الاوسط في جرجان ثم ألف كتاب القانون وكتاب الشفاء والنجاة والاشارات ويقال ان لهُ نحو مئة مصنّف ولهُ القصيدة المشهورة في النفس التي مطلعها

هبطت اليك من المحلّ الارفعِ ورقاء ذات تعززٍ وتمنّعِ

وقد أُتهم بحرق مكتبة الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان لينفرد بمعرفة ما حصَّلهُ منها وينسبهُ لنفسهِ (كما نُسِب الى هبوقراط حرق مكتبة كوس لهذه الغاية) وزعموا انهُ حرقها لما كان يعالج هذا الامير في مرضهِ وكانت عديمة المثيل ويقال انهُ كان يستفيد من مؤلفات الفارابي المار ذكرهُ في الفلسفة وخالفهُ في قولهِ بعدم انقراض الانواع وردَّ على ذلك برسالةٍ سماها رسالة حيّ بن يقظان اقام فيها ادلّةً لم يعتبرها ابن خلدون المغربي مع انهُ موافقًا لرأيهِ وذكرهُ ايضًا بعض مؤلفي الافرنج بجملة الذين استخرجوا الكتب واتهمهُ بانهُ كان يعكّس في استخراجها لانهُ كان يحذف اشياء كثيرة ويضع عوضها من اختراعهِ وتخيلاتهِ توفي سنة ٤٢٨ للهجرة (سنة ١٠٣٦ م)

وابو حامد محمد بن محمد بن احمد الغزالي زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي حجة الاسلام ومناقض فلسفة اليونان ومن مصنفاتهِ الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه وكتاب احياء علوم الدين وهو انفس الكتب واجلها ولهُ في اصول الفقه المستصفى ولهُ المنخول والمنتحل في علم الجدل وتهافت الفلاسفة ومحك النظر والمقاصد والمضنون بهِ على غير اهلهِ والمقصد الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى ومشكاة الانوار والمنقذ من الضلال وحقيقة القولين وغير ذلك من الكتب النافعة توفي سنة ٥٠٥ للهجرة (سنة ١١١١ م)

وابن طُفَيل ولم اقف على ترجمتهِ وانما قيل عنهُ بانهُ هو اوّل مَن علّم العرب بان الانسان ترقى في الاصل من الحيوانات الدنيا على ما يعلّم

درون الانكليزي في ايامنا هذه

وابن رُشد ابو الوليد محمد بن احمد بن رُشد المالكي القرطبي اشهر فلاسفة العرب في الاندلس اخذ عن اشهر الفلاسفة في عصرهِ وتخرج في الطبّ والفقه والفلسفة وكان بينهُ وبين ابن عربي الفيلسوف والعالمين الشهيرين ابن طفيل وابن زهر علائق وطيدة نفاهُ المنصور بالله من اشبيلية لكونهِ وشيَ اليهِ بهِ بانهُ يجحد القرآن ويخالفهُ فدُعي الى مراكش لان سلطانها رغب في مطالعة اقوال الفلاسفة والتخرج فيها وكان ابن رُشد يذهب الى ان ارسطو اعظم الفلاسفة فترجم مؤلفاتهِ وشرحها بضبطٍ وتروٍّ على ان في تآليفهِ ما يوضح جليًّا متابعتهُ للفلسفة الافلاطونية الجديدة (ومن اراد الوقوف على مبادئ هذه الفلسفة فليراجع كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف صفحة ١٥٩ وشرح ارجوزةً في الطب لابن سينا. وصنّف تهافتًا من طرف الحكماء ردًّا على تهافت الغزالي الذي مرَّ ذكرهُ ذكر فيهِ ان ما ذكرهُ الغزالي بمعزلٍ عن مرتبة اليقين والبرهان وقال في آخرهِ لاشكَّ ان هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما اخطأ على الحكمة ولهُ رحلة تُنسَب اليهِ وكتاب فصل المقال في ما بين الشريعة والطبيعة من الاتصال وهو كتابٌ يبحث فيهِ عن العلم الالهي وتلخيص كتاب الكون والفساد وهو مقالتان لارسطو ولهُ الكليات المعروفة بكليات ابن رُشد واصل مؤلفاتهِ في العربية نادر الوجود الآن الّا ان اكثرها مترجم الى اللغة اللاتينية ومن ذلك شرح اقوال ارسطو مع الردّ على الغزالي وقد رُتب احدى عشر مجلدًا وطُبع في البندقية سنة ١٥٦٠ م (سنة ٩٦٨ للهجرة) وترجم كثير من المؤلفات المذكورة الى اللغة العبرانية واخذ عنهُ كثيرون من الافرنج ايضًا عند ما كانت تُدرَس كتبهُ في مدارس اسبانيا وكردوفا من بلاد المغرب وكان الذين ينظرون الى الاستقبال من الحركات الفلكية ينسبون اليهِ وقد كتب اشياء تتعلق بالفلك اهمها ما قررهُ عن كلف الشمس ومن الذين كتبوا عن فلسفتهِ في زماننا هذا رينان الفرنسوي فانهُ الف كتابًا سماهُ ابن رُشد قرّر فيهِ سيرتهُ ومؤلفاتهِ . وقال

كان اعظم فلاسفة القرون المتوسطة التابعين لارسطو وطُبِع هذا الكتاب في باريس سنة ١٨٥٣ م توفي ابن رشد سنة ٥٩٥ للهجرة (سنة ١١٩٨ م)

وابن زُهر ابو بكر محمد بن ابي مروان عبد الملك بن ابي العلاء زُهر بن ابي مروان عبد الملك بن ابي محمد بن مروان بن زُهر الايادّي الاندلسيّ الاشبيليّ كان متمكنًا من اللغة وحافظًا لشعر ذي الرمة بارعًا في الاقوال الطبية قال في حقّ جدهِ ابي العلاء زهر انهُ كان وزير ذلك الدهر وعظيمهُ وفيلسوف ذلك العصر وحكيمهُ توفي ممتحنًا بعلةٍ بين كتفيهِ سنة ٥٢٥ للهجرة (سنة ١١٣٠ م) ثم قال في حقّ جدّ ابيهِ عبد الملك انهُ رحل الى المشرق وبهِ طبب زمانًا طويلاً وتولّى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان ثم استوطن مدينة دانية وطار ذكرهُ فيها الى اقطار الاندلس والمغرب واشتهر بالتقدّم في علم الطب حتى فاق اهل زمانهِ ومات هناك . ثم قال في حقّ جدّ جدهِ محمد بن مروان انهُ كان عالمًا بالرأي حافظًا للادب حاذقًا بالفتوى مقدمًا بالشورى متقنًا الفنون رسيًا فاضلاً جمع الرواية والدراية وتوفي بطلبيرة سنة ٤٢٢ للهجرة (سنة ١٠٣٠ م) وتوفي ابو بكر في سنة ٥٨٥ للهجرة (سنة ١١٩٨ م)

وابو بكر بن باجة وهو محمد بن باجة التجيبي السرقسطي المعروف ايضًا بابن الصائغ كان آخر فلاسفة المسلمين بالاندلس عارفًا بالعلوم والفنون مشتغلاً بالسياسة وهو ينسب الى التعطيل ومذهب الحكماء والفلاسفة وانحلال العقيدة انكر واجب الوجود واعتقد ان الزمان دور وان الانسان كالنبات وغيرهِ ولهُ تصانيف في الرياضيات والمنطق قُتل بالسمّ في مدينة فاس بين سنة ٥٢٣ وسنة ٥٢٣ للهجرة (سنة ١١٢٨ م)

ويحيى بن حبش بن اميرك الملقَّب بشهاب الدين السهروردي معدودٌ من جملة فلاسفة المسلمين وحكمائهم . قيل انهُ كان بارعًا في فنّ الشعبذة ايضًا ويعجب منهُ اهل عصرهِ كما يعجب اهل اوربا في عصرنا هذا من خزعبلات بوسكو الشهير في بلادهم وغيرهِ . يحكى عنهُ انهُ كان مرافقًا لرجل في طريق الشام

فاشتريا من راعٍ تركماني خروفاً بعشرة دراهم ثم بعد ان اخذاهُ وانفصلا عن الراعي قليلاً واذا بتركماني آخر جاء يتبعهما وطلب منهما ان يردَّا لهُ الخروف او يعطياهُ عشرة دراهم أُخر لان الخروف قيمتهُ عشرون درهماً فوقف لهُ الشهاب وبدى يحاورهُ الى ان استشاط التركماني غيظاً وامسك بيدهِ ليجذبها اليهِ واذا بيدهِ قد قُلعتْ بيد التركماني ودمهِ يجري فخاف التركماني والقاها على الارض وهرب فمد يدهُ الشهاب ورفعها واذا بها منديل كان في يدهِ اوهم التركماني به هذا الوهم وينقلون عنهُ اموراً كثيرة غريبة مثل هذه ومن مؤَلفاتهِ كتاب التنقيحات في اصول الفقه وكتاب التلويحات وكتاب الهياكل وكتاب حكمة الاشراف ولهُ ايضاً رسالة معروفة بالغربة الغريبة على مثال رسالة الطير ورسالة حيّ بن يقظان لابن سينا وفيها بلاغة تامةٌ اشار بها الى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء وكان يُتهم بالزندقة ويعتقد ازلية العالم حبسهُ الملك صلاح الدين الايوبي في حلب وقتلهُ خفيةً سنة ٥٨٧ للهجرة (سنة ١١٩١م)

الكلام على علم الفلك والطبيعيات

لما لم يكن للعرب في زمن جاهليتهم من العلوم والفنون ما ينبهّ افكارهم الى البحث عن العلل الاصلية التي تسبب عنها الحوادث الطبيعية والتقلبات الجوية والتغيرات الفلكية وما يتعلق بالعناصر وغيرها من المكوّنات العلوية والارضية وانما كانوا ينظرون اليها نظراً بسيطاً ونظراً لما هو مغروسٌ فيهم من الفصاحة الغريزية كانوا يضعون لكلّ نوع من النجوم او من العناصر التي تتركب منها الكرة الارضية اساء تختلف بحسب اختلاف تقلباتها الطبيعية كما يتضح ذلك من التفاصيل الآتية بهذا الباب على قدر الامكان وبناء على ذلك نقسم الكلام هنا الى نوعين الاوّل في معارف العرب القديمة الفلكية والطبيعية والثاني في العلوم التي مارسوها في العصر الاسلامي بعد ترجمة الكتب على ما تقدم .

في معارف العرب الفلكية والطبيعية

لا يخفى بان العرب في الجاهلية كانت تعتقد في انواء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات على ما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وكان ذلك موضوع معارفهم الفلكية ولازالوا عليهِ الى ان ابطلهُ الاسلام والانواء هي سقوط نجمٍ من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبهِ من المشرق

وكانوا يسمّون اوّل نوّ السنة البدريّ ويكون من تاسع ايلول الى ثامن عشر تشرين الاوّل ونوّ سقوط الفرعين وبطن الحوت والوسميّ من هناك الى تاسع كانون الاوّل ونوّ سقوط الشرطين والبُطين والثريا والدَّبران والولي من هناك الى ثامن عشر نيسان ونوّ سقوط الهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصدفة والعواء والسواك والغُمير من هناك الى تاسع حزيران ونوّ سقوط الغفر والزباني والاكليل والقلب والبسرى من هناك الى خامس تموز ونوّ سقوط الشولة والنعائم وبارح القيظ من هناك الى ثالث عشر آب ونوّ سقوط البلدة وسعد ذابح وسد بلع واحراق الهواء من هناك الى ثامن ايلول ونوّ سقوط سعد السعود وسعد الاخبية وهو البدريّ اوّل انواء السنة ذُكر اولاً

وكانوا يعرفون النجوم السيارات السبعة على رأي القدماء وهي الشمس والقمر والمريخ والمشتري والزهرة وعطارد وزُحل و يعرفون ايضاً ابراج الشمس ومنازل القمر

وكانوا يقسمون السنة كما هو الآن اي بعد الاسلام الى اثني عشر شهرًا قمريًا وقبل ظهور الاسلام بنحو مئتي سنة تعلّموا كبس الشهور فكانوا يكبسون كل ثلاثة اعوام شهرًا واحدًا لاجل مطابقة السنة القمرية على دورة الشمس السنوية فيقع الحجّ في زمنٍ واحد لا يتغير مناسب الى اشغالهم وكان يتولى ذلك النَسأة

نسبةً الى النَسيء يعني منسي الشهور وهي الايام التي يضمها المصريون الان على شهورهم فلما جاء الاسلام ابطل الكبيس وابقى الشهور القمرية على ما كانت عليهِ حسبما سبقت الاشارة اليهِ في الفصل الثالث من المقالة الرابعة

وجميع فرق الاسلام ما عدا الشيعة تعتبر في احكامها الشرعية روْية الهلال وابتداء سنتهم المحرَّم وجعلوا شهور السنة شهرًا كاملاً ثلاثين يومًا وشهرًا ناقصًا تسعة وعشرين يومًا لتتمّ بذلك السنة القمرية التي هي ثلاث مئة واربعة وخمسون يومًا وخمس وسدس . قال الامام المقريزي وزادوا من اجل هذا الكسر يومًا واحدًا في ذي الحجة اذا صار هذا الكسر اكثر من نصف يوم فيكون ذي الحجة في تلك السنة ثلاثين يومًا ويسمّون تلك السنة كبيسة ويصير عددها ثلاث مئة وخمسة وخمسين يومًا فيجتمع بذلك في كل ثلاثين سنة من الكبس احد عشر يومًا

وقوله في كل ثلاثين سنة يريد بذلك في كل ثلاثين سنة قمرية وتسمَّى دورًا فيكون منها تسعة عشر بسيطة واحدى عشر كبيسة وهذه الاخيرة هي الثانية والخامسة والسابعة والعاشرة والثالثة عشر والسادسة عشر والثامنة عشر والحادية والعشرون والرابعة والعشرون والسادسة والعشرون والتاسعة والعشرون

واوّل الشهور عند العرب كما هو عند غيرهم موافق الى الثامن والخامس عشر والثاني والعشرين والتاسع والعشرين منه فاذا كان اوّل المحرَّم يوم الاحد مثلاً فيكون اول صفر يوم الثلاثاء واول ربيع الاول يوم الاربعاء واول ربيع الآخر يوم الجمعة واول جمادى الاول يوم السبت واول جمادى الاخر يوم الاثنين واوّل رجب يوم الثلاثاء واول شعبان يوم الخميس واول رمضان يوم الجمعة واوّل شوال يوم الاحد واوّل ذي القعدة يوم الاثنين واوّل ذي الحجة يوم الاربعاء . واذا كان اوّل محرم يوم الاثنين فانهُ يكون اوّل صفر يوم الاربعاء واوّل ربيع الاوّل يوم الخميس واذا كان اوّل محرَّم

يوم السبت فانهُ يكون اول صفر يوم الاثنين واول ربيع الاول يوم الثلاثاء وقس على ذلك

وكانت العرب العرباء تسمّي الشهور القمرية نانق ونفيل وطليق واسخ وانخ وحلك وكسح وزاهر ونوط وحرف وبغش. فنانق هو المحرّم ونفيل صفر وهكذا ما بعدهُ على سرد الشهور اما ثمود فكانت تسميها موجب وموجر ومورد وملزم ومصدر وهوبر وهوبل وموها وديمر ودابر وصفيل ومسبل. فموجب هو المحرّم وموجر صفر الّا انهم كانوا يبدون بالشهر من ديمر وهو شهر رمضان فيكون اوّل شهور السنة عندهم وكذلك باقي العرب كانت تسميها باسماء أُخر وهي. موتمر وناجر وخوّان وصِوان وضنم وزبا والأصمّ وعادل ونابق ووعل وهواع وبرك ومعنى المؤتمر انهُ يأتمر بكل شيء مما تأتي بهِ السنة من اقضيتها وناجر من النجر وهو شدّة الحرّ وخوّان فعّال من الخيانة وصُوان بكسر الصاد وضمها فعّال من الصيانة والزباء الداهية العظيمة المتكاثفة سمّي بذلك لكثرة القتال فيهِ

ومنهم مَن يقول بعد صوان الزباء وبعد الزباء بائدة وبعد بائدة الأصمّ ثم واغل وباطل وعاطل ورنة وبرك فالبائد من القتال اذا كان يبيد فيهِ كثيرٌ من الناس وجرى المثل بذلك فانهم يقولون "العجب كل العجب بين جمادى ورجب" وكانوا يستعجلون فيهِ ويتوخون بلوغ الثأر والغارات قبل رجب فانهُ حرامٌ ويقولون لهُ الأصمّ لانهم كانوا يكفّون فيهِ عن القتال فلا يُسمع فيهِ صوت سلاح. والواغل الداخل على شربٍ ولم يدعوهُ وذلك لانهُ يهجم على شهر رمضان وكان يكثر في شهر رمضان شربهم الخمر لان الذي يتلوهُ هو شهر الحج وباطل هو مكيال الخمر سمّي بهِ لافراطهم فيهِ في الشرب واما العادل فانهُ من العدل لانهُ من اشهر الحجّ وكانوا يشتغلون فيهِ عن الباطل واما الزباء فلان الانعام كانت تذب فيهِ لقرب النحر واما برك فهو لبروك الابل اذا حضرت المنحر

وقد روي ايضًا انهم كانوا يسمّون المحرّم موتمر وصفر ناجر وربيع الأوّل بصّار وربيع الآخر خوّان وجمادى الأوّل حنتن وجمادى الاخر الرنة ورجب

الاصمّ وهو شهر مُضَر وكانت العرب تصومهُ في الجاهلية وتميراهلها ويأمن بعضهم بعضاً فيهِ ويخرجون الى الاسفار ولا يخافون وشعبان عادل ورمضان نانق وشوال واغل وذو القعدة هواع وذو الحجة برك ويقال له ايضاً ابروك ويسمّونهُ الميمون

ثم سمَّت العرب شهورها بالاسماء المعروفة الآن من امورٍ اتفق وقوعها عند تسميتها فالمحرَّم كانوا يحرّمون فيهِ القتال وصفر كانت تصفر فيهِ بيوتهم لخروجهم الى الغزو وشهرا ربيع كانا زمن الربيع وشهرا جمادى كان يجمد الماء فيهما لشدة البرد قال الشاعر

في ليلةٍ من جمادى ذات انديةٍ لا يبصر الكلب من ظلمائها الطنبا

ورجب الوسط وشعبان يشعب فيهِ القتال ورمضان من الرمضاء لانهُ كان يأتي فيهِ القيظ وشوال تشيل الابل فيهِ اذنابها وذو القعدة لقعودهم في دورهم وذو الحجة لانهُ شهر الحج

قال بعض المؤلفين ولا يجوز عند بعض العلماء ان يقال جاء رمضان بل جاء شهر رمضان بناء على الحديث لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من اسماء الله تعالى ولكن قولوا جاء شهر رمضان

ويستبين مما ذكر ان الاتفاقيات التي وقعت عند تسمية الشهور بهذه الاسماء كانت عند ما استعملت العرب الكبس لاجل مطابقة السنة القمرية على ما تقدم اذ جُعلت الشهور وقتئذٍ على حالةٍ واحدة لا تتغير

واما السبب في كون شهري جمادى اللذين يجمد الماء فيهما وُضعا بعد شهري الربيع فهو لان البعض من العرب يجعل الربيع الفصل الذي تدرك فيهِ الثمار وهو الخريف فيكون الشتاء بعدهُ ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الفصل الذي تدعوهُ العامة الربيع ثم فصل القيظ وهو الصيف

ومن العرب مَن يسمّي الفصل الذي يعتدل وتدرك فيهِ الثمار وهو الخريف -

الربيع الاول ويُسمي الفصل الذي يتلوهُ الشتاء وما يأتي فيهِ الكمام والنور الربيع الثاني والحاصل بان غالبهم متفقون على ان الربيع هو الخريف

ويقال ان القدماء من الفرس والصغد وقبط مصر في الزمن الأوّل لم يكونوا يستعملون الاسابيع في الايام واول من استعملها هم اهالي بر الشام وما حواليهِ من اجل ما اخبر بهِ موسى النبي في التوراة وهو ان الله خلق السموات والارض في ستة ايام واستراح في اليوم السابع ثم انتشر ذلك في سائر الامم واستعملهُ العرب العاربة بحسب تجاور ديارهم وبلاد الشام

وكانوا يسمون اليوم الاول من الاسبوع وهو الاحد أَوهد والاثنين أَهوَن والثلاثاء جُبَار والاربعاء دُبار والخميس مؤنس والجمعة عَرُوبة والسبت شيار وزعموا ان اول من سمّى يوم الجمعة عروبة هو كعب بن لوي وقيل ان عروبة اسم يوم الجمعة باللغة السريانية ثم تعرّب قال الشاعر

علمت بان اموت وان موتي بأَوْهد او بأَهوَن او جُبَارِ
او التالي دُبارٌ او بوافي بمؤنس او عرُوبة او شِيارِ

ولما كانت شهور العرب مبنية على مسير القمر واوائلها مقيدة برؤْية الهلال والهلال يُرى لدن غروب الشمس صارت الليلة عندهم قبل النهار فيجعلون اليوم من غروب الشمس الى غروبها

ويسمّون اول ساعةٍ من الليل ناشسة الليل والشفق ثم العشوة ثم الغسق ثم هدأَة ثم شرع ثم جنح ثم زلفة ثم هزيع ثم عَبَس ثم سَحَر ثم الفجر ثم الصبح

واول ساعةٍ من النهار البكور والثانية البزوغ والثالثة الرأْد والرابعة الضحى والخامسة المتوع والسادسة الظهيرة والسابعة الزوال ويقال لها الهاجرة ايضاً والثامنة الاصيل والتاسعة العصر والعاشرة الطفل والحادية عشرة الحرور والثانية عِشرة الغروب . اما البَرْدان فهما طرفا النهار اي الغداة والعشي والاضحِىّ اليوم الذي تطلع شمسهُ وتصفو سماؤُهُ

ويسمّون ايضًا كل ثلاث ليالٍ من القمر باسماء اولها الغُرَر وهي الثلاث الليالي الأُوَل من الشهر ثم النُفَل ثم تُسع ثم عُشَر ثم البيض ثم الدُرَع ثم الظُلَم ثم الحنادس ثم الدراري ثم المحاق

وكذلك يسمّون الليلة الاولى من القمر الغُرّة واول الليالي البيض وهي الليلة الثالثة عشرة العفراء وبعدها البلماء وهي ليلة البدر واول ليالي المحاق وهي الثامنة والعشرون الدعجاء والتي بعدها الدهماء والاخيرة الدلماء وقيل السواء ليلة اربع عشرة من الشهر والسرار آخر ليلة منهُ وقيل الدأداء آخر الشهر

والبَرَاء اول ليلةٍ او يوم من الشهر او آخرها او آخرهُ قيل لها ذلك لتبرؤ الشمس من الشمس وابن البراء آخر ليلة من الشهر او آخرهُ وليلة التمام اطول ليالي الشتاء وهي ثلاث لا يستبان نقصها او هي اذا بلغت اثني عشر ساعة فصاعدًا والتهواء طائفة من الليل يقال مضى تهواءٌ من الليل اي طائفة منهُ والجَوْش القطعة العظيمة من الليل او من آخرهِ والجوشن صدر الليل او وسطهُ والحراج من الليالي الشديدة البرد والحُمِقات الليالي التي يطلع القمر في جميعها اي من اول الليل الى آخرهِ وقد يكون ذلك من دون غيمٍ فتظن انك قد اصبحت. والخِرمِس الليل المظلم

ويسمّون ظل القمر السُمَر واحاديث الليل السَمَر ومن ذلك المسامرة وهي المحادثة والمحدثون السُمّار كما يعبرون عن الاحاديث المستظرفة بالخَزَعْبَل وعن الباطلة بالخُزَعْبَل وعن الاضحوكة بالخُزَعبِلة وعن المزاح والتلعب بالخُزْعالة.

اما قولهم حديث خرافةٍ فالخرافة اسمٌ مشتق من اختراف السمر اي استظرافهُ ومن امثالهم أَحلى من حديث خرافةٍ ويقال هو اسم رجل من عذرة استهوتهُ الجنّ مدةً ثم لما رجع أَخبر قومهُ بما رأَى فكذبوهُ حتى قالوا لما لا يمكن حديث خرافةٍ وفي الحديث خرافة حقٌ يعني ما تحدّث بهِ عن الجنّ حقٌ ذكرهُ الميداني في تفسير المثل

ومن امثالهم "لا آتيك السمر والقمر" قال الميداني عن الاصمعي السمر عندهم

الظلمة والاصل فيهِ انهم كانوا يجتمعون فيسمرون في الظلمة ثم كثر الاستعمال حتى سموا الظلمة سمرًا وانشد في ان السمر الظلمة

لا تسقني ان لم أَزُرْ سَمَرًا   غطفان موكب جحفلٍ ضخمِ
تُدعى هوازن في طوائفهِ   يتوقدون توقد النجمِ

ويسمون الليل المقمر ابن سمير وفي محيط المحيط ابن ثمير بالثاء ايضًا والليل المظلم ابن جُمَير وقالوا السُمير والجُمير الدهر وابناه جُمير الليل والنهار سميا بذلك للاجتماع فانهُ يقال أجمر القوم على الشيء اي اجتمعوا وسميا ايضًا ابني سمير لانهُ يسمر فيهما ويسمون الليل الكافر ايضًا لكفرهِ الاشياء اي سترهِ والليلة الطَلق والطلقة الساكنة التي لا حرّ فيها ولا قرّ

وفي درّة الغواص وغيرها من كتب اللغة السمر حديث الليل خاصةً والطروق الاتيان ليلاً والتغليس سير القوم مع الصبح والإدلاج بكسر الهمزة سيرهم من اول الليل والأدلاج بفتحها سيرهم من آخر الليل والتأويب سيرهم نهارًا ونزولهم ليلاً والسرى سير الليل خاصةً والاسآد سيرهم ليلاً ونهارًا والمقيل الاستراحة وقت الهاجرة والتغوير اذا نزلوا للاستراحة في نصف النهار والتعريس اذا نزلوا في نصف الليل والاغذاذ الاسراع فيهِ وتهجّد المصلّي اذا تنفل في ظل الليل والاستظلال يكون من الحرّ والاستذراء يكون من البرد والاستكنان من المطر

ويعبرون عن الشمس في وقت ارتفاعها بالغزالة وعند غروبها بالجونة وعن اشدّ الاوقات حرًّا بالهاجرة والحُماريّ والحَمارّة والحِمِرّ وهو من حرّ القيظ اشدّهُ وكذلك الحُنْسذة الحرّ الشديد مأخوذ من حناذٍ وهو من اسماء الشمس ويقابل شهري ناجر في الصيف شهرا قماح في الشتاء وهما اشدّهُ بردًا ويقال لهما شيبان وملحان ايضًا وكذلك كلبة الشتاء يراد بها شدّة بردهِ والباحور القمر وشدّة الحرّ في تموز

ويسمّون السبعة الايام المعروفة ببرد العجوز وعند العامة المستقرضات وهي من خامس وعشرين شباط الى ثالث اذار بهذه الاسماء الاول الصِن والثاني الصِنَّبْر والثالث الوَبْر والرابع الآمر والخامس المؤتمر والسادس المعلل والسابع مطفي الجمر ويروى مكفي الظعن

ويسمّون اوّل مطر الربيع الاوّل الوسميّ سمّي بذلك لانهُ يَسِمُ الارض بالنبات وهو منسوبٌ الى الوسم واما المطر الذي يليهِ فيسمّونهُ الولي وقد جمعها ابو الطيب المتنبي في بيتٍ واحدٍ حيث يقول

أَ منعمةٌ بالعودة الظبية التي بغير وليٍّ كان نائلها الوسمي

واول المطر رَبِّقٌ والشديد من الامطار الضخم القطر وابل وشدة صوب المطر انهلال . قال الزوزني الصوب المطر من صابَ يصوبُ صوبًا اي نزل من علوٍ الى اسفل ثم اذا احيا الارض بعد موتهـا فهو الحياء فاذا جاء عقيب المحل او عند الحاجة اليهِ فهو الغيث فاذا دام مع سكونٍ فهو الدِيَة فاذا زاد فهو التهتان فاذا كان ضعيفًا فهو الرِهمة فاذا تبعّق بالماء فهو البُعاق فاذا كان يروي كل شيء فهو الجود فاذا كان عامًّا فهو الحسر فاذا جرف ما مرَّ بهِ فهو الساحية فاذا تتابع فهو اليَعلول فاذا نزل دفعات فهو الشآبيب

وقالوا في امثالهم نحن بوادٍ غيثهُ ضَروس قال الميداني عن الاصمعي يقال وقعت في الارض ضروس من مطر اذا وقعت فيها قطع متفرقة يُضرَب من يقل خيرهُ وان وقع لم يتم وقيل ايضًا الصرس المطرة القليلة والنضاحُ والبغشُ ما ترشَّش من المطر الخفيف الضعيف قال الشاعر

كأَنَّ فاها عبقريٌّ باردٌ او ريح روضٍ مسّهُ تنضاحُ رِكّ

يراد بالعبقر هنا وقيل عب قرّ وحبقر البرد ومنهُ المثل "أبرد من عبقر" ورواهُ ابو عمرو بن العلاء أبرد من عب قر قال والعب اسم للبرد ويسمونهُ ايضًا حبَّ المزن وحبَّ الغمام

والعارض اسمٌ للسحاب والسارية السحابة الماطرة ليلاً والدجن الباس الغيم افاق السماء والبكر من السحاب السائق مطرهُ والمكفهرّ والمكرهف السحاب المتوالي المتراكب والشيب السحائب التي فيها سواد وبياض والطخاء الغيم الرقيق والذي يواري النجوم فيغير الهادئ والكرفئة جمعها كرافي قطعٌ من السحاب بعضها فوق بعض والجهام السحاب لاماء فيهِ او قد اراق ماءهُ

وكانت العرب تضرب ابياتها في القبيلة مطلع الشمس لتدفئهم في الشتاء وتزول عنهم في الصيف فما هبَّ من الرياح عن يمين البيت فهي الجنوب وما هبَّ من شمالهِ فهي الشمال وما هبَّ عن امامهِ فهي الصباء وما هبَّ من خلفهِ فهي الدبور وما استدار من الرياح بين هذه الجهات فهي النكباء ومنها الازيب بين الشرق والجنوب والصابئة بين الجنوب والدبور والجربياء بين الدبور والشمال والهيف بين الشمال والصباء

واوّل الريح عُثنونٌ فاذا كانت الريح شديدة باردة فهي الحَرْجَف فان هبّت من جهات مختلفة فهي المتناوحة فاذا كانت لينة فهي النسيم فاذا ابتدأت بشدة فهي الناجمة فاذا كانت شديدة فهي العاصف فاذا حركت الشجر فهي الزعزع فاذا جاءت بالحصباء فهي الحاصبة والحصباء الحصى واحدها حَصبة وفي القاموس الحاصبة ريح تحمل التراب فاذا كانت الريح سريعة فهي الجفل وجفال وجفالة فاذا هبت من الارض كالعمود فهي الاعصار فاذا كان مع بردها ندى فهي البليل فاذا كانت حارّة فهي الحرور والسموم

وقد ذُكر في القرآن من الرياح ثمانية اربع رحمة واربع عذاب فاما التي هي للرحمة فالمبشرات والمرسلات والذاريات والناشرات واما التي للعذاب فالصرصر والعقيم وهما في البرّ والعاصف والقاصف وهما في البحر

وقد سبق الكلام في ما مرّ على افتخار العرب بكثرة النيران لانها تكون عندهم اكبر دليل على كثرة الطعام لكنهم يوقدونها لاسباب اخرى غير الطعام ايضًا ولكل نوع منها اسمٌ مخصوص فما عدا نار القرى المخصوصة بالضيافة التي

مرّ ذكرها في الفصل الاول من المقالة السادسة توجد نار الوسم وهي التي توقد ليحمون بها الميسم الذي يسمون بهِ ابل الملوك لترد الماء اولاً ونار الاستسقاء توقدها الجاهلية طلبًا المطر ونار التحالف وهي التي توقد على الجبل اعلامًا للاحالف والاباعد ونار الغدر كانوا اذا غدر الرجل بصاحبهِ يوقدون نارًا بمنى ايام الحج ثم يقولون هذه غدوة فلان ونار السلامة توقد للقادم من سفرٍ سالمًا ونار الراحل توقد للمسافر اذا لم يحبوا ان يعود ونار الاسد توقد عند الخوف من سطوة الاسد حتى اذا رآها ينفر منهـا ونار السليم والسليم الملسوع يقال لهُ ذلك تفاؤلاً بالسلامة وهم يكرهونهُ على السهر ويوقدون لهُ نارًا ليسهر على ضوءها ونار الفدى كانوا اذا سُبيت نساء الاشراف منهم وفدوهنَّ يخرجوهنَّ ليلاً ويوقدون لهنَّ نارًا ليستضيئنَ بها

وهناك نارٌ اخرى يقال لها نار الهولَة ذكرها بعضهم فقال قال ابو عبيدة كان في الجاهلية لكل قومٍ نارٌ وعليها سدَنة فكان اذا وقع بين الرجلين خصومة جاء من ثبت عليهِ اليمين الى النار فيحلف عندها وكان السدَنة يطرحون بهـا ملحًا من حيث لا يشعر يهولون بها عليهِ قال الكميت

كهولة ما اوقد المحلِّفون لدى الحالفين وما هوَّلوا

وتضرب العرب المثل بحسن النار فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بالمحاسن احسن من النار ولمن ارادوا المبالغة في وصفهِ بالحرارة أحرُّ من الجمر واما قولهم أخلف من نار الحباحب فهي النار التي توريها الخيل بسنابكها من الحجارة وقيل غير ذلك

وللارض عدَّة الفاظ نشير اليهـا وكلها مترادفة منهـا الساهرة والبسيطة والثَّلِي والكون والكرَة والمعمورة والمسكونة والعالم والدنيا والبَرية والخبيئة

فاذا كانت مستوية فهي جبجب وصعيد وسهل اوكانت لينةً فهي دمثة او منخفضة فهي وهدة وتجمع على وهاد فاذا كانت لا ماء فيها ولا شجر فهي قراحٌ

او لم يكن بها سكان فهي قفر والقطعة من الارض بقعة وتجمع على بقاع فاذا كانت سريعة الانبات فهي مبكار فاذا كانت واسعة بعيدة الاطراف او الفلاة لاماء فيها ولا انيس وان كانت معشبة فهي التنوفة فان كانت روضةً فيها حياض ومساكات للماء فهي تجسّة فاذا كانت خالية عن العالم فهي الموجل فاذا لم تكن سهلاً وكانت غليظة فهي الحزن والقدفد والغَلْظ والجَلَد فاذا كانت غليظةً ذات حجارة فهي الأَبرق وبرقة والبرقاء فاذا لم يكن فيها بناء فهي عرَصة واذا كانت بعيدة فهي الزوراء والتي ليس بها زرعٌ الجزراء او كانت صحراء فهي البادية فاذا كانت مهلكة لاماء فيها فهي المفازة او كانت مفازة بعيدة فهي المهمه او كانت لا نبت فيها فهي المرت فاذا كانت مرتفعة فهي نجد ونشر فاذا كان ارتفاعها مع اتساع فهي اليفاع فاذا كانت مستوية مع الاتساع فهي صفصف فاذا كانت مع ليونتها سهلة فهي البرّث فاذا كانت طيبة التربة علكنها فهي الغضراء والدسمة فاذا كانت مهيأة للزراعة فهي الحقل فاذا كانت غير مهيأة فهي البور فاذا لم يصبها المطر فهي الغلُّ فاذا لم يترلها نازلٌ من قبل فهي الحِطّة فاذا كانت لم تُعمر ولم تحرَث فهي الحادسة فاذا كانت ذات سباخ فهي سبخة فاذا كانت كثيرة الشجر فهي شجِرَة فاذا كانت كثيرة الحصى يعنى صغار الحجارة فهي الامعز فاذا كانت كثيرة الحجارة فهي حَجِرَة فاذا كانت كثيرة الصخور فهي صخِرَة فاذا كانت كثيرة الغلاّت فهي مخصبة ومغلة فاذا كانت بعكس ذلك فهي جرداء فاذا كانت كثيرة الثمر فهي ثمِرة فاذا كانت زكية معجبة للعين فهي أَريضة فاذا كانت طيبة الهواء فهي عزاة فاذا كانت بعكس ذلك فهي ويلة ووخام ووخمة ووخيمة وغمقة فاذا كانت ذات وباء فهي ويئة فاذا كانت كثيرة الاهل والصنائع فهي غناء وعامرة فاذا كانت بعكس ذلك فهي خراب وغامرة وفلاة وبلقع

واما البوغاء والدقعاء فهو التراب الرخو الرفيق الذي كانه زربرة والثري والتراب النديّ وهو كل تراب لا يصير طينًا ولا زبًا اذا بلَّ والمور

التراب الذي تمور به الريح والهباء التراب الذي تطيره الريح فيكون على وجوه الناس والهبابي اذا دقّ وارتفع والسّافيا الذي يذهب في الارض مع الريح والجُرثومة التراب الذي يجمعهُ النمل والعفا التراب الذي يعفي الآثار وكذلك العفر. والرغام التراب اختلط بالرمل والسماد التراب الذي يُسمد به النبات والنقع الغبار الذي يثور من حوافر الخيل والعجاجة التراب الذي تثيرهُ الريح والرهج غبار الحرب

واصغر ما ارتفع عن الارض نكبة ثم الرابية وتجمع على رُبى وروابي ثم الاكمة وهي التلّ من حجارة وتجمع على آكام اما التلّ فهو كومة من التراب والرمل وغيره والكثيب والدعص التلّ من الرمل ثم النجوة ثم الربع ثم الهضبة وهي الجبل المنبسط على الارض وتجمع على هِضب وهِضاب ثم الكدك وهو الجبل الذليل ثم الجبل ثم الطود والعلَم وهو الجبل العظيم ثم الاخشب

واول الجبل الحضيض وهو القرار من الارض ثم السفح وهو ذيلهُ ثم السند وهو المرتفع في اصلهِ ثم الكيح وهو عرضهُ ثم الريد وهو ناحيتهُ المشرفة على الهواء ثم الحيد وهو جناحهُ ثم الرعن وهو انفهُ ثم الشعفة والذروة والقمة وهي راسهُ

واما المنهل فهو مكان الشرب وجمعهُ مناهل والبطيحة والبطحاء والابطح مسيل واسع فيهِ حصى ويجمع على اباطح وبطاح وبطائح والوادي ما كان بين جبلين وجمعهُ اودية ووديان . ورحبة المكان ساحتهُ ومسيل ماء الوادي والموبق والبرزخ الحاجز بين شيئين والشامة الموضع الذي يخالف لون الارض ويجمع على الشام والاجمة الغابة والحرث الطريق المكدود بالحوافر والزرع والجزيرة وشبه الجزيرة جزيرة تتصل من احدى اطرافها بالبرّ والجرعاء الكثير الممتد من الرمل

ويعبرون عن البحر العظيم بالغطمط وخضم والكبير من الانهر ضبع وخليج اما الجعفر فهو النهر الكبير وقيل الصغير ضد والكثير من الماء غمر والكثيرة الماء من العيون ثرّة ووادٍ زاخر اذا كان ممتلئاً وبحر طام ونهر طافح

واذا كان الماء جامدًا فهو العضرس وقبل العضرس ضربٌ من النبات فاذا كان الماء من السحاب فهو يسحُّ ومن الينبوع ينبع ومن الحجر ينبجس ومن النهر يفيض ومن السقف يكِف ومن القربة يسرَب ومن الاناء يرشح ومن العين ينسكب

وما يتمثلون بهِ في الحماقة قولهم لمن يبالغون في وصفهِ بها احمق من لاعق الماء ومن ناطح الصخر وعليهِ قول الاعشى

كناطحٍ صخرةً يومًا ليفلقها فلم يضرّها واوهى قرنهُ الوعلُ

(والوعل المذكور هنا هو نفس الجبل) ويقولون في اباحة الشيء أحل من ماء الفرات (والفرات هو الماء العذب) ويقولون في الخيبة أخيب من القابض على الماء

ثم ان ما اوردناهُ في هذا الفصل من الاسماء لاي نوعٍ كان من الانواع والعناصر المذكورة بحسب اختلاف هيئاتها انما هو اخصُّ ما شاع منها فقط والاَّ فان الاستقراء بعيدٌ جدًّا عن مثل هذا التأليف ولا يكون موضعهُ الاَّ في القواميس المطوّلة هذا ما كان من معارف العرب القديمة في الفلك والطبيعيات

الكلام على علم الهيئة

اما الذين اشتغلوا بعلم الهيئة بعد ظهور الاسلام فهم كثيرون اذ لا يخفى بانهُ قبل ظهور الاسلام باجيال كثيرة كان الاعتقاد بمعرفة الامور الخفية والمستقبلة وسعادة الانسان ونحسهِ من مجرّد النظر الى وجه النجوم شائعًا في جميع اجزاء كرة الارض بل والى الآن باقٍ عند الاكثرين من شعوب المشرق ولذلك يمكن ان يقال هنا بان هذه الغاية كانت هي السبب الاصلي في التفات العرب الى هذا العلم قبل غيرهِ في اول الاسلام لانهُ منذ تولّى الخلافة ابو جعفر

المنصور العباسي امر رجلاً يقال لهُ محمد بن الفراوي وكان ممن اشتهر بالفلسفة والنجوم فترجم لهُ كتابًا يسمَّى سند هند الكبير قال بعضهم ان معناهُ الدهر الداهر وهو كتابٌ شهير وقتئذٍ باستيعاب هذا الفن استحضرهُ الخليفة المشار اليهِ من الهند وعين الفراوي المذكور الى ترجمتهِ فترجمهُ على احسن وجه وبقي هذا الكتاب معمولاً بهِ عند المنجمين من ذلك الوقت الى عصر المأمون العباسي الذي كان اعظم الخلفاء رغبةً واجتهادًا في ترجمة كتب الاقدمين ونشر علومهم ومعارفهم بين العرب فامر محمد بن موسى الخوارزمي الذي مرَّ ذكرهُ هو واخوتهُ بجملة الذين طافوا البلاد لاجل جمع الكتب اليونانية وترجمتها باختصار هذا الكتاب وتلخيصهِ فكان هذا الكتاب اساسًا لعلم الفلك عند العرب بعد الاسلام لانهُ يشتمل على حركات النجوم والاعمال الفلكية

ثم لما امر الخليفة المشار اليهِ بترجمة الكتب الى اللغة العربية على ما سبقت تفاصيلهُ امر بترجمة المجسطي في سنة ٢١٢ للهجرة (سنة ٨٢٧م) واختلفوا في مترجمهِ فقال قوم هو اسحق بن حنين وقال آخرون هو الخازن بن يوسف ومن ثم اتبع المشتغلون بهذا العلم من العرب رأي بطليموس صاحب الكتاب المذكور وتوغلوا فيهِ الى ان حصلوا على اكتشافات حسنة منها انتقال نقطة الرأس والذنب للارض ووقفوا في رصد ميل دائرة البروج على خط الاستواء وضبطوا الوقت وانشأوا مراصد في بغداد وقرطبة فدخلت منهم الى الافرنج وقد اشتهرت بينهم علماء مشاهير سوف يأتي ذكرهم قال صاحب المقتطف ان العلامة بيلي وهو من مشاهير علماء الهيئة من الافرنج لم يكتفِ بان جعلهم حياة العلم في اوربا بل قال لولا كتاب نور الدين في الكرة ما تهيأ لكبلر ان يكتشف الحكم الاول من احكامهِ الثلاثة الشهيرة وهو اهليلجية افلاك السيارات ولولا زيوجهم في السيارات والثوابت لم يكن زيج الفونسو الاسبانيولي اه‍ . وابن رُشد الذي مرَّ ذكرهُ مع الفلاسفة رأى كلف الشمس وكتب عنها قبل ان عرفها اهل اوربا ايضًا

وكان اول مشاهير علماء الهيئة المذكورين من العرب الخليفة المأمون

المشار اليهِ فانهُ وان كان راغبًا في كثيرٍ من العلوم والفنون الاَّ انهُ اشتهر خاصةً بعلم الفلك فامر ببناء بيتٍ للرصد وهو هيكل معد للنظر في احوال النجوم وحساب مسيرها وغير ذلك ومشتمل عادةً على جميع الآلات اللازمة لهذا العمل فعمروهُ لهُ في مدينةٍ يقال لها الشماسية بنواحي الشام وذلك في سنة ٢١٤ للهجرة (سنة ٨٢٩م) وعيّن في عصرهِ يحيى بن ابي منصور عبد الملك وعباس بن سعيد الجوهري لرياسة المنجمين فاستخرجا الزيج الجديد وكان هذا الرصد اول رصدٍ بُني في الاسلام

ويقال بان الخليفة المشار اليهِ رصد ميل دائرة البروج رصدين احدهما في بغداد تولاهُ يحيى بن ابي منصور المارّ ذكرهُ وسناد وعباس بن سعيد فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥ʹ على ما رواهُ يونس و٢٣° ٣٣ʹ على ما رواهُ الفرغاني في كتاب اصول علم الهيئة والثاني في دمشق تولاهُ خالد بن عبد الملك وسناد وابو الطيب وابن عيسى فوجدوا ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٣ʹ ٥٢ʺ

وفي ايام الخليفة المأمون المشار اليهِ ظهر احمد بن عبد الله البغدادي الذي لهُ ثلاثة زيوج الواحد على مذهب الهند والثاني المشهور باسم الممتحن والثالث الزيج الصغير ولهُ رسالة لطيفة في فنّ الاسطرلاب

وفي ايامهِ كذلك كان عمر بن فرجان الطبري احد المنجمين وقد ترجم بامرهِ كتبًا كثيرة ولهُ تصانيف في النجوم وسائر العلوم

وكذلك احمد بن محمد الفرقاني كان من المنجمين كاملاً في علم الهندسة والهيئة والنجوم ولهُ كتاب المدخل وكتاب الجامع الذي بيّن فيهِ مسائل الجسطي باعذب الالفاظ والطف الاشارات

ثم بعد ذلك ظهر ابو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي المشهور وقد مرّت ترجمتهُ في الكلام على الصناعة من المدارك الغيبية في الفصل الرابع من المقالة الرابعة

وثابت بن قرّة الحراني الذي مرّ ذكرهُ بجملة مترجمي الكتب بنى لهُ الخليفة

المشار اليهِ رصدًا في بغداد فاستخرج حركة الشمس وحسب طول السنة النجمية ٣٦٥ يومًا و٦ ساعات و٩ دقائق و١٠ ثوانٍ وميل دائرة البروج ٢٣° ٣٣′ ٣٠″ فقابلهُ بما قبلهُ فوجدهُ انهُ يتغير على تمادي الاجيال وقال بحركة مستقيمة واخرى متقهقرة لنقطتي الاعتدال

ومحمد بن جابر بن سنان ابو عبد الله الحراني المعروف بالبتَّاني نسبةً الى بتان ناحية من اعمال حرّان الحاسب المنجم المشهور صاحب الزيج الصابي واشتهر هذا المنجم بالاعمال العجيبة والارصاد المتقنة . يحكى عنهُ انهُ ابتدأ بالرصد في سنة ٢٦٤ للهجرة (سنة ٨٧٧ م) الى سنة ٣٠٦ للهجرة (سنة ٩١٨ م) واثبت الكواكب الثابتة في زيجهِ سنة ٢٩٩ للهجرة (سنة ٩١١ م) وكان يرصد في رقة وفي انطاكية وتوفي سنة ٣١٧ للهجرة (سنة ٩٢٩ م) وكان صابي المذهب . قال ابن خلكان لم اعلم انهُ اسلم وانما اسمهُ يدل على اسلامهِ ومن مؤلفاتهِ الزيج وهي نسختان اولى وثانية والثانية اجود وكتاب معرفة مطالع البروج في ما بين ارباع الفلك ورسالة في مقدار الاتصالات وكتابٌ شرح فيهِ اربعة ارباع الفلك ورسالة في تحقيق اقدار الاتصالات وشرح اربع مقالات بطلميوس وغير ذلك ذكرهُ صاحب المقتطف فقال . قال لالاند (من علماء الهيئة الافرنج) انهُ من العشرين عالمًا الذين اشتهروا بعلم الهيئة . وقال العلامة هالي وكان قد امعن النظر في كتاباتهِ ما معناهُ بانهُ علامة عصرهِ عجيب التدقيق ومجرّب في الرصد وقال آخرون ان زيجهُ اصح من زيج بطليوس وحسب حركة الاعتدال ١° في ٦٦ سنة وكانوا يحسبونها ١° في كل ١٠٠ سنة ووجد ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥′ فاذا أُصلحت حساباتهُ للاختلاف الافقي والانكسار كان ميلها ٢٣° ٣٥′ ٤٧″ وحسب مباينة فلك الارض ٢٤٦٥ حاسبًا نصف قطرهِ ١٠٠٠٠٠ واكتشف انتقالات نقطة الراس والذنب ووضع للقمر معادلتين كالمعادلتين اللتين وضعهما بطليوس ورصد خسوفين وكسوفين[1] ورصودهُ واكتشافاتهُ

(١) الخسوف للقمر والكسوف للشمس

مذكورة في احد مؤلفاتهِ ترجم الى اللاتينية وطُبع بهـا ولم يطبع بالعربية قبل ولم يزل محفوظًا في الفاتيكان(١) بخط مؤلفهِ

وابو محمد الخوكندي عاش نحو سنة ٣٨٢ للهجرة (سنة ٩٩٢ م) وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٢′ ٢١″ بربع احد اضلاعهِ مقسوم ثواني

وابو الريان عاش نحو سنة ٤٦٣ للهجرة (سنة ١٠٧٠ م) على ما ذكرهُ ابو الفرج بن العبري ونحو سنة ٣٨٥ للهجرة (سنة ٩٩٥م) على ما ذكرهُ احد علماء الافرنج المسمّى برنار وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٥′ بربع نصف قطره ١٥ ذراعًا

وارزاخل عاش نحو سنة ٤٦٩ للهجرة (سنة ١٠٧٦ م) وحسب ميل دائرة البروج ٢٣° ٣٤′

والخازن الاندلسي عاش في اواخر القرن الخامس او اول السادس للهجرة) او آخر القرن الحادي عشر واوائل القرن الثاني عشر للميلاد وقيل زمانهُ مجهول ألّف كتابًا في الفجر والشفق وعيّن ابتداء كلٍّ منهما وقت بلوغ الشمس ١٩ درجة تحت الافق وحسب علو الهواء ٥١٠٢٨ ميلاً حاسبًا محيط الارض ٢٤٠٠٠ ميل ولهُ كتاب كثير الذكر في البصريات ضمنهُ في سبع مجلدات طُبع باللاتينية في سنة ١٥٧٢ م (سنة ٩٨٠ للهجرة) اظهر فيهِ انكسار شعاعةٍ من النور في الهواء على حق اصولهِ واستخرج كمية الانكسار وفيهِ يصف العين وصفًا مقبولاً ويبحث عن كيفية ادراك المرئيات بحاسة البصر مبينًا ان اهمّ ما يتمّ بهِ ذلك هو البلورية لكن لم يحسبها عدسية ويبرهن ان البصر انما يتم بشعور الدماغ بالمحسوسات الظاهرة بواسطة العصب البصري ويعلل عن رؤية الاشباح مفردةً مع انها تنظر بعينين لا بعينٍ واحدة بان قسمين متوافقين من الشبكية يتأثران فيؤديان صورةً واحدةً الى الدماغ وفاق هذا الاندلسي سائر القدماء في فنّ الانكسار واكتشف كثيرًا من احكامهِ منها انهُ يزيد في ارتفاع الاجرام

(١) الفاتيكان سراي البابا في رومية

السموية في الظاهر وهو اوّل من قال انّا بالانكسار نرى الاجرام فوق الافق وهي تحتهُ وان الانكسار يقصّر اقطارها وذكر عن نفسهِ انهُ اول من عرف انكسار الاشعة الى العين ولهُ اقوال أُخر كثيرة بعضها صحيح وبعضها فاسد وهو اول من ذكر خاصة التكبير في الزجاج لقولهِ اذا وضعت مادةً عند قاعدة زجاجةٍ اكبر منها كبرت فادّى ذلك الى اختراع العوينات والنظارات ونحوها وروي عنهُ انهُ ادّعى يومًا بانهُ يصطنع آلةً في النيل تدفع عن الناس ضرّ الفيضان او النقصان الزائد فاتصل قولهُ الى الحاكم بامرهِ وسوف يأتي ذكرهُ وكان يكرم العلماء فاستدعاهُ اليهِ ولما حضر خرج الحاكم المذكور الى خارج القاهرة للاقاتهِ وغمرهُ بالاحسان ورفع منزلتهُ وجعل تحت يدهِ من الفعلة والادوات ما ينفذ بهِ كلامهُ فطاف الخازن الديار المصرية فرأى ان اتمام ما ادّعى بهِ محال فسقط في يدهِ وعاد الى القاهرة خائبًا ولخوفهِ من الحاكم المذكور تظاهر بالجنون وبقي عليهِ حتى مات الحاكم وافتقر الخازن جدًّا حتى لم يَعد لهُ ما يقتات بهِ فكان يؤلف وينسخ الكتب ويبيعها الى ان توفي في سنة ٤٣٠ للهجرة (سنة ١٠٣٨ م)

وابو الحسن علي بن ابي سعيد بن عبد الرحمن بن احمد بن يونس بن عبد الاعلى الصدفي المصري المنجم المشهور صاحب الزيج الحكمي المعروف بزيج ابن يونس وهو اربع مجلدات قال ابن خلكان انهُ لم يرَ في الازياج على كثرتها اطول منهُ وقد امرهُ بعملهِ وابتدأهُ لهُ العزيز ابو الحاكم بامرهِ المذكور صاحب مصر وكان مختصًّا بعلم النجوم بارعًا في الشعر واهل مصر يعوّلون في الكواكب على اصلاحهِ لزيج يحيى بن منصور وعدّلهُ القاضي محمد بن النعمان سنة ٣٨٠ للهجرة (سنة ٩٩٠م) وكان افنى عمرهُ في الرصد والتسيير للمواليد وعمل فيها ما لا نظير لهُ وكان يقف للكواكب قال ابو الحسن المنجم الطبراني انهُ طلع معهُ الى الجبل المقطم بمصر وقد وقف للزهرة فنزع ثوبهُ وعمامتهُ ولبس ثوبًا نساويًا احمر ومقنعة حمراء تقنع بها واخرج عودًا فضرب بهِ والبخور بين يديهِ وكان أبله مغفلاً يتعمم على طرطور طويل وزعموا انهُ كان لهُ اصابة بديعة غريبة في النجامة

لا يشاركهُ بها احد توفي سنة ٥٢٩ للهجرة (سنة ١١٣٤ م)

وابو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف وقيل احمد المنعوت بالبديع الاسطرلابي الشاعر المشهور ذكروا انهُ كان وحيد زمانهِ في عمل الآلات الفلكية متقنًا لهذه الصناعة وحصل لهُ من جهة عملها مال جزيل في ايام خلافة المسترشد ولما مات لم يخلفهُ في شغلهِ مثلهُ والاسطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان النجوم وذكروا ان اوّل مَن وضعهُ بطلميوس صاحب المجسطي توفي في سنة ٥٣٤ للهجرة (سنة ١١٣٩ م)

ودام الامر على استعمال الكرة والاسطرلاب الى ان استنبط الشيخ شرف الدين الطوسي ان يضع المقصود من الكرة والاسطرلاب في خطٍّ فوضعهُ وسماهُ العصا وعمل لهُ رسالةً بديعة فهو اوّل من اظهر هذا الى الوجود فصارت الهيئة توجد في الكرة التي هي جسم لانها تشتمل على الطول والعرض والعمق وتوجد في السطح الذي هو مركّبٌ من الطول والعرض بغير عمق وتوجد في الخط الذي هو عبارة عن الطول فقط بغير عرضٍ ولا عمقٍ ولم يبقَ سوى النقطة ولا يتصور ان يُعمل فيها شيءٌ لانها ليست جسمًا ولاسطحًا ولا خطًّا بل هي طرف الخط كما ان الخط طرف السطح والسطح طرف الجسم والنقطة لا تتجزَّأُ فلا يتصوّر ان يرتسم فيها شيءٌ

ويقولون بان اول من تكلَّم في الجواهر العلوية والحركات النجمية وبنى الهياكل ومجَّد الله فيها هو هرمس الاول قال ابن خلدون المغربي وقد يقال ان هرمس هو ادريس اقدم الانبياء المذكور في التوراة باسم اخنوخ واليهِ تنسب العامة صناعتي الخياطة والحياكة كما ينسبون الى نوح اختراع صناعة النجارة لكونهِ عمل السفينة

ويقولون ان هرمسًا هذا بعثهُ البودشير بن قبط ملك مصر الى جبل القمر حتى ركّب جريةَ النيل من هنالك وعدّل البطيحة الكبرى التي تنصبُّ اليها عيون النيل وعمّر بلاد الواحات فان ارسطاليس الفيلسوف شرح كتابهُ وترجمهُ من

اللسان المصري الى اليوناني وشرح ما فيهِ من العلوم والحكمة والطلسمات ولهُ كتاب الاسطماخيس يحتوي على عبادة الاوّل ذكر فيهِ ان اهل الاقاليم السبعة كانوا يعبدون الكواكب السيارة كل اقليم لكوكبٍ ويسجدون لهُ ويبخرون ويقرّبون ويذبحون وروحانية ذلك الكوكب تدبرهم بزعمهم وهذا الكتاب يحتوي على فتح المدن والحصون بالطلسمات والحكم ومنها طلسمات لانزال المطر وجلب المياه وكتاب الاشطرشاش في الاختيارات على سري القمر في المنازل والاتصالات وكتبٌ اخرى في منافع وخواص الاعضاء الحيوانية والاحجار والحشائش

وبمثل هذه الاحاديث وغيرها من آراء قدماء الحكماء المشحونة بها اغلب مؤلفاتهم في التنجيم وخاصةً ميل العرب الطبيعي للتشبث بالمصادقة على ذلك لم يكتفوا بما تعلموهُ من كتب الاقدمين في امر النجامة بل فاقوا عليهم اضعافًا اذ انهم جعلوا لها رموزًا صناعيةً ينظرون اليها في الصحف عوض النجوم كخطّ الرمل وحساب النيم والزايرجة وغيرها كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وافسدوا بذلك ما اتقنوهُ من العلوم الفلكية كما افسدها من تقدمهم من الشعوب القديمة

الكلام على الجغرافيا

قال بعض المؤلفين ان العرب يحسبون من الطراز الاول بين الجغرافيين ايضًا وقال ملطبرون العالم الجغرافي الشهير الفرنسي انهم جازوا حدود الارض المعروفة وتوغلوا لاسيما في ارض اسيا وافريقية وان الخلفاء في صدر الاسلام امروا امراء جيوشهم وعمالهم ان يرسم كلٌّ منهم خطط البلاد التي افتتحها واستولى عليها وفي سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٣م) امر الخليفة المأمون العباسي المقدَّم ذكرهُ ان يقيسوا درجة عرضٍ في صحراء سنجار بين الرقة وتدمر فسحوها

ومسحت ثانيةً بقريب الكوفة وبهذا توصل الى معرفة مقدار مساحة الارض وذكر ابن خلكان طريقة العمل فقال ان المأمون كان يرى رأْي القدماء بان دورة كرة الارض ٢٤ الف ميل كل ٣ اميال فرسخ[1] فسأل بني موسى وهم ابو عبد الله محمد ابن موسى بن شاكر واخواهُ محمد والحسن الذين مرَّ ذكرهم في الكلام على جمع الكتب وترجمتها فقالوا نعم هذا قطعي فقال اريد منكم ان تعملوا الطريق الذي ذكرهُ المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك ام لا فسألوا عن الاراضي المتساوية في اي البلاد هي فقيل لهم صحراء سنجار وكذلك وطاة الكوفة فاخذوا معهم جماعةً ممن يثق المأمون الى اقوالهم وخرجوا الى سنجار فوقفوا في موضعٍ واخذوا ارتفاع القطب الشمالي وقاسوا بحبالٍ ربطوها الى اوتادٍ حتى انتهوا الى موضع اخذوا فيهِ ارتفاع القطب المذكور فوجدوهُ قد زاد على الارتفاع درجةً فمسحوا ذلك القدر الذي قدروهُ من الارض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي الميل فعلموا ان كل درجةٍ من درج الفلك يقابلها من سطح الارض هذا المقدار من الاميال وامتحنوا صحة ذلك بقياس ما يقابل تلك الارض من جهة الجنوب بالحبال التي قاسوا بها نفسها واخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص درجةً عن ارتفاعهِ الاوَّل فصحَّ حسابهم وحققوا ما قصدوهُ فضربوا حساب الفلك الذي يعتبرونهُ اثني عشر برجًا وكل برج ثلاثين درجة فتكون الجملة ثلاث مئة وستين درجة في ستة وستين ميلا وثلثي الميل فكان الخارج اربعة وعشرين الف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ فعادوا الى المأمون واخبروهُ بذلك فسيَّرهم الى ارض الكوفة ففعلوا هناك كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حررهُ القدماء في ذلك

وقال ملطبرون ايضًا بانهُ خرج من لشبونة ببلاد الاندلس قبل كرستفورس

---

(١) الميل اربعة آلاف خطوة فيكون الفرسخ اثني عشر الف خطوة وتكون دورة الارض تتم بستة وتسعين الف الف خطوة والخطوة في المساحة ستة اقدام فتكون دورة الارض خمس مئة وستة وسعين الف الف قدم

كلمبوس بمدات طويلة جماعة يقال لهم المغرورون وهم من العرب فركبوا البحر وساروا يبحثون عن الاراضي الغربية في البحر الاتلنتيكي

وقال ايضًا ان العرب استكشفوا استكشافات في بحري الهند والصين وظهر منهما راصدان بذلا وسعهما في التخطيط وهما الواقدي وابو زيد فجابا ابعد بلاد اسيا وخططاها من سنة ٢٣٧ للهجرة (سنة ٨٥١ م) الى سنة ٢٦٤ للهجرة (سنة ٨٧٧ م)

فالواقدي المذكور هنا لعلهُ ابو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني مولى بني هاشم وقيل مولى بني سهم بن اسلم صاحب التصانيف في المغازي وغيرها ولهُ كتاب الردّة ذكر فيهِ ارتداد العرب بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية ومحاربة الصحابة لطليحة بن خويلد الازدي والاسود العنسي ومسيلمة الكذاب الذين مرَّ ذكرهم في الفصل الرابع من المقالة الرابعة وولاهُ المأمون القضاء بعسكر المهدي لكن ضعفوهُ في الحديث توفي ببغداد سنة ٢٠٧ للهجرة (سنة ٨٢٣م) غير ان تاريخ وفاتهِ لا يطابق ما ذكرهُ ملطبرون فاما ان يكون واقعًا غلط في احد التاريخين او يكون الذي ذكرهُ ملطبرون من اولاد هذا الرجل

واما ابو زيد فهو عمر بن شبة واسمهُ زيد وشبة لقبٌ لهُ بن عبيدة بن زيد ويقال ابن رابطة النميري صاحب كتاب تاريخ البصرة وكان صدوقًا في الحديث توفي سنة ٢٦٢ للهجرة (سنة ٨٧٦ م)

ومن اشهر مؤلّفي الجغرافية في الاسلام قطب الدين المسعودي بن عتبة واسمهُ علي بن الحسين بن علي بن عبد الله بن زيد بن عتبة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وكان مشتغلًا بالتآليف الجغرافية في ايام المطيع لله بن المقتدر العباسي وألّف كتابًا يسمّى مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الاشراف والملوك واهل الدرايات وهو تاريخٌ عام مشتمل على جميع الممالك المعروفة في اقسام الدنيا الثلاثة وهو يبسط الكلام في الجغرافية ولا سيما بما يتعلق بافريقية والهند واسيا الوسطى توفي بالقاهرة سنة ٣٤٦ للهجرة (سنة ٩٥٧م)

وفي هذا الزمان ظهر ابن حوقل صاحب كتاب المسالك والمالك والمفاوز والمهالك الذي كتبهُ سنة ٣٦٧ للهجرة (سنة ٩٧٧ م) وقد تُرجم هذا الكتاب الى اللغة الفارسية ومنها الى الانكليزية وفيهِ تخطيطاتٌ مفيدةٌ مشبعة تتعلق بجميع بلاد الاسلام واما ما عداها من البلاد فلم يتكلم عليهِ الا بوجهٍ اجمالي وقد قال في كتابهِ واما بلاد النصارى والحبشة فلم اتكلم عليها الاَّ يسيرًا لما ان تولعي بالحكمة والعدل والدين وانتظام الاحكام يأبى ان اثني عليهم بشيء من ذلك

ثم ظهر الشريف الادريسي الملقب عند الافرنج بجغرافي النوبة ألَّف كتابًا للملك روجار الأوَّل صاحب صقلية سماهُ نزهة المشتاق وهو شرح كرة ارضية مصنوعة من الفضة اشار بعملها هذا الامير وكان وزنها ثمان اواق وذكر في كتابهِ ايضًا نباتات كل قطرٍ وكان ذلك سنة ٥٤٨ للهجرة (سنة ١١٥٣ م)

ثم ظهر ابو عبد الله ياقوت الحموي بن عبد الله الرومي الجنس الحموي المولد البغدادي الدار الملقب شهاب الدين وكان أُسر من بلادهِ صغيرًا فاشتراهُ تاجر ببغداد علمهُ الكتابة لينتفع بهِ وكان متعصبًا على علي بن ابي طالب وكان قد تتبع التواريخ فألَّف كتابًا في الجغرافيا مرتبًا على حروف الهجاء يسمَّى معجم البلدان ولهُ تصانيف غيرهُ منها ارشاد الالباء الى معرفة الادباء وهو نحو اربع مجلدات وجمع كتابًا في اخبار الشعراء القدماء والمتأخرين وكتاب معجم الشعراء وكتاب معجم الادباء وكتاب المشترك وضعًا المختلف صقعًا وكتاب المبدإ والمآل في التاريخ وكتاب الدول ومجموع كلام ابي علي الفارسي وعنوان كتاب الاغاني والمقتضب في النسب وكتاب اخبار المتنبي توفي سنة ٦٢٦ للهجرة (سنة ١٢٢٨ م)

وبعد ذلك ألَّف ابن الوردي في حلب كتابًا في الجغرافيا الطبيعية يعني علم طبيعة الارض وسماهُ خريدة العجائب ذكر فيهِ تفاصيل ما يتعلق بالمواليد الثلاثة واطنب في الكلام على افريقية وبلاد العرب والشام دون غيرها كاوربا والهند وشمال اسيا ويشتمل كتابهُ هذا على خريطةٍ عامة لسائر الارض وكان ذلك سنة ٦٢٠ للهجرة (سنة ١٢٢٣ م)

والملك المؤيد عماد الدين ابو الفداء سلطان حماه ومن مؤلفاتهِ كتاب تقويم البلدان وفيهِ تخطيط الارض بتمامها على وجه التفصيل وقد رتبهُ على جداول بحسب الاقاليم مع ذكر درجات جميع الاحوال والعروض لسائر الاماكن وفي مقدمتهِ يتعرَّض لعلم الهيئة ولاعظم بحار الدنيا وانهارها وجبالها ولما كانت الشام وطنهُ كان تخطيطهُ لها اتمّ من سائر تخطيطاتهِ وقد ذكر ايضًا فوائد جليلة في ما يتعلق بالاقاليم المجاورة لبلادهِ مثل العرب والعجم ومصر والمغرب واما كلامهُ على بلاد التتار والصين فلم يكن وافيًا واما بلاد النصارى باوربا واقاليم افريقية المسكونة بالسودان فكانت عندهُ ليست جديرةً بمزيد الاعتناء والاهتمام بشأنها ولهُ تاريخ عمومي ايضًا هو في الحقيقة تاريخ الاسلاميين توفي سنة ٧٣١ للهجرة (سنة ١٣٣٠ م)

وفي القرن الثامن للهجرة المقابل للقرن الرابع عشر من الميلاد ظهر البغوي وألَّف كتابًا سماهُ عجائب المولى القادر في ارضهِ

والى هنا ينتهي كلام ملطبرون في ما نحن بصددهِ غير انهُ يوجد كثيرون من الجغرافيين الذين ألَّفوا في هذا الفن من المسلمين وان لم يدرجهم ملطبرون المذكور مع اللذين ذكرناهم فقد ذكرهم غيرهُ من جغرافيي الافرنج ومنهم ابو اسحق الاصطخري الذي ألَّف كتابًا سماهُ كتاب الاقاليم بين سنة ٣٠٣ وسنة ٣٠٩ للهجرة (سنة ٩١٥ و٩٢١ م) ومنهم ابو القاسم عبد الله صاحب كتاب المسالك والممالك توفي سنة ٣٠٠ للهجرة (سنة ٩١٢ م) ومحمد الجهاني صاحب كتاب المسالك في معرفة الممالك توفي سنة ٣٣١ للهجرة (سنة ٩٤٢ م) وابو الفرج البغدادي صاحب التذكرة المتوفى سنة ٣٣٧ للهجرة (سنة ٩٤٨ م) والقزويني وغيرهم

وقام بين العرب من السياح عدد غفير منهم ابن فضلان الذي ساح الى افريقية ووصفها جيدًا في القرن التاسع للميلاد (بين الثاني والثالث للهجرة) ومنهم البيروني الذي كان فلكيًا وساح الى الهند وكتب فيها كتابًا حسنًا وذلك

في القرن الحادي عشر للميلاد (الخامس للهجرة) وكتب في الحجارة الكريمة .
ومنهم ابن بطوطة الذي ساح الى افريقية والهند والصين وروسيا وغيرها في القرن الثالث عشر للميلاد (السابع للهجرة) ومنهم الحسن بن محمد القرطبي المعروف بالاسد الافريقي ساح الى افريقية وجانب من اسيا في القرن السادس عشر للميلاد (العاشر للهجرة) ومنهم من كتب في السياسة . ومنهم في انواع المعاملة ومنهم في صادرات البلاد ووارداتها وعدد اهاليها ومدنها وقراها وسائر اوصافها ومنهم في الفروسية . ومنهم في الموسيقى . ومنهم من كتب قواميس عامة وبعضهم كابي الفداء الذي مرَّ ذكرهُ قرن الجغرافيا بالهيئة والرياضيات فجرى العالم على اثرهِ في هذه المباحث قال ملطبرون يُستدل من بعض امور على ان اول الجغرافيين وراسمي الخرائط من النصارى كانوا متطفلين على الكتب العربية وناسخين على منوالها

الكلام على علم النبات

وللعرب ايضًا اشتغال في علم النبات الذي اخذوهُ عن ديوسكوريدس وقام منهم من كتب في الحيوان وفيهِ وفي الزراعة كالقزويني والدميري وابن ابي زاهر الآتي ذكرهُ مع الاطباء وابن البيطار الطبيب النباتي الذي سافر الى بلاد اليونان وجمع النباتات منها وكتب فيها كتابهُ المعروف بالادوية المفردة . وابو زكريا الاشبيلي كتب كتابًا جليلاً في الحراثة وذكر عنهُ القصيري انهُ طبَّق معارف اهل العراق واليونانيين والرومانيين واهل افريقية على بلاد الاندلس فصاروا ينتفعون منها

وكان الاندلسيون يعرفون خواص الاتربة ويركبون الزبل تراكيب متعدّدة موافقة لطبائع الارضين ويحسنون دمن الارض والحراثة والغرس والسقي وبذلك جعلوا الاندلس جنةً وسط قفار اوربا وادخلوا اليها زراعة النخيل

والخرنوب والقطن والتوت وقصب السكر وعلموا الاهالي صناعة رفع المياه من سطحها الاصلي ونقلها الى الاعلى بواسطة النواعير الى ان صارت اعمر اقطار اوربا وفي الحرَف والصنائع ايضاً

وفي ايام الخليفة المقتدر بالله العباسي نقل العرب الاترجّ المدور من الهند وزرعوهُ بعمّان ثم نُقل الى البصرة والعراق والشام قال ابن خلدون المغربي انهُ بعد ان كثر في الثغور الشامية وانطاكية ومصر عدمت منهُ الارائج الطيبة واللون الحسن الذي كان فيهِ بارض الهند لعدم ذلك الهواء والتربة وخاصة البلد ثم نقلوا البرتقال من بلاد اوربا الى المشرق ايضاً . قال بعض المؤرخين ان البرتقال اصلهُ من الصين والهند واستنبت في اوربا واوّل من استنبتهُ اهل البرتوغال ومنها انتشر في غيرها من بلاد اوربا ولما نقلهُ العرب سموهُ برتقال باسم البلاد التي نقلوهُ منها

الكلام على الهندسة وغيرها

وكان بعد ان ترجم العرب كتب اقليدس وارخميدس وابولونيوس على ما سبقت الاشارة اليهِ انهم اشتغلوا بعلم الهندسة ايضاً قال ابن خلكان ان ابا الوفاء محمد بن محمد بن يحيى بن اسماعيل بن العباس البوزجاني الحاسب المشهور كان احد الائمة المشاهير في علم الهندسة ولهُ فيهِ استخراجاتٌ غريبة لم يُسبق بها وكان العلامة كمال الدين ابو الفتح موسى بن يونس وهو القيم بهذا الفن يبالغ في وصف كتبهِ ويعتمد عليها في اكثر مطالعاتهِ ويحتجّ بما يقولهُ وكان عندهُ من تآليفهِ عدة كتب توفي سنة ٣٧٦ للهجرة (سنة ٩٨٦ م)

وقال صاحب المتطف ان استعمال الرقّاص كان معروفاً عند العرب غير ان مخترعهُ مجهول وكان حقهُ ان يخلّد اسمهُ في بطون الاوراق على ما افاد بهِ العالم اه . ومن ذلك يستبين بان جربرت الراهب الفرنسي الذي علم

اول ساعةٍ ذات رقّاص وادخلها الى اوربا اخذ هذه المعرفة عنهم عند ما كان يدرس العلوم في الاندلس كما يتضح ذلك من الفصل الثاني

وقال صاحب المقتطف ايضًا انهم هم واضعو حساب المثلثات على ما هو عليهِ الآن فانهم كانوا يستعملون الجيوب عوضًا عن اوتار مضاعف الاقواس وقد وضع ارزاخل الذي مرّ ذكرهُ مع علماء الهيئة جدولاً في الجيوب فيهِ قسم القطر ثلاث مئة قسم واكتشف جابر قضيتين عليهما بُنِي فن المثلثات الحديثة

وزعم بعضهم ان اول من وضع الحساب هو ابو الفرَج قدامة بن جعفر بن قدامة الكاتب البغدادي الذي كان موجودًا في ايام المقتدر بالله العباسي وبهِ يُضرَب المثل في البلاغة فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بها ابلغ من قدامة لكن الصحيح ان العرب اخذوا طريقة الحساب العشري عن الهنديين غير ان لهم فيهِ اتعابًا جزيلة واعمالاً حسنة وهم الذين ادخلوا الى اوربا الرقوم الحسابية

وكانت لهم اليد الطولى في علم الجبر الذي هو من اعظم مخترعات العقل البشري حتى شاع زمانًا ان واضعهُ هو ابو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي الذي مرّ ذكرهُ بجملة الذين سعوا في جمع الكتب القديمة وترجمتها وعمل للمأمون حساب دورة كرة الارض على ما تقدم في الكلام على علم الهيئة والصحيح انهم نقلوهُ عن اليونان ولكنهم سعوا فيهِ وحسنوا حتى صار يُنسب اليهم ولعل ابا عبد الله المذكور كان اول من عرف هذا العلم ونشرهُ بينهم

وكانوا يعرفون الثقل النوعي قال صاحب المقتطف انّ الدكتور باتن قدم خطابًا الى اكاديمية العلوم في مدينة نيو يورك من بلاد اميركا عن معرفة الثقل النوعي عند العرب وذكر فيهِ اقتباسات كثيرة من كتاب للخارسيني يسمّى ميزان الحكمة تدل على انهم كانوا يعرفون ثقل الهواء وكانوا يعرفون طرقًا مدققة لاستخراج الثقل النوعي لاكثر السوائل والجوامد حتى التي تذوب في الماء قال وفي الكتاب المذكور جداول مدوّن فيها الثقل النوعي المعروف لها الآن وفيهِ ايضًا رسم آلات فلسفية منها ميزان بديع الصنعة لاستعلام الثقل المذكور

الكلام على الطب عند العرب

قد ذكرنا في ما مرَّ بانهُ كان للعرب في زمن جاهليتهم معارف في الطب خشنة اما عملًا بالاستقراء والتجربة واما اخذًا عن السريان والفرس والهنود

والمشهور من اطبائهم رجل يقال لهُ لقمان بن عاد وأحد حكمائهم ودهاتهم يزعمون ان اباهُ عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن ارام بن سام بن نوح وان لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمس مئة سنة وهو عمر سبعة أنسر

ويليهِ رجل آخر من تيم الرباب يقال لهُ ابن حذيم ويضربون فيهِ المثل بالحذاقة في الطب فيقولون لمن ارادوا وصفهُ بذلك أطبُّ من ابن حذيم وهو اطبُّ العرب عندهم ويفضلونهُ على الحرث الآتي ذكرهُ قال اوس بن حجر

فهل لكمُ فيهـــا اليَّ فانني   بصير بما اعيى النطاسي[1] حذيما

اما الحرث بن كلدة المذكور فهو من بني ثقيف من اهل الطائف رحل الى ارض فارس واخذ الطب عن اهل جنديسابور وغيرها في الجاهلية وطبب في ارض فارس وحصَّل مالاً ثم ان نفسهُ اشتاقت الى بلادهِ فرجع الى الطائف قيل انهُ مات سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) وقيل سنة ٢٠ للهجرة (٦٤٠ م) من سمٍّ سُقيهُ قبل بسنةٍ

وكان ابن ابي رومية التميمي طبيبًا ايضًا معاصرًا للحرث المذكور

ونضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي كان من الجاهلية أُخذ اسيرًا يوم بدر فقتل وهولاء هم اشهر اطباء العرب

وقد بقي من كلامهم في الطب ما قالهُ لقمان بن عاد المارّ ذكرهُ كل داء

---

(١) النطامي العالم والنطسي المتطب والنُطس الاطباء الحذّاق وهو من النطاس لفظة يونانية معرَّبة معناها العالِم الطبيب

حُسِم بالكيّ آخر الامر ولذلك قالوا في امثالهم آخر الطب الكي وما قالهُ الحرث ان كلدة ايضًا من سرّهُ البقاء ولا بقاء فليباكر الغذاء وليخفف الرداء وليقلّ من غشيان النساء يريد بخفة الرداء ان لا يكون عليهِ دَينٌ . ومن انواع معالجاتهم ايضًا معالجة الاحول بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانهِ يزعمون ان العين تستقيم بهِ . ويعالجون الخَدَر وهو تشنج يعتري الاعضاء فلا تطيق الحركة بان يدعو صاحبهُ احبَّ الناس اليهِ وعليهِ قول بعضهم يخاطب محبوبتهُ

رآني الله يا سلمى حياتي وفي يوم الحساب كما اراكِ
الى كم تهجرين فتًى معنًّى اذا خدرت لهُ رجلٌ دعاكِ

ثم لما جاء الاسلام اباحت الشريعة الاسلامية التطبب وامرت بهِ اذ انهُ قد ورد في الحديث عباد الله تداووا فان الله عزَّ وجلَّ لم يضع داءً الاَّ وضع لهُ دواءً الاَّ واحدًا وهو الهرَم فلما تولّى الخلافة الوليد بن عبد الملك شرع في بناء المرستان ودور المرضى فكان ذلك اوّل ما بُني من هذا النوع في الاسلام وجعل في المرستان الاطباء واجرى عليهم النفقات وامر بحبس المجذومين لئلاَّ يخرجوا واجرى عليهم وعلى العميان الارزاق وهذه بداءة الاعتناء بهذه الصناعة منذ استيلاء الخلفاء الامويين ومن ثم ترك التطبب عند اصحاب الطب الخشني من العرب وبحث عن اصحاب الثقافة فيهِ لما ورد في الحديث استعينوا على كل صنعةٍ بصالح اهلها ويقال ايضًا ان في زمن صاحب الشريعة الاسلامية كان الحرث بن كلدة الذي مرَّ ذكرهُ ساكنًا في المدينة فارسل اليهِ سعد بن ابي وقاص وهو احد الصحابة يستوصفهُ في مرضٍ نزل بهِ فدل ذلك عندهم على انهُ جائز ان يشاور اهل الكفر في الطب لان الحرث المذكور ادرك الاسلام ولم يسلم ولذلك لم تبرح مدة جزئية بعد الاسلام الاَّ وقد تعين للرياسة على الطب عند الخلفاء الامويين ثم العباسيين من بعدهم الاطباء البارعين وقتئذٍ من اليهود والنصارى

وكان اول من تعين من الاطباء المذكورين راهبٌ رومي يقال لهُ

موريانوس وهو الذي علم صناعة الطب والكيميا لابي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي وسوف يأتي ذكرهُ مع الاطباء الاسلاميين

ويليهِ استفانوس الذي كان اوَّل المترجمين لخالد المشار اليهِ وقد ترجم لهُ عدة مصنفاتٍ من الرومي الى العربي

ومنهم ماسرجويه الطبيب البصري سرياني اللغة يهودي المذهب مشهور في العلوم الطبيعية تولَّى ترجمة مؤلف القس اهرون من السرياني الى العربي في خلافة مروان بن الحكم

ومنهم ثيوذوكس وثيودون طبيبان روميان كانا في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم البصرة في خلافة عبد الملك بن مروان المقدَّم ذكرهُ وكان لاحدها ثيوذكس عدَّة تلامذة وكتب في الطب وكان من تلاميذهِ الفرات بن سحنانا في زمن المنصور

ومنهم عائلة بختيشوع واولهم كان جاورجيوس بن بختيشوع الجنديسابوري قيل لما مرض الخليفة المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وعجز الاطباء عن معالجتهِ استحضرهُ من جنديسابور فجاء الى بغداد ومعهُ تلميذهُ عيسى بن شهلاثا ولما دخل الحضرة دعا لهُ بالفارسية والعربية فعجب المنصور من حسن منطقهِ ومنظرهِ وامرهُ بالجلوس ثم سألهُ عن اشياء اجابهُ عنها بسكون وهدوٍّ فاخبرهُ بمرضهِ فقال لهُ اذن ادبرك بمشيئة الله وعونهِ فامر لهُ للوقت بخلعة جليلة وانزلهُ في اجمل موضع من دورهِ واكرمهُ كما يكرم اخصُّ الاهل ولم يزل جاورجيوس يطببهُ حتى برئ من مرضهِ ففرح بهِ الخليفة فرحًا شديدًا وقال لهُ يومًا من يخدمك هنا قال تلميذي فقال لهُ اني سمعت انهُ ليس لك امرأة فقال لي زوجة كبيرة ضعيفة لا تقدر على النهوض من موضعها وانصرف من الحضرة ومضى الى الكنيسة فامر المنصور خادمهُ سالمًا ان يحمل من الجواري الروميات الحسان ثلاثًا الى جاورجيوس مع ثلاثة آلاف دينار ففعل ذلك فلما انصرف جاورجيوس الى منزلهِ عرَّفهُ عيسى بن شهلاثا تلميذهُ بما جرى واراهُ الجواري فانكر امرهنَّ وقال

لعيسى يا تلميذ الشيطان لما ادخلت هولاء الى منزلي أأردت ان تنجسني امضِ وردهنَّ على اصحابهنَّ فمضى الى دار الخليفة وردهنَّ على الخادم فلما اتصل الخبر الى الخليفة احضرهُ وقال لهُ لِمَ رددت الجواري قال لايجوز لنا معشر النصارى ان نتزوَّج باكثر من امرأة واحدة وما دامت المرأة حيةً لا ناخذ غيرها فحسن موقع هذا عند الخليفة وزاد موضعهُ عندهُ وفي سنة ١٥٣ للهجرة (سنة ٧٦٩ م) مرض جاورجيوس واستأذن بالانصراف الى بلدهِ فعرض عليهِ المنصور الاسلام قال يا حكيم اتقِ الله واسلم وانا اضمن لك الجنة فقال جاورجيوس قد رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار فضحك المنصور من قولهِ فانصرف الى بلدهِ وترك تلميذهُ عيسى بن شهلاثا عند الخليفة فاتخذهُ المنصور طبيبًا اما هو فاخذ باذية الناس الى ان اطلع المنصور على امرهِ فنفاهُ

وفي ذلك الوقت كان من اصحاب المنصور نوبخت المنجم الفارسي وكان خبيرًا بعلم الهيئة فلما كبر وضعف قال لهُ المنصور احضر ولدك ليقوم مقامك فاحضر ولدهُ ابا سهل قال ابو سهل فلما دخلت على المنصور ومثلتُ بين يديهِ قيل لي تسمَّ لامير المؤمنين فقلت اسمي خرشاذماه وطيماذاه ما باذار خسير وابهشاد فقال لي المنصور أكل ما ذكرت هو اسمك قلت نعم فتبسم ثم قال اخترْ مني احدى خلتين اما ان اقتصر بك من كل ما ذكرت على طيماذ واما ان تجعل لك كنيةً تقوم مقام الاسم وهي ابو سهل قال قد رضيت بالكنية فبقيت كنيتهُ وبطل اسمهُ

ثم بعد وفاة جاورجيوس المذكور قام ابنهُ بختيشوع وصار طبيب الخليفة هرون الرشيد

وفي ايام هذا الخليفة كان يوحنا بن ماسويه الطبيب البارع صاحب المؤلفات الشهيرة

وبعد بختيشوع المذكور قام ابنهُ جبرائيل وبعد جبرائيل جاورجيوس اخوهُ ثم بختيشوع بن يحيى وبقيت هذه العائلة عند الخلفاء والامراء الى سنة ٤٥٠

للهجرة (سنة ١٠٥٣ م) اي مدة ثلاث مئة سنة ولهم مصنفات كثيرة في الطب وكتب واحدٌ منهم انجيل المسيح

ومن مترجمي هذه المدة حجاج بن مطر ترجم مجسطي بطلميوس وترجم اقليدس وبعض مصنفات ارسطاليس

ومنهم عبد المسيح بن نعيمة والبطريق في عصر المنصور وابو زكريا يحيي بن البطريق

وفي هذه المدة اشتهر كذلك بعض الاطباء من الهنود والفرس واليهود والنصارى غير الذين ذكرناهم عند الخلفاء منهم منقة وصالح بن بهلة وعبدوس ابن يزيد وموسى ابن اسرائيل الكوفي وعائلة الطيفوري وزين الدين الطبري اليهودي وابو يوسف يعقوب بن اسحق السياح الكندي المسيحي وقسطه بن لوقا ويحيى بن ماسويه الذي مرَّ ذكرهُ

ومنهم ايضًا ابو زيد حنين بن اسحق العبادي الطبيب المشهور تلميذ يوحنا ابن ماسويه المذكور ولد سنة ١٩٤ للهجرة (سنة ٨٠٩ م) وكان في ايام الخليفة المأمون بن هرون الرشيد واشتهر وقتئذٍ بالترجمة وهو امام وقتهِ في الطب ولهُ مؤلفات مفيدة . يحكى عنهُ انهُ كان يذهب كل يوم الى الحمام ومتى خرج ونشف عرقهُ تبخَّر بالعود والعنبر وكان يأكل الدجاج ويشرب كل يوم اربعة ارطال خمر عتيق ويأكل الفواكه والتفاح وحصل زمن الخليفة المتوكل توفي سنة ٢٦٠ للهجرة (سنة ٨٧٣ م)

وكان لابي زيد حنين المذكور ولدان احدهما يقال لهُ ابو يعقوب اسحق كان فيلسوفًا ومترجمًا للكتب ايضًا ولهُ مصنفات مفيدة في الطب نظير مصنفات ابيهِ والثاني يسمى داود وكان ماهرًا في علم الطب مفيدًا بعلاج المرضى

وابرهيم بن ثابت بن قرة الحراني وقد سبق ذكر ابيهِ بجملة مترجمي كتب القدماء بلغ رتبة ابيهِ المذكور في الفضل وكان صابيّ المذهب مثلهُ ايضًا ومن حذاق الاطباء ومتقدمي اهل زمانهِ في هذه الصناعة

وابن اخي ابرهيم المذكور ابو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني كان في بغداد في ايام معزّ الدلة بن بويه وكان طبيبًا عالمًا يقرأ عليهِ كتب ابقراط وجالينوس وقد سلك مسلك جدّهِ ثابت في نظرهِ الى الطب والفلسفة والهندسة وجمع الصناعات الرياضية للقدماء ولهُ تاريخ ايضًا

وفي ايام المقتفي امر الله العباسي كان امين الدولة ابو الحسن هبة الله بن صاعد[1] ويعرَف بابن التلميذ النصراني ولم يكن مثلهُ بعد بقراط وجالينوس على ما ذكروا وكان ظريف المنادمة حسن المجالسة حتى ان كبراء الوقت كانوا يرغبون في منادمتهِ وكان معتبرًا عند الامراء والوزراء بسبب كثرة علومهِ ولهُ كتاب في الاقرباذين وشرح على كليات ابن سينا . يحكى عنهُ انهُ كان قائمًا بين يدي المقتفي المشار اليهِ ولهُ ادلال الخدمة والصحبة واذ دخل ابو منصور الجواليقي البغدادي صاحب كتاب شرح ادب الكاتب والمعرّب الذي لم يُعمل في جنسهِ اكثر منهُ وتتمة درة الغواص تاليف الحريري سماهُ التكملة وكان امامًا لهذا الخليفة والّف لهُ كتابًا في علم العروض فما زاد على ان قال السلام على امير المؤمنين ورحمة الله تعالى فقال لهُ هبة الله ما هكذا يُسلم على امير المؤمنين فلم يلتفت ابن الجواليقي اليهِ بل قال للمقتفي يا امير المؤمنين لو حَلَف حالفٌ ان نصرانيًا او يهوديًا لم يصل الى قلبهِ نوع من انواع العلم على الوجه المرضي لما لزمتهُ كفارة الحنث لان الله تعالى قد ختم على قلوبهم ولن يفكّ ختم الله الاّ بالايمان فقال لهُ الخليفة صدقت وكانما أُلجم ابن التلميذ بحجر مع فضلهِ وغزارة علمهِ ومن شعرهِ لغزٌ في الميزان

ما واحدٌ مختلف الاسماء   يعدلُ في الارض وفي السماء
يحكمُ بالقسطِ بلا رياء   اعمى يري الارشاد كل راء

[1] هو غير شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزي احد الكتاب القبطة بمصر الذي اسلم في ايام الملك الكامل ووزر للملك الناصر عز الدين ايبك التركماني الصالحي متولي مملكة مصر

أخرسُ لا من علةٍ وداء   يغني عن التصريح بالايماء
مجيبُ ان ناداهُ ذو امتراء   بالرفعِ والخفضِ على النداء
يُفصحُ ان علّقَ في الهواء

قولهُ مختلف الاسماء يعني بذلك ميزان الشمس وهو الاسطرلاب وسائر آلات الرصد وهو معنى قولهِ يحكم في الارضِ وفي السماء وميزان الكلام وهو النحو وميزان الشعر العروض وميزان المعاني المنطق والميزان المعتاد والمكيال والذراع

قال ابن خلكان في ترجمتهِ كان هبة الله هذا ابقراط عصرهِ وجالينوس زمانهِ ختم بهِ هذا العلم (يعني الطب) ولم يكن في الماضين من بلغ مداهُ فيهِ عمّر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً بهي المنظر حسن الرواء عذب المجتلى والمجتنى لطيف الروح ظريف الشخص بعيد الهم عالي الهمة ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم الى ان قال كان متفننًا في العلوم ذا رأيٍ رصين وعقل متين طالت خدمتهُ للخلفاء والملوك وكانت منادمتهُ احسن من التبر المسبوك والدرّ في السلوك شعرهُ رائق ونظمهُ فائق خلف جدّهُ لامهِ معتمد الملك ابي الفرج يحيى بن التلميذ النصراني فنسب اليهِ توفي ببغداد يوم عيد الفصح ولم يبقَ فيها من لم يحضر جنازتهُ وذلك سنة ٥٦٠ للهجرة (سنة ١١٦٤م)

واوحد الزمان ابو البركات هبة الله بن علي بن ملكان الحكيم المشهور صاحب كتاب المعتبر في الحكمة وكان بينهُ وبين ابن التلميذ المذكور تنافر وتنافس وكان ابو البركات هذا يهوديًا ثم اسلم في آخر عمرهِ وكان ابن التلميذ كثير التواضع واوحد الزمان متكبرًا فعمل فيهما البديع الاسطرلابي هذين البيتين

ابو الحسن الطبيبُ ومقتفيهِ   ابو البركات في طرفي نقيضِ
فهذا بالتواضع في الثريا   وهذا بالتكبرِ في الحضيضِ

وكان شيخ ابن التلميذ في الطب ابو الحسن هبة الله بن سعيد صاحب

تصانيف مشهورة منها كتاب التلخيص والمغني في الطب وهو جزء واحد وكتاب الاقناع وهو اربعة اجزاء

وكان المسلمون في غالب هذه المدة الطويلة مشتغلين بدرس الفلسفة وباقي العلوم التي ادخلها بينهم الخلفاء العباسيون بواسطة الاطباء المذكورين هنا وغيرهم الى ان ظهر بينهم اطباء بلغوا درجة عالية في هذا الفن يحسبون الآن كحلقة تربط سلسلة هذا الفن بين اليونانيين والافرنج

وقد اتبعوا فيه ابقراط وجالينوس وكانوا يعرفون التقطير وصناعة التخمير التي اتخذوها من التتار وشكلوا الاواني الكيموية باشكال يسهل بها التناول واستنبطوا بعض طرق في علم الكيميا العملي . قال بعض المؤلفين ان العرب اشتغلوا كثيرًا في الطب والصيدلة والكيميا فهم اول من وصف الجدري وعرف تطعيمها فكانت نساؤهم قديمًا يطعمنَ اولادهنَّ بانفسهنَّ ويضعنَ ايديهم بالشوك وهم اول من وصف الحصبة وفاقوا بالصيدلة غيرهم فزادوا في المواد الطبية كثيرًا على ما وضعهُ اليونان كالسنا والراوند والتمرهندي والكاسيا وجوز الطيب وكبش القرنفل وغيرها وهم اول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير والتصعيد واول من استعمل السكر في الادوية وكان غيرهم يستعمل العسل واول من جعل الكيميا علمًا باصول واوّل من كتب الوصفات على قاعدةٍ وكان لهم في الطب مدارس شهيرة وكان حكام الاندلس يعتنون بادارة الصيدليات فيفحصون ادويتها ازالة للغش ويسعرونها رفقًا بالفقير وفضلهم في الطب على اوربا لا ينكر فان مدرسة سالرنو لولاهم لم تقم ولا امتد هذا الفن بين اهلها . واما التشريح فقلما كان له نصيب منهم حيث ان الدين الاسلامي لم يبح تشريح البشر واما الجراحة فبرعوا فيها كثيرًا ويظهر من كتابة ابي القسم ان النساء بالاندلس كنَّ يعملنَ كثيرًا من العمليات الجراحية بغيرهنَّ من الاناث وذلك ما يحثُّ عليهِ اهل اوربا واميركا اليوم وبالاجمال يقال انهم توغلوا اخيرًا في البحث عن حجر الفلاسفة وهو الكيميا الكاذبة معلقين آمالهم بان يعملوا الذهب والفضة من

النحاس والقصدير وباقي المعادن الى غير ذهبهم كما كانوا يبحثون في العلوم الفلكية عن التنجيم الكاذب لمعرفة مستقبل سعادتهم وبذلك افسدوا علومهم هذه وعطلوها كما سبقت الاشارة الى ذلك في غير موضع من هذا الكتاب

وحيث ان كثيرين ممن حازوا بينهم قصبات السبق في هذا العلم كابن سينا وابن رُشد وغيرهما قد مرّ ذكرهم مع الفلاسفة فنذكر هنا البعض من الباقين الذين لم تُدرج اسماؤهم هناك ولئن كان في الحقيقة يجب ان ينظم غالبهم في سلك الفلاسفة ايضاً كما يستبين ذلك من ترجماتهم الآتية

وكان اوّل من اشتهر في الطب بين الاسلام ابو خالد يزيد بن معاوية الاموي الذي كان أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيميا والطبّ ورسائله فيهما دالة على معرفته اخذ الصنعة عن موريانوس الراهب الرومي كما سبقت الاشارة الى ذلك وله فيها ثلاث رسائل تضمنت احداهنّ ما جرى له مع موريانوس المذكور وصورة ما تعلمه منه والرموز التي اشار اليها وله في ذلك اشعار كثيرة توفي سنة ٨٥ للهجرة (سنة ٧٠٤ م)

واحمد بن ابرهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك في نحو سنة ١٠٠ للهجرة (سنة ٧١٨ م) استخلص من كتب ابقراط كتاباً سمّاه اصول الطب ورسالة في النبات المستعمل في الطب

وابو بكر محمد بن سيرين البصري كان ابوهُ نحاساً من جرجرايا جاء الى عين التمر في بعض المصالح فاخذهُ خالد بن الوليد اسيرًا مع اربعين فتى آخرين فاشتراهُ انس بن مالك ثم فدى نفسهُ بعشرين الف درهم وتزوج بصوفيا مولاة ابي بكر فولدت محمدًا الذي نحن بصددهِ في سنة ٣٣ للهجرة (سنة ٦٥٣ م) واشتهر في معرفة الحديث وتفسير الاحلام وصار كاتباً لانس بن مالك لما تولى البصرة قيل ولد له ثلاثون ولدًا من امرأة واحدة وغلب عليهِ الدين فألقي في الحبس ولما مات انس بن مالك اوصى ان لا احد يغسلهُ ولا يقرأ عليهِ الصلاة الاّ ابن سيرين فأُتي بهِ من السجن ولما اكمل الفرض عاد اليهِ بدون ان يرى اهلهُ بيته

وهو صاحب كتاب تفسير الاحلام الكثير الذكر بين الذين اتوا بعدهُ وقد مرَّ ذكرهُ في الفصل الرابع من المقالة الرابعة

وابن ابي زاحر الذي تقدم ذكرهُ في علم النبات كان موجودًا نحو سنة ١٢٥ للهجرة (سنة ٧٤٣ م)

وعبد الله بن المقفع كاتب عيسى بن علي عمّ المصنور العباسي وقد مرَّ ذكرهُ في الفصل الاول من المقالة العاشرة ألّف كتابا في الامراض وشرحًا على ارسطاليس نترجم من الفارسي الى العربي

وابو قريش عيسى الصيدلاني كان في بغداد في عصر الخليفة المهدي ولم يكن ماهرًا في صناعة الطب وانما يذكر بين الاطباء لظرافة خبرهِ قيل انهُ كان صيدلانيًا ضعيف الحال جدًّا فتشكت الخيزران حظية المهدي وكانت من مولدات المدينة ونقدمت الى جاريتها بان تخرج القارورة الى طبيبٍ غريب لا يعرفها وكان ابو قريش بالقرب من القصر الذي للمهدي فلما وقع نظر الجارية عليهِ ارتهُ القارورة فقال لها لمن هذا الماء فقالت لامرأةٍ ضعيفة فقال لا بل لملكةٍ جليلة الشان وهي حُبلى بملكٍ وكان هذا القول منهُ على سبيل الرزق فانصرفت الجارية من عندهِ واخبرت الخيزران بما سمعت منهُ ففرحت بذلك فرحًا شديدًا وقالت ينبغي ان تضعي علامةً على دكانهِ حتى اذا صحَّ قولهُ اتخذناهُ طبيبًا لنا ثم بعد مدةٍ ظهر الحبل وفرح بهِ المهدي فرحًا شديدًا فانفذت الخيزران الى ابي قريش خلعتين فاخرتين وثلاث مئة دينار وقالت استعن بهذا على امرك فان صحَّ ما قلتهُ استصحبناك فتعجب ابو قريش من ذلك وقال هذا من عند الله عزَّ وجلَّ لاني ما قلتهُ للجارية الاَّ وقد كان هاجسًا من غير اصل ولما ولدت الخيزران موسى الهادي سرَّ المهدي سرورًا عظيمًا وحدثتهُ الخيزران الحديث فاستدعى ابا قريش وخاطبهُ فلم يجد عندهُ علمًا بالصناعة الاَّ شيئًا يسيرًا من امر الصيدلة ومع ذلك اتخذهُ طبيبًا لِما جرى منهُ واستصحبهُ واكرمهُ الاكرام التام

وابو عبد الله جعفر بن محمد بن علي الصادق الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل

الرابع من المقالة الرابعة ألّف في الهيئة والكيمياء والرمل وتوفي في المدينة سنة ١٤٨ للهجرة (سنة ٧٦٥ م)

وابو موسى جابر بن حيان بن عبد الله الصوفي الطرسوسي مولدًا الكوفي مسكنًا من تلامذة جعفر الصادق اشتهر في الكيمياء وجمع خمس مئة رسالة من رسائل جعفر في الف صفحة طُبع مؤلفهُ في استراسبرج سنة ١٥٣٠ وايضًا سنة ١٦٣٥ وطُبع كتاب اصول الكيمياء لجابر المذكور وابن سينا في باسل سنة ١٥٧٢ وكتاب له في الهيئة في نورسبرج سنة ١٥٣٤ م

والشيخ ابو بكر محمد بن زكريا الرازي الذي كان ماهرًا في فنّ الطب والمنطق والهندسة والموسيقى وكان يضرب بالعود في صغرهِ ثم توغل في العلوم الطبيعية وصار رئيس الاطباء في بيت الشفاء ببغداد بعد ان دبّر مرستان الري اخذ الطب عن الحكيم ابي الحسن بن زين الطبري صاحب كتاب فردوس الحكمة ومن مصنفاتهِ في الطب كتاب الحاوي وهو نحو ثلاثين مجلدًا جمعهُ من صحفٍ متفرقة اخذها جالينوس اليوناني عن آثار دائرة من كلام ابقراط الذي هو اوّل من كتب في صناعة الطب بعد ان كانت سرًّا مكتومًا بين بني اقليميوس يتوارثونها خلفًا عن سلف ولا يبوحون بها لاحد ولذلك يقال كان الطب معدومًا فاحياهُ جالينوس وكان متفرقًا فجمعهُ الرازي وكان ناقصًا فكملهُ ابن سينا البخاري الذي فاق كل من تقدمهُ ولذلك يلقبونهُ بالشيخ الرئيس وقد مرَّ ذكرهُ مع الفلاسفة . ثم من مؤلفات الرازي ايضًا كتاب الجامع وكتاب الاعصاب وكتاب المنصوري جمع فيهِ بين العلم والعمل صنفهُ لابي صالح منصور ابن نصر الساماني ومن كلامهِ في الطب مهما قدرت ان تعالج بالاغذية فلا تعالج بالادوية ومهما قدرت ان تعالج بدواءٍ مفردٍ فلا تعالج بدواءٍ مركّب وحكى بعض المؤلفين ان الرازي المذكور صنف لمنصور هذا كتابًا في اثبات صناعة الكيمياء (الكاذبة) فقال لهُ منصور كل ما احتجت اليهِ من الآلات احضرهُ لك كاملاً حتى تخرج ما ضمنتهُ كتابك الى العمل فلما عجز عن عملهِ قال لهُ

منصور ما اعتقدت ان حكيماً يرضى بتخليد الكذب في كتبٍ ينسبها الى الحكمة ثم حمل السوط على رأسهِ وامران يضرب بالكتاب على رأسهِ حتى يتقطع فكان ذلك سبب نزول الماء في عينيهِ توفي في السنة التي مات فيها الخليفة المقتدر بالله العباسي سنة ٣٢٠ للهجرة (سنة ٩٣٢ م)

وابو القاسم الزهراوي طبيب اندلسي ولد في الزهراء قرب قرطبة في القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) وألّف في الطب تآليف مفيدة منها كتابٌ في امراض النساء وآخر في الجراحة طُبع احدهما مترجماً الى اللاتينية في اكسفورد سنة ١٧٧٨ م (سنة ١١٩٢ للهجرة) وكتاب في استحضار الادوية ترجم كذلك الى اللاتينية وطبع في البندقية سنة ١٥٨٩ م (سنة ٩٩٨ للهجرة)

وابو علي يحيى بن جزلة الطبيب صاحب كتاب المنهاج الذي رتبهُ على الحروف وجمع فيهِ اسماء الحشائش والعقاقير والادوية وغير ذلك وكتاب تقويم الابدان وكتاب منهاج البيان في ما يستعملهُ الانسان وكتاب الاشارة في تلخيص العبارة ورسالة في مدح الطب وموافقتهِ للشرع وقالوا انهُ كان نصرانياً واسلم وهو تلميذ ابي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسن وكان يطبب اهل محلتهِ ومعارفهِ بغير اجرة ويحمل اليهم الاشربة والادوية بغير عوض ويتفقد الفقراء ويحسن اليهم توفي سنة ٤٩٣ للهجرة (سنة ١٠٩٩ م)

وابو الصلت أُمية بن عبد العزيز بن ابي الصلت الاندلسي الذي كان فاضلاً في العلوم والادب عارفاً بفن الحكمة ماهراً في علوم الاوائل ولهُ ديوان شعر وهو غير أُمية بن ابي الصلت الشاعر المشهور في اول الاسلام ومن مؤلفاتهِ في الطب كتاب في الادوية المفردة وصنّف للافضل بمصر رسالة العمل بالاسطرلاب وكتاب الوجيز في علم الهيئة ولهُ كتاب في المنطق سماهُ تقويم الذهن وكتاب سماهُ الحديقة على اسلوب يتيمة الدهر للثعالبي توفي سنة ٥٢٩ للهجرة (سنة ١١٣٤ م)

والامام فخر الدين الرازي ابو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن

ابن علي التيمي البكري الطبرستاني الرازي المولد الذي فاق اهل زمانهِ في علم الكلام والمعقولات وعلم الاوائل ولهُ التصانيف المعتبرة في فنون عديدة منها في الطب شرح الكليات للقانون وشرح الاشارات لابن سينا الذي مرَّ ذكرهُ في الحكمة والملخص وشرح عيون الحكمة ولهُ في علم الكلام المطالب العالية ونهاية العقول وكتاب الاربعين والمحصل وكتاب البيان والبرهان في الرد على اهل الزيغ والطغيان وكتاب المباحث العمادية وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل وكتاب ارشاد النظار الى لطائف الاسرار وكتاب اجوبة المسائل البخارية وكتاب تحصيل الحق وكتاب الزبدة والمعالم ولهُ في الطلسمات السرّ المكتوم وشرح اسماء الله الحسنى ولهُ في اصول الفقه المحصول والمعالم ولهُ في النحو شرح المفصَّل للزمخشري وشرح الوجيز في الفقه للغزالي وشرح سقط الزند للمعرّي ولهُ مختصر في الاعجاز سمَّاهُ نهاية الاعجاز ولهُ مواخذات جيدة على النحاة ولهُ طريقة الخلاف وصنَّف في علم الفراسة وغير ذلك ومن نظمهِ

المرء ما دام حيًّا يُستهان بهِ ويعظم الرزء فيهِ حين يفتقدُ

توفي بمدينة هرات سنة ٦٠٦ للهجرة (سنة ١٢٠٩ م)

ثم ان الكتبَ التي الَّفها هولاء الافاضل وغيرهم من العرب في صناعة الطب كثيرًا ما تشتمل على فنون من هذه الصناعة كالبيطرة وهي طبُّ الخيل والزردقة وهي طبُّ الطيور وقد يتعرضون فيها ايضًا لشيءٍ من البزدرة وهي صناعة الغرس واوقاتهِ والفلاحة وهي صناعة الاغراس ومغارسها وكثيرون منهم يضمون ايضًا الى علم الطب علم الطبيعيات لعلاقةٍ بينهما في الاحكام المزاجية وغيرها وعلم النجوم لتأثير الاجرام العلوية في الابدان وعلم الموسيقى لمعاضدتهِ في احكام النبض وفي ما قد ذكرناهُ في كتابنا زبدة الصحائف في اصول المعارف ما هو كافٍ لمعرفة عظم اهمية مؤلَّفات الطب العربية المذكورة هنا ببلاد اوربا في القرن الخامس عشر من الميلاد

الفصل السادس

في مدارس العرب واشتهارها وما آل اليهِ امرها

وكان لما نزعت نفوس العرب الى الاشتغال بالعلوم واحراز المعارف انهم انشأوا لها مدارس وجمعوا اليهـا العلماء وكانت اشهر مدارسهم ببغداد والبصرة وبخارا في الشرق والقاهرة في مصر ومراكش وفاس ببلاد البربر وكان بمدرسة بغداد في القرن السادس للهجرة (الثاني عشر للميلاد) ستة آلاف شخص من معلّم ومتعلم وبقرطبة وحدها من بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في خلافة الحكم المستنصر بن عبد الرحمان في منتصف القرن الرابع للهجرة (النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد) وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة منها الجامع الازهر الذي هو الآن مدرسة الاسلام العظمى بمصر اسسهُ جوهر القائد عند ما بنى مدينة القاهرة للخليفة المعزّ العبيدي كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول من المقالة الخامسة . قال رفاعة بك الطهطاوي انهم كانوا يدرسون فيهِ علم الاصول والتوحيد والفقه والتفسير والحديث والعلوم الآلية مثل العلوم العربية والمنطق والوضع والمناظرة وجميع الرياضيات والالهيات وعلم الطب والهيئة والتاريخ واما الآن فلا يقرأ فيهِ الاَّ العلوم الشرعية فقط وآلاتها مع غاية الاهتمام والمحافظة على حفظ الشريعة ولغة العرب من الضياع ويقال بانهُ كان فيهِ من المجاورين نحو اثني عشر الفًا والآن لم يكن فيهِ ازيد من الف ومئتين . وقال غيرهُ ان من هذه المدرسة انتشرت بمصر العلوم والآداب وقد تخرَّج فيها كثيرون من الغرباء ولا زال حتى الآن يقصدونها فضلاً عن اهالي مصر

الذين ظهر منهم الشيخ محمد البوصيري والشيخ محمد الفيومي صاحب الكتاب المشهور في اللغة العربية والشيخ جلال الدين السيوطي

ومنها دار الحكمة التي كان انشأها صاحب ديانة الدروز الحاكم بامرهِ ابو علي منصور بن العزيز بالله ابي النصر نزار بن المعزّ العبيدي واجلس فيها القراء وحملت اليها الكتب من الخزائن والقصور ودخل اليها الناس وجلس فيها الفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والاطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم يرَ مثلهُ مجتمعاً واجرى على من فيها من الخدام والفقهاء الارزاق السنية وجعل فيها ما يحتاج اليهِ من الحبر والاقلام والمحابر والورق وكان ذلك في سنة ٣٩٥ للهجرة (سنة ١٠٠٤ م) وكان ممن تخرَّج في هذه المدرسة رجلان يقال لاحدهما حميد بن مكي الاطفيحي القصار (اطفيح قرية من قرى مصر) والثاني بركات فشرعا في افساد عقول الناس وادَّعيا الربوبية فبلغ ذلك الافضل بن امير الجيوش الجمالي وزير السيف والقلم للخليفة المستنصر العبيدي صاحب مصر فامر للوقت بغلق دار الحكمة المذكورة والقبض عليهما اما بركات فانهُ مات وهو متوارٍ منهُ وقتل الافضل بعض من كان باقياً من اتباعهِ. واما حميد القصار فبقي متوارياً الى ان مات الافضل واعاد الخليفة الآمر باحكام الله ابو علي المنصور العبيدي دار الحكمة ثانيةً فظهر حينئذٍ وطلع وافسد جماعةً وادَّعى الربوبية وكان لهُ من الشعبذات والخزعبلات ما حمل خاصتهُ الذين يطلعون على باطنهِ ان يهابوهُ حتى انهم يخافون الاثم في تأمل صورتهِ فلا ينفكون مطرقين بين يديهِ فامسكهُ المأمون وزير هذا الخليفة وصلبهُ على الخشب مع الذين اصرُّوا على الاعتقاد بهِ من اتباعهِ وذلك في سنة ٥١٧ للهجرة (سنة ١١٢٣ م) ثم لما انقرضت دولة العبيديين من مصر واستولى عليها السلطان صلاح الدين الايوبي واعاد اليها الراية العباسية استولى على القصر واموالهِ وذخائرهِ وما فيهِ من الجواهر قال ابن خلكان ومن جملتها قضيب من الزمرد طولهُ نحو قبضة ونصف وحبل ياقوت ونحو مئة الف مجلد من الكتب

المنتخبة وقال ابن خلدون انها تناهز مئة وعشرين الف سفرًا واعطاها لعبد الرحيم البيساني كاتبهِ وقاضيهِ وهدم دار الحكمة وكانت حبسًا فبناها مدرسة للشافعية انتهى

ولنرجع الى ما كنا بصددهِ فنقول وحيث قد حصلت هذه المدارس والمكاتب التي انشأها العرب سواءٌ كان في بغداد او في غيرها من بلاد المشرق واسيا واسبانيا وافريقية لانواع العلوم والفنون على شهرةٍ كبيرة كان من اشهر في المعارف مدة القرن السادس والسابع للهجرة (الثاني عشر والثالث عشر للميلاد) في الغالب قد تعلم فيها ومضت عدّة قرون على ذلك ولم تعرف الناس في القرون الوسطى فلسفة ارسطاليس الّا بواسطة معرفة تراجم مؤلّفاته باللغة العربية حيث كان مترجمو العرب وقتئذٍ معتبرين كانهم اعظم مرشدٍ وانجب دليل في معرفة مذهبهِ

قال صاحب المقتطف ان مدارس الاندلسيين كانت على غاية من الاتقان فقصدها اهالي اوربا في القرون الوسطى وقرأُوا العلم فيها ثم تزودوهُ منها الى بلادهم ففي سنة ٢٦٠ للهجرة (سنة ٨٧٣ م) امر هرتموت رئيس دير ماري غالن جماعةً من رهبانهِ بدرس اللغة العربية لتحصيل معارفها وكان الرهبان البندكتيون يطلبون العلوم العربية بشوق لا مزيد عليهِ واشهر من تعلم العلم في هذه المدارس هو البابا سليبسترس الثاني واصلهُ رجل فرنسي يسمّى جربرت وقد مرَّ ذكرهُ في الكلام على الهندسة طاف بقسمٍ كبير من اوربا طالبًا المعارف حتى دبَّت قدمهُ في الاندلس فرتع في مدارس اشبيلية وقرطبة وصرف رغبتهُ الى العلوم فلما ساغها هنيئًا عاد الى ديارهِ وما زال يسمو على اقرانهِ حتى تنصّب بابا فشاد للعلم مدرستين الواحدة في ايطاليا والاخرى في ريمز وادخل الى اوربا معارف العرب والارقام الهندية التي نقلها عنهم

ومن ثمّ ثارت الحمية في اهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا وانكلترة فطلبوا الاندلس من كل فجٍ عميق وتناولوا المعارف عن اهلها قال مونتكلا في تاريخ

العلوم الرياضية ولم يقم من الافرنج عالمٌ بالرياضيات الاَّ كان علمهُ من العرب مدة قرون عديدة فمن جملة من نقل عنهم المعارف الى ايطاليا دوكريمونا فانهُ قرأَ عليهم الهيئة والطب والفلسفة بطليطلة وترجم عنهم المجسطي وكتب الرازي والشيخ الرئيس ابن سينا الى اللاتينية وكذلك ليونارد البيزي نقل عنهم الحساب والجبر وارنولد الڤيلانوڤي نقل عنهم الهيئة والطبيعيات والطب. وممن نقل عنهم من الانكليز راهب اسمهُ بلارد وآخر اسمهُ مورلي وآخر يقال لهُ اسكوت. وروجر باكون الشهير فان ما حصلهُ من المعارف في الكيميا والفلسفة والريضيات انما استخلصهُ من كتبهم وقد اقتبس من اقوال الحسن (لعلهُ الخازن الاندلسي الذي مرَّ ذكرهُ مع الفلاسفة) في البصريات . ومثلهُ فيتليو الذي اشتهر بالبصريات فانهُ اخذ كثيرًا عن الحسن المذكور. وآخرون ذكرنا بعضهم في كتابنا زبدة الصحائف في سياحة المعارف

ثم لما عرف ملوك الافرنج قيمة معارف العرب وما هم عليهِ من التمدن بواسطة الحروب الصليبية التي اثاروها عليهم اخذوا في اقتفاء آثارهم وامروا بترجمة كتبهم الى لغاتهم كما يتضح ذلك مما يأتي والخلاصة ان الافرنج نقلوا عن العرب ما نقلهُ العرب عن غيرهم او استنبطوهُ هم انفسهم من الفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات والبصريات والكيمياء والطب والصيدلة والجغرافيا والزراعة والفراسة واخذوا عنهم عمل الورق والبارود والسكر والخزف وتركيب الادوية ونسج كثير من الاقمشة وادخلوا منهم دود القزّ الى بلادهم وكثيرًا من الحبوب والاشجار كالارز وقصب السكر والزعفران والقطن والسبانخ والرمان والتين ونقلوا عنهم دبغ الادم وتجفيفهُ وذلك انهُ لما طردهم اهل اسبانيا الاصليون منها هاجروا الى فاس ففقدت هذه الصناعة من الاندلس ثم استردها الانكليز ولا يزالون يسمّون الجلود المدبوغة بها (موركّو وكوردوڤان) نسبةً الى مراكش وقرطبة

وقال صاحب المقتطف ايضًا ولا تزال الالفاظ العربية في اكثر مباحث

الافرنج الطبيعية كالسمت والنظير والسموت والمقنطرات واسماء النجوم والكحول والقلي والجبر والقطن والشراب والكيميا وغيرها ولولا لغة العرب لبقيت لغة اهل اسبانيا قاصرةً كما كانت فاسماء اوزانهم واقيستهم اكثرها عربي محرَّف كالقنطار والربع والشبر وكذلك اسماء قطع الماء كالبحيرة والبركة والجبّ والقبيبة (مصغَّر قبة) وغيرها كثيرٌ فالمولَّدون كانوا في زمانهم حلقةً من سلسلة العلوم اتصلت بها علوم الاولين بالمتأخرين ولولاهم لفقد اكثر المعارف ان لم نقل كلها

قال روبرتسون المؤرخ الانكليزي الشهير وغيرهُ ما خلاصته هو انه في الزمن الذي كان يتدارس به العرب هذه العلوم وينشرونها في بلادهم كانت اهالي اوربا في حالةٍ لا زالوا هم ذواتهم يندبونها حتى اليوم ولم يستفيقوا من ذلك الجهل المفرط والنوم العميق الاّ بواسطة شروعهم في تلك الغزوات الصليبية الوحشية التي اجروها مع المسلمين بقصد استخلاص الاراضي المقدسة من اياديهم حيث مرّوا في غزواتهم هذه وسيرهم جهة بلاد اورشليم باراضٍ نضرة لحسن زراعتها اكثر من اراضيهم وبدول متمدنة اكثر من تمدن دولهم ووجدوا في اسيا آثار تلك العلوم والفنون التي كان أسسها واعان على تحصيلها الخلفاء العباسيون وان تكن وقتئذٍ خارجة عن حكمهم (يعني تحت حكم الخلفاء العلويين الفاطميين الذين سبق ذكرهم)

وكذلك لما استولوا على القسطنطينية كرسي القيصرية اليونانية الشرقية في اثناء هذه الغزوات المذكورة وذلك في سنة ٦٠٢ للهجرة (سنة ١٢٠٥ م) شاهدوا فيها ما لم يكن موجودًا في بلادهم من التمدن وحسن التربية القديمة وكانت وقتئذٍ هذه المدينة لم تزل تحت حكم القياصرة اليونانيين وكانت مخزنًا لبضائع اوربا الهندية وكانت قوّتها البحرية عظيمةً جدًّا مزينة بالمعامل المعتبرة وفيها توجد منابع الغنى التي سببت لاهلها الميل الى الزينة والعلوم والاشياء الفاخرة وكانت هذه العلوم كاسفةً اذ ذاك في غربي اوربا ومضيئة في هذه

المدينة وغيرها من مدن الامبراطورية المذكورة ولما كان لا يمكن لهولاء المحاربين من الافرنج ان يجوبوا هذه البلاد بدون ان يكتسبوا من علومها ومعارفها شيئًا جديدًا اتسعت حينئذٍ اطاعهم وضعفت اوهامهم وتصورت اذهانهم تصورات اخرى نافعة وصارت عساكرهم التي تستبدل ترجع الى محلاتها مستصحبة تلك العادات التي اكتسبتها في تلك المدة الطويلة حتى انه بعد زمنٍ قليل من ظهور تلك المحاربة التي ابتدأت سنة ٤٩٠ للهجرة (سنة ١٠٩٦ م) في ايام خلافة المستظهر بالله العباسي في بغداد والمستنصر بالله ابي تميم المعدّ الفاطمي بمصر والشام ظهرت التحسينات في دواوين امراء اوربا والتزيينات في المحافل العامة والمجامع المدنية وانتشرت دائرة العلوم رويدًا رويدًا في بلادهم ولما بحثوا عن كتب ارسطو وغيرها من كتب العلوم ليتعلموها او لينقلوها الى لغاتهم كانت اللغة العربية وقتئذٍ هي التي يمكنها ان تجود عليهم بذلك نظرًا لاختلاطهم باهلها سواء كان ذلك في اسيا او في بلاد الاندلس وجهلهم اللغة اليونانية فتناولوها من من يد العرب على الوجه الذي سبقت الاشارة اليهِ

غير ان كتب الفلاسفة التي كان ترجمها العرب الى لغتهم قد استخرجت من اللغة اليونانية على وجهٍ مفسود بسبب جهل المترجمين الذين ترجموها في لغة اليونان حيث انها كانت وقتئذٍ مهجورة ولذلك قد زوّد البعض منهم اشياء في كتب ارسطو وبعض تعاليمهِ لم تكن موجودة في الاصل لكونهم ما عرفوا قصد هذا الفيلسوف في بعض جملٍ فاوردوها بموجب اختراعات عقولهم الخصوصية وآخرون فعلوا ذلك عن قصدٍ كابن سينا على ما سبقت الاشارة اليهِ في ترجمتهِ المدرجة بجملة الفلاسفة ومن ثمَّ اصبحت تعاليم هذا الفيلسوف اليوناني مفسودةً عندهم فسادًا كافيًا فلما استخرج الافرنج هذه الكتب من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية استخرجوها على هذا الوجه المفسود عينهِ الذي بهِ استخرجت من اليونانية الى العربية فكانت كانها في تعليمٍ آخر منسوب لارسطو غير تعاليمهِ الاصلية لكونها مفسودة من وجهين الاول من جهل المترجمين الاولين والثاني

من ابن سينا المذكور وقد بقي هذا التعليم في اوربا عدة قرون على هذه الصورة الفاسدة الى ان افتتح آل عثمان مدينة القسطنطينية في سنة ٨٥٧ للهجرة (سنة ١٤٥٣ م) وهرب كثيرون من علماء اليونانيين الى ايطاليا وغيرها من مدن اوربا واقاليمها واستوطنوا هناك وكانوا مستصحبين معهم بجملة كتبهم نسخ فلسفة ارسطو الاصلية فحينئذٍ أُعيد استخراجها الى اللغة اللاتينية بكل تدقيق وبذلك تصححت النسخة اللاتينية المترجمة من ابن سينا المذكور وعرف الافرنج فلسفة ارسطو على حقيقتها وانشأُوا لها في كل جهة من بلادهم مدارس لا تحصى وجمعوا فيها من كتب اليونانيين والرومانيين والعرب خزائن لا تستقصى الى ان انتهت اليهم الآن الرياسة في المعارف العقلية والنظرية وصاروا مصدرًا لكل حقيقة سامية وطريقة علمية وسريرة طبيعية

اما العرب فانهُ لم يبقَ عندهم من تلك المكاتب التي اشرنا اليها بانهم جمعوها والمدارس التي شيدوها حتى ولا ذكرها فكأَن دولة علومهم كانت مرتبطة بدولهم السياسية التي منذ اضاعوها اضاعوا كل هذه العلوم والمعارف معها اذ انهُ لم تسقط لهم دولة من دولهم سواء كانت في المغرب او في المشرق الاَّ وهدمت جيوش اعدائهم مدارسها واشعلوا نيران حقدهم في مكاتبها

قال صاحب المقتطف ان مكاتب الاندلس لم تعش طويلاً اذ قد روى سعيد بن احمد ان المنصور (لعلهُ الذي كان وزيرًا للملك المؤيد) اتلف اكثرها وهكذا لما افتتح الاسبانيون تلك البلاد واستخلصوها من يد العرب على ما رواهُ بعض المؤلفين فان كردينالهم المسمَّى شيمنز أمر بحرق ثمانين الف كتاب في ساحات مدينة غرناطة بعد استظهارهم عليها في سنة ٨٩٨ للهجرة (سنة ١٤٩٢ م) الى ان قال نقلاً عن مؤرخ اسباني يُقال لهُ ربلس بان الاسبانيين افنوا الف الف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها اقلام العرب وانهم ظفروا بثلاث سفن كانت مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة طالبةً ديار سلطان مراكش فسلبوها والقوا بكتبها في قصر الاسكوريال الى سنة ١٦٧١ م (سنة ١٠٨٢ للهجرة) حين لعبت

بها النيران فاكلت ثلاثة ارباعها ولم يستخلصوا منها الاَّ الربع الاخير حين استفاقوا من غفلتهم ففوضوا الى رجل ماروني من اهالي طرابلس يقال لهُ ميخائيل القصيري فكتب لهم اسماء الف وثمان مئة واحدى وخمسين كتاباً منها والظاهر ان هذه الكمية التي اشار اليها صاحب المقتطف هي الكتب التي يقال بانها لازالت محفوظة من كتب العرب في خزانة الكتب السلطانية هناك

وكان قبل ذلك بعدة قرون لما افتتح هولاكو ملك التتار مدينة بغداد من من يد المستعصم العباسي في سنة ٦٥٦ للهجرة (سنة ١٢٥٨ م) خرب ما كان في تلك المدينة من المدارس والقى في نهر دجلة كل ما كان فيها من الكتب النفائس

واضف الى ذلك الخمول والزهد اللذين شملا الامة العربية وما سلبتهُ بطول المدَّة ايادي الافرنج منذ التفاتهم الى العلوم ولا زالوا يجثون عنهُ ليسلبوهُ من بلاد الشرق حتى هذه الساعة من فضلات كنوز مكاتبها الثمينة الى ان غادروا مدنها العظيمة التي كانت مشحونة بالمكاتب والمدارس خاوية على عروشها وقد اتصل بنا الحال الى ما نحن عليهِ الآن حتى اذا وجد بيننا من يوجد عندهُ بعض كتيبات فلا تكون الاَّ من كتب اللغة او ما يختصُّ بالامور الدينية وربما كان اكثرها بلا تجليد وعند الاكثرين ليست باكثر من علف للسوس كما انهُ لم يبقَ اثرٌ للمدارس الاَّ مدرسة واحدة في مصر وهي الجامع الازهر الذي مرَّ ذكرهُ وهو كذلك لا يوجد فيهِ والحالة هذه من تلك العلوم التي كانت تدرس فيهِ في ما سلف الاَّ العلوم الشرعية وما يتعلق بحفظ اللغة العربية من الضياع كما سبقت الاشارة الى ذلك في بداءة هذا الفصل

الخاتمة

في بيان تواريخ سني جلوس الخلفاء ونوابهم من السلاطين وغيرهم

كان انتخاب ابي بكر الصديق للخلافة بعد وفاة صاحب الشريعة الاسلامية في سنة ١١ للهجرة (٦٣٢ م)

وقام بالخلافة بعدهُ عمر بن الخطاب في سنة ١٣ للهجرة (سنة ٦٣٤ م) وتوفي قتيلاً بعد ذلك بعشر سنين وستة اشهر

وتولَّى بعدهُ عثمان بن عفان سنة ٢٣ للهجرة (سنة ٦٤٤ م) وتوفي كذلك قتيلاً بعد ان حكم اثنتي عشرة سنة

وتولَّى بعدهُ علي بن ابي طالب سنة ٣٥ للهجرة (سنة ٦٥٦ م) وتوفي قتيلاً بعد اربع سنين وشهرين

وتولَّى ابنهُ الحسن في سنة ٤٠ للهجرة (سنة ٦٦١ م) واقام في مسند الخلافة ستة شهور ثم انتقلت الخلافة الى بني أُمية ومن ذلك الوقت صارت وراثةً بعد ان كانت انتخابية واستمرَّت بيد الخلفاء الامويين يتداولونها خمسة عشر شخصاً منهم على التعاقب الواحد بعد الآخر وكانت سلطنتهم ممتدة على مصر والحجاز والهند والصين وخراسان والمشرق وافريقية والاندلس وسائر اقطار الاسلام وكرسي مِلكتهم كان في دمشق الشام

واول خليفةٍ منهم كان معاوية ابن ابي سفيان الاموي تولى الخلافة

سنة ٤١ للهجرة (سنة ٦٦١ م) وتوفي بعد عشرين سنة

وتولى بعدهُ يزيد ابنهُ في سنة ٦٠ للهجرة (سنة ٦٨٠ م) وتوفي بعد ثلاث سنوات ونصف

والثالث معاوية بن يزيد تولى سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) وخُلِع بعد تسعين يومًا

والرابع عبد الله بن الزبير تولى ملك الحجاز والعراق في سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) وقتل بعد تسع سنين

والخامس مروان بن الحكم اوَّل الخلفاء المروانيين كانت حكومتهُ على الشام ومصر في سنة ٦٤ للهجرة (سنة ٦٨٣ م) ثم قتل بيد اهلهِ غدرًا بعد ثمانية اشهر وعشرة ايام

وتولى بعدهُ ابنهُ عبد الملك سنة ٦٥ للهجرة (سنة ٦٨٤ م) لكن لم تصح خلافتهُ الاَّ بعد ان قتل ابن الزبير ثم توفي بعدها بنحو ثلاث عشرة سنة

وتولى بعدهُ ابنهُ الوليد سنة ٨٦ للهجرة (سنة ٧٠٥ م) وتوفي بدير مران بعد تسع سنوات

وتولى بعدهُ اخوهُ سليمان سنة ٩٦ للهجرة (سنة ٧١٤ م) وتوفي بمرج دابق بعد سنتين وثمانية شهور

وتولى الخلافة بعدهُ عمر بن عبد العزيز في سنة ٩٩ للهجرة (سنة ٧١٧م) وتوفي مسمومًا بعد سنتين وثلاثة اشهر بدير سمعان بارض حمص

وتولى بعدهُ يزيد بن عبد الملك في سنة ١٠١ للهجرة (سنة ٧١٩ م) وفي ايامهِ كان تلف آل المهلب الذين مرَّ ذكرهم في الفصل الاول من المقالة السادسة ثم توفي بعد خلافتهِ باربع سنوات في حوران

وتولَّى بعدهُ اخوهُ هشام في سنة١٠٥ للهجرة (سنة ٧٢٣م) وتوفي بالرصافة التي بناها بارض الشام بعد ان اقام خليفةً نحو عشرين سنة

وتولى بعدهُ الوليد بن يزيد بن عبد الملك سنة ١٢٥ للهجرة (سنة

٧٤٣ م) وتوفي قتيلاً بعد سنة واحدة

وتولى ابنهُ يزيد في سنة ١٢٦ للهجرة (سنة ٧٤٣ م) وتوفي بالطاعون بعد خمسة اشهر وايام

وتولى بعدهُ اخوهُ ابرهيم سنة ١٢٦ للهجرة (٧٤٣م) وخُلع بعد اربعة شهور

وتولى بعدهُ مروان بن محمد بن مروان آخر الخلفاء الامويين في سنة ١٢٧ للهجرة (سنة ٧٤٤ م) وقتل في قرية بوصير بعد خلافتهِ بخمس سنوات وانتقل الامر الى بني العباس

وكان اول خليفة من بني العباس المشار اليهم عبد الله السفاح تولى الخلافة في سنة ١٣٢ للهجرة (سنة ٧٤٩ م) وشرع في ابادة الامويين على ما تقدَّم بيانهُ في الفصل الاول من المقالة الخامسة . يحكى بانهُ بعد ان قتل مروان بن محمد بن مروان المذكور وجلس على تخت الخلافة عمل وليمةً لاجل الصلح بينهُ وبين الامويين المذكورين فاغتروا بما ظهر لهم من حلمهِ واجتمع منهم في هذه الوليمة ثمانون اميرًا فقتلوا فيها عن آخرهم ولم ينجُ الاَّ عبد الرحمن الداخل وابوهُ وهو من نسل مروان الاول فهرب الى مصر ثم الى برقة ثم الى بلدةٍ يقال لها طاهر سوف يأتي الكلام عليها واما السفاح المشار اليهِ فانهُ أمر ببساطٍ فُرِش لهُ على لاشات المقتولين واكل طعامهُ فوقهُ وقال انهُ لم ياكل مدَّة عمرهِ طعامًا لذَّ لهُ مثل تلك الاكلة ثم توفي بعد ذلك باربع سنوات

وتولى بعدهُ اخوهُ ابو جعفر عبد الله المنصور سنة ١٣٧ للهجرة (سنة ٧٥٤ م) ونقل كرسي الخلافة الى بغداد مدينتهِ التي بناها في ايام خلافتهِ وكان عبد الرحمن الداخل الاموي المارّ ذكرهُ اتصل بقرية طاهر على ما تقدَّم وهي من بلاد المغرب ولكون امهِ كانت من قبيلةٍ هناك يقال لها الربينية رحبت بهِ تلك القبيلة واجتمع لهُ جموع كثيرة حارب بها الامير يوسف عامل بني العباس على الاندلس واستقلَّ بالتملك هناك في سنة ١٣٨ للهجرة (سنة ٧٥٥م) واقام لهُ ولخلفائهِ دولة مستقلة دامت الى ان انقرضت بما جرى بينها وبين البربر من الحروب في سنة ٤١٧

للهجرة (سنة ١٠٣٦ م) في زمن خلافة القادر بالله العباسي حيث مزّقتها ملوك الطوائف واستولى كلٌّ منهم على قطعةٍ منها فاندرس بذلك جزءٌ كبير من معالم العلوم والفنون التي كانت احدثتها هذه الدولة فيها ولا زالت تتلاشى شيئًا فشيئًا الى ان انتهى امرها بطرد العرب من بلاد الاندلس باسرها واستيلاء اهاليها الاصليين عليها على يد الملك فرديننذ وزوجتهِ ايزابلا في سنة ٨٩٨ للهجرة (سنة ١٤٩٣ م)

وكان ظهور هذه الخلافة الجديدة مبدأ ضعف شوكة العرب حيث توزعت قوّتهم بين خلافتين متباغضتين متعاديتين كلٌّ منها ترغب في الانتقام من الاخرى لكنهما لم يستطيعا ان يفعلا مع بعضهما شيئًا اكثر من ان تمنع دولة الخلفاء العباسيين في الشرق عن دولة الامويين بالاندلس المدد بالرجال كما ان دولة الامويين ايضًا منعت عن دولة العباسيين الاعانة في الاموال

جدول اسماء الملوك والخلفاء من بني أُمية بالاندلس وتاريخ جلوسهم

للهجرة	للميلاد	اسماء الملوك
١٣٨	٧٥٥	عبد الرحمن الداخل احترم بيعة المشرق فلم يلقب بالخليفة
١٧٢	٧٨٨	ابنهُ هشام
١٨٠	٧٩٦	الحكم بن هشام
٢٠٦	٨٢١	ابنهُ عبد الرحمن الاوسط
٢٣٨	٨٥٢	محمد بن عبد الرحمن المذكور
٢٧٣	٨٨٦	ابنهُ المنذر
٢٧٥	٨٨٧	عبيد الله اخو المنذر المذكور
٣٠٠	٩١٢	حفيدهُ عبد الرحمن تسمّى امير المؤمنين وتلقب بالناصر لدين الله

للهجرة	للميلاد	
٣٥٠	٩٦١	الحكم بن الناصر وتلقب بالمستنصر
٣٦٦	٩٧٦	ابنهُ هشام المؤيد واقام هذه الخليفة مدّة خلافتهِ كلها تحت تغلب وزيرهِ المنصور بن ابي عامر الذي استقلّ اخيرًا بالملك وتلقّب بالحاجب المنصور وتوفي سنة ٣٧٤ للهجرة (سنة ٩٨٤ م) وقام من بعدهِ اخوهُ المظفر ثم ابنهُ عبد الرحمن المنصور ايضًا وسلك عبد الرحمن هذا وعمهُ المظفر المذكور في الحجر على الخليفة المؤيد المشار اليهِ واخيرًا اكرههُ على ان يوليهُ عهدهُ فكتب لهُ بذلك صكًّا واعطاهُ صفقة يمينهِ ببيعة تامة فاغضب ذلك عصابةً من الامويين والقريشيين وخلعوا المؤيد المذكور وبايعوا محمدًا بن هشام بن عبد الجبار ابن امير المؤمنين الناصر ولقبوهُ بالمهدي في سنة ٣٩٩ للهجرة (سنة ١٠٠٨ م) ومن ثمّ ثارت الحروب بين الفريقين الى ان تمزقت المملكة وانتهت باستيلاء الافرنج عليها على ما تقدَّم . ولنرجع الى ما كنا بصددهِ فنقول

وبعد ان توفي ابو جعفر المنصور العباسي المشار اليهِ بقرب مكة بعد اثنين وعشرين سنة من خلافتهِ تولى الخلافة ابنهُ المهدي في سنة ١٥٨ للهجرة (سنة ٧٧٤ م) وتوفي بعد عشر سنوات

فقام بعدهُ ابنهُ موسى الهادي في سنة ١٦٩ للهجرة (سنة ٧٨٥ م) وتوفي بعد سنة واحدة وثلاثة شهور

وتولى بعدهُ اخوهُ هرون الرشيد سنة ١٧٠ للهجرة (سنة ٧٨٦ م) وهو الذي اباد البرامكة الذين مرّ ذكرهم في جملة محلات من هذا الكتاب ثم توفي بعد ثلاثة وعشرين سنة بقرية طوس

وتولّى الخلافة بعدهُ ابنهُ محمد الامين سنة ١٩٣ للهجرة (سنة ٨٠٨ م) وكان

يقول بخلق القرآن وتبعهُ في ذلك اخوتهُ الذين تولوا الخلافة بعدهُ فكانت بدعة جلبت وبالاً عظيماً بسفك دماء كثيرة في الاسلام وقتل بعد اربعة سنين وشهرين

فقام بعدهُ اخوهُ المأمون عبد الله بن الرشيد سنة ١٩٨ للهجرة (سنة ٨١٣م) وتوفي في بلاد الروم بعد عشرين سنة من خلافتهِ

فتولى بعدهُ اخوهُ المعتصم بالله محمد سنة ٢١٨ للهجرة (سنة ٨٣٣م) وتوفي بعد تسع سنين

فقام بالامر بعدهُ ابنهُ هرون الواثق في سنة ٢٢٧ للهجرة (سنة ٨٤٢م) وتوفي بعد ذلك بست سنوات

فجلس عوضهُ اخوهُ جعفر المتوكل على الله سنة ٢٣٢ للهجرة (سنة ٨٤٧م) واراد ان ينقل كرسي الخلافة من بغداد الى الشام فلم يقدر واخيرًا حجر عليهِ ابنهُ ثم قتل بمكيدةٍ وصلت اليهِ منهُ بعد اربعة عشر سنة

وتولَّى عوضهُ ابنهُ محمد المستنصر بالله سنة ٢٤٧ للهجرة (سنة ٨٦١م) وتوفي بعد ثلاثة شهور

فقام بالخلافة بعدهُ المستعين بالله احمد بن محمد بن المعتصم توفي سنة ٢٤٨ للهجرة (سنة ٨٦٢م) وفي ايامهِ تقوَّت شوكة الاتراك في بغداد واتسع بينهم وبين العامة مجال الخصام والمقاتلات فخلع نفسهُ ثم قتل بعد اربع سنوات من خلافتهِ

فجلس عوضهُ المعتز بالله محمد بن المتوكل في سنة ٢٥٢ للهجرة (٨٦٦م) ثم خلع نفسهُ بعد ان كابد اهوالاً عظيمة بمدة خلافتهِ التي لم يبرح بها مسجونًا وكانت لا تزيد عن اربع سنين ونصف وفي ايامهِ استقل بملك مصر احمد بن طولون وهو اول سلاطينها في الاسلام وكانت قبلهُ تاتي اليها العمَّال من طرف الخلفاء الراشدين وبني امية والعباسيين الى ان تغلب عليها وعلى غيرها هذا السلطان لكنهُ لم يدَّعِ الخلافة بل كأنهُ نائبٌ عن هذا الخليفة وذلك في سنة ٢٥٤ للهجرة (سنة ٨٦٨م) واقام لهُ ولخلفائهِ فيها مملكة استقلوا بها الى عصر خلافة المكتفي بالله العباسي نحو خمس وثلاثين سنة . وهذا جدول اسمائهم وتاريخ جلوسهم -

للهجرة	للميلاد	اسماء السلاطين
٢٥٤	٨٦٨	احمد بن طولون المذكور
٢٧٠	٨٨٣	ابنهُ ابو الجيش خمارويه
٢٨٢	٨٩٥	ابو موسى هرون بن خمارويه واقام هذا السلطان في السلطنة تسع سنين ثم قتلهُ عمّاهُ ولدا احمد بن طولون وتولى عوضهُ ابو المغازي شيبان عشرة ايام وقُتل وبهِ مضت دولتهم وأُعيدت مصر لتصرُّف بني العباس الى زمن خلافة الراضي الآتي ذكرهُ

ولئلاَّ يتوهم القارئ بان مثل هذه السلطنة طالما هي عبارة عن نيابة للخلافة فلا تضرُّها بشيء يقتضي توضيح كيفية هذا الانقياد الصوري للخلفاء المشار اليهم وهو ان بني العباس كانوا هاشميّي المذهب من فرقة تُعرَف بالكيسانية لكنهم اخيرًا تركوا ذلك نظرًا لضعف شوكة الذين يدعون تخصيص الامامة والخلافة وحصرها في النسب القرشي بسبب كثرة تنوّع الآراء والاهواء وتفرّق الاحزاب ومن ثمّ تمزّقت عصابة هذه العائلة الملكية وتشتت انصارها فلم يبقَ لها شوكة اصلاً فلما اشعروا بالعجز عند ذلك عن محافظة ما بقي بايديهم من البلاد فضلاً عن عدم مقدرتهم على توسيع دائرة السلطنة الاسلامية اباحوا السلطة المطلقة والاستقلال التام الى الغزاة من روَساء العشائر كالاكراد والاتراك وغيرها في ما يفتحونهُ من البلاد الاجنبية ولقبوهم بالسلاطين بحيث قنعوا منهم بمجرد الاعتراف لهم بالسيادة والدعاء لهم بالخطبة يوم الجمعة على المنابر في المساجد ووضع اسمائهم على سكة المعاملة المتداولة بين الناس فكان ذلك في بداءة الامر مفيدًا في الفتوحات الاسلامية بما انها لم تعد تكفُّ عن الامتداد في زمن ضعف هولاء الخلفاء المشار اليهم لان مثل هولاء الغزاة المتوطنين في حدود مملكتهم صاروا يغزون من يجاورهم ويفتحون بلادًا يستولون عليها لذواتهم ولذراريهم فكانوا يبذلون على ذلك ارواحهم بغيرة وحمية قلَّ ما امكن معها انغلابهم . ومن

ثمّ سرَى هذا الاستقلال بعينهِ اخيرًا الى نفس عمّال ملكتهم ايضًا بداعي حفظ البلاد من تسلّط الاغيار كالافرنج الصليبيين من خارج والرقباء من داخل واوجب ذلك فسخ كثير من ايالاتهم التي رغبت حكامها في الاستقلال والتمتع بالسلطنة وليس هنا ما يوجب تفاصيل ذلك كما في كتب التاريخ المتكفلة بايضاحهِ بل نهاية ما ينبغي ان يقال هو ان هذا الامر امتدَّ حتى استقلت سلاطين خوارزم واتابكة الموصل واتابكة فارس (والاتابك معناهُ امير الاتراك) والايوبية والاتراك بمصر والايوبية ايضًا في حلب وكردستان وبعلبك واليمن وحماه وحمص والجنكيزية في المغول والسلجوقية في قونية وبنو ارتق في ديار بكر وبنو رسول وشرفاء مكة وملوك خراسان الخ . وخلاصة الامر انهُ ما بقي للخلفاء العباسيين المشار اليهم نفوذٌ في تلك الاراضي الواسعة التي كانت في قبضة تصرفهم بل ولا في نفس بغداد واعمالها حيث لم يعد ممكنًا لهم ان يحموها بالذبّ عنها كما يتضح ذلك مما ياتي . ولنرجع الى علاقة ما كنا فيهِ

ثم بعد المعتز تولّى المهتدي بالله محمد بن الواثق في سنة ٢٥٥ للهجرة (سنة ٨٦٩ م) ولم يستتم سنة واحدة حتى قام عليهِ الاتراك وخلعوهُ وبعد ذلك قتلوهُ

فتولى الخلافة بعدهُ المعتمد بالله احمد بن المتوكل في سنة ٢٥٦ للهجرة (سنة ٨٧٠ م) واقام فيها عشرين سنة وتوفي وفي ايامهِ كان ابتداء ظهور القرامطة الذين هددوا بني العباس في جميع بلاد المشرق التي كانت تحت سلطتهم ومن ذلك الوقت اخذت دولتهم في الوهن والانحطاط

ثم تولى الخلافة المعتضد بالله احمد بن الموفق في سنة ٢٧٩ للهجرة (سنة ٨٩٢ م) واقام ست سنين وشهرين وتوفي

فتولى الخلافة بعدهُ اخوهُ المقتدر بالله جعفر سنة ٢٩٥ للهجرة (سنة ٩٠٨م) واقام بها اربعة وعشرين سنة وبعض شهور وقُتل في بغداد وفي ايامهِ تقوّى امر القرامطة وفرضوا على بني العباس اموالاً يحملونها اليهم في كل سنة ولا زالوا ينهبون ويسفكون الدماء في بلاد هذه الدولة واستطالوا على الحجاج ونهبوهم

ونهبوا ايضًا الحجر الاسود وباب البيت وفي ذلك الوقت ظهر ابو جعفر بن علي الشلمغاني المعروف بابن ابي الغراقر وكان من الباطنية ويدّعي الربوبية فاتبعهُ على ذلك الحسين بن القسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير الخليفة المشار اليهِ وجماعة غيرهُ ولما ان طلبهم هربوا فاستوزر عوضهُ ابن مقلة صاحب الخط المشهور

وبينما كان الحال على هذا المنوال قام ابو عبد الله الشيعي واجرى الحروب في القيروان من بلاد افريقية واقام فيها الخلافة العلوية ومن ذلك الوقت اخذ العباسيون في احتمال اثقالها ومكابدة اهوالها الى ان انقرضت بدولة الاكراد الايوبية تحت الراية العباسية في مصر. ولنذكر هنا اسماء الخلفاء العلويين الفاطميين العبيديين المذكورين

الهجرة	للميلاد	اسماء الخلفاء منهم بافريقية
٢٩٧	٩٠٩	عبد الله المهدي
٣٢٢	٩٣٣	ابنهُ ابو القاسم محمد القائم بامر الله
٣٣٤	٩٤٥	اسماعيل المنصور بن القائم

الهجرة	للميلاد	اسماء الخلفاء منهم بمصر
٣٤١	٩٥٣	ابنهُ المعد المعزّ لدين الله فاتح مصر من بني العباس
٣٦٥	٩٧٥	العزيز بالله ابو النصر نزار بن المعزّ
٣٨٦	٩٩٦	ابنهُ الحاكم بامرهِ ابو علي منصور صاحب ديانة الدروز
٤١١	١٠٢٠	الظاهر لاعزاز دين الله ابو الحسن علي بن الحاكم فاتح الشام
٤٢٧	١٠٣٥	ابنهُ المستنصر بالله ابو تميم خُطِبَ لهُ ببغداد
٤٨٧	١٠٩٤	المستعلي بالله ابو القاسم احمد بن المستنصر
٤٩٥	١١٠١	ابنهُ الآمر باحكام الله ابو علي المنصور

للهجرة	للميلاد	بقية اسماء الخلفاء بمصر
٥٢٤	١١٢٩	الحافظ لدين الله عبد المجيد بن محمد بن المستنصر
٥٤٤	١١٤٩	الظافر باعداء الله اسماعيل بن الحافظ
٥٤٩	١١٥٤	ابنهُ الفائز بنصر الله عيسى
٥٥٥	١١٦٠	العاضد لدين الله عبد الله بن يوسف بن الحافظ

ولما توفي العاضد المذكور ورث ارضهُ ورتبتهُ وزيرهُ صلاح الدين يوسف ابن ايوب الكردي وتلقَّب بالملك الناصر وكان سنيًّا فجعل مملكتهُ تحت العلم العباسي نظير غيرهِ من السلاطين المعترفين لبني العباس بالسيادة عليهم ولا زال يتوارثها خلفاؤهُ الى ان قامت فيهم دولة مماليكهم الاتراك . وهذا جدول اسماء السلاطين الاكراد المذكورين بمصر

الهجرة	للميلاد	اسماء السلاطين
٥٦٧	١١٧١	الناصر صلاح الدين يوسف المذكور تولى الشام واضافها الى مصر وكان يعتمد على رجل يقال لهُ بهاء الدين قراقوش تضرب العامة المثل بسوء احكامهِ غلطًا اذ انهُ بعكس ما يزعمونهُ فيهِ
٥٨٩	١١٩٣	ابنهُ العزيز عثمان
٥٩٥	١١٩٨	المنصور محمد بن عثمان
٥٩٦	١١٩٩	العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب
٦١٥	١٢١٨	ابنهُ الكامل محمد
٦٢٥	١٢٢٧	العادل ابو بكر بن الكامل
٦٢٧	١٢٢٩	اخوهُ الصالح ايوب نجم الدين
٦٤٧	١٢٤٩	الملك المعظم تورانشاه اقام شهرين وقُتل وتولَّت عوضهُ شجرة الدرّ سرية الملك الصالح ثلاثة شهور وخُلعت .

للهجرة	للميلاد	بقية اسماء السلاطين الايوبية بمصر
٦٤٨	١٢٥٠	الملك الاشرف موسى بن يوسف وبعد تملكهِ بخمس سنين عُزِل وقامت بعدهُ الدولة التركية مماليك الاكراد المذكورين . وهاك اسماء ملوكهم

اسماء الملوك الاتراك

٦٥٢	١٢٥٤	المعزّ عزّ الدين ايبك التركاني الصالحي
٦٥٥	١٢٥٧	ابنهُ المنصور علي
٦٥٧	١٢٥٨	المظفر قطز المعزي

الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس العلائي البدقداري الذي في ايامهِ كانت نكبة بغداد الاخيرة في زمن خلافة المستعصم بالله بن المستنصر العباسي كما يأتي الكلام على ذلك ومن ثمَّ لم يبقَ لنا حاجة لاستيفاء اسماء باقي ملوك مصر من هذه العشيرة ولا غيرها لانقراض دولة العرب التي هي لوضع هذا الكتاب الداعي والسبب بل نرجع الى تتمة الكلام على الخلفاء العباسيين فنقول

وبعد المقتدر بالله العباسي تولى الخلافة اخوهُ القاهر بالله محمد سنة ٣٢٠ للهجرة (سنة ٩٣٢ م) واقام نحو سنة ونصف ثم خُلع وسُمل

وقام بالخلافة بعدهُ ابنهُ الراضي بالله محمد سنة ٣٢٢ للهجرة (سنة ٩٣٣م) واستمرّ ست سنوات

وتولّى الخلافة بعدهُ اخوهُ المتقي بالله ابرهيم سنة ٣٢٩ للهجرة (سنة ٩٤٠م) وكان لم يبقَ وقتئذٍ للخلفاء العباسيين غير بغداد واعمالها ومع ذلك وقع فيها حروبٌ من الاكابر في ايامهِ على امرة الجيش فلم يستمر بالخلافة غير ثلاث سنوات ثم خُلع وسُمل ايضًا

وجلس بعدهُ المستكفي بالله عبد الله بن المكتفي بسنة ٣٣٣ للهجرة (سنة ٩٤٤ م) واقام سنة واحدة وثلاثة شهور ثم عزلهُ معزّ الدولة بن بويه الديلمي

الشيعي وسمل عينيهِ وبقي محبوسًا الى ان توفي وكان معزّ الدولة المذكور جاء الى بغداد سنة ٣٣٤ للهجرة (سنة ٩٤٤ م) وامتلكها ولقب نفسهُ بسلطان العراق واستولى على هذه القطعة الصغيرة التي كانت باقية للخلفاء من تلك المالك العديدة وصارت اعمال العراق وولاية اراضيهِ بيد عمالهِ وهو ايضًا يولي وزراء الخليفة مع انهُ لم يكن لهم غير النظر في امور اقطاع سيدهم ومقنات داره وكانوا لا يتصرفون في شيء منها الَّا بمراسيمهِ فلم يترك للخليفة شيئًا غير السرير والمنبر والسكة والختم على الرسائل والصكوك والجلوس للوفد واجلال التحية والخطاب فقط واما القائم بالاحكام من دولة بني بويه المذكورين والسلجوقية بعدهم فينفرد بلقب السلطنة ولا يشاركهُ فيهِ غيرهُ

ودامت سلطنة بني بويه المذكورين واستبدادهم على الخلفاء العباسيين من زمن هذا الخليفة الى عصر القائم بامر الله الآتي ذكرهُ ثم انقرضت بقيام سلطنة السلجوقية المذكورين في سنة ٤٤٧ للهجرة (سنة ١٠٥٥ م) فلم تخلص الخلفاء من ربقة الاسر اصلًا حتى جاء هلاكو ملك التتار وقتل المستعصم بالله ونكب بغداد واخلى من العباسيين تلك الديار. وهاك جدول اسماء سلاطين بني بويه المستولين على بغداد واعمالها

للهجرة	للميلاد	اسماء السلاطين
٣٣٤	٩٤٥	معزّ الدولة بن بويه اوّل سلاطين بغداد
٣٥٥	٩٦٥	ابنهُ بختيار (اي الموفق)
٣٦٧	٩٧٧	عضد الدولة بن عم بختيار خُطب لهُ على المنابر في بغداد وضرب على بابهِ ثلاث نوبات وكان محبًّا للعلماء وصنف الكتب باسمهِ كالايضاح في النحو والحجة في القراءات والملكي في الطب والتاجي في التواريخ وعمل البيمارستانات وبنى القناطر وفي ايامهِ حدثت المكوس على المبيعات ومنع من الاحتراف ببعضها وجعلت متجرًا للدولة

للهجرة	للميلاد	بقية اسماء سلاطين بني بويه
٣٧٣	٩٨٣	صمصام الدولة بن عضد الدولة
٣٧٦	٩٨٦	اخوهُ مشرّف الدولة ابو الفوارس
٣٧٩	٩٨٩	اخوهُ بهاء الدولة
٤٠٣	١٠١٣	سلطان الدولة ابو شجاع بن بهاء الدولة
٤١٣	١٠٢٣	اخوهُ مشرّف الدولة ابو علي
٤١٨	١٠٢٧	اخوهُ جلال الدولة وفي ايامهِ انحل امر الخلافة والسلطنة في بغداد واغار الاكراد والجند على بستان الخليفة ونهبوا اثمارهُ وانتشر العرب في نواحي بغداد وضواحيها وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر
٤٣٥	١٠٤٣	ابو كاليجار ابن اخي جلال الدولة ولقبهُ الخليفة بمحيي الدولة
٤٤٠	١٠٤٨	ابنهُ ابو النصر الملقب بالرحيم وفي ايامهِ تجدَّدت الفتنة ببغداد بين اهل السنَّة والشيعة وسفكت بينهم دماء كثيرة واوقعوا الحريق في بعض المحلات منها وفي مقابر بعضهم فقدم رجل يقال لهُ طغرلبك السلجوقي وكان غازيًا من الترك في بلاد الروم ودخل بغداد في سنة ٤٤٧ للهجرة (سنة ١٠٥٥ م) ووقع الحرب بين العامة وبين عساكرهِ فنسب ذلك الى الملك الرحيم وامسكهُ واعتقلهُ في محبسهِ واستصفى اموال الترك في بغداد واستولى على السلطنة فكانت لهُ الدولة التي ورثها بنوهُ وقومهُ السلجوقية وجعلوا دار سلطنتهم مدينة قونية اما دار الخلافة فكانوا يجعلون فيها نائبًا يسمونهُ شحنة بغداد وكان من يتولى الخلافة وقتئذٍ من اولئك الامراء المعظمين او هم السادات المستعبدين عند ما يتمثل بحضرتهِ السلطان من بني بويه او السلجوقية المذكورين يقبل يدهُ

ويلتزم في خطابهِ الادب ويصرف جهدهُ في تعظيمهِ ثم متى شاء عزلهُ سمل عينيهِ او قتلهُ

ومنهم المطيع لله الفضل بن المقتدر تولى الخلافة سنة ٣٤٢ للهجرة (سنة ٩٤٦ م) واقام فيها نحو ثلاثين سنة وخُلع وفي ايامهِ اعاد القرامطة الحجر الاسود الى مكة

وتولى الخلافة الطائع لله عبد الكريم بن المطيع المشار اليهِ في سنة ٣٦٣ للهجرة (سنة ٩٧٤م) واقام بها سبعة عشر سنة وبضعة شهور ثم خلعهُ بهاء الدولة الديلمي ليستصفي اموالهُ ويصرفها على العساكر

وولي مكانهُ عمهُ القادر بالله ابا العباس احمد بن المقتدر في سنة ٣٨١ للهجرة (سنة ٩٩١ م) فاستمر احدى واربعين سنة وتوفي

وقام مكانهُ ابنهُ القائم بامر الله في سنة ٤٢٢ للهجرة (سنة ١٠٣١ م) واقام في الخلافة اربعًا واربعين سنة وتوفي وفي ايامهِ زالت دولة بني بويه من بغداد وقامت فيها السلطنة السلجوقية كما سبقت الاشارة في ما مرَّ والسلجوقية ينتسبون الى سلجوق وهو ابن وزير كان لاحد خانات التتار وفي بعض المؤلفات ان سلجوق المذكور اتى سنة ٤٨٣ للهجرة (سنة ١٠٩٠ م) بجيش عظيم وتملك في سمرقند وبخارا وهناك دخل في دين الاسلام مع قومهِ ثم امتدَّ ملك دولتهِ من حدود الصين شرقًا الى اناطولي غربًا واتصل الى سوريا ومصر ايضًا وبها انقرضت الدولة الغزنوية

وعند استيلاء آل سلجوق المذكورين على سلطنة بغداد كان ابتدأ يحط قدر العلوم والفنون بين العرب. قال العلامة الفاضل خير الله افندي المؤرخ العثماني ما ترجمتهُ ومن ابتداء القرن الخامس للهجرة (يقابل القرن الحادي عشر الميلاد) بطل اعتبار الناس للعلوم والفنون ولم تبقَ للآداب والمعارف حرمة اصلاً وكانَّ ذلك قد تلاشى من افكار العرب بالكلية واعترى العلماء منهم الفتور والكسل نظرًا لاضطراب الاحوال في تلك الاوقات لان التتار كانوا يتقاطرون

للهجوم على بلاد الخلفاء العباسيين من كل جهاتهـا وتلاشت سلطة العرب بما وقع من الهرج والفشل بينهم بعد ان اختلّ نظام الخلافتين في المشرق والمغرب وخرج من المشائخ الصوفية رجلٌ يقال له ابن القسيّ في بلاد الاندلس ولبس برد السلطنة عوضًا عن عباءة المشيخة وكان يدعو الناس الى اقامة الحق فحكم مدّةً وتسمت اصحابهُ بالمرابطين وكذلك سهل بن سلامة الانصاري علّق مصحفًا في صدرهِ وكان يطوف شوارع بغداد ويدعو الناس الى العمل بالكتاب والسنّة وظهر ايضًا في مدينة سوس من اعمال افريقية الشيخ التوريزي من المتصوفة وخرج من قبيلة عمارة رجل يقال له العباس ادّعى انهُ المهدي

ثم بعد القائم بامر الله تولى الخلافة المقتدي بالله عبد الله بن محمد بن القائم المشار اليهِ سنة ٤٦٧ للهجرة (سنة ١٠٧٥ م) واقام بها تسع عشرة سنة وتوفي وفي ايامهِ ظهرت الفرقة الباطنية المشهورة بسفك الدماء

ثم قام مكانهُ ابنهُ المستظهر بالله احمد سنة ٤٨٧ للهجرة (سنة ١٠٩٤ م) واستمرَّ ست وعشرين سنة وتوفي وفي ايامهِ استولى الافرنج الصليبيون على اراضي الشام وافتتحوا انطاكية واقاموا ملكًا من امرائهم على بيت المقدس (اورشليم)

ثم تولى عوضًا عنهُ ابنهُ المسترشد بالله الفضل سنة ٥١٢ للهجرة (سنة ١١١٨ م واقام سبع عشرة سنة وقتلهُ السلطان مسعود السلجوقي بظاهر مراغة

ونصب عوضًا عنهُ ابنهُ منصور الراشد في سنة ٥٢٩ للهجرة (سنة ١١٣٥ م) فاقام سنة وقُتل ايضًا

وتولى عوضًا عنهُ المقتفي امر الله محمد بن المستظهر سنة ٥٣٠ للهجرة (سنة ١١٣٦ م) واستمرّ اربع وعشرين سنة وتوفي

ونُصِبَ عوضًا عنهُ ابنهُ المستنجد بالله يوسف سنة ٥٥٥ للهجرة (سنة ١١٦٠ م) واقام اثني عشرة سنة

وتولى عوضًا عنهُ ابنهُ المستضي بنور الله حسن سنة ٥٦٦ للهجرة (سنة ١١٧٠ م) واقام تسع سنين وسبعة شهور

وجلس عوضاً عنهُ ابنهُ الناصر لدين الله احمد في سنة ٥٧٥ للهجرة (سنة ١١٨٠ م) واقام ست واربعين سنة وتوفي وفي ايامهِ ظهرت دولة الاكراد الايوبيين بمصر وقامت الحروب بين السلطان صلاح الدين والافرنج واخذ منهم اورشليم لكن دُهي العباسيون بمصيبة ظهور التتار الذين نكبوهم النكبة الاخيرة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ الظاهر بالله محمد في سنة ٦٢٢ للهجرة (سنة ١٢٢٥ م) ولم يستتم عاماً وتوفي

واقام بالخلافة عوضاً عنهُ ابنهُ المنصور المستنصر بالله في سنة ٦٢٣ للهجرة (سنة ١٢٢٣ م) واقام سبع عشرة سنة وتوفي وفي ايامهِ انتشر التتار وتعاظم امرهم وكثرت غاراتهم على ضواحي بغداد

وبعدهُ تولى ابنهُ المستعصم بالله عبد الله سنة ٦٤٠ للهجرة (سنة ١٢٤٢ م) واقام في الخلافة خمس عشرة سنة. وكان هذا الخليفة ضعيف الرأي عديم التدبير قطع غالب اجنادهِ واستوزر مؤيد الدين العلقي وكان اسماعيلياً وفي ذلك يقول الشيخ شمس الدين بن الكوفي الواعظ

يا عصبة الاسلام نوحي والطمي حزناً على ما حلَّ بالمستعصمِ
ذئب الوزارة كان قبل زمانهِ لابن الفرات فصار لابن العلقمي

فانهُ يقال بان هذا الوزير اغرى هلاكو ملك التتار الى ان قدم بغداد وافتتحها ونهب اموالها وسفك دماء سكانها وقتل هذا الخليفة في سنة ٦٥٦ للهجرة (سنة ١٢٥٨ م) فلم تقم بعدها قائمة لبني العباس

وكان من جملة مظالم هذا الملك المجوسي الجائر انهُ بعد ان خرب ما كان بمدينة بغداد من المدارس القى في نهر دجلة كل ما وجد فيها من الكتب النفائس

ثم ان الذين تبقوا من هذه العشيرة الملكية التجأوا وقتئذٍ الى مصر فقبلهم الاتراك مماليك الاكراد الايوبية الذين كانوا خلفوا ساداتهم قبل مدة في التملك على مصر كما سبقت الاشارة الى ذلك ولا زال يتسمى فيها منهم خلفاء

واحدًا بعد واحد الى ان تسمّى سبع عشرة خليفةً بظرف مئتين وواحد وتسعين سنة كابدوا من سلاطينها انواع التقديم والتأخير والتعظيم والتحقير الى ان كان آخرهم المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب الذي بويع له بالقسطنطينية وكان ذهب اليها مع السلطان سليم العثماني فاتح مصر ثم رجع الى مصر واقام فيها الى ان توفي في سنة ٩٥٠ للهجرة (سنة ١٥٤٣ م) وبهِ انقطعت من الدنيا الخلافة العباسية التي لم تكن في تلك المدة الاّ صورية

وكان بعد ان انكسفت من بغداد شمس دولة بني العباس المشار اليهم واغربت بحلولها في مصر بعيدة عن تلك الاقطار تساقطت ايضًا بالتتابع نجوم المعارف والعلوم التي كانت لم تزل محجوبةً في آخر مدتهم تحت ظلام غيوم تلك الزعازع من اوج الوجود الى حضيض العدم والبوار وخلت ارض العراق من الرغائب والنفائس وتلاشى ما كان اسّسهُ فيها اولئك الخلفاء العظام من المكاتب والمدارس وبالجملة كفّت بعد ذلك رغبة ذوي الاجتهاد وارباب المعارف اذ لم يبقَ مَن يبذل عليهم كالخلفاء المذكورين الاموال واللطائف ويتحفهم كما كانوا يتحفونهم بكل تليدٍ وطارف فلم يوجد بعد ذلك في كل بلاد الشرق لها راغب كما كان وقع في اسبانيا وافريقية ايضًا قبل ذلك بمدة حيث عدم هناك المطلوب والطالب وتركت العرب كافةً تلك العلوم والفنون بعد ان كان دأْبهم البحث عن استخراج درّها المصون وجوهرها المكنون ومن ثمّ تفرّق شملها ما بين فاقدٍ وضائع وتقاصرت بخلوها العقول ايضًا عن السباق في حلبة الاعمال والصنائع بل قايض عليها الاكثرون من الشبان بمطالعة كتب الخرافات كحكاية السندباد البحري والمحتالة دليلة او قتل الاوقات عمدًا بسماع حماس قصة عنترة ومجون الف ليلة وليلة على انهم لو حافظوا على ما كان لهم من مجد المعارف كمحافظتهم على النفور ممن سواهم وان كان من اهل النُهى لكان ختام كلامنا هنا بان ذلك المجد هو في الحقيقة بهم ابتدأ واليهم انتهى